

الْكِتَابُ الْأَخِرُ

مَا بَيْنَ الْبَعْثَ إِلَى دَخْولِ الْجَنَّةِ أَوِ التَّارِ

تألیف

د. غالب بن علي عواجي

الجزء الأول

المكتبة العصرية الذهبية

جستة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

٢٠٠٠ هـ - ١٤٥١ م.

المكتبة العصرية الذهبية

لطباعة ونشر وتسويق

جدة: ٦٥٨ - ٦٣٣٩٤٣٩

الرياض: ٤٢٦٥٠٨ - ٤٤٨٤٧٧

الدمام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، جامع الناس ليوم لا ريب فيه، والصلة
والسلام على نبينا محمد وآلته وصحبه أجمعين.

وبعد :

فإن ما لا جدال فيه أن أشرف العلوم، وأولاها بالعناية والاهتمام، هو ما يتعلق منها بأمر العقيدة، وكيف لا يكون ذلك، وقد كان من عظم أمرها أن الله عز وجل هو الذي تولى بيانها؛ فأنزل الكتب وأرسل الرسل، ثم بين أن القصد من خلق الجن والإنس وإيجادهم، إنما هو لتوحيده وعبادته جل وعلا.

فقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾^(٢) [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

وهذا العلم هو الفقه الأكبر كما سماه الإمام أبو حنيفة رحمه الله^(٣). ولست في حاجة إلى التطويل بذكر مزايا هذا الطريق، وبيان عظم شأنه، فلقد صار أمراً معلوماً في أذهان العقلاة الذين لم تدرس فطرهم.

وإذا كان ذلك واضحاً وشرفه معلوماً، فإن البحث في جزء من أجزاء

(١) معنى : ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال ابن عباس : أي : إلا يقرروا بالعبودية طوعاً وكرهاً، وهو ما رجحه ابن جرير في تفسيره ٢٧/١٢.

وقال ابن كثير في معناها : «أي إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي، لا احتياجي إليهم». تفسير القرآن العظيم ٤/٢٣٨.

(٢) له كثيرون صغير بهذا الاسم ينسب إليه.

هذا الطريق؛ ألا وهو بحث اليوم الآخر وما يقع فيه للخلق من الوقوف لرب العالمين، من أولهم إلى آخرهم في صعيد واحد، لهو من الأهمية بالمكان الأعلى.

وخصوصاً ونحن في عصر اتجه تفكير الناس فيه إلى المادة؛ بل وأصبح أكثر ماترى وتشاهد من حولك لا يذكر بال المصير المحتوم والحياة الباقية.
إن بحث اليوم الآخر مطلب جليل لا يندرم صاحبه، مهما بذل فيه من جهد ومهما تكبد بسيبه من عناء.

وقد كان من نعمة الله عليـــ وله الحمد والشكرـــ أنـــ بحث اليوم الآخرـــ والاطلاع علىـــ ما جاء به كتاب الله تعالىـــ وما جاء فيـــ سنة نبيه ﷺـــ وأقوال العلماء علىـــ اختلاف علومهمـــ، هو البحث الذي كانت تميل إليه نفســـي وتشتاقـــه؛ فلقد شغفت بكلـــ ما يتعلـــق بهذا الموضوعـــ، قبل أن يكون دراسةـــ لمرحلةـــ من مراحل طلب العلمـــ، وقد حقـــ الله الرغبة فاختـــرت أن تكون الفترةـــ الزمنية الواقعة بين البعث ودخول الجنة أو النار موضوعـــاً لهذا البحث الذيـــ أقدمـــهـــ، وأنا أطمعـــ أن يتقبل اللهـــ ما كان فيه من صوابـــ، وأن يغفرـــ ما أخطـــأتـــ فيهـــ أو قصرـــ عنهـــ الفهمـــ ما يلحقـــ بطبيعة النفســـ الإنسانيـــ.

ولقد بذلت في هذا البحث من الجهد، وتحملت التعب ما قد علمه الله عز وجل، والكمال لله تعالى وحده.

ولا أقول ذلك مستكثراً لما بذلتة في خدمته؛ فإنه ما من باحث إلا وير بتلك المشاق والمتاعب؛ خصوصاً حينما تعرّضه بعض القضايا التي لا مدخل للعقل فيها إلا بعد استفراغ أقصى ما لديه للوقوف على دليلها من الكتاب والسنة أو أقوال أهل العلم.

وقد كانت طريقة بحثي في كل مسألة أن أعمد أولاً إلى إثباتها أو نفيها، مستنداً في كل ذلك إلى ما جاء فيها من النصوص التي تثبتها أو تنفيها، وتكون تلك النصوص: إما من كتاب الله تعالى ، أو من سنة نبيه ﷺ ، أو من أقوال أهل العلم فيها، ثم عرض تلك النصوص بطريقة واضحة وتحريف الآيات والأحاديث وعزو الأقوال إلى أهلها ، وترجيع ما قد يوجد فيها مما في ظاهره تعارض ، وكذلك تحقيق ما يحتاج إلى تحقيق من أقوال العلماء ، وقد رأيت أن تظافر الأدلة في المسألة الواحدة مما يزيدها قوة واطمئناناً في نفس السامع ، على حد ما أورده الإمام النووي في كتابه «المنهاج لشرح صحيح مسلم بن الحجاج» ، حين قال: «باب زيادة طمأنينة القلب بتظافر الأدلة»^(١)

على أن تلك الأدلة التي أورتها مهما كثرت فهي مقصودة؛ إذ لا يخلو نص منها عن فائدة قد لا توجد في النص الآخر .

وقد أوردت بعض الآثار للإشارة إليها ثم ذكر درجة الأثر ، وإذا لم أجده نصاً صحيحاً في المسألة ، فإني أورد ما جاء فيها من تلك الآثار ، وما قاله العلماء فيها ، ثم أبدي رأيي حسبما ظهر لي من خلاصة البحث فيها.

وقد جمعت شتات هذا البحث من مصادره المتفرقة؛ سواء منها ما كتب عن اليوم الآخر كتابة مستقلة؛ مثل ما كتبه السيوطي في كتابه المسمى «البدور السافرة»؛ حيث جمع فيه عدة أحاديث ، وكذلك ما كتبه القرطبي رحمه الله في كتابه «التذكرة» ، وما كتبه البهقي - رحمه الله - في البعث والنشور ، وما كتبه أيضاً البرديسي في كتابه «تكميلة شرح الصدور» ، وغير هؤلاء من العلماء ، أو

ما ذكره العلماء من هذا الباب في مؤلفاتهم ضمن موضع عام .
ومن تلك الكتب ما هو مخطوط ، ومنها ما هو مطبوع ، وقد وفق الله
إلى جمعها والاستفادة منها ، وقد بلغ مجموعها ما يقارب مائة وثمانين
كتاباً .

إضافة إلى ما استفادته من آراء بعض العلماء - الذين ذكرهم بخالص
الشكر والتقدير - حيث كان لهم الفضل - بعد الله تعالى - في توجيهي إلى
بحث مسائل في هذا الباب وإبرازها بوضوح لأهمية الحاجة إليها ، أسأل الله
العلی القدير أن يغفر لي ولوالدي ولجميع مشايخي .

وقد سرت في خطة البحث على النحو الآتي :

١- المقدمة: وقد بنت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياري له ومنهج
الدراسة فيه .

٢- أبواب الرسالة: وقد قسمتها إلى خمسة عشر باباً ومائة وثمانية
فصل : فصول :

بنت في الباب الأول منها : ما يتعلّق بالبعث والحضر ووقف الخلق في
الموقف ، وقد قسمته إلى فصول ، مهدأً لكل فصل منها بذلة يسيرة ؛ ذكرت
في الفصل الأول منها : نبذة يسيرة عن وجوب الإيمان بالغيب .

وفي الفصل الثاني : ذكرت أسماء يوم القيمة مستدلاً على كل اسم منها
بدليله .

وفي الفصل الثالث : ذكرت تعريفاً موجزاً عن البعث ؛ اشتمل على
تعريفه في اللغة والاصطلاح ، ونبهت إلى ألفاظ جاءت بمعنى البعث ، ثم

ذكرت مراتب الموقف.

وفي الفصل الرابع: ذكرت أدلة البعث من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية، مع بيان عناية الكتاب والسنة بالإيمان باليوم الآخر، وبعض أسباب تلك العناية ثم دلالة العقل على البعث.

وفي الفصل الخامس: بيان المكرين للبعث وأقسامهم.

وفي الفصل السادس: بيان أسباب إنكار البعث.

وفي الفصل السابع: كيفية البعث كما في الكتاب والسنّة.

وفي الفصل الثامن: أقوال علماء الإسلام في كيفية البعث، والرد على فلاسفة وإبطال حججهم في إنكار البعث.

وفي الفصل التاسع: بيان النفح في الصور - نفحـة البعث - ذكرت فيه تعريف النفح في اللغة، وفي الاصطلاح، وكم هي عدد النفحات، والأدلة على إثبات النفح في الصور من القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة.

والفصل العاشر: جعلته لصفة حشر الخلق وأنهم على صور شتى، ثم ذكرت بعض صور الحشر المختلفة.

وقد اشتمل هذا الفصل كذلك على مسائل وفوائد منها:

١- الحكمة في إعادة الخلق غرلاً.

٢- بعث الموتى في أكفانهم.

٣- هل تحشر بقية المخلوقات غير الجن والإنس؟

٤- بيان دفع ما ظاهره التعارض بين بعض النصوص الدالة على أن

الكفار يسمعون ويفيرون ويتكلمون عند حشرهم - وبين ما ورد من عدم اتصافهم بذلك .

وأما الفوائد فهي :

١- بيان أول من يحشر من الخلق .

٢- بيان أول من يكسى منهم .

أما الفصل الحادي عشر : وهو آخر فصول هذا الباب - فقد جعلته خاصة بال موقف ؛ بینت المراد من الموقف لغة واصطلاحاً ، وصفة حالة الناس وهم وقوف لرب العالمين ، وأدلة ذلك من القرآن الكريم والسنّة المطهرة ، وبيان صفة الأرض التي يقف عليها الخلق ، والخلاف في تلك الأرض ، ثم بيان مدة وقوف الخلق في الموقف ، وذكر أدلة ذلك من القرآن الكريم ، ومن السنّة النبوية .

الباب الثاني : و موضوعه : الشفاعة

وقد قسمته إلى الفصول الآتية :

الفصل الأول : عرفت فيه الشفاعة في اللغة وفي الشرع .

الفصل الثاني : بینت أقسام الشفاعة ، وأنها تنقسم إلى مثبتة ومنفية .

وقد جعلت الفصل الثالث : لبيان أقسام الشفاعات الثابتة ؛ التي ورد بها النص ، وهي ثمانية شفاعات بینتها مفصلة بأدلتها .

وأما الفصل الرابع : فقد كان لبيان ثبوت الشفاعة في بعض الأعمال ، وذكرت منها ثلاثة أمور .

أما الفصل الخامس: فقد جعله لبيان الشفاعات التي لم يرد بها نص صحيح، وذكرت منها تسعه أمور.

وأما الفصل السادس: فهو في بيان الأمور التي تمنع الشفاعة، وذكرت منها ثلاثة.

وأما الفصل السابع: فقد كان لبيان ذنوب لم يثبت نفي الشفاعة فيها، وذكرت منها أربعة أمور.

وأما الفصل الثامن: وهو آخر هذا الباب.

فقد كان لبيان أقسام الشفاعة؛ وهم قسم ثبتت صحة شفاعتهم وذكرت منهم سبعة أصناف، وقسم لم ثبتت صحة شفاعتهم وذكرت منهم ثلاثة.

وأما الباب الثالث: وموضوعه مجيء الله تبارك وتعالى لفصل القضاء فقد اشتمل على فصلين:

الفصل الأول: ذكرت فيه الأدلة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية على نزول الله تعالى لفصل القضاء.

واما الفصل الثاني: فقد كان في بيان معنى المجيء الذي اتصف الله به، بینت فيه مذهب السلف، ثم مذهب المؤولين.

واما الباب الرابع: وموضوعه رؤية الله تعالى في عرصات القيامة فقد اشتمل بعد التمهيد على أربعة فصول:

اما الفصل الأول: فهو في بيان الأدلة على وقوع رؤية الله تعالى، وأدلة ذلك من القرآن الكريم ومن السنة النبوية، مع بيان وجه الاستدلال وذكر

شبه المخالفين والرد عليهم، ثم الاستدلال بالعقل على وقوعها .

وأما الفصل الثاني: فهو لبيان آراء الفرق في إمكان وقوع رؤية الله تعالى .

وأما الفصل الثالث: فهو لبيان الخلاف في رؤية غير المؤمنين لربهم، وبيان الخلاف بين المثبتين للرؤبة والناففين لها .

وأما الفصل الرابع والأخير: فقد جعل لبيان هل تستلزم رؤية الله تعالى الجهة أم لا ؟

وأما الباب الخامس وموضوعه: «كلام الله تعالى في يوم القيمة» فقد جعلته بعد التمهيد في أربعة فصول :

الفصل الأول: في إثبات صفة الكلام الله تعالى، مع ذكر أدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن إجماع علماء الإسلام .

أما الفصل الثاني: فقد كان في بيان إثبات صفة كلام الله تعالى للخلق في يوم القيمة في موقف فصل القضاء . وذكرت الأدلة على ذلك من القرآن الكريم ومن السنة النبوية .

أما الفصل الثالث: فقد كان في بيان إثبات أن الله تعالى لا يكلم بعض خلقه في يوم القيمة، وذكر أدلته من القرآن الكريم ومن السنة النبوية، مع بيان وجه الجمع بين ما ورد من إثبات عدم كلام الله تعالى لبعض خلقه، وبين ما ورد من ثبوت ذلك .

وأما الفصل الرابع: فقد كان لبيان أهم المذاهب في كلام الله تعالى مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب الأشاعرة، ومذهب الجهمية والمعزلة

ثم الإجابة عن مسألة هي خاتمة الفصل عن اللغة التي يخاطب الله بها الخلق يوم القيمة، هل هي العربية أو السريانية أو الفارسية وبيان الصحيح من ذلك.

وأما الباب السادس وموضوعه: «العرض على الله جل وعلا في موقف فصل القضاء»

فقد اشتمل بعد التمهيد: على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معنى العرض لغة واصطلاحاً.

الفصل الثاني: الأدلة على حصول العرض على الله تعالى، وذكر أداته من القرآن الكريم ومن السنة النبوية.

أما الفصل الثالث: فهو في بيان دلالة تلك النصوص من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ على كيفية العرض على الله ، مع بيان رأي المثبتين للعرض على الله والمؤولين له و الرد عليهم.

وأما الباب السابع وموضوعه: «الصحف أو كتاب الأعمال»

فقد اشتمل بعد التمهيد على سبعة فصول.

الفصل الأول: الأدلة على كتابة الملائكة لكل ما يصدر عن العباد، وأدلة ذلك من القرآن الكريم ومن السنة النبوية .

الفصل الثاني: المنكرون كتابة الملائكة أعمال العباد والرد عليهم.

وأما الفصل الثالث: فكان لإثبات أن كل إنسان يقرأ كتابه في يوم القيمة، وأدلة على ذلك من القرآن الكريم ومن السنة النبوية .

أو صحف الأعمال؟ وأدلة وزن كل واحد من هذه الثلاثة.

الفصل السابع: حكمة الله تعالى في وزن أعمال العباد، والرد على من ينكره.

الفصل الثامن: مرجحات الميزان.

الفصل التاسع: متى تنصب الموازين.

الفصل العاشر: لمن ينصب الميزان.

الفصل الحادي عشر: كيفية الوزن.

الفصل الثاني عشر: هل هو ميزان واحد في يوم القيمة، أم هي موازين متعددة.

الفصل الثالث عشر: هل توزن أعمال الجن.

وأما الباب العاشر وموضوعه: «الصراط»:

فقد اشتمل على الفصول الآتية:

تمهيد:

الفصل الأول: تعريف الصراط:

١- في اللغة.

٢- في الاصطلاح.

الفصل الثاني: الأدلة على إثبات الصراط من القرآن الكريم والسنّة النبوية.

الفصل الثالث: وصف الصراط والمرور عليه.

الفصل الرابع: متى يتم المرور على الصراط.

الفصل الخامس: الحكمة في نصب الصراط.

الفصل السادس: مسافة الصراط.

الفصل السابع: المنكرون للصراط.

الفصل الثامن: هل يمر جميع الخلق على الصراط؟

الفصل التاسع: أول من يجوز الصراط.

الفصل العاشر: شعار المؤمنين على الصراط.

الفصل الحادي عشر: الأعمال الموجبة للجواز على الصراط.

الفصل الثاني عشر: هل الصراط قد خلق أم سيخلق في يوم القيمة؟

الفصل الثالث عشر: هل يبقى الصراط إلى خروج عصاة الموحدين

أم لا؟

وأما الباب الحادي عشر وموضوعه: «القනطرة»:

فقد اشتمل بعد التمهيد على أربعة فصول:

الفصل الأول: أدلة إثبات القنطرة.

الفصل الثاني: موضع تلك القنطرة.

الفصل الثالث: هل هي قنطرة واحدة، أم هي قناطر متعددة، والراجح

في ذلك.

أما الفصل الرابع والأخير، فهو لماذا أخر الله حساب أهل القنطرة إلى

القنطرة ولم يكمله في الموقف.

وأما الباب الثاني عشر موضوعه: «الورود»:

فقد اشتمل بعد التمهيد على أربعة فصول:

الفصل الأول : في بيان أقوال العلماء في معنى الورود، وذكر أدلة كل قول.

الفصل الثاني : في بيان القول الراجح في معنى الورود.

أما الفصل الثالث : فكان جواباً عن مسألة هي هل يستثنى الأنبياء من ورود النار واحتيازها؟ .

وأما الفصل الرابع والأخير : وهو جواب كذلك عن مسألة أخرى هي: «ما فائدة دخول أهل السعادة النار واحتيازهم فوقها وقد كتب الله لهم النجاة؟» .

وأما الباب الثالث عشر موضوعه: « أصحاب الأعراف»:

وفصوله خمسة:

الفصل الأول منها : في ذكر ما ورد في القرآن الكريم بشأن أصحاب الأعراف.

والفصل الثاني : في بيان ما هو المراد بالأعراف لغة واصطلاحاً.

والفصل الثالث : عن الخلاف في تعين أصحاب الأعراف.

والفصل الرابع : في بيان ما هو الراجح في أهل الأعراف.

والفصل الخامس : في ذكر سور الأعراف الحاجز بين الجنة والنار؛ هل يكون دائماً أم في فترة من الفترات.

وأما الباب الرابع عشر وموضوعه: «الخوض المورود»:

فقد اشتمل بعد التمهيد على الفصول الآتية:

الفصل الأول: بيان المراد من الخوض في اللغة وفي الشرع.

الفصل الثاني: الأدلة على إثبات الخوض.

الفصل الثالث: في بيان أقوال علماء الإسلام في إثبات الخوض.

أما **الفصل الرابع**، فكان لبيان مسافة الخوض.

وفي **الفصل الخامس**: الجمع بين تلك الروايات الكثيرة التي وردت في تحديد مسافة الخوض.

وفي **الفصل السادس**: ذكر صفات الخوض ومزايده.

وفي **الفصل السابع**: بيان متى يرد الناس الخوض.

وأما **الفصل الثامن**، فهو: في بيان المنكرين للخوض.

وفي **الفصل التاسع**: الرد عليهم.

وفي **الفصل العاشر والأخير** في هذا الباب: بيان هل ثبت أن لكلنبي حوضاً يخصه.

وأما الباب الخامس عشر وهو آخر أبواب الرسالة وموضوعه: «**الكوثر**»:

فقد اشتمل على خمسة فصول:

الفصل الأول منها: في بيان تعريف الكوثر في اللغة والاصطلاح.

الفصل الثاني: بيان أدلة إثباته من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة.

أما الفصل الثالث: فقد كان في بيان تسمية الكوثر بالحوض، والخوض بالكوثر وبيان وجه الاتصال بينهما.

أما الفصل الرابع: فهو في بيان اختصاص الرسول ﷺ بالكوثر دون غيره من الأنبياء.

وأما الفصل الخامس والأخير: فهو في بيان صفات الكوثر.

وأخيراً فقد أنهيت تلك الدراسة بخاتمة تضمنت أهم ما اشتمل عليه البحث من نتائج.

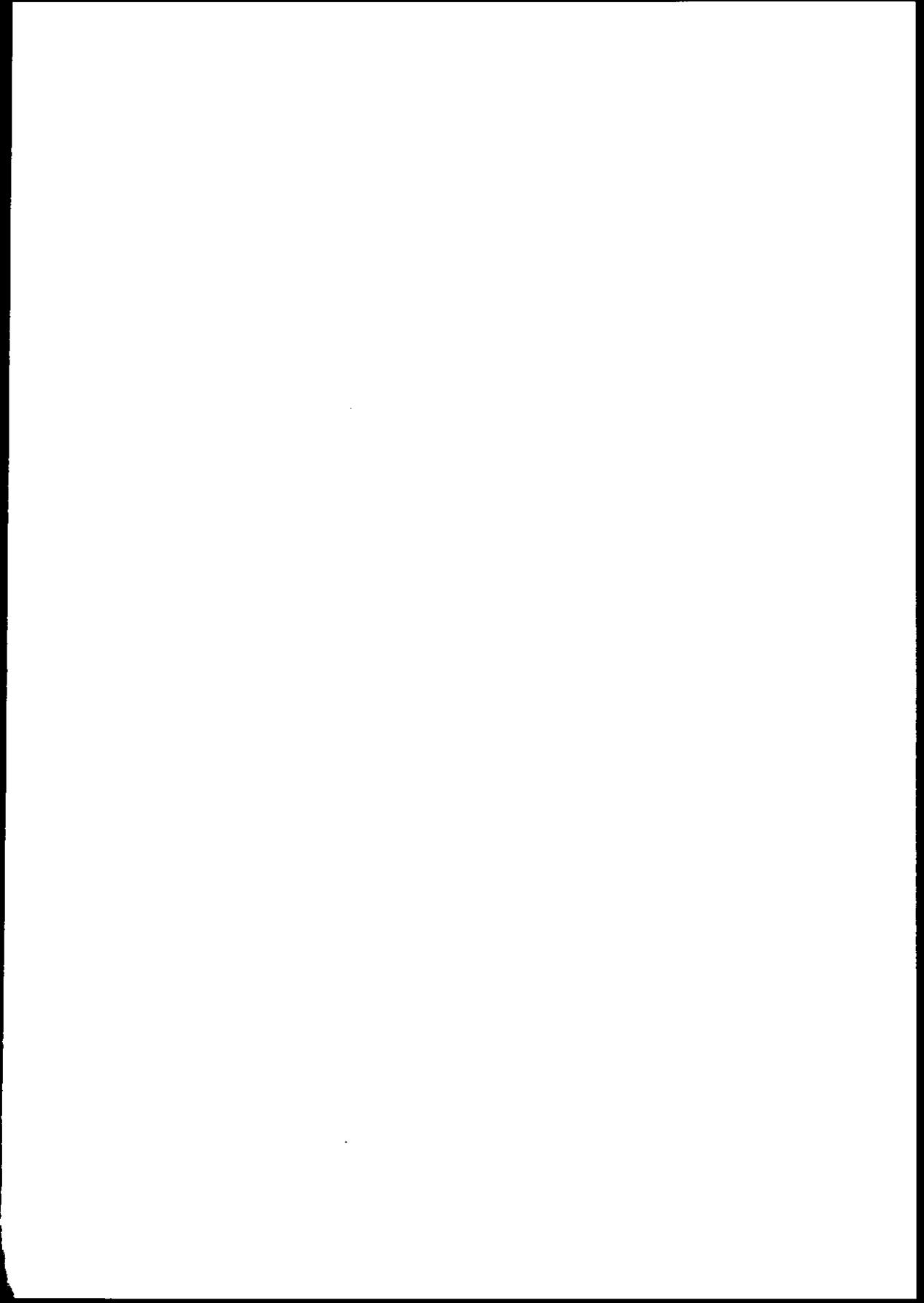
هذا وأسائل الله العلي القدير أن يجعل ثواب ما بذلتله من خدمة لهذا البحث رضوانه والجنة، وأن يوفقني وكل من ساعد في خدمته مبتغياً ثواب ربه. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

المدينة المنورة في ٢٢/٨/١٤٠٥ هـ

* * *

الباب الأول

البعث وال البشر ووقف الخلق في الموقف



الباب الأول

البعث والحضر ووقف الخلق في الموقف

ويشتمل على الفصول الآتية:

١ - الفصل الأول: تمهيد في وجوب الإيمان بالغيب.

٢ - الفصل الثاني: في أسماء يوم القيمة.

٣ - الفصل الثالث: التعريف بالبعث ويشتمل:

١ - تعريفه لغة.

٢ - تعريفه شرعاً.

٣ - ألفاظ ينبغي التنبه إليها.

٤ - مراتب الموقف.

٤ - الفصل الرابع: أدلة البعث:

١ - عناية الكتاب والسنّة بالإيمان باليوم الآخر.

٢ - بعض أسباب العناية باليوم الآخر.

٣ - أدلة البعث من القرآن الكريم.

٤ - أدلة البعث من السنّة النبوية وبيان عناية

الرسول ﷺ بأمر البعث.

٥ - دلالة العقل على البعث.

- ٥- الفصل الخامس: المنكرون للبعث وأقسامهم.
- ٦- الفصل السادس: أسباب إنكار البعث.
- ٧- الفصل السابع: كيفية البعث كما في الكتاب والسنّة.
- ٨- الفصل الثامن: أقوال علماء الإسلام في كيفية البعث والرد على الفلسفه وإبطال حججهم في إنكار البعث.
- ٩- الفصل التاسع: النفح في الصور.
نفحه البعث.
- ١- معنى النفح:
 - ١- في اللغة ..
 - ٢- في الاصطلاح.
 - ٣- عدد النفحات.
- ٣- الأدلة على إثبات النفح في الصور:
 - ١- من القرآن الكريم.
 - ٢- من السنّة النبوية.
- ١٠- الفصل العاشر: صفة حشر الخلق وأنهم على صور شتى:
 - ١- حشر الخلق حفاة عراة غرلاً.
 - ٢- حشر الكفار يسحبون على وجوههم.
 - ٣- حشر المتكبرين.
 - ٤- حشر السائلين.
 - ٥- حشر أصحاب الغلول.

٦- حشر أهل الوضوء أهل الغرفة والتحجيل.

٧- حشر الشهداء.

ويشتمل هذا الفصل كذلك على مسائل وفوائد:

أما المسائل فهي:

١- الحكمة في إعادة الخلق غرلاً.

٢- بعث الموتى في أكفانهم.

٣- هل تحشر بقية المخلوقات غير الجن والإنس.

٤- دفع تعارض.

وأما الفوائد:

١- أول من يحشر من الخلق.

٢- أول من يكسى من الخلق.

١١- الفصل الحادي عشر: الموقف:

-تعريفه في اللغة.

-تعريفه في الاصطلاح.

صفة حالة الناس وهم في الموقف:

١- تمهيد.

٢- صفتته^(١) في القرآن الكريم.

(١) أي صفة الحال التي هم عليها كما يصورها الله في القرآن الكريم.

٣ - صفتة في السنة النبوية.

٤ - صفة الأرض التي يقف عليها الخلق وبيان الخلاف
في أرض المحشر.

٥ - مدة وقوف الخلق في الموقف:

١- ما جاء في القرآن الكريم.

٢- ما جاء في السنة النبوية.



الفصل الأول

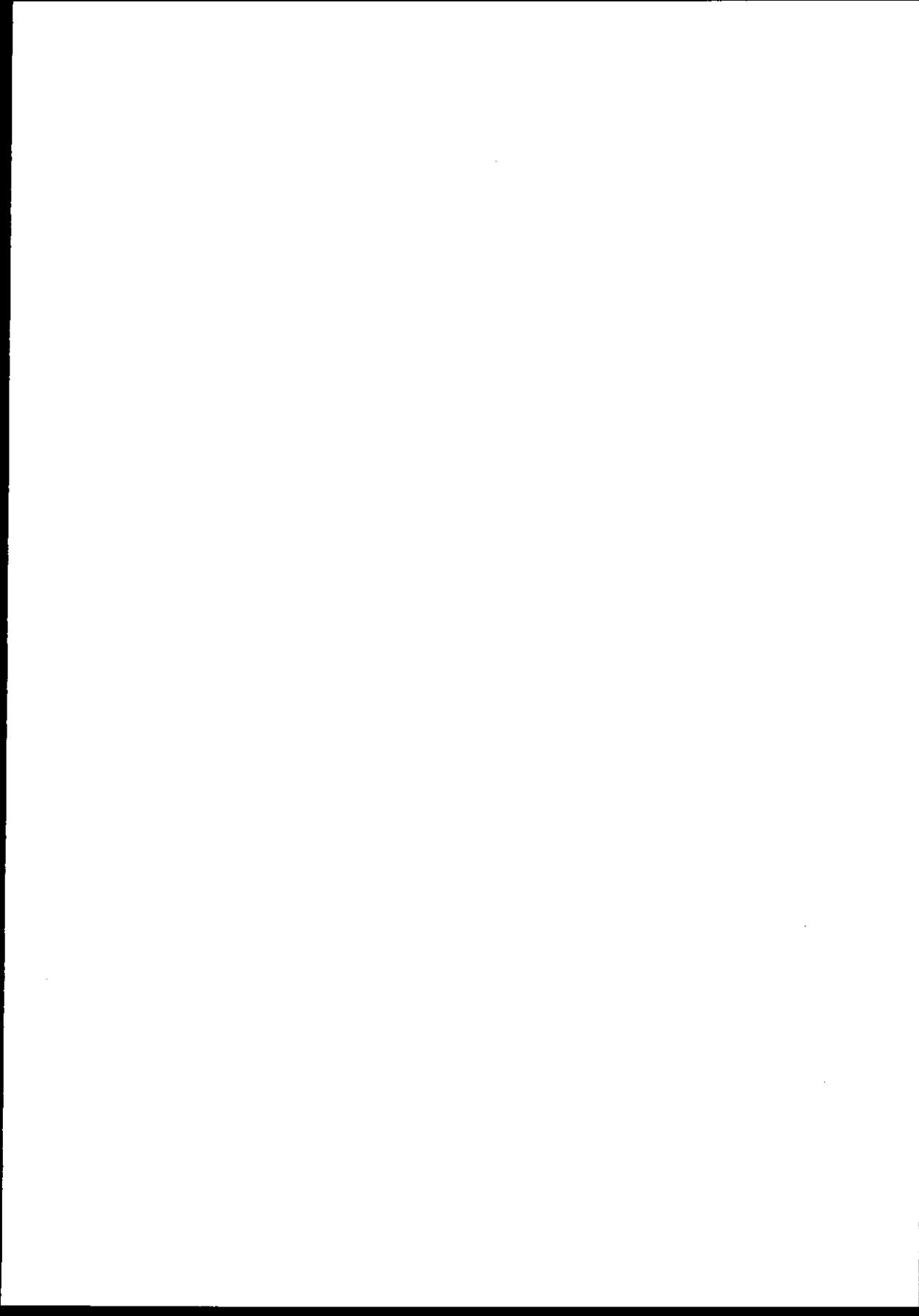
الإيمان بالغيب

مدخل :

١- معنى الغيب في اللغة.

٢- معنى الغيب في الاصطلاح.

٣- الإيمان بالغيب وأدله.



الفصل الأول

الإيمان بالغيب

مدخل:

إن الإيمان بالغيب هو أحد أركان الإيمان، والتي لا يسمى الشخص مؤمناً إلا إذا آمن بها وصدق بأخبارها.

فقد جعل الرسول ﷺ في إجابته عن الإيمان - حين سُئل ما هو الإيمان -
جعل الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان.

والأحاديث في هذا كثيرة، إضافة إلى ما جاء في القرآن الكريم من ربط الإيمان بالآخر بالإيمان بالله، كما سنفصل الكلام عن هذا في موضعه.

ولقد كان الموضوع الذي وقع عليه اختياري لكتابية هذه الرسالة هو الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار.

وظاهر أن هذا الموضوع من الأمور السمعية، وبعبارة أخرى من الأمور الغيبة التي أمرنا بالإيمان بها عن طريق السمع.

ومن المعلوم أن ما صح من الأمور السمعية وخصوصاً ما جاء في تفاصيل اليوم الآخر - التي لا يدركها العقل بمفرده - أن الإيمان بذلك وقبوله مما لا ينبغي أن ينزع فيه أحد، لأن هذه الأمور مما لا مجال للعقل في إدراك حقائقها وجزئياتها إلا ما ورد به النص.

ولهذا فإنه قبل أن نشرع في ذكر تفاصيل تلك الأمور السمعية نحب أن

نبين الأمور الآتية :

- ١- أن نبين معنى الإيمان بالغيب في اللغة والاصطلاح .
- ٢- أن نبين إمكانية هذه الغيبيات وأنها ليست من المستحيلات عقلاً بل هي من الأمور الممكنة التي ليست مستحيلة على الله تعالى لاعقلاً ولا نقاً، بل هي عين العدل والحق .

ولم يخالف في اعتقاد هذا أو ادعى استحالته غير أهل الشرك الذين قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلُكُنَا إِلَّا السَّدَرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَظْنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] .

وهؤلاء هم الجهال الذين لا علم عندهم ، ولهذا قال الله في جوابه عن مقالتهم ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَظْنُونَ﴾ وأسأل الله التوفيق والعون .

* * *

أـ- معنى الغيب في اللغة :

يطلق لفظ الغيب في اللغة على عدة معانٍ دائرة كلها حول الاستئثار والاختفاء وعدم المشاهدة.

قال الأزهري فيما ينقله عن علماء اللغة: «قال شمر: كل مكان لا يدرى ما فيه فهو غيب، وكذلك الموضع الذي لا يدرى ما وراءه، وجمعه غيوب».

وقال أبو إسحاق في قول الله جل وعز: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]: أي يؤمنون بما غاب عنهم مما أخبرهم به رسول الله ﷺ؛ من أمر البعث والجنة والنار، وكل ما غاب عنهم مما أنبأهم به فهو غيب.

وقال الأزهري أيضاً: «قال أبو العباس عن الأعرابي في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] قال: يؤمنون بالله، قال: والغيب أيضاً ما غاب عن العيون وإن كان محصلاً في القلوب.

وقال اللحياني: امرأة مغيبة ومغيب إذا غاب زوجها. قال: وقال بعضهم: بدا غياب الشجرة وهي عروقها التي تغيبت في الأرض فحفرت عنها حتى ظهرت»^(١).

وقال الراغب: «الغيب مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، يقال: غاب عني كذا».

والغيب في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام،

وبدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد^(١).

وذكر الرازي عن جمهور المفسرين : «أن الغيب هو الذي يكون غائباً عن الحاسة» .

ثم قسمه إلى ما عليه دليل وإلى ما ليس عليه دليل ، وأن قول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢٣] المراد به مدح المتقيين بأنهم يؤمنون بالغيب الذي دل عليه دليل^(٢) .

ب - معنى الغيب في الاصطلاح :

الغيب في المعنى اللغوي أعم ، وفي معناه الاصطلاحي أخص ، وذلك لأن الغيب لغة يطلق على كل ما غاب ، سواء كان أمراً حسياً أو أمراً معنوياً ، سواء أكان مما يجب الإيمان به أو مما لا يجب الإيمان به .

وأما الغيب بالمعنى الشرعي فهو أخص مما ذكر ، فهو ما غاب عنا وأمرنا بالإيمان به كإيمان باليوم الآخر وما فيه من الميزان والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار وغير ذلك .

وعلى هذا؛ فإن المعنى الاصطلاحي للغيب : هو الإيمان بما لا نعلمه أو بما لا تقع عليه حواسنا مما أخبر به الله سبحانه وتعالى أو أخبر به رسوله ﷺ من المغيبات ، كاليوم الآخر وما يقع فيه من حساب وجزاء وغيرهما مما ثبت به النص .

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٣٦٧.

(٢) التفسير الكبير ١/٢٧، ويقصد بما ليس عليه دليل هو الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى لغيره ، وأن الذي عليه دليل هو العلم الحاصل بالتفكير والاستدلال كالعلم بالله وصفاته والآخرة والأحكام والشرائع . . . إلخ .

وإن كان علماء التفسير يذكرون أقوالاً - وكلها متفقة - في معنى الغيب الذي ذكره الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ٢] من أنه الله سبحانه وتعالى ، أو هو القضاء والقدر ، أو هو القرآن وما فيه من الغيوب ، أو أن الغيب هو كل ما أخبر به الرسول ﷺ ما لا تهتدى إليه العقول ، من أشرطة الساعة وعذاب القبر والحضر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار .

« وقد ضعف ابن العربي القول الأول ، وقال ابن عطيه عن تلك الأقوال أنها لا تعارض؛ بل يقع الغيب على جميعها »^(١) بمعنى أن الغيب هو كل ما غاب عنك ولا تعلمه ولا يقع تحت إحساسك قال محمد رشيد رضا: « والإيمان بالغيب هو الاعتقاد بوجود وراء المحسوس»

ثم استشهد بكلام للأستاذ محمد عبده فقال: «وصاحب هذا الاعتقاد وافق على طريق الرشاد ، وقائم على أول النهج ، لا يحتاج إلا إلى من يدلله على المسارك ويأخذ بيده إلى الغاية ، فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل - وإن كانت لا يأتي عليها الحس^(٢) - إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السماوات والأرض ، المستعلي عن المادة ولو احتجها ، المتصف بما وصف به نفسه على السنة رسنه ، بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التي استأثر الله تعالى بها كعالم الملائكة مثلاً؛ لم يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة؛ لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف في مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون في القرآن هدى لهم .

وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس ، ويظن أن لا شيء وراء

(١) انظر : فتح الباري : ٤ / ٣٤.

(٢) قوله: « وإن كانت لا يأتي عليها الحس » يرد عليه: أن أمور الآخرة ليست من الأمور المعنوية بل هي أمور محسوسة .

المحسوسات وما اشتغلت عليه ، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده ، وقلما تجد السبيل إلى قلبه إذا بدأته بدعوك ، نعم قد توصلك المجاهدة - بعد مرور الزمان في إبراد المقدمات البعيدة والأخذ به في الطرق المختلفة - إلى تقريره مما تطلب ، ولكن هيئات أن ينصرك الصبر أو يخضعه القهر حتى يتم لك منه الأمر .

فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه ، ولم يجعل من نفسه وقوعه ، فكيف يجد فيه هداية أو منقذًا من غواية؟^(١)

جـ - الإيمان بالغيب وأدله :

وإذا كان الإيمان بالغيب يراد به أن يؤمن العبد بأن وراء هذه الحياة المحسوسة^(٢) الدنيوية حياة أخرى هي أشرف وأعلى منها ، فقد أثنى الله تعالى على المتصفين به ووصفهم بصفات حميدة عديدة .

وما يجدر ذكره أن الله تعالى قد ذكر لفظة الغيب في ثلاث وخمسين آية في القرآن الكريم ، ذكر منها ثمانية آيات في الحث على الإيمان بالغيب ومدح من يتصرف بذلك .

فقال تعالى : ﴿الَّتِي ۚ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۚ ۚ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۚ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۚ ۚ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥ - ١] ، فجعل سبحانه هذا الوصف في مقدمة أوصاف المتقين .

(١) تفسير المنار ١ / ١٢٨.

(٢) لا يصح أن يفهم من هذا أن أمور الآخرة ليست من الأمور المحسوسة .

وقال تعالى في مدح الذين يؤمنون بالغيب ومبشراً لهم بما أعده من جزائهم من المغفرة والأجر الكبير : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وأخبر تعالى أنه قد ابتلى عباده ببعض المنهيات - كالصيد - حتى يتبيّن من يؤمن بالغيب من هو ضعيف الإيمان به ، فقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَلِوْنَكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤].

وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنياء: ٤٩].

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا تُسَدِّرُ الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا تُسَدِّرُ مِنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

وقال تعالى : ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

وقال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولُ النَّاسُ بِالْقُسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [ال الحديد: ٢٥].

ففي هذه الآيات الكرييات وغيرها يخبرنا تعالى أن وراء هذا الكون كوناً آخر ، ووراء هذه الحياة حياة أخرى يجب الإيمان بها ، والعقل يؤيد ذلك ، فلو لم يكن وراء هذه الحياة حياة أخرى ؛ لكان هذا الوجود - المشتمل

على الظالم والمظلوم، والمحسن والمسيء، والطائع والعاصي - وجوداً أشبه ما يكون بالعبث؛ بل هو عين العبث الذي تنزه الله تعالى عن الاتصال به، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثاً وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴿١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وكذلك لو لم تكن هناك حياة أخرى وحساب وجزاء لتساوي الناس في الحكم، بأن يكونوا كلهم على نتيجة واحدة، وهو خلاف ما تتفضيه بدائنة العقول وتأباء الطبائع، قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعِيكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤]. وإذا كان السعي شتى؛ فلابد من أن يجازى كل واحد بقدر عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولو لم يحصل هذا التفاوت في الجزاء؛ لتساوي المجرم بال المسلم والطائع بال العاصي . وهو ما صرحت الآيات القرآنية بنفيه، أشد النفي وتوعيد من اعتقاد ذلك، كما نلحظه في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [٢٥] ما لكم كيف تحكمون ﴿﴾ [القلم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنَّنَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَا هُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءٌ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ﴾ [ص: ٢٨].

فهذه الآيات صريحة في أنه لو لم يكن هناك يوم آخر يجازى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته لتساوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمفسدين في الأرض ولتساوي المتقوون بالفجاح، وهذا أمر يأبه الله تعالى

ويأبه عدله وإن رغمت أنوف من ينكرون اليوم الآخر.

وإذا كان الناس يرفضون مساواة المصلح بالمفسد، والطائع بال العاصي؛ فكيف بالله تعالى الذي له صفات الكمال المطلق في العدل وفي غيره من سائر الصفات، وقد رأينا كيف تضافرت أدلة العقل والنقل على وجوب الإيمان باليوم الآخر ووجوب العدل والتفرقة بين المحسن والمسيء والكافر والعاصي : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فليست الحياة هي هذه الدنيا المملوءة بالتناقضات فحسب كما يعتقد الماديون؛ بل هناك عالم آخر.

إن الشخص الذي لا يؤمن إلا بالحسينات هو شخص مادي بعيد عما يوجبه العقل السليم والفتورة المستقيمة، أما غير المادي فهو الشخص المستقيم الذي يؤمن بما لا يدركه الحس من الأمور التي ثبتت وجوب اعتقادها بالنصوص الصحيحة الصريرة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه السلام، ولو أراد الله إظهار المغيبات لزالت حكمة التكاليف؛ بل وأفضى الحال بالناس إلى الواقع في مضار كثيرة، كما قال عليه السلام : « لو لا أن لا تدافنوا للدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع » .^(١)

ولما كان الإيمان باليوم الآخر يعتبر من أهم الأمور الغيبية كما تقدم ، فلا شك أنه يحتاج إلى يقين ثابت؛ لأن أول ما يضعف من يقين العبد هو أخبار اليوم الآخر إن لم يوفق الله العبد إلى طريق الحق ويعينه عليه.

ولهذا كانت دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أعظم أهدافهم

(١) أخرجه مسلم عن أبي سعيد ٤ / ٢٢٠٠.

هو تعريف البشر باليوم الآخر وما يقع فيه، فلم تخل أمة من الأمم منذ أول الخلق إلى آخرهم من معرفة اليوم الآخر ولم ينكره إلا الكفار الجاحدون، فما مننبي إلا وقد أنذر قومه ذلك اليوم وحذرهم من القدوم على ربهم بدون عمل صالح، فمنهم من آمن بهم وبهدائهم وصدقهم في ذلك، ومنهم من كفر ونأى عن ربها وهم كثيرون اتبعوا الشيطان واجتنبوا تعاليم الأنبياء.

فهذا آدم أبو البشر عليه السلام قد أخبره الله بالقيمة وأنها ستقع منذ أن أمر الله بإهاباته من الجنة، قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وهذا نوح عليه السلام يقول لقومه وهو يجادلهم وبين لهم نعم الله عليهم: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِدُّكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطَايَايَةَ يَوْمَ الدِّين﴾ [الشعراء: ٨٢].

ويقول الله تعالى لموسى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةً أَكَادُ أَخْفِيَهَا لَتُتَجَزَّئَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [١٥] فلا يصدئك عنها من لا يؤمن بها واتبع هراؤ فردد [١٦، ١٥].

وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَتَلَوُنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا^(١).

(١) انظر: شرح الطحاوية: ص ٤٥٨.

ومعلوم أن الداخلين في النار أئم شتى ليسوا بأصحاب رسول واحد، ومع هذا الجمع كله؛ فإنهم جميعاً اعترفوا بانذار رسليم لهم لقاء ربهم في هذا اليوم العظيم.

والآيات في هذا المعنى كثيرة كلها تقرر أمر البعث ووقوعه، وأنه كذلك ما مننبي ولا رسول إلا وقد أنذر قومه أمر اليوم الآخر.

وإذا عرف هذا فلابد من الإشارة إلى مسألة هامة ضل بسبب الجهل بها طوائف عديدة لأنهم لم يعرفوا الحقيقة فيها، وهي مسألة التفاصيل الدقيقة التي جاء بها نبينا عليه السلام أكثر من غيره من الرسل، وهؤلاء هم جهال الفلسفه الذين ظنوا أنه لم يخبر بمعاد الأبدان إلا محمد عليه السلام؛ لأنهم وجدوا تفاصيل لليوم الآخر لم تكن معروفة عند غيره من الرسل المتقدمين، أو على الأصح لم توجد تلك التعاليم ولم يعثروا عليها، إما لضياع لحقها، وإما لتحريف أصحابها؛ حتى تنوسيت مع مرور الزمن وحلت محلها اختراقات التي هي أشبه ما تكون بنسيج الخيال أو بالضوء الخافت.

وللرد على شبهة أولئك الملاحدة؛ يجب أن نتبعد إلى حقيقة هامة وأمر لا يجادل فيه إلا من ضل عن الطريق الصحيح ولم ينصف عقله، ذلك الأمر هو أن الرسول عليه السلام لما كان آخر الرسل وكتابه آخر الكتب؛ كان من الضروري أن يفصل أمر اليوم الآخر بما لامزيد بعده، وأن يبين جميع حقائقه لأنه إذا لم يبين تلك الحقائق كان نقصاً في الرسالة وقصوراً عن البيان، وهو ما لا يمكن وقوعه بحال يتزه الله ورسوله عنه.

وفي هذا يقول ابن أبي العز: «ومحمد عليه السلام لما كان خاتم الأنبياء وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاسر المففى - بين تفصيل الآخرة بياناً لا

يوجد في شيء من كتب الأنبياء، ولهذا ظن طائفة من المتكلفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد عليه وجعلوا هذه حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري^(١).

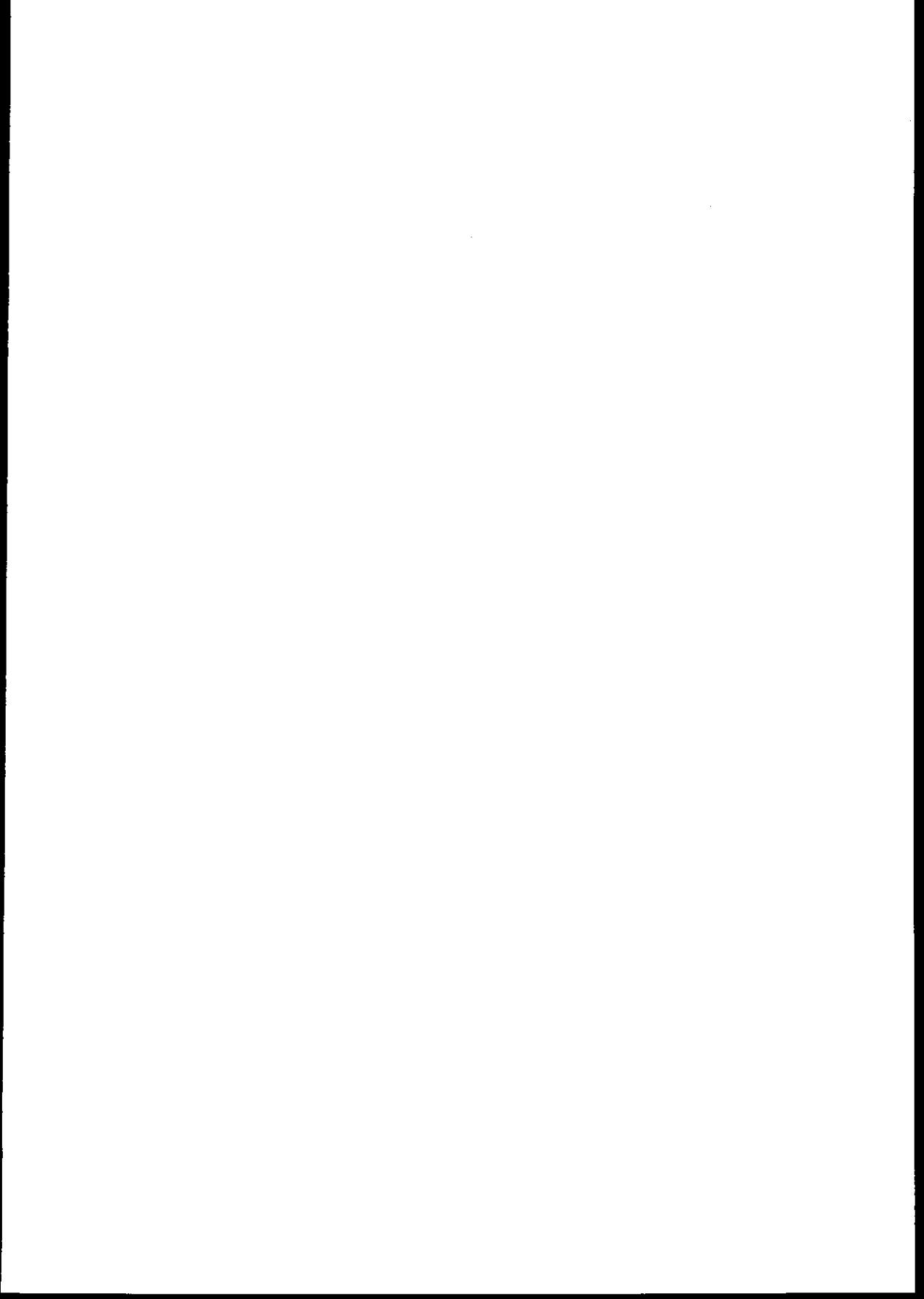
ف لأنهم ملاحدة قد استمرروا الكذب؛ ظنوا أن الرسل يستجيزون الكذب ويضللون الجماهير بما لا يصح وقوعه، وقولهم هذا إنما هو تعلل من لا حجة له ولا برهان، وهم لا يؤمنون لا بالقيامة ولا بمعاد الأبدان شأنهم شأن البهائم بل هم أضل سبيلاً.

ولما كان من المفيد جداً أن نتعرف على أقوال المنكرين والرد عليهم حتى لا يبقى لضعيف الإيمان شبهة؛ فستفصل القول في ذلك بادئين بذكر أسماء يوم القيمة.

* * *

(١) انظر: شرح الطحاوية: ص ٤٥٧.

الفصل الثاني
أسماء يوم القيمة



الفصل الثاني

أسماء يوم القيمة

وردت ليوم القيمة أسماء كثيرة قد تبعها العلماء من كتاب الله تعالى وبيّنوا معانيها ، ومن اهتم بسردها الغزالى^(١) ، والقرطبي في التذكرة^(٢) ، وابن كثير في كتابه الفتن واللاحـم^(٣) ، والبرديسي^(٤) . وغيرهم من علماء الإسلام .

وأسماء يوم القيمة كثيرة شأن كل عظيم ، فإن العرب كانوا إذا عظم الشيء في نفوسهم أطلقوا عليه عدة أسماء ، كما هو معروف في أسماء الأسد والسيف والأفعى ، ولهذا يقول القرطبي معللاً لسبب كثرة أسماء يوم القيمة : « وكل ما عظم شأنه تعدد صفاتـه وكثـرت أسمـاؤه ، وهذا مـهـيـعـ كـلـامـ الـعـرـبـ ، أـلـاـ تـرـىـ أـنـ السـيـفـ لـماـ عـظـمـ عـنـدـهـمـ مـوـضـعـهـ وـتـأـكـدـ نـفـعـهـ لـدـيـهـمـ وـمـوـقـعـهـ جـمـعـواـهـ خـمـسـمـائـةـ اـسـمـ وـلـهـ نـظـائـرـ ، فـالـقـيـامـةـ لـمـاـ عـظـمـ أـمـرـهـاـ وـكـثـرـةـ أـهـوـالـهـاـ سـمـاـهـاـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـ كـتـابـهـ بـأـسـمـاءـ عـدـيدـةـ وـوـصـفـهـاـ بـأـوـصـافـ كـثـيرـةـ » .^(٥)

وقال البرديسي : « أعلم أن العرب تسمى الشيء أسماء كثيرة وتجعل له

(١) الإحياء : ٥١٦ / ٤.

(٢) التذكرة : ص ٢٢٣ - ٢١٤ .

(٣) النهاية : ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ج ١ ط ١ .

(٤) تكمـلةـ شـرـحـ الصـدـورـ ص ٩ـ لـلـبـرـدـيـسـيـ وـهـوـ مـخـطـوـطـ ، وـالـبـرـدـيـسـيـ هـوـ مـحـمـدـ أـمـيـنـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ مـحـمـدـ الـأـنـصـارـيـ الـبـرـدـيـسـيـ الـمـالـكـيـ .

(٥) التذكرة : ص ٢١٤ .

ألقاباً عديدة تعظيمًا ل شأنه وإكباراً لأمره، وقد سمي الله يوم القيمة أسماء كثيرة^(١).

والقرطبي وابن كثير، وإن كانا قد ذكرَا كثيراً من أسماء يوم القيمة إلا أن بعض تلك الأسماء إنما هي أوصاف على صيغة جمل؛ فلم يذكرها مثل ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ١٢٣].

﴿يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لَنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الأنفال: ١٩]، ﴿يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، ﴿يَوْمٌ لَا يَبْعُدُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿يَوْمٌ تَبْيَضُ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وذكرها أيضاً أسماء لم أقف لها على نص بهذه الصيغ التي ذكرها مثل: «يوم يجد كل عامل عمله أماماه»، «يوم لا ت حين مناص»، «يوم يخرج الأموات وتظهر العورات»، «يوم يدعى فيه إلى النار»، «يوم لا يرتجى فيه إلا المغفرة»، «يوم الانقطاع لعقابه ولا يكشف فيه كافر عما به».

وقد حاولت أن أذكر أسماء يوم القيمة مرتبة على الحروف الهجائية، مستدلاً على كل اسم من أسمائها بدليله من القرآن، مقتصرًا فيما أورده على ما جاء في القرآن عن اليوم الآخر في كلمة واحدة مفردة مثل الصادحة والحاقة والطامة، أو ما كان مضافاً إلى «يوم»^(٢) وهو كلمة واحدة مثل: يوم الفصل، يوم الجمع، يوم التnad، وبيان ذلك فيما يلى:

١-اليوم الآخر:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُؤْتُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنْ

(١) تكميلة شرح الصدور ص ٩.

(٢) وفي المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم في مادة «يوم» آيات كثيرة من هذا النوع، يصف الله تعالى ذلك اليوم بأوصاف عديدة.

البِرُّ مَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]. إلخ الآية الكريمة.

٢- الآخرة:

قال تعالى: **﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾** [الأعلى: ١٦، ١٧].

قال ابن حجر رحمه الله في سبب تسميته باليوم الآخر: «وأما اليوم الآخر فقيل له ذلك لأنه آخر أيام الدنيا أو آخر الأزمنة المحدودة»^(١) وعلى هذا فالمراد باليوم الآخر أمران:

الأول: فناء هذه العوالم كلها وانتهاء هذه الحياة بكاملها.

الثاني: إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها.

فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية، إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها أبنة»^(٢).

٣- يوم الآزفة:

قال تعالى: **﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾** [غافر: ١٨]، والمراد بالآزفة «يوم القيمة» سميت بذلك لقربها؛ إذ كل ما هو آت قريب»^(٣).

٤- يوم البعث:

قال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى**

(١) فتح الباري: ١١٨/١.

(٢) عقيدة المؤمن: ص: ٣١١.

(٣) التفسير الواضح: ٢٧/٢٤.

يَوْمُ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُنُوكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿الروم: ٥٦﴾.

وسمى يوم البعث لما يقع فيه من إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم.

٥- يوم التغابن:

﴿يَوْمَ يَجْمِعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

«وسمى يوم القيمة يوم التغابن لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار، أي أن أهل الجنة أخذوا الجنة وأخذ أهل النار على طريق المبادلة، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر والجيد بالرديء»^(١).

٦- يوم التلاق:

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ [١٥] **يَوْمُ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** ﴿غافر: ١٥، ١٦﴾، سمي يوم التلاق: «قال ابن عباس، وقتادة: يوم تلتقي أهل السماء وأهل الأرض.

وقال وقتادة أيضاً، وأبو العالية، ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والاخاء، وقيل: العابدون والمعبودون، وقيل: الظالم والمظلوم، وقيل: يلتقي ذل إنسان جراء عمله، وقيل: يلتقي الأولون والآخرون على صعيد واحد». قال القرطبي: وكله صحيح^(٢).

٧- يوم النباد:

﴿وَيَا قَوْمَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّبَادِ﴾ [غافر: ٣٢]، سمي بذلك:

(١) تفسير القرطبي: ١٣٦/١٨، ١٣٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١٥/٣٠٠.

لمناداة الناس بعضهم بعضاً، فينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسمائهم، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء، وينادي المنادي أيضاً بالشقاوة والسعادة، ألا إن فلان بن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وهذا عند وزن الأعمال، وتنادي الملائكة أصحاب الجنة أن تلکموا الجنة أورثتموها بما كتتم تعملون، وينادي حين يذبح الموت: يا أهل الجنة، خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت، وينادي كل قوم بإمامهم، إلى غير ذلك من النداء^(١).

٨ - يوم الجمع:

﴿لَتُتَذَرُّ أُمُّ الْفُرْقَانِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُتَذَرُّ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧] وسمي يوم الجمع لأنه «يوم يجمع الله الأولين والآخرين، والإنس والجن، وأهل السماء وأهل الأرض، وقيل: هو يوم يجمع الله بين كل عبد وعمله، وقيل: لأنه يجمع فيه بين الظالم والمظلوم، قيل: لأنه يجمع فيه بين كلنبي وأمته، وقيل: لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصي»^(٢).

٩ - يوم الحساب:

﴿إِنَّمَا عَذَّبْتُ بَرَبِّي وَرَبِّكُمْ مَنْ كُلَّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]، وسمي يوم الحساب: لأن البارئ سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم، من إحسان وإساءة، يعدد عليهم نعمه ثم يقابل البعض بالبعض^(٣).

(١) تفسير القرطبي: ١٥/٣١١.

(٢) تفسير القرطبي: ١٨/١٣٦.

(٣) التذكرة: ص ٢٧١.

أو هو: «توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم، خيراً كانت أو شرّاً»^(١).

١٠- الحاقة:

﴿الحَاقَةُ﴾ **﴿مَا الْحَاقَةُ﴾** **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَةُ﴾** [الحاقة: ٣٠١]^(٢)، وسميت بذلك: لأنها «تحق فيها الأمور ويجب فيها الجزاء على الأعمال»، وقيل: لأنها أحقت لكل عامل عمله، وقيل: لأنها أحقت لكل قوم أعمالهم^(٣)، وقيل: سميت حاقة لأنها كانت من غير شك، وقيل: سميّت بذلك لأنها أحقت لأقوام النار^(٤).

١١- يوم الحسرة:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]، وسمي يوم الحسرة لأنه: يتضرر فيه الكافر على كفره والظالم على ظلمه والمسيء على إساءته^(٥).

ويتضرر الكافر كذلك حينما يتأسى من دخول الجنة ويرى ما فاته من النعيم^(٦).

١٢- يوم الخلود:

﴿إِذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخَلُودِ﴾ [ق: ٣٤]، سماه يوم الخلود لأنه لا

(١) الأستلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية: ص ٢٢٣.

(٢) تفسير الطبرى: ٤٨، ٤٧/٢٩.

(٣) التذكرة: ص: ٢٧٥.

(٤) أوضح التفاسير: ص: ٣٧١.

(٥) تفسير الطبرى: ١٦/٨٨.

انتهاء له بل هو دائم أبداً^(١).

١٣ - يوم الخروج:

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصِّيَغَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، وسمي
يوم الخروج: لخروج الناس فيه من قبورهم للبعث^(٢).

١٤ - يوم الدين:

﴿مَا لِكِ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]

الدين هنا يعني الجزاء، وعن ابن عباس أنه قال: «يوم الدين: يوم الحساب للخلافات وهو يوم القيمة، يدينهن بأعمالهم؛ إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر، إلا من عفا عنه».

قال ابن كثير - رحمه الله -: «وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر»^(٣).

١٥ - الساعة:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيَهَا﴾ [طه: ١٥].

وقد اختلف الناس في معنى كلمة الساعة إلى أقوال عديدة: فقال البرديسي: «الساعة لغة: اسم لطائفة من الزمان مبهمة، وأقل ما يطلق عليه اسم الساعة طرفة عين أو أخذ نفس ورده، وهي نكرة، وكل نكرة تقبل التعريف والتنكير إلا هذه؛ فإن الألف واللام قد لزمتها على وجه التغليب كالثريا ونحوها، والمراد هنا يوم القيمة...».

(١) فتح القدير: ٧٨/٥.

(٢) فتح التدبر: ٥/٨١، ٨٢-٨٣، تفسير الطبرى: ٢٦/١٨٣.

(٣) تفسير ابن كثير: ١/٢٥ (تفسير القرآن العظيم).

وقال بعضهم: الساعة من أصل الوضع مقدار من الزمان غير معين
كت قوله: ﴿كَانَ لَمْ يُلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥].

وفي لسان أهل الشرع: القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعات الدنيا، أو أنها تقع بعنة، وصارت علماً بالغلبة كالكوكب للزهرة، والساعة في عرف الفلكيين جزء من أربعة وعشرين جزءاً من أوقات الليل والنهار.

وقال بعضهم: سميت بذلك لأنها بالنسبة إلى كمال قدرته وجلاله كساعة واحدة، أو من باب تسمية الكل بلفظ البعض، ويجوز أن يراد بالساعة أول ساعة من الآخرة، وقيل: هي عبارة عن آخر ساعات الدنيا، وقيل: الساعة عبارة عن انفراط الدنيا^(١).

١٦- الصالحة:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ (٣٣) يَوْمٌ يَفِرُّ الْمُرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأَمِهِ وَأَيْهِ (٣٥)
وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يُوْمَنْدٌ شَأنُ يَغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣ - ٣٧]
والصالحة هي: صيحة القيامة لأنها تصح الآذان أي تصممها^(٢).

والصالحة لفظ ذو جرس عنيف نافذ يكاد يخرق صمام الأذن وهو يشق الهواء شقاً حتى يصل إلى الآذان صاخاً ملحاً^(٣).

١٧- الطامة:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبُرَى (٣٧) يَوْمٌ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مُاسَعِي﴾
[النازعات: ٣٤، ٣٥]، قال القرطبي: «معناها الغالبة، من قولك: طم

(١) انظر: كتاب تكميلة شرح الصدور: ١، ٢.

(٢) تفسير الشفوي: ٤/٣٣٤.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٠/٥٦.

الشيء إذا علا وغلب ، ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء^(١) .

١٨ - الغاشية :

﴿هَلْ أَتَكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] ، سميت غاشية لأنها تغشى كل شيء بأهوالها^(٢) .

١٩ - يوم الفصل :

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النَّبَا: ١٧] ، وسمى يوم الفصل : لأنه يوم عظمه الله ، يفصل الله فيه بين الأولين والآخرين بأعمالهم^(٣) .

٢٠ - يوم الفتح :

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٩] ، قال في الفتوحات الإلهية : «يو» لفتح المراد به يوم القيمة الذي هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم^(٤) .

وقال الآلوسي : «أخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وابن حرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : يوم الفتح يوم القيمة . ثم قال : هذا وتفسیر يوم الفتح يوم القيمة ظاهر على القول بأن المراد بالفتح الفصل للخصوصة» . ثم ذكر ما قبل من تفسیر يوم الفتح بأنه يوم بدر ، أو يوم فتح مكة ، وما إلى ذلك من أقوال علماء التفسير وهي مرجوحة ، والراجح هو ما تقدم من تفسيره بيوم القيمة^(٥) .

(١) التذكرة : ص ٢٧٥ .

(٢) تفسير الحازن : ٢٣٧/٧ .

(٣) تفسير الطبری : ٨/٣٠ .

(٤) الفتوحات الإلهية : ٤٢٠/٣ .

(٥) انظر روح المعانی : ١٤١ ، ١٤٠/٢١ .

٢١- يوم القيمة:

﴿لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدُهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرَدًّا﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥] ، قال البرديسي: «وسمى يوم القيمة لقيام الخلق من قبورهم فيه وقيامهم بين يدي خالقهم وقيام الحجۃ لهم وعليهم»^(١) .

٢٢- القارعة:

﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣] ، سميت بذلك لأنها تقع القلوب بأهوالها^(٢) .

٢٣- الواقعه:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبٌ﴾ [الواقعه: ١، ٢] ، قال الألوسي بعد أن بين أن الواقعه هي القيمة - قال: «صرح ابن عباس بأنها من اسمائها، وسميت بذلك للإيدان بتحقق وقوعها لا محالة»^(٣) .

٤- يوم الوعيد:

﴿وَنُفَخَّ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠] ، وسمى يوم الوعيد لأن الله «أ وعد به الكفار، قال مقاتل: يعني بالوعيد العذاب في الآخرة، وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعيد والوعيد جميماً لتهويله»^(٤) .

وبعد أن ذكر القرطبي كثيراً من اسماء يوم القيمة - التي هي على صيغة جمل - ذكر أن اسماء يوم القيمة قد تتبعها بعض العلماء، منهم ابن تجاح في سبل الخيرات، وأبو حامد الغزالى في غير موضع من كتبه كالإحياء وغيره،

(١) تكملاً شرح الصدور: ص ٢.

(٢) التذكرة: ص: ٢٦٣.

(٣) روح المعاني: ١٢٩/٢٨.

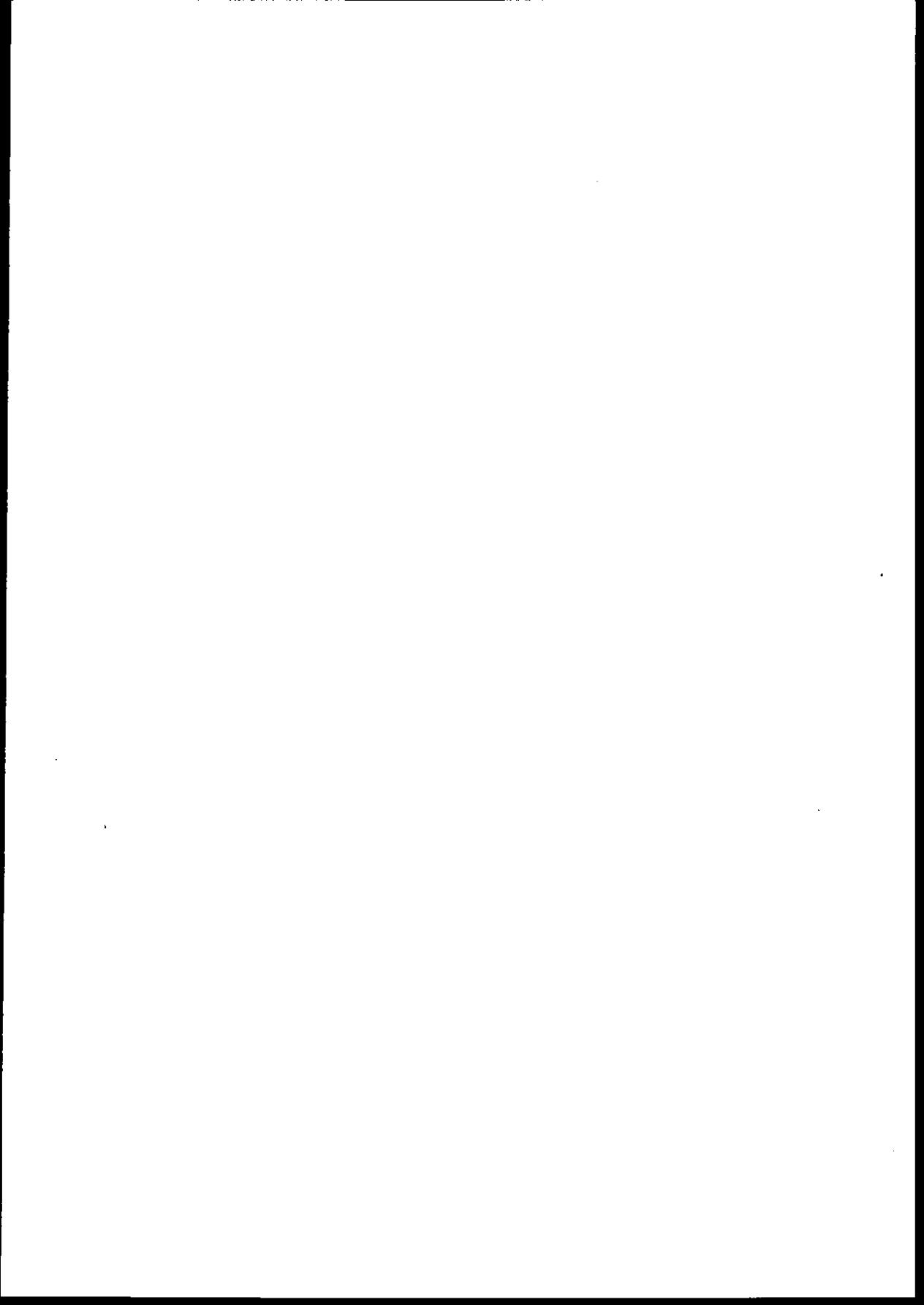
(٤) فتح القدير: ٧٦/٥.

والقتبي في كتاب عيون الأخبار، ثم قال :

«ولَا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكرنا حسب الأحوال الكائنة فيه، من الازدحام، والتضائق، واختلاف الأقدام، والخزي، والهوان، والذل، والافتقار، والصغار، والانكسار، ويوم الميقات، والمرصاد ، إلى غير ذلك من الأسماء»^(١).

* * *

(١) التذكرة: ص ٢٣٢، ٢٣٣، وانظر: تكملة شرح الصدور: ص ٩.

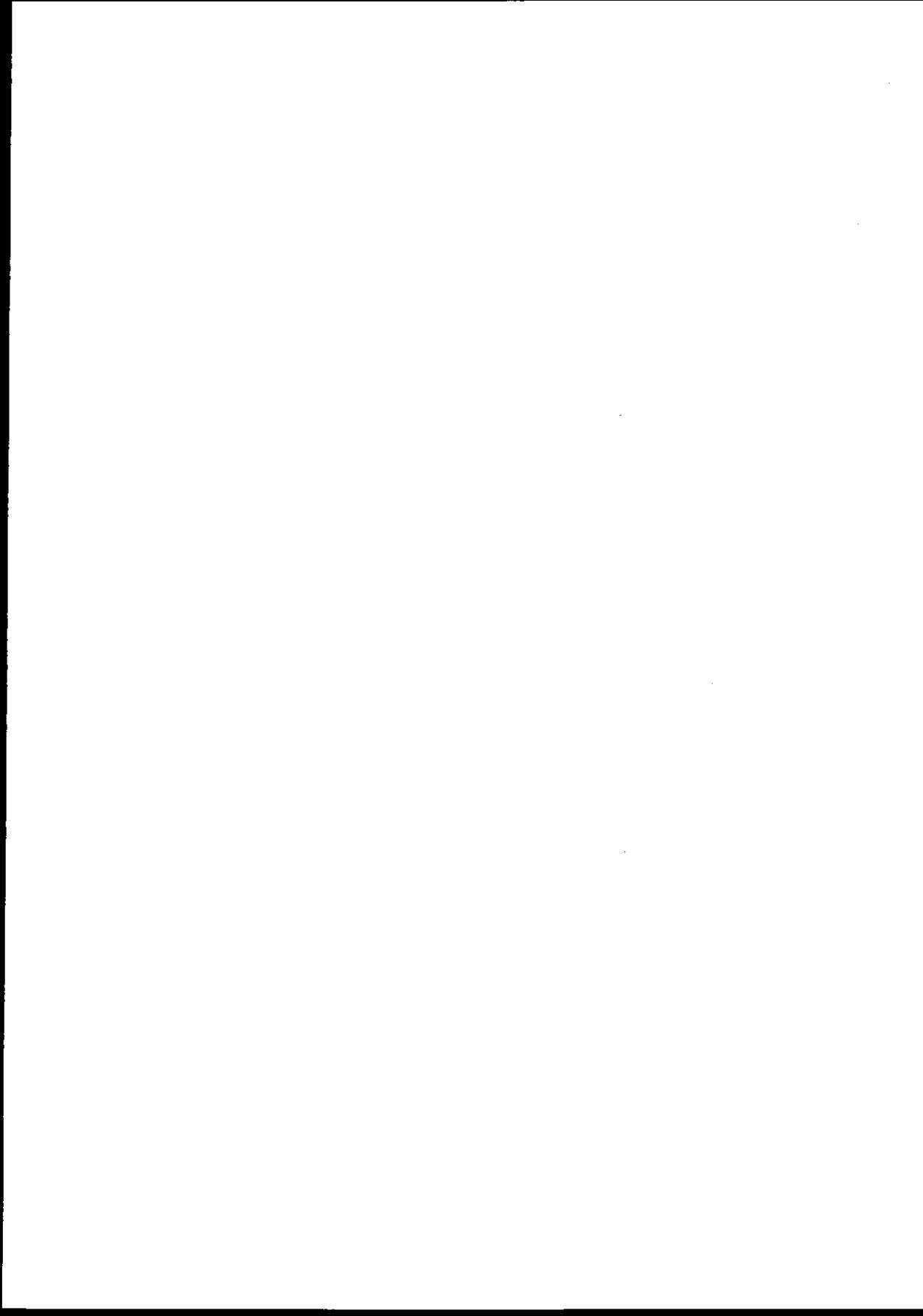


الفصل الثالث

التعريف بالبعث

وتتشتمل:

- ١ – تعريفه في اللغة.**
- ٢ – تعريفه في الشرع.**
- ٣ – الفاظ ينبغي التنبه إليها.**
- ٤ – صراتب الموقف.**



الفصل الثالث

التعريف بالبعث

١-تعريف البعث في اللغة:

يختلف تعريف البعث في اللغة باختلاف ما علق به، فقد يطلق ويراد

: به

١-الإرسال: يقال بعثت فلاناً أو أبتعثته أي أرسلته.

٢-البعث من النوم: يقال: بعثه من منامه إذا أيقظه.

٣-الإثارة: وهو أصل البعث، ومنه قيل للناقة: بعثتها إذا أثرتها وكانت قبل باركة.

وفي هذا يقول الأزهري^(١):

«قال الليث: بعثت البعير فانبعث إذا حللت عقاله وأرسلته، لو كان باركاً فأثرته».

وقال أيضاً: «والبعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما: الإرسال
كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعْثَنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ [الأعراف: ١٠٣]، معناه أرسلنا...»

والبعث أيضاً الإحياء من الله للموتى، ومنه قوله جل وعز: ﴿ثُمَّ بَعْثَاْكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُم﴾ [البقرة: ٥٦]، أي أحيناكم.

(١) انظر: تهذيب اللغة: ٢/٣٣٤-٣٣٥، القاموس المحيط: ١/١٦٨، وغيرهما من كتب اللغة في مادة «بعث».

وقال أبو هلال: «بعث الخلق: اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقُدْنَا﴾ [يس: ٥٢] ^(١) .

ويقول الفيروز أبادي:

«بعثه كمنعه: أرسله كابتنته فانبعث، والنافقة أثارها، وفلاناً من منامه أهبه... وتبعد مني الشعر انبعث كأنه سال» ^(٢) .

وقال الراغب: «أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب ما علق به.

فبعثت البعير: أثرته وسيرته، وقوله عز وجل: ﴿وَالْمُوتَىٰ يُبَعْثَرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]، أي يخرجهم ويسيرهم إلى القيمة.

فالبعث ضربان: بشري كبعث البعير وبعث الإنسان في حاجة. وإلهي وذلك ضربان:

أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس ^(٣). وذلك يختص به البارئ تعالى، ولم يقدر عليه أحداً.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى عليه السلام وأمثاله، ومنه قوله عز وجل: ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، يعني الحشر.

وقوله عز وجل: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١]، أي قبضه.

(١) وانظر: الفروق: ص ٢٨٤.

(٢) القاموس المحيط: ١٦٨/١.

(٣) هكذا عبارة الراغب ولعله يقصد عن لا شيء.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعْثَنَا هُمْ لَنَا عِلْمٌ أَيُّ الْحَزَبِينَ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]، وذلك إثارة بلا توجيه إلى مكان^(١).

وهذه المعانى ثابتة في اللغة لكلمة البعث^(٢).

٢ - المراد بالبعث في الشوع:

البعث في الشرع يراد به: إحياء الله للموتى وإخراجهم من قبورهم أحيا للحساب والجزاء.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : «البعث: وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيمة»^(٣).

وقال السفاريني: «أما البعث فالمراد به المعاد الجسماني؛ فإنه المتادر عند الإطلاق؛ إذ هو الذي يجب اعتقاده ويكتفى به»^(٤).

وقال البيحوري: «البعث عبارة عن إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم»^(٥).

وقال السيد سابق عن البعث: «هو إعادة الإنسان روحًا وجسدًا كما كان في الدنيا»^(٦).

وهذا يكون حينما تتعلق إرادة الله تبارك وتعالى بذلك؛ فيخرجون من القبور حفاة عراة غرلاً بهمَا، ويساقون ويجتمعون إلى الموقف لمحاسبتهم

(١) المفردات: ص ٥٢، ٥٣.

(٢) أساس البلاغة: ص ٢٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/٢٠٦.

(٤) انظر: مختصر التوأمي: ص ٣٨٧.

(٥) شرح جوهرة التوحيد: ص ١٧٠.

(٦) العقائد الإسلامية: ص ٢٦٩.

ونيل كل مخلوق ما يستحقه من الجزاء العادل.

وهذا ما تشير إليه كثير من الآيات الواردة في كتاب الله عز وجل ، كما قال الله تعالى : «**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** [٦] **وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَّةٌ لَا رَبِّ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَعْثُثُ مِنْ فِي الْقُبُورِ**» [الحج: ٦، ٧] ، قوله تعالى : «**وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثَرْتُ**» [الانفطار: ٤] ، قوله تعالى : «**وَالْمَوْتَىٰ يَعْثُثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**» [الأనعام: ٣٦] .

وبالمقارنة بين المعنى الشرعي لكلمة «البعث» والمعنى اللغوي لها: نجد ترابطًا ظاهراً، وذلك أن من معاني البعث في اللغة الإثارة لما كان ساكناً من قبل ، وكذا الإرسال كما في قوله تعالى : «**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ**» [النحل: ٣٦] ، وهذا ما جاء في كلمة البعث مراداً بها معناها الشرعي الذي هو إرسال الحياة إلى الأموات وإثارتها من جديد لتهيئاً لما يراد منها من الانطلاق إلى الموقف للحساب.

٢ – الفاظ ينبغي التنبه إليها :

١- النشور.

٢- المعاد.

٣- الحشر.

عرفنا فيما مضى معنى البعث لغة، واصطلاحاً، ولا يفوتنا التنبيه على أن هناك ألفاظاً قد استعملت في هذا المعنى وهي :
النشور ، المعاد ، الحشر ، ونفصلها فيما يلي :

أ-النشر:

تعريفه في اللغة: النشر في اللغة يأتي بمعنى البسط ، والانتشار ، وتقلب الإنسان في حوائجه ، ويأتي بمعنى التفرق .

أما مجده بمعنى البسط فمثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحْفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠] ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّاشرَاتِ نَشَرًا﴾ [المرسلات: ٢] أي الملائكة التي تنشر الرياح أو الرياح التي تنشر السحاب .

وأما مجده بمعنى الانتشار فمثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧] أي جعل فيه الانتشار وابتغاء الرزق .

وعن تقلب الإنسان في حوائجه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] أي تفرقوا فيها^(١) .

قال الأزهري في باب (نشر): «قال الليث: النشر: نشر الريح الطيبة»، وعن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: «النشر: الحياة، والنشر: الريح الطيبة».

قال الأزهري: «يقال: أنسَرَ اللَّهُ الْمَوْتَى فَنَشَرُوا: إِذَا حَيَا، كَمَا قَالَ الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا
يا عجباً للذي نشر
وقال الزجاج: يقال: نشرهم الله أي بعثهم، كما قال الله: ﴿وَإِلَيْهِ
الشُّورُ﴾ [الملك: ١٥]^(٢).

وقال أبو هلال العسكري: «والنشر: اسم لظهور المبعوثين، وظهور أعمالهم للخلائق، ومنه قوله: نشرت اسمك ونشرت فضيلة فلان، إلا أنه

(١) انظر: المفردات للرازي: ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(٢) تهذيب اللغة: ١١/٣٣٨ ، ٣٤٠ .

قيل: أنشر الله الموتى - بالألف -، ونشرت الفضيلة والثوب ، للفرق بين المعينين^(١).

وذكر الزمخشري في أساس البلاغة: أن من معانيه أيضاً: إذاعة الخبر ونشره في الناس^(٢).

وفي الاصطلاح:

يطلق ويراد به معنى البعث ، وهو انتشار الناس من قبورهم إلى الموقف للحساب والجزاء .

وإذا كان المعنى اللغوي يراد به الانتشار والتفرق والانبساط والبعث ، فهـي معان عامة يدخل فيها المعنى الاصطلاحي وهو نشر الله للأموات وإحياءـهم من قبورـهم ، فالنشر يراد به سريان الحياة في الأموات ، كما رأيناـه في تعريفـات العلمـاء السابقة من أنه يراد به البعث في اليوم الآخر وخروجـ الناس من قبورـهم أحـياءـ.

وهـذا ما فـسر به قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عـبس: ٢٢].

قال ابن كثـير: «أـي بـعـثـه بـعـد مـوـته» ، قال: «وـمنه يـقال الـبعث والـنشر»^(٣).

وجـاءـ فيـ الحديثـ عنـ حـذـيفـةـ بـنـ الـيـمـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـ هـمـاـ: أـنـ رسولـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـيـدـهـ كـانـ إـذـ أـرـادـ أـنـ يـنـامـ قـالـ: «الـلـهـ بـاسـمـكـ أـمـوـتـ وـأـحـيـاـ، وـإـذـ أـسـتـيقـظـ قـالـ: الـحـمـدـ لـلـهـ الـذـيـ أـحـيـاـنـفـسـيـ بـعـدـ أـنـ أـمـاتـهـ وـإـلـيـهـ النـشـرـ»^(٤). قالـ

(١) الفروق في اللغة: ص ٢٨٤.

(٢) أساس البلاغة: ص ٤٥٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/٤٧٢.

(٤) أخرجه الترمذـيـ: ٤٨١ / ٥ـ، وـقـالـ: حـدـيـثـ حـسـنـ صـحـيـحـ .

ابن الأثير: «يقال: نشر الميت ينشر نشوراً: إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أي أحياء»^(١).

وعرفه البرديسي بأنه «قيام الناس من قبورهم»^(٢).

وقال السفاريني: «وأما النشور فهو يرادف البعث في المعنى، نشر الميت ينشر نشوراً: إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أي أحياء»^(٣).

٢- المعاد:

المعاد في اللغة:

قال الفيروز أبادي: «والمعاد: الآخرة، والحج، ومكة، والجنة - وبكليهما فسر قوله تعالى: ﴿لَرَادُكُ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، والمرجع، والمصير».

وقال: «وأعاده إلى مكانه: رجعه، والكلام: كرره، وتعاوندوا في الحرب: عاد كل فريق إلى صاحبه»^(٤).

وقال الراغب: «والمعاد يقال للعود وللزمان الذي يعود فيه، وقد يكون للمكان الذي يعود إليه»^(٥).

وتدل تلك التعريفات للمعاد على أنه مصدر ميمي مأخوذه من العود، وهو رجوع الشيء إلى ما كان عليه أولاً.

المعاد في الاصطلاح:

(١) النهاية لابن الأثير: ٥٤/٥.

(٢) تكميلة شرح الصدور. ص ١٦.

(٣) انظر: مختصر لواط الأنوار: ص ٣٨٨.

(٤) القاموس المحيط: ١/٣٣٠، ٣٣١.

(٥) المفردات: ص ٣٥٢.

وفي الاصطلاح: يطلق لفظ المعاد على الرجوع إلى الله تعالى في يوم القيمة، ورجوع أجزاء البدن المترفة إلى الاجتماع كما كانت في الدنيا، وحلول الروح فيه.

قال ابن الأثير: «وفي أسماء الله تعالى «المعيد» هو الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات في الدنيا، وبعد الممات إلى الحياة يوم القيمة»^(١).

ومنه الحديث: «وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي»^(٢) أي ما يعود إليه يوم القيمة، ومنه حديث علي: «والحكم الله والمعود إليه يوم القيمة»^(٣) أي المعاد^(٤).

وقال الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله: «المعاد: وهو المرد إلى الله عز وجل والإياب إليه»^(٥).

وقد فسر قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] بعدة تفسيرات كلها تدل على الإعادة والرجوع إلى الله تعالى.

عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأْكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]: يحييكم بعد موتكم.

وقال الحسن البصري: «كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيمة أحياء».

وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأْكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم ذهبوا ثم يعيدهم.

(١) النهاية لابن الأثير: ٣١٦/٣.

(٢) أخرجه مسلم: ٥٦٩/٥.

(٣) ذكره ابن الأثير في النهاية: ٣١٦/٣.

(٤) ابن الأثير في النهاية: ٣/٣.

(٥) معارج القبول: ٢/١٠١.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخرًا»^(١).

٣- الحشر:

معنى الحشر في اللغة:

قال الراغب الأصفهاني: «الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها»^(٢).

ويطلق على الإزالة «يقال: حَشَرَتِ السَّنَةُ مَالَ بْنِ فَلَانَ أَيْ أَزَالَهُ عَنْهُمْ»، «ولَا يقال الحشر إلا في الجماعة»^(٣).

قال تعالى: ﴿وَأَبْعَثْتُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَالظَّيْرُ مَحْشُورَة﴾ [ص: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَت﴾ [التكوير: ٥].

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى، وهي كثيرة تدل على إطلاق لفظة الحشر على الكثرة والجماعة، مراداً بها جمع الناس في مكان.

وعرفه القرطبي بأنه الجمع^(٤)، وهو ما عرفه به كذلك البرديسي^(٥)، والسفاريني.

وقال الأزهري نقلًا عن الليث: «الحشر: حشر يوم القيمة»^(٦).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢٠٨/٢.

(٢) انظر: المفردات ص ١١٩.

(٣) انظر: المفردات ص ١١٩.

(٤) التذكرة: ص ٢٤٢.

(٥) تكميلة شرح الصدور: ص ١٦، وانظر: مختصر اللوامع: ص ٣٨٨.

(٦) تهذيب اللغة: ٤/١٧٧.

ثم ذكر أن من معانيه وروده يعني «المجتمع الذي يحشر إليه القوم، وكذلك إذا حشروا إلى بلد أو معسكر ونحوه»^(١).

ويقول أبو هلال العسكري:

«الحشر: هو الجمع مع السوق، والشاهد قوله تعالى: ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاسِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦] أي ابعث من يجمع السحرة ويسوقهم إليك، ومنه يوم الحشر لأن الخلق يجمعون فيه ويساقون إلى الموقف»^(٢).

وهو ما ذكره الزمخشري في أساس البلاغة^(٣).

قال البرديسي: «وأما المحشر بفتح الشين فهو المصدر، وبكسرها اسم للموضع، وبعضهم يذهب إلى أن الكل يعني واحد، ونقل عن الجوهري أنه قال: المحشر بالكسر موضع الحشر. قال: وذكر صاحب العين أن المحشر بالكسر والفتح الموضع الذي يحشر الناس إليه»^(٤).

معنى الحشر في الاصطلاح:

ويطلق الحشر على يوم القيمة^(٥)، وهو سوق الناس وجمعهم إلى المحشر لحسابهم، كما ظهر من التعريفات السابقة.

وقال ابن حجر في بيان معنى الحشر: أنه «حشر الأموات من قبورهم وغيرها بعد البعث جمياً إلى الموقف. قال الله عز وجل: ﴿وَحَشِرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]»^(٦).

(١) المصدر السابق.

(٢) الفروق في اللغة: ص ١٣٦.

(٣) أساس البلاغة: ص ٨٤.

(٤) انظر: تكملة شرح الصدور: ص ١٦.

(٥) المفردات: ص ١٢٠، وانظر: أساس البلاغة ص ٨٤.

(٦) فتح الباري: ٣٧٩/٤.

وقال البيجوري: «الحضر عبارة عن سوقهم - أي الناس - جمِيعاً إلى الموقف وهو الموضع الذي يقفون فيه»^(١).

ويتضح مما تقدم أن الفرق بين البعث والحضر: هو أن البعث إرجاع الحياة إلى الأموات، والحضر هو سوق هؤلاء المبعوثين وجمعهم إلى الموقف.

٤ - مراتب الموقف :

لا يوجد نص يستند إليه في ترتيب أعمال يوم القيمة، ولم تخُص هذه المسألة بالبحث والتحقيق، وإنما تذكر تلك الأمور التي تحصل في يوم القيمة كل مسألة مستقلة بمفردها.

غير أن بعض العلماء قد ذكر في ترتيب تلك الأمور رأيه، ومن هؤلاء العلامة البرديسي حيث قال في مخطوطته «تكميلة شرح الصدور» ما نصه:

«اعلم أن مراتب الموقف: البعث، ثم الحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض، ثم تطوير الصحف، ثم أخذها بالأيمان والشمائل، ثم السؤال والحساب، ثم الميزان»^(٢)، وقد ترك أعمالاً أخرى لم يذكرها مثل الصراط والقسطرة، والشفاعة، ومجيء الله لفصل القضاء.

وقال السفاريني: «اعلم أن مراتب المعاد: البعث، والنشور، ثم الحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض، ثم تطوير الصحف وأخذها باليمن والشمال، ثم السؤال والحساب ثم الميزان»^(٣).

(١) شرح جوهرة التوحيد: ص ١٧٠.

(٢) تكميلة شرح الصدور: ص ١٤.

(٣) انظر: مختصر لوامع الأنوار: ص ٤٠٦.

وقد فاته كذلك بعض المراتب، فهو لم يذكر الشفاعة العظمى، ولا مجيء الله لفصل القضاء ولا الصراط.

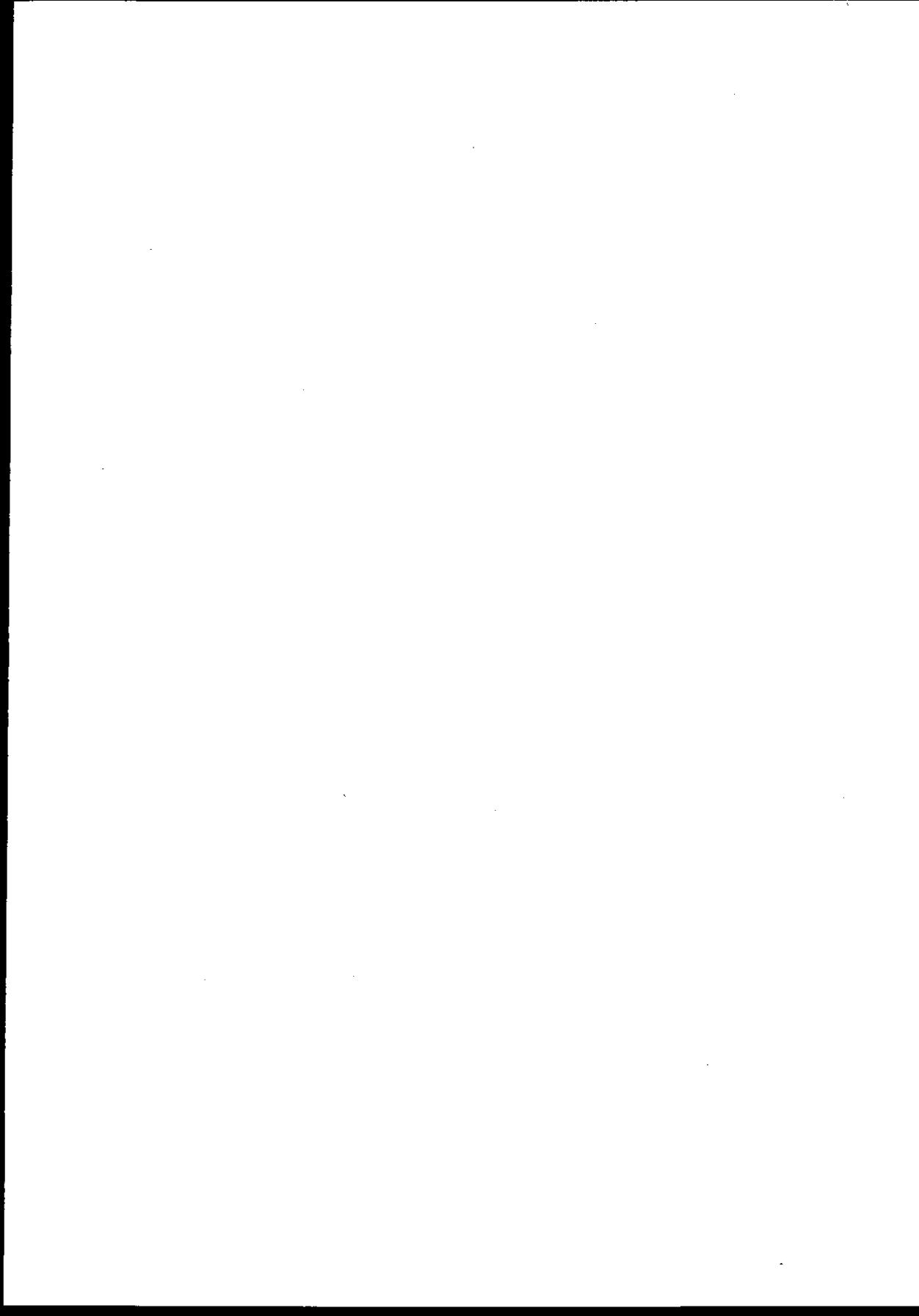
ويغض النظر عما قيل من ترتيب ذلك فإننا سنترتيب تلك الأمور ترتيباً ربما يخالف بعض ما قيل في ذلك. وأسأل الله تعالى العون وال توفيق.



الفصل الرابع

أدلة البعث

- ١ - عناية الكتاب والسنة بالإيمان باليوم الآخر.**
- ٢ - بعض أسباب العناية باليوم الآخر.**
- ٣ - أدلة البعث من القرآن الكريم.**
- ٤ - أدلة البعث من السنة النبوية وبيان عناية الرسول ﷺ بأمر البعث.**
- ٥ - دلالة العقل على البعث.**



الفصل الرابع

أدلة البعث

إن الإيمان بالبعث أمر معلوم من الدين بالضرورة، ومنكره خارج عن الإسلام. ولقد خص ذكـر يوم الآخر بمزيد من العناية والتعظيم لشأنه في كتاب الله تعالى وفي سنة بيـه عليه السلام، وقد أجمع على ذلك المسلمين.

وسوف نورد فيما يلي :

- ١ - بيان عناية القرآن الكريم والسنـة النبوـية بـذـكره، وبيان أسباب تلك العناية.
- ٢ - أدلة من القرآن الكريم.
- ٣ - أدلة من السنـة النبوـية.
- ٤ - دلالة العـقل عـلـيـه.

١- عناية الكتاب والسنـة بالإيمان بـاليـوم الآخر :

إن المتـبع لطـريـقة القرآن الـكـريم في مـجاـدـلة خـصـومـ العـقـيـدة؛ يـجـدـ أنـ الـاـهـتـمـامـ بـاليـومـ الآـخـرـ أـخـذـ قـسـطاـ وـاسـعاـ منـ تـلـكـ الحـجـجـ وـالـبـرـاهـينـ الدـامـعـةـ لـنـكـرـيـ الـيـومـ الآـخـرـ، وـكـذـاـ فـيـ السـنـةـ المـطـهـرـةـ، وـيـتـمـثـلـ ذـلـكـ فـيـماـ يـلـيـ:

١- رـبـطـ اللـهـ تـعـالـىـ الإـيمـانـ بـهـ بـالـإـيمـانـ بـالـيـومـ الآـخـرـ:
كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُؤْلِوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرُقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَأَتَى الْمَالَ

على حُبِّهِ [البقرة: ١٧٧]، وكذا قوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رِبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [البقرة: ٦٢]، فنحن نرى كيف ربط الله تعالى الإيمان به بالإيمان بالاليوم الآخر وجعله في المرتبة الثانية بعد الإيمان بالله .

فلا إيمان إذا للشخص - وإن قال أنه مؤمن بالله - حتى يؤمن بالاليوم الآخر كإيمانه بالله تعالى ، وإن المفرق بينهما لا حظ له من الإيمان وإن ادعاءه ، وقد كان كثير من الكفار يؤمنون بالله ولكنهم يجحدون اليوم الآخر؛ فلم ينفعهم ذلك الإيمان وأباح الله للمؤمنين دماءهم وأموالهم لأنهم كفار .

ويتمثل كذلك ربط الإيمان بالله بالاليوم الآخر من السنة المطهرة في مثل قوله عليه السلام : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله والاليوم الآخر أن ت safar مسيرة يوم إلامع ذي محرم»^(١) ، وقال عليه السلام : «من كان يؤمن بالله والاليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله والاليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله والاليوم الآخر فليكرم ضيفه»^(٢) ، وقال عليه السلام : «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله والاليوم الآخر»^(٣) .

٢- الإكثار من ذكره في القرآن الكريم وفي السنة النبوية :

فقلما تخلو سورة من سور القرآن عن التحدث عنه وتقريره إلى الأذهان بشتى الأساليب ، من إقامة للحججة والبرهان ، أو من ضرب الأمثال ، كالاستدلال بالنشأة الأولى ، وكذا خلق السموات والأرض وإحياء الأرض

(١) صحيح مسلم : ٩٧٧ / ٢.

(٢) مسلم : ٦٨ / ١.

(٣) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

بعد موتها - على الإعادة، وما إلى ذلك من المسالك التي سلكها القرآن الكريم كما سنذكر ذلك.

٣ - كثرة الأسماء التي جاءت له في القرآن الكريم:

فقد وردت أسماء كثيرة وكلها تبين ما سيقع في هذا اليوم من أهوال^(١).
وعلمون من أساليب العرب أنهم يكثرون الأسماء للشيء إذا كان ذا أهمية وشأن، وقد نزل القرآن بلغتهم.

ولتلك العناية أسباب نذكرها فيما يلي :

٤ - بعض أسباب العناية باليوم الآخر:

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نبيه محمد ﷺ في وقت انفتح فيه كثير من الأمور التعبدية، وجهلت فيه على الخصوص عقيدة الإيمان باليوم الآخر، فلم تعد على ذلك الوضوح الذي كان في زمن الأنبياء، بل صارت بتطاول الزمن عقيدة محرفة بعيدة عن الصواب والواقع، فلم تبق من معالم الإيمان باليوم الآخر إلا بقايا رسوم؛ هي إلى الاندثار أقرب منها إلى التماسك، ليس عند جهة أو قوم بل في كل بقاع الأرض وعند كل أمة عربية أو غير عربية، اللهم إلا ما ورد عن أناس بخصوصهم من العرب بقوا على الحنيفية ملة إبراهيم.

فالعرب منهم مشركون ينكرون اليوم الآخر أساساً، وأهل الكتاب من يهود ونصارى - وإن كانوا يؤمنون باليوم الآخر عموماً - لكنهم على جهل كبير بحقيقة وما ينبغي اعتقاده فيه، وغير هؤلاء وثنيون أو مجوس لا

(١) انظر : العقائد الإسلامية : ص ٢٦١.

يؤمنون به مطلقاً عند بعضهم، وعند بعضهم الآخر يؤمنون بأن هناك عودة للروح، لكنه لا يُؤتى إلى الإيمان باليوم الآخر كما جاءت به الأنبياء بأبي صلة، كما هو الحال عند الهندوين والبوذيين وغيرهم من الفرق الصالحة.

وعلى هذا فمن أسباب تلك العناية ما يلي:

١ - إنكار المشركين لليوم الآخر أشد الإنكار، ونسبة ما يشاهدون من الإحياء والإماتة إلى الدهر، دون أن يكون هناك تنظيم لهذا التغير المستمر أو هدف من وراء هذا الخلق: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الْدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فكان من الأمور البديهية أن ينزل القرآن بتلك الحجج القوية ليشد من أزر الرسول ﷺ في مواجهة ذلك السيل الجارف من الجحود لليوم الآخر.

٢ - وكما قلنا سابقاً فإن أهل الكتاب وإن كانوا يؤمنون باليوم الآخر لكنهم لم يكونوا على العقيدة الصحيحة فيه، فقد حرقوه وبلغوا به منتهـيـةـ الـفـسـادـ، وـحتـىـ صـارـوـ فـيـ كـالـوـثـنـيـنـ مـنـ هـنـودـ وـبـوـذـيـنـ، وـذـلـكـ مـنـ نـاحـيـةـ أـنـ الـهـنـودـ يـعـقـدـونـ فـيـ كـرـشـنـةـ أـنـ هـوـ الـمـخـلـصـ لـهـمـ مـنـ الـآـلـامـ^(١).

والنصارى - بخصوصهم - يعتقدون في عيسى أنه هو المخلص لأمته من عقوبة الخطايا في الآخرة؛ فالكل في الجنة والنعيم^(٢).

وأما اليهود فقد اختلفوا في الإيمان باليوم الآخر، وحتى نفس هذا الاختلاف بعيد كل البعد عن حقيقة اليوم الآخر.

٣ - ومن الأسباب التي جعلت القرآن الكريم يهتم باليوم الآخر ذلك

(١) ، (٢) الديانات القديمة لأبي زهرة: ص ٣٠

الاهتمام الشديد، هو التأكيد على أن هذه الحياة إنما جعلت لهدف أعلى وغاية سامية، فلو لا أن هناك يوماً يجازى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بمساءته؛ لما كان هناك فرق بين عمل الخير وعمل الشر، ولا كانت هناك فضائل ولا رذائل، فالحياة فوضى والمصير مجهول ولا وازع نفسي ولا ضمير حي.

إذاً فلا عجب إن رأينا الإسلام يهتم بذكر اليوم الآخر ويبحث على الإيمان به و يجعله من أهم القضايا الأساسية التي لا يمكن أن يسمى الشخص مؤمناً إلا إذا جاء بها معتقداً صحتها في قرارة نفسه.

فالإسلام خاتم الديانات ورسوله خاتم المرسلين، ولا عجب كذلك حينما نرى ونقرأ حقائق وتفاصيل عن اليوم الآخر لم تكن معلومة عند أهل الديانات السابقة.

وهذا هو الذي حمل بعض الفلاسفة ومن سار على طريقهم على القول بأنه لم يفصح بعاد الأبدان إلا نبينا محمد ﷺ^(١)، كما تقدم.

ولأن تلك التفاصيل لم تكن معلومة لدى الكفار من قريش وغيرهم؛ نرى أن الإسلام قد سلك مسالك شتى وطرقاً متعددة في إقناع الكفار بالإيمان بالاليوم الآخر، مبيناً أن هذا الكون لابد وأن يتنهي ويزول كل أثر له، وأنه لم يخلق عبثاً دون حساب وجزاء.

وتبين الطرق التي سلكها القرآن الكريم في محاجة خصومه لإثبات البعث فيما يلي :

(١) انظر: شرح الطحاوية : ص ٤٥٧.

٣ - أدلة البعث من القرآن الكريم:

وسوف نرى كيف اهتم القرآن الكريم بذكر البعث اهتماماً بالغاً، حيث يتجلّى ذلك في كثرة الأدلة عليه وفي تنوعها في الرد على المنكرين له، وأنه سلك في سبيل توضيح ذلك طرقاً عديدة، ومنها:

١ - الإقسام على وقوع البعث:

كما نرى في الآيات الآتية:

قال الله تعالى أمراً نبيه أن يقسم برمه سبحانه وتعالى على أن البعث حق لا ريب فيه، وأنه لابد من وقوعه، ومحاسبة أولئك المكذبين المحادين له، وأن ذلك لا يعجز الله تعالى؛ بل هو عليه يسير، فقال عز وجل:

١ - ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُبَيَّنُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

٢ - وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِنَّكُمْ عَالَمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنِّي﴾ [سبأ: ٣].

٣ - وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَبِّعُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

ففي هذه الآيات البينات يأمر الله تعالى نبيه - وهو الصادق المصدق - أن يقسم على وقوع البعث والجزاء وأنه كائن لا محالة، ومعلوم أنه ولو لم يقسم عليه على وقوع البعث؛ لتلقى المؤمنون خبره بالتصديق التام وعدم وجود أدنى شك في ذلك، ولكان ذلك الإخبار كافياً لصحة ثبوته.

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد - زيادة في التأكيد والإيضاح والبيان - أن يقرن ذلك الإخبار بالقسم، فقد أمر الله نبيه أن يجيئهم بهذا الجواب في مقابلة استهزائهم وإنكارهم لأمر البعث، الذي سيعلمون إذا ماتوا ووقفوا أمام ربهم وبينت لهم الحقيقة أنهم كانوا على ضلال وجهل في نفيهم ذلك. حين زعموا أن لن يبعثوا زعماً يدل على مكابرتهم وعنادهم للحق.

ولأنهم زعموا ذلك دون أن يذكروا لهم مستندًا، فإن الله تعالى لم يقم لهم الأدلة على حصول البعث؛ بل أمر نبيه أن يقسم على أن العاد حق، وكأن حالهم لا يحتاج إلى ذكر الأدلة بل يحتاج إلى القسم حتى ينقادوا للتصديق.

وقد ذكر الإمام الرازى الفائدة من هذا القسم على وقوع البعث من وجوه فقال:

«أحدها: أن يستميلهم ويتكلم معهم بالكلام المعتمد، ومن الظاهر أن من أخبر عن شيء وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وأدخله في باب الجد.

ثانية: أن الناس طبقات: فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقى، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقى بل ينتفع بالأشياء الإقناعية نحو القسم، فإن الأعرابي الذى جاء للرسول عليه السلام وسأل عن نبوته ورسالته اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم، فكذا هاهنا»^(١).

٢- من الطرق الأخرى التي سلكها القرآن الكريم في إثبات البعث:

١- التنبية بالشأة الأولى على الشأة الثانية:

١- قال تعالى: «وَقَالُوا أَنِّدَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتًا أَنَّا لَمْ يَعُوْثُنَ حَلْقًا جَدِيدًا

(٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسِيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أُولَئِكَ مَرَةٌ فَسِينَغْضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَّ هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقْتُلُونَ إِنْ لَيَشْتَهِ إِلَّا قِيلَّا ﴿الإِسْرَاءٌ: ٤٩ - ٥٢﴾

٢ - وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرِ الإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي النَّعَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أُولَمْ رَمَةٌ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ ﴿يسٰ: ٧٧ - ٨٠﴾

٣ - وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتَرَكَ سُدًى﴾ ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنْ يُمْتَنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الرَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ﴿الْقِيَامَةٌ: ٣٦ - ٤٠﴾

٤ - وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الشَّأْنَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾
﴿الوَاقِعَةٌ: ٦٢﴾

٥ - وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ﴾
﴿الرُّومٌ: ٢٧﴾

٦ - وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أُولَئِكُنْ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾
﴿الْأَنْبِيَاءٌ: ١٠٤﴾

٧ - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثَ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْعَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ لِتُبَيَّنَ لَكُمْ وَتُنَقَّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجْلٍ مُسَمٍّ ثُمَّ نُحْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

لِتَبْلُغُوا أَشْدُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّنِي وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكِيلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿الحج: ٥﴾.

٨- وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَنَّا مَا مَتُّ لَسْوَفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦﴾ أَوْلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا ﴿مريم: ٦٦﴾.

٩- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارِ مِكَنٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْعَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْعَةَ عَظِيمًا فَكَسَوْنَا الْعَظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿٩﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَتُوْنَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبَعَّثُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

١٠- وقال تعالى: ﴿فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿١﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٢﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالرَّأْبِ ﴿٣﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٤﴾ يَوْمَ تُبَلَّى السَّرَّائِرِ ﴿٥﴾ [الطارق: ٩-٥].

وفي هذه الآيات المباركة يوضح تعالى لعباده أنه يعيد المخلوقات بعد أن يموتون ويبلوون في الأرض، فكما أنه أنشأهم أول مرة وأوجدهم من العدم لا يعجزه أن ينشئهم مرة أخرى، ومعلوم أن النشأة الأخرى تكون أهون من النشأة الأولى.

والله سبحانه وتعالي وإن كان يسهل عليه النشأة الأولى والنشأة الثانية على حد سواء لكن - القرآن يخاطب البشر - يبين لهم تنزلًا مع عقولهم دليلاً لا يستطيعون جحده ويعرفون صدقه في أنفسهم، وهو أن من قدر على النشأة الأولى فهو على النشأة الثانية أقدر من باب أولى ، فإذا كان في عرف البشر أن النشأة الثانية لأي شيء كان أسهل عليهم من النشأة الأولى؛ أفلا

يليق بالله تعالى وهو قادر على كل شيء أن تكون النشأة الثانية أهون عليه. وهذه حجة قوية ظاهرة لا يستطيع دفعها إلا من كابر عقله وأجحف في الحكم على ربه.

ومعلوم أن هذا التفاوت لا يقال على الله ، فإن الله تعالى إنما يقول للشيء «كن فيكون» ، فليس هناك جهد يبذل أو محاولات تكرر ، ولكنها كلمة واحدة يتحقق بها كل شيء يريد الله ، فمشيئته لا راد لها ، وحكمه لا معقب له ، فالذي أنشأ البشر وأوجدهم ورباهم بنعمه؛ قادر على إرجاعهم إلى الحياة مرة أخرى لجازاتهم .

وهم - وقد عرفوا النشأة الأولى من أين جاءت وكيف وجدت وكيف تنتهي - كان الأحرى بهم أن تدلهم فطرتهم على أن الذي أنشأ هذا الكائن الحي أول مرة، أنشأه من نطفة، ثم صيره علقة، ثم صيره مضخة مخلقة وغير مخلقة، ثم صير تلك المضخة عظاماً، ثم كسا العظام لحماً ثم أنشأه خلقاً آخر، ثم بعد ذلك من بتلك الظلمات العظيمة قبل خروجه إلى الدنيا طفلاً لا يملأ أي شيء، فرباه بنعمه إلى أن صار إنساناً قوياً متماسك البنية .

فإذا هو خصيم مبين، ونبي ذلك الفضل الله عليه جملة وتفصيلاً، وحارب الله علانية، حتى إذا جاءه الموت فإذا به ضعيف مسكون قد أثقل نفسه بالذنوب والآثام، وركب كل صعب وذلول؛ ليأخذ جزاءه يوم لا ينفع مال ولا بذون إلا من أتى الله بقلب سليم .

قال شمس الدين بن القيم - رحمه الله - في شرح قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رِبِّ مِنَ الْبَعْثٍ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥] «يقول سبحانه: إن كنتم في رب منبعث فلستم ترتباون في مبدأ خلقكم

من حال إلى حال إلى حين الموت، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهـما نظيران في الإمكان والواقع، فإعادتكم بعد الموت خلقاً جديداً كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها»^(١).

ويقول الرازـي في الآية الأولى من سورة الإسراء «وقالوا أئذنا كـنـا عـظـاماً ورـفـاتـاً» [الإسراء: ٤٩] إلـخـ الآياتـ . يقول عن تقرير شـبـهـةـ أولـنـكـ المـنـكـرـينـ : «فـهـيـ أـنـ إـلـاـنـسـانـ إـذـ مـاتـ جـفـتـ أـعـضـاؤـهـ وـتـنـاثـرـتـ وـتـفـرـقـتـ فـيـ حـوـالـيـ الـعـالـمـ ، فـاـخـتـلـطـ بـتـلـكـ الـأـجـزـاءـ سـائـرـ الـأـجـزـاءـ الـعـالـمـ ، أـمـاـ الـأـجـزـاءـ الـمـائـيـةـ فـيـ الـبـدـنـ فـتـخـتـلـطـ بـمـيـاهـ الـعـالـمـ ، وـأـمـاـ الـأـجـزـاءـ الـتـرـابـيـةـ فـتـخـتـلـطـ بـتـرـابـ الـعـالـمـ ، وـأـمـاـ الـأـجـزـاءـ الـهـوـائـيـةـ فـتـخـتـلـطـ بـهـوـاءـ الـعـالـمـ ، وـأـمـاـ الـأـجـزـاءـ الـنـارـيـةـ فـتـخـتـلـطـ بـنـارـ الـعـالـمـ ، وـإـذـ صـارـ كـذـلـكـ ، فـكـيفـ يـعـقـلـ اـجـتـمـاعـهـ بـأـعـيـانـهـ مـرـةـ أـخـرىـ؟ـ وـكـيفـ يـعـقـلـ عـودـ الـحـيـاةـ إـلـيـهـ بـأـعـيـانـهـ مـرـةـ أـخـرىـ؟ـ فـهـذـاـ هوـ تـقـرـيرـ الشـبـهـةـ».

ثم أجاب عن هذه الشـبـهـةـ وهذاـ الإـشـكـالـ فـقـالـ : «وـالـجـوابـ عـنـهـ أـنـ هـذـاـ الإـشـكـالـ لـاـ يـتـمـ إـلـاـ بـالـقـدـحـ فـيـ كـمـالـ عـلـمـ اللـهـ وـفـيـ كـمـالـ قـدـرـتـهـ ، أـمـاـ إـذـ سـلـمـنـاـ كـوـنـهـ تـعـالـيـ عـالـمـاـ بـجـمـيعـ الـجـزـئـيـاتـ ، فـحـيـثـنـذـ هـذـهـ الـأـجـزـاءـ .ـ وـإـنـ اـخـتـلـطـتـ بـأـجـزـاءـ الـعـالـمـ .ـ إـلـاـ أـنـهـاـ مـتـمـايـزةـ فـيـ عـلـمـ اللـهـ تـعـالـيـ ، وـلـمـ سـلـمـنـاـ كـوـنـهـ تـعـالـيـ قـادـرـاـ عـلـىـ كـلـ الـمـكـنـاتـ كـانـ قـادـرـاـ عـلـىـ إـعـادـةـ التـأـلـيفـ وـالـتـرـكـيبـ وـالـحـيـاةـ وـالـعـقـلـ إـلـىـ تـلـكـ الـأـجـزـاءـ بـأـعـيـانـهـ ، فـبـثـتـ أـنـاـ مـتـىـ سـلـمـنـاـ كـمـالـ عـلـمـ اللـهـ وـكـمـالـ قـدـرـتـهـ زـالـتـ هـذـهـ الشـبـهـةـ بـالـكـلـيـةـ»^(٢).

ثم استمر في مناقشة المـاحـدـينـ للـبـعـثـ عـلـىـ ضـوءـ الـآـيـةـ مـبـيـنـاـ أـنـ تـلـكـ

(١) أعلام المـوقـعينـ : ١٤٢ / ١.

(٢) التـفـيـرـ الـكـبـيرـ : ٢٢٥ / ٢٠.

الأجسام قابلة للحياة والعقل، إذ لو لم يكن هذا القبول حاصلاً لما حصل العقل والحياة لها في أول الأمر، وإله العالم عالم بجميع الجزيئات فلا تشتبه عليه أجزاء بدن زيد المطبع بأجزاء بدن عمرو العاصي، وقدر على كل المكنات.

وإذا ثبت أن عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكن في نفسه، وثبت أن إله العالم عالم بجميع المعلومات قادر على كل المكنات، كان عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكناً قطعاً، سواء صارت عظاماً ورفاتاً، أو صارت شيئاً أبعد من العظم في قبول الحياة وهي أن تصير حجارة أو حديداً، ثم قال: «فهذا تقرير هذا الكلام بالدليل العقلي القاطع»، ثم إن «القادر على الابتداء يجب أن يبقى قادراً على الحياة». قال: «وهذا كلام تام وبرهان وقوى»^(١).

٣- التنبيه بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى :

١- قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بِهِيجٌ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَّةٌ لَا رَيْبٌ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مِنْ فِي الْقُبُورِ ۚ 』 [الحج: ٧ - ٥].

٢- وقال تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمَحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ 』 [الروم: ٥٠].

٣- وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتَةً كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ ۚ 』 [الزخرف: ١١].

٤- وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاسِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْها ۚ 』

(١) التفسير الكبير: ٢٢٥، ٢٢٦.

الماء اهتزتْ وربتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لِمُخْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ [فصلت: ٣٩].

٥ - وقال تعالى: ﴿هُنَّ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثَقَالًا سُقْنَاهُ بَلَدٌ مَيْتٌ فَأَنْزَلَنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

٦ - وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلَنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١﴾ وَالسُّخْلَ بِاسْقَاتِ لَهَا طَلْعَ نَضِيدِ ﴿٢﴾ رِزْقًا لِلْعَبَادِ وَأَحْيَنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١-٩].

٧ - وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَيُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرِجُونَ﴾ [الروم: ١٩].

٨ - وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَشَيَّرَ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيْتٍ فَأَحْيَنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

٩ - وقال تعالى: ﴿وَآتَيْهُمُ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ أَحْيَنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَيًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

ووجه الدلالة من هذه الآيات البينات واضحة تمام الوضوح؛ بل هو من الأمور المشاهدة، أرض أصابها الجدب فإذا بأشجارها تيبس بعد نضارتها، وإذا بتلك الأرض هامدة خاشعة مستكينة قد مات منها كل شيء يدل على حياتها، فيريد الله إحياءها، فتنزل عليها الأمطار، فإذا بها قد اهتزتْ وربتْ وأنبتت من كل زوج بهيج، وكأنها لم تكن هي التي كانت ميتة بالأمس قبل أن تنطر، فإذا بشرباتها تؤتي أكلها من كل نوع، وإذا بها تكتسي حالة خضراء، وإذا بالزهور على أشكال شتى.

أفيعجز من أعاد الحياة إلى هذه الأرض الميتة والأشجار اليابسة أن يعيد إلى الإنسان حياته مرة أخرى لجازاته، وهو الذي كرمه واصطفاه على سائر من خلقه، وحمله في البر والبحر ورزقه من كل الثمرات، وأسجد له ملائكته وأرسل إليه رسالته وأنزل إليه كتبه؟! أيظن بأحكام الحاكمين وصاحب الملك والعظمة أن يترك هذا الإنسان المكلف يحيا حياته الدنيوية ثم يتنهى إلى العدم المحض؟!

لا شك أن هذا هو عين العبث الذي يتزه عنه المخلوق الناقص فضلاً عن الخالق العظيم، ولو تأمل العاقل بعقله فقط – دون الرجوع إلى كلام الله ورسله – لتبيّن له أن إحياء الله للأموات أمر لا بد منه ولا محيص عنه، يسلم بصحّته كل عاقل ويجد ضرورة في نفسه للتصديق به، لأنّه هو الحقيقة ولا مانع يحول دون التصديق.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥]: «هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامة – وهي المقلحة التي لا ينبت فيها شيء». وقال قتادة: غبراء متهمة. وقال السدي: ميتة.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] أي فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت: أي تحركت بالنبات وحيث بعد موتها، وربت: أي ارتفعت ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعمها وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] أي حسن المنظر طيب الريح». (١)

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٢٠٨.

٤ - التنبيه بخلق السموات والأرض على إحياء الموتى :

١ - قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يعِيْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىَ بِلِيْ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[الأحقاف : ٣٣].

٢ - وقال تعالى : ﴿أَلَّا تُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ [النازعات : ٢٧].

٣ - وقال تعالى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [بِلِيْ وَهُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ] [يس : ٨١].

٤ - وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء : ٩٩].

٥ - وقال تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر : ٥٧].

وفي هذه الآيات الكرييات يخبر تعالى عن وقوع البعث بالتنبيه على أمر مشاهد أمام الأنظار وهو خلق السموات والأرض ، ألم ير هؤلاء المكذبون أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهم ب قادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قادر ، فالذي يصنع الأمر العظيم لا يعسر عليه

(١) الضمير يرجع إلى الخلق . قال ابن جرير الطبرى في معناها : يقول تعالى ذكره منهاً هذا الكافر الذي قال : ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس : ٧٨] على خطأ قوله وعظيم جهله : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ . السَّبْعَ . وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ﴾ مثلكم ، فإن خلق مثلكم من العظام الرميم ليس بأعظم من خلق السموات والأرض ، يقول : فمن لم يتغذر عليه خلق ما هو أعظم من خلقكم فكيف يتغذر عليه إحياء العظام بعد ما قد رمت وبليت؟ ! . تفسير ابن جرير ٢٢ / ٢٣ .

(٢) الضمير يرجع إلى الخلق . قال ابن كثير في معناها : ﴿أَيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعِدُ أَبْدَانَهُمْ وَيُنَشِّئُهُمْ نَشَاءً أُخْرَى كَمَا بَدَأْهُمْ﴾ . تفسير القرآن العظيم ٦٦ / ٣ .

أن يصنع الأمر الصغير، فالذى يستطيع أن يبني قصراً عظيماً لا يعسر عليه أن يعيد بناء غرفة من غرفه .

وما هو هذا الكائن الإنساني بالنسبة لحجم السموات والأرض، فلولا غرور الإنسان بنفسه لرأى أنه كذرة تائهة في جانب هذا الكون الهائل من الأجرام العلوية والسفلى، وأيهما أشد في عقول البشر: خلق السموات والأرض أم خلق الإنسان؟ ولا شك أن خلقهما أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حياً بعد أن صار ميتاً، والقادر على الأقوى والأكمل لابد وأن يكون قادرًا على الأقل والأضعف^(١) .

إن هذه المقارنة تقال بالنسبة لعقل الإنسان، وإن فالكل عند الله وقدرته سواء، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] .

وما لا شك فيه كذلك أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ولعل هذه المسألة على بساطتها ووضوحها؛ قد تخفي دلالتها على إحياء الموتى على كثيرين من لم يوفهم الله للنظر في هذا الأمر وتدبره، وما سبب ذلك إلا الغفلة والإعراض عن تقبل ما جاء عن الله .

٥- إخبار الله تعالى بما وقع منبعث الحسي المشاهد في الحياة الدنيا ليكون إحياء الله للموتى في الدنيا دليلاً على البعث في يوم القيمة كما في الآيات الآتية:

١- قصة العزيز - أو غيره من ذكرهم علماء التفسير من الخلاف في تعين المار على تلك القرية^(٢) :

(١) التفسير الكبير : ٢٨ / ٣٤.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير : ١ / ٣١٤ ، والتفسير الكبير : ٧ / ٢٩ . وغيرهما من كتب التفسير.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشَهَا قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مَاةً عَامٍ ثُمَّ بَعْثَاهُ قَالَ كُمْ لَبَثْتَ قَالَ لَبَثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبَثْتَ مَاةً عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْنَهُ وَانظُرْ إِلَى حَمَارِكَ وَلْتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعَظَامِ كَيْفَ نُشِرِّزُهَا ثُمَّ نَكْسُوُهَا لِحَمَارٍ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

٢ - طلب إبراهيم من ربه مشاهدة إحياء الموتى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْلَئِمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَ جُزَءًا ثُمَّ ادْعُهُنَ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٣ - موت بنى إسرائيل الذين تنطعوا في إيمانهم واشترطوا لذلك أن يروا ربهم؛ فأخذتهم الصاعقة، ثم بعثهم الله ليريهم قدرته:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهَرًا فَأَخَذْتُكُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعْثَانَكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

٤ - إخبار الله عن قتيل بنى إسرائيل الذي أعاد الله إليه الحياة بعد ما قتل وأخبر عن قاتله معجزة لنبي الله موسى عليه الصلاة والسلام:

فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِعِصْبَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

٥ - إخبار الله تعالى عن إماتةآلاف من الناس خرجوا من ديارهم حذر

الموت ، فأماتهم الله ثم أحياهم : ﴿أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلْوَفُ حَدَرَ الْمَوْتَ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوْتُكُمْ أَحْيَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ لِلَّذِينَ فَضَلَّ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] .

٦ - إخبار الله تعالى عن أهل الكهف ، وهم فتية آمنوا بربهم وتحابوا فيه ، فآواهم ذلك الكهف الذي كان قراراً لهم إلى حين أراد الله إظهارهم :

كما قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفَ وَالرَّقِيمَ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ (٩) إِذْ أَوَى الْفَتِيَّةَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَبْنَا لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشْدًا (١٠) فَضَرَبَنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعْثَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبُثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢-٩] .

وفي هذه الآيات البينات دلالات واضحة على قدرة الله تعالى على إحياء الأموات .

وقد رأينا نماذج من إحياء الله تعالى لأناس ماتوا فأعادهم الله إلى الحياة ، ومن ذلك ما وقع من إحياء الذي مر على تلك القرية - التي ذكرها الله تعالى ، ووصفها بأنها خربة موحشة خاوية على عروشها - فوقف عندها هذا الرجل يتأمل كيف تحيى هذه القرية بعد الذي صارت إليه ، وكيف ستعود إليها أيامها التي كانت فيها في زهو واحتياط ، وفي أثناء هذا التأمل وتلك المسائلة يأتيه الجواب من الله لما خطر في قلبه بأنه هو نفسه سيكون الجواب عن سؤاله .

فأماته الله مائة عام ثم رد إليه روحه ويعشه حيًا صحيحًا لم يفقد شيئاً من شخصه ، ثم أراه الجواب شيئاً فشيئاً : طعامه أمامه لم يتغير ، وشرابه لم يأسن ، وهذا بخلاف ما يعهد به من طبيعة الأشياء ولا سيما مثل الطعام

والشراب الذي هو سريع التغير، وحماره الذي صار قطعاً عزقة وعظاماً نخرة رجعت إليه الحياة من جديد، فهذه العظام تهتز لدبب الحياة فيها، وهذه اللحوم تظهر كالكساء على العظام، وما هي إلا لحظات فإذا بالرجل والطعام والشراب والحمار كان لم يمض عليهم - رغم مرور مائة سنة - إلا يوم أو بعض يوم، ولكنه أخبر أنه مكث مائة سنة، فهل الآن سيقتصر أن الذي أحياء سيفحي الموتى ويعدهم متى شاء؟ الجواب: نعم، وقد قال هو بنفسه: «أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [البقرة: ٢٥٩].

والغرض من القصة واضح، وهو إثبات البعث بتلك الطريقة المشاهدة عياناً، «لأن تبين الإحياء على سبيل المشاهدة ما كان حاصلاً له قبل ذلك»^(١). ولقد أحب إبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - أن يريه الله كيف يحيي الموتى، ولم يقل هذا النقص في إيمانه بقدرة الله على ذلك، ولكن أحب أن يطمئن قلبه بزيادة المشاهدة عياناً، فأحيا الله له أربعة من الطيور المفرقة الأجزاء وعادت إليه كما كانت قبل الموت وكأنه لم يصبها موت ولا تقطيع لأجزائها، إذ عاد كل جزء إلى جزئه ثم جاءته من الجبال الأربع سراعاً كأن لم يصبها شيء قبل دعوته لها.

وكم لبث أصحاب الكهف في كهفهم أمواتاً إلى أن شاء الله تعالى إحياءهم، فإذا هم أحيا يطلبون أر��ي طعام من البلدة ظانين أنه لم يمض على رقدتهم في الكهف إلا يوم أو بعض يوم، وهكذا أحياهم نشأة ثانية وعادوا كما كانوا، لم ينكروا من أنفسهم أي تغير أو جديد.

والغرض من ذكر هؤلاء هو البيان والإيضاح لمن في قلبه شك في أمر البعث أن الله يحييه بروحه وجسمه كما أحيا هؤلاء الفتية وأن ذلك

ليس على الله بعزيز.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى بيان الطرق التي استعملها القرآن الكريم لإثبات البعث فقال: «فتارة يخبر عن أماتهم ثم أحياهم كما أخبر عن قوم موسى الذين قالوا: ﴿أَرَنَا اللَّهَ جَهَرًا﴾ [النساء: ١٥٣]، قال ﴿وَإِذْ قُتِلُوكُمْ يَا مُوسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهَرًا فَأَخْذُتُكُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [٦٠] ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشکرون﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦]، وعن ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتُ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوْتُوكُمْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وعن الذي مر على قرية ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مائةً عَامًّا ثُمَّ بَعْثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وعن إبراهيم إذ قال: ﴿هُرَبَ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وكما أخبرنا عن المسيح أنه كان يحيي الموتى بإذن الله، وعن أصحاب الكهف أنهم بعشوا بعد ثلاثة وتسعة سنين.

وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الأولى؛ فإن الإعادة أهون من الابداء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿فَلْ يُحِيِّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً﴾ [يس: ٧٩]، ﴿فَلِلَّهِ الْفَطْرَةُ أَوَّلَ مَرَّةً﴾ [الإسراء: ٥١]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْأُبُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والأرض فإن خلقهما أعظم من إعادة الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعِي بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وتارة يستدل على إمكانه بخلق النبات كما في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي

يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا إلى قوله : **﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾** [الأعراف : ٥٧] ^(١) .
 ورغم تلك الدلائل كلها ورغم ذلك البيان الكافي ، إلا أن المشركين لا يريدون أن يسمعوا القول الحق ، لقد عظم عليهم أن يؤمنوا بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى هي أعلى منها وأفضل من أطاع الله ، وأنفس منها وأنكى من عصى الله ، ولكن الإيمان بهذه الحقيقة سيكلفهم عبادة رب واحد وطاعة إله واحد ونبذ ما ألفوه وما صنعوا من آلهة لا تضر ولا تنفع ، وهذا أمر عسير جداً على نفوسهم ، عسير عليهم أن ينبذوا تلك الآلهة التي شربت قلوبهم حبها .

لقد عظم على المشركين أن يؤمنوا بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى أجمل وأعظم منها ، فهم لا يريدون أن يصدقو بأنهم إذا كانوا تراباً وعظاماً أن يعودوا في خلق جديد ، فهذا من الأمور العجيبة المستحيلة في خيالهم ، ذلك أنهم قاسوا قدرة الله على قدرة المخلوق ، فكما أن المخلوق يستحيل عليه أن يعيid البيت حياً ، فكذا في مقياسهم قدرة الله ، لأنهم لم يقدروا الله حق قدره .

ولهذا فهم على إصرار بأنه ليس أمامهم إلا حياتهم الدنيا يحيون ويموتون ويتهي كل شيء ، فلا إعادة ولا حساب ، ولا عقاب ، ولا جنة ، ولا نار ، شأنهم في ذلك شأن النبات ، بل تجاوزوا في استكبارهم إلى حد أنهم يتحدون الرسول بمحاجة العذاب والبعث صراحة فيقولون : **﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [الأنبياء : ٢٨] ، وذهبوا إلى أن القول بالبعث إنما هو من أساطير الأولين ، فقد سمعوا أن آباءهم أيضاً كذلك أنذروا اللقاء الله ، ومع أن هذا دليل قوي على تأصل فكرة البعث عند الناس ،

لكنهم استدلوا به على عكس ما كان ينبغي ، فالأولى بهم أن يقولوا : إن هذا الوعد ليس بجديد علينا فقد أذنر به من كان قبلنا مما يدل على صحة وقوعه ، ولكنهم - والأمور معكوسة لديهم - جعلوا هذا دليلاً على أن الإيمان به مستحيل لأنه من الأساطير ، وصاروا يسخرون ويستهزئون بمن يؤمن بالبعث بأنه مفتر وبأنه مجنون وبأنه ساحر إلى آخر ذلك السباب الذي يدل على انقطاعهم وحياتهم .

وبعد أن كاد نور الحق يسطع في قلوبهم سول لهم الشيطان أن يطلبوا مطلبًا غريباً ، وهو أن يأتي الرسول بآبائهم إن أراد أن يؤمنوا بالبعث ، وما علموا أن الله لا يشاء هذا بل ولا تقتضيه حكمته ، ولن تجد لسنة الله تبليلاً .

وعلى هذا فقد أرجعوا حياتهم وموتهم إلى الدهر ليكونوا على منأى بعيد عن الله وعن التصديق باليوم الآخر ، ولكن سوف يأتي الوقت الذي يصدقون فيه بذلك اليوم حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا هم ينصرون .

٤- أدلة البعث من السنة :

وكلما حصلت العناية في القرآن الكريم بذكر البعث وإبرازه في صور متعددة جلية ، فقد حصلت العناية كذلك من النبي ﷺ ، فقد كان دائم الحث على الإيمان به والدعوة إليه ، لا يفتر عن ذلك في كل مناسبة ، ولهذا فقد وردت أحاديث كثيرة جداً فيه تحمل صوراً عديدة لأمر البعث ولكيفية الخشر والحساب والجزاء والشفاعة وطول ذلك اليوم وكيفية نزول رب فيه ومجيء الناس فيه أشتاتاً . وهكذا .

ونذكر هنا أسباباً أخرى من عناية الرسول ﷺ باليوم الآخر ، بالإضافة

إلى ما ذكرناه سابقاً من عنابة القرآن الكريم بذلك، وهي:

- ١ - أنه قد أمر بتبليغ كافة البشر ما ينفعهم وما يضرهم وما يقربهم إلى ربهم ويوصلهم إليه، ومن أوليات ذلك الإيمان برجوعهم إلى ربهم، وما يستلزم ذلك الرجوع من استعداد للعمل الصالح، فإن الإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل الصالح والبعد عن الأعمال الشريرة.
- ٢ - أن الإيمان باليوم الآخر وحشر الأجساد والعرض على الله كان أمراً في غاية الاستبعاد عند الكفار من قريش وغيرهم، ولهذا كان الصراع بينه وبينهم في هذا المجال من الأمور الأولية؛ لأنه لا يؤمن أحد إلا إذا آمن باليوم الآخر.
- ٣ - كان يهدف ﷺ من تقريب اليوم الآخر إلى أذهان المنكرين له والمكذبين به إلى أمر له ما بعده؛ فقد كان يعلم ﷺ أن الكفار إذا آمنوا باليوم الآخر وانقادوا له فإن الإيمان بالأمور الأخرى سيكون من باب أولى، ولهذا كان يحرص دائمًا على التذكير به والدعوة إليه في كل مناسبة؛ مبالغة في الصيحة وإيصال الخير إلى البشرية الجاهلة بأساليب متعددة تختلف باختلاف المخاطبين ومقدار حاجتهم.

ولكثرة الأحاديث الواردة في ذلك فإننا سنكتفي بالإشارة إلى أماكنها، ذلك أن كل ما ثبت به النص مما يجري في الدار الآخرة كلها ثبت وتدل على البعث، كإخباره ﷺ عن نسمة المؤمن أنها طير تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسدها يوم القيمة^(١)، وهكذا جميع ما ورد من الأحاديث التي تدل على أخبار اليوم الآخر وما يقع فيه، كلها ثبت أيضاً البعث إما

صراحة أو ضمناً، لأنه لا يقع في يوم القيمة شيء إلا وقد تقدم البعث قبله، وكذلك ما وردت به النصوص مما يقع في الحشر وكيفيته والحساب والجزاء والعرض وغير ذلك، كل هذه الأمور لا تقع إلا بعد البعث كما هو معلوم^(١).

٥- دلالة العقل على البعث:

إن فكرة البعث عميقه في نفوس البشر منذ أن أوجد الله البشرية على هذه الأرض إلى أن تقوم الساعة. وحتى قال بعضهم: إن الإيمان بالبعث من قبل الغرائز والفطر التي فطر الله الناس عليها، وإن ما وجد من انحراف عند منكري البعث، أو عن اعتقادات غريبة وخاطئة فيه، فلا شك أنه من نتيجة الجهل وتطاول الزمن وفساد الفطر الذي أخذ يمحو عقيدة البعث الصحيحة التي جاءت بها الرسل شيئاً فشيئاً حتى لم تبق منها إلا تلك الومضات الخافتة.

وقد أخبرنا الله في القرآن الكريم أنه لم تخل أمة من الأم من نذير، وليس من العقول أن يغفل ذلك النذير أهم ما يدعوه إليه وهو الإيمان بالله واليوم الآخر.

ألم يكن الأساس الذي خلق الله لأجله الخلق من إنس وجن هو عبادته سبحانه وحده، وبها يثيب ويعاقب؟ وإلا لكان هذا الخلق عبثاً لا غاية له ولا هدف.

(١) انظر: صحيح البخاري ١١٤، ٤٥٠/٦، ٦٠/١٣، ٣٣٨/٤، ٢٤٣، ١٣٦/٣، ٢٧٨/١١، ٦٩٠، ٣٧٧. وانظر: صحيح مسلم ١/٣٧، ٢٢٠٦/٤، ٢٢٠٦، وص ٢٢٠٨ إلى ٢٢١٠، وص ٢١٩٩، وص ٢١٩٤، ٨٦٤/٢. وانظر: سنن ابن ماجه ١/٢٥، ٣٢، ١٣٥١، ١٤٢٩، وص أبي داود ٢/١٤، ص ٢٠. وسنن الترمذى: ٣/٣٨٣، وص ٤٤٠/٥. والمستند: ٤/١٠٨.

إن من يظن أن هذا الكون ليس له غاية ولا نهاية قد افترض في عقله أن هذه الحياة عبث ولهم ولعب وتفاخر في الأموال والأولاد فحسب، ولكن الله يريد هذا الافتراض ويهدى من يعتقد به قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ثم قال تعالى مبيناً السر في هذا الخلق والغرض منه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْدُونَ﴾ [٥٦] ما أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونَ [٥٧] إنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّينُ [الذاريات: ٥٨، ٥٦].

وإذا كان الله قد خلقهم لعبادته وتکفل برزقهم وإطعامهم وهو الرزاق ذو القوة المتين، وجعل كل ما في الكون في خدمة الإنسان وله، فإن هذا يعني أن جزاء حاسماً لا بد أن يلحقهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره [٧] ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره [الزلزلة: ٧، ٨]، أي فلا يهتم الإنسان إلا بالعمل فقط، وسيجد النتيجة مرصودة أمامه، وسيجيئ ثمارها يوم يقف بين يدي ربه ليس معه إلا ما قدم في حياته الدنيا قبل نهاية عمره.

وإذا كان لابد من الفناء فلابد من العمل، لأن ذلك الفناء الإنساني إنما هو بداية أخرى لحياة أخرى، إما نعيم لا يتنهى وإما عذاب لا ينقطع، وقد بين الله للخلق تفاصيل ذلك كله؛ فليطلب الإنسان الحياة التي يريدها في الآخرة؛ فلا بد من الجزاء ولا يظلم ربك أحداً.

وإذا كان الفناء حقيقة لا محيد عن الإيمان به، فإن البعث كذلك حقيقة لا محيد عن الإيمان به، والعقل السليم لا يرد الإيمان بالبعث بل يوجبه، وكيف لا وهو يشاهد الآثار الدالة عليه أينما وقعت عليه عيناه؛ ذلك أن

الأدلة العامة التي تدل على المعاد جملة^(١) مشاهدة مألوفة لا تحتاج إلا إلى العقل السليم ليدرك حقيقة وقوع المعاد، يتساءل العاقل وهو يشاهد هذه المخلوقات تُخلق ثم تُفنى، ويشاهد كذلك تصرفات تلك المخلوقات في حياتها الدنيا، فهذا ظالم وذاك مظلوم، وهذا معطى وذاك محروم، وهل هذه الحركات الدائبة التي تعمر الأرض يكون نهايتها الفناء الأبدي؟ هؤلاء الذين يموتون إلى أين يذهبون؟ أين تلك النفس التي كانت تعمر هذا الجسد؟ لا بد وأنها انتقلت من هذا الجسد إلى جهة أخرى.

إن عليها حساباً وعقاباً؛ فالحياة ليست عبئاً، لم يخلق هؤلاء المخلق بدون هدف ولا غاية، ومن هنا يعلم العاقل أن وراء هذه الحياة حياة أخرى.

ولقد أحسن قس بن ساعدة حينما قال: «أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، أما بعد: فإن في السماء خبراً وإن في الأرض لبراً، نجوم تدور، وبحار تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، أقسم قس بالله قسماً لا حانثاً فيه ولا آثماً، إن الله لدينا هو أرضي من دين أنتم عليه، مالي أراهم يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناماً...»^(٢) إلخ.

وإن من أدل الدلائل على البعث أمر معروف لكل أحد يجده كل شخص في نفسه، فهو يعلم أنه يموت ويبعث وهو في هذه الحياة الدنيا، ذلك أنه

(١) أي بخلاف التفصيل فإنه لا يعلم أمر المعاد مفصلاً إلا بالاستناد إلى الأدلة السمعية كما قال ابن قيم الجوزية رحمه الله، فإنه بعد أن ذكر أن أصل الثواب والعقاب هل يعلم بالعقل مع السمع أولاً يعلم إلا بالسمع وحده؟ وأن فيه قولين لنظار المسلمين، قال: «والصحيح أن العقل دل على المعاد والثواب والعقاب إجمالاً، وأما تفصيلاً فلا يعلم إلا بالسمع». حادي الأرواح: ص ٢٥٧.

(٢) انظر: مروج الذهب ٦٩ / ١

يموت حين ينام فلا أكل ولا شرب ولا كلام ولا إحساس ولا فكر ولا تدبر، فإذا ما أفاق من نومه عادت إليه الحياة من جديد، ولهذا كان يقول الرسول عليه السلام حينما يستيقظ من نومه: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(١).

وهذه الحالة التي يمر بها الشخص تشبه تماماً الموت الأكبر والبعث الأكبر، لا ينكر هذا إلا فاسد العقل لأنها مسألة ظاهرة الدلالة على البعث، وكان عبد المطلب يقول: «إنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى يتقم الله منه وتصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل ظلوم حف نفسه لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك، ففكر وقال: والله إن وراء هذه الدار داراً يجزي فيها المحسن بإحسانه ويعاقب فيها المسيء بإساءاته»^(٢).

قال محمد بن علي الشرفي معلقاً على قول عبد المطلب في أمر البعث حينما أعمل فكره في خروج ذلك الظالم من الدنيا معافي، قال: «فظاهر قوله: «ففكر» أنه أدرك بفطرته السليمة أنه لا بد من الدار الآخرة إجمالاً، وقد جاء الشرع مطابقاً ومتضمناً لتفصيل ذلك، وتقرير ما ذهبت إليه العقول الصحيحة وأدركته بالإيمان والإلهام مع التوفيق، ونبذ العناد والأوهام»^(٣).

ومن أدرك كذلك أمر المعاد إجمالاً زهير بن أبي سلمى فقد كان «يمر بالعضة وقد أورقت بعد يبس فيقول: لو لا أن تسبني العرب لآمنت أن الذي

(١) أخرجه البخاري: ١١٣/١١، ومسلم: ٤/٢٠٨٣.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ٢٣٩/٢.

(٣) نير البرهان في توطيد عقائد الإيمان ١/٧٣.

أحياك بعد يس سيحيي العظام وهي رميم^(١)، فهو في حيرة من أمره بين أن يصدق عقله في هذا الأمر ويتعرض لسخط العرب وبها فيؤمن بأن الذي أحيا تلك الشجرة العظيمة بعد يس قادر على أن يحيي هذا الإنسان وهو أكرم على الله من تلك الشجرة، وبين أن يجاري ما عليه العرب من عدم الإيمان بالبعث فيكون قد كابر عقله وخدع نفسه، وهذا مما يدل على أصالة الإيمان بالمعاد في نفوس الناس قديماً وحديثاً وإن كابر المكابرون.

وقد ذكر الشهريستاني - رحمه الله - أن من العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ثم ذكر مجموعة من هؤلاء العرب الذين صفت عقولهم فأمنوا بالبعث، واستشهد لكل منهم بقوله الذي يدل على إيمانه بالبعث، نكتفي بذكر الأسماء فقط وهم:

- ١ - عبد المطلب.
- ٢ - زيد بن عمرو بن نفيل.
- ٣ - أمية بن أبي الصلت.
- ٤ - قس بن ساعدة الأيادي.
- ٥ - عامر بن الظرب العدواني.
- ٦ - النابغة الذبياني.
- ٧ - زهير بن أبي سلمى المزنى.
- ٨ - علاف بن شهاب التيمي.
- ٩ - جريبة بن الأشمر الأسدي.
- ١٠ - عمرو بن زيد بن المتنبي.

(١) الملل والنحل للشهريستاني ٢٤٤/٢

وغير هؤلاء، وليس الغرض الاستشهاد بهؤلاء على أصلية البعث في نفوس الناس، ولكن الغرض ذكر من شهر عن الإيمان به مجرد تفكيره الصحيح، وإلا فالإيمان بالبعث قضية لا تحتاج إلى الأخذ والرد في مجملها إلا مع من سفة نفسه وانحط إدراكه.

قال الراغب الأصفهاني: «لم ينكر المعاد والنشأة الآخرة إلا جماعة من الطبيعين، أهملوا أفكارهم وجهلوا أقدارهم وشغلتهم عن التفكير في مبدئهم ومنتسبهم شغفهم بما زين لهم من حب الشهوات المذكورة في قوله تعالى: ﴿رَبِّنَا لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقْنَاطِرَةِ مِنَ الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمِةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرَثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

ثم قال: فلو لم يكن للإنسان عاقبة يتنهى إليها غير هذه الحياة الحسيسة المملوءة نصباً وهماً وحزناً، ولا يكون بعدها حال مغبوطة، لكان أحسن البهائم أحسن حالاً من الإنسان»^(١).

وهذا هو الاعتقاد الصحيح، والذي عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم من أولهم إلى آخرهم.

يقول البغدادي في بيان الأصول التي أجمع عليها أهل السنة: «وقالوا إن الله عز وجل يعيid في الآخرة الناس وسائر الحيوانات التي ماتت في الدنيا»^(٢).

وهذا هو التعبير الذي يقوله جميع السلف ويذكره عنهم كل من كتب عنهم.

(١) انظر: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٣٤٨

ورغم أن هذه القضية من الأمور المعلومة بداعها وقد جرى عليها الناس قدّيماً وحديثاً، نجد أن هناك أقواماً لم تصل هذه الحقيقة إلى قلوبهم فأنكروا البعث أو حرفوه عن حقيقته إلى صور بعيدة خرافية.

وحيث إن المقام لا يستدعي عرض شبهة أولئك النفاة ومناقشتهم في كل ما ذهبو إليه وإبطال أدلةهم الباطلة، لكن نذكر أن من أولئك النفاة للبعث فرقة البراهمة^(١) كما يذكر البيروني^(٢)، والبودذين^(٣)، وشركي العرب^(٤)، وكذا الصابئة^(٥)، والمعطلة فيما يذكر الجيلاني^(٦) ولعله يقصد معطلة العرب الذين سماهم الشهير سطاني معطلة العرب، وفرقة الحرنانية من الصابئة^(٧)، وفرقة الهندوس^(٨).

ومن أنكره كذلك جماعة من اليهود^(٩) كما عبر عن ذلك التلمود ، ومنهم السامرية^(١٠) ، والصدوقيون^(١١) ، وجميع الدهريّة: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. ومن أنكره أيضاً فيما يذكر الأشعري غلاة الروافض^(١٢) على تفصيل فيهم، ومن الذين

(١) هي أكبر الديانات في الهند.

(٢) تحقيق ما للهند من مقوله: ص ٣٨.

(٣) انظر: مشاهد القيامة في القرآن: ص ٢٦.

(٤) انظر: الملل والنحل: ص ٢/ ٢٣٥، ٢٣٦. ج ٢.

(٥) انظر: الملل والنحل ٢/ ٥٥.

(٦) الغنية ١/ ٦٩.

(٧) الملل والنحل: ٢/ ٥٥.

(٨) انظر السابق: ٢/ ٢٥٥.

(٩) انظر: الأسفار المقدسة للدكتور عبد الواحد ص ٥٨.

(١٠) انظر: الفصل لابن حزم: ١/ ٩٩.

(١١) انظر: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام للدكتور عبد الواحد ص ٥٦.

(١٢) انظر: المقالات ١/ ١١٩.

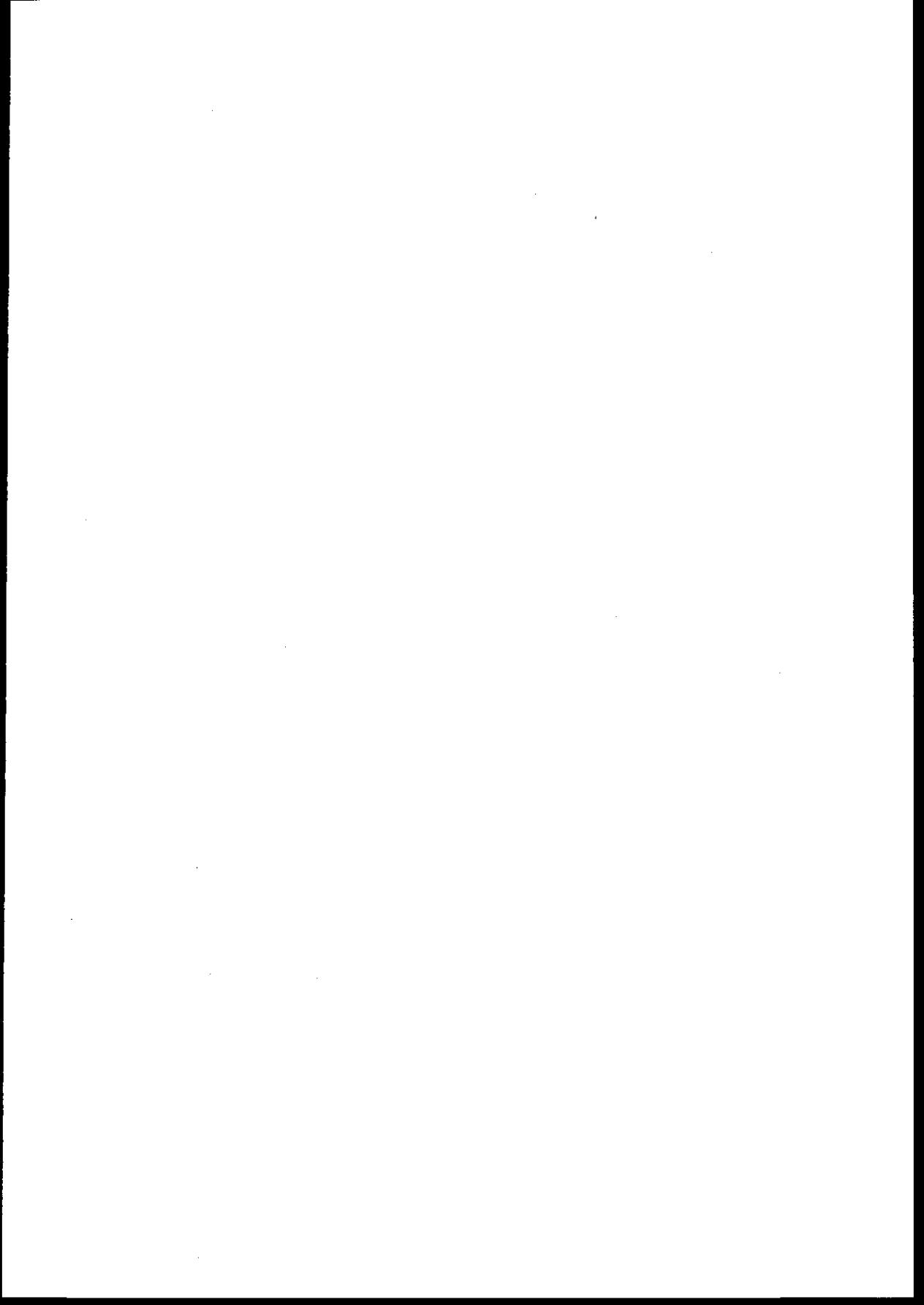
أنكروه كذلك فرقة البهائية^(١).

وقد قسم الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله منكري البعث إلى أربعة أصناف: جمهور الفلاسفة الدهرية والطباشية، وطائفة من الدهرية يقال لهم الدورية، والدهرية من مشركي العرب وملحدة الجهمية^(٢) كما سنذكر ذلك مفصلاً.

* * *

(١) انظر: البهائية تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية ص ٢٧٥

(٢) انظر: معارج القبول ٢/١٩٩.



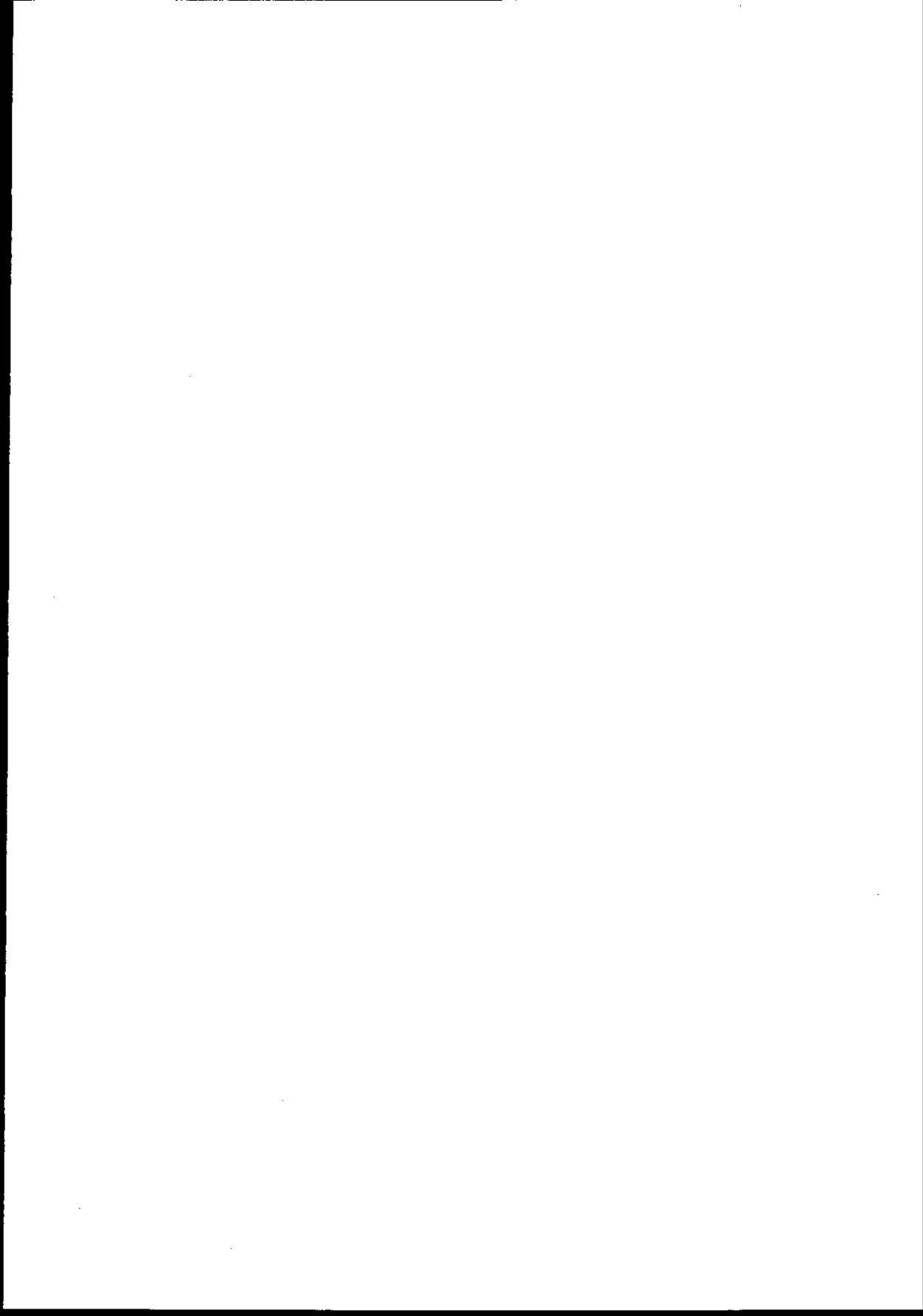
الفصل الخامس

المنكرون للبعث وأقسامهم

١ - المنكرون للبعث مطلقاً

٢ - المنكرون لبعث الأجساد

٣ - الذين يقولون بالتناسخ



الفصل الخامس

المنكرون للبعث وأقسامهم

ذكرنا فيما مضى أن الإيمان باليوم الآخر يعد من أعظم الأمور استبعاداً عند الكفار، ويعد أكبر قضية ينزعون فيها هي وإفراد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وأنه ما من نبي إلا وهم يقفون في وجهه ويصدون دعوه بكل ما يستطيعون قائلين ﴿أَجْعَلَ الْآتِيهِ إِلَيْهَا وَاحْدَاءً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص:٥]، ﴿إِنَّا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتًا أَئْنَا لَمْبَعُوْثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ [الإسراء: ٤٩].

إن هذا من أعظم المستحبلات في خيالهم السقيم الجاهلي، وهم في إنكارهم هذا لم يستندوا إلى أي برهان لا من النقل ولا من العقل، وإنما استبعدوا ذلك فحسب، ثم يسألون أسئلة المنقطع الحائر: كيف يرجع من مات وقد تحلل وصار تراباً؟ لماذا لم يرجع آباءنا؟ متى يكون البعث؟ ﴿أَتُؤْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] . . . إلى غير ذلك من الأسئلة التي يقصدون بها نفي وقوع البعث.

وكل هذه الأسئلة إنما تعبّر عن جهلهم وغفلتهم عن حكمة الله في خلقه، ولو أنهم أعملوا أفكارهم باتزان ونظروا إلى الحق بعين المفهوم المتقبل أو النافذ المنصف لرأوا أن تلك الأسئلة إنما هي تعبر عن الجهل والبساطة الساذجة التي هم عليها.

وسنبين فيما يلي مذاهب هؤلاء المنكرين للبعث ثم الرد عليهم ببيان

حقيقة البعث كما في الكتاب والسنّة وأقوال علماء السلف، وينبغي أن نعرف أولاً أن المنكرين للبعث من الكفار درجات: فمنهم من أنكره مطلقاً وأنكر كل ما جاء به الحق من تفاصيله، ومنهم من أنكر البعث وقال بتناسخ الأرواح فقط، ومنهم من فرق بين بعث الروح والجسد؛ فقال بالأول، وأنكر الثاني. وهو بعث الأجساد - كما ذهب إليه الفلاسفة الإلاهيون، ومنهم من قال بعكس ذلك وهو ثبوت المعاد الجسماني فقط كما ذهب إليه أكثر المتكلمين، ومنهم من ذهب إلى مذاهب أخرى وأراء بعيدة عن الحق.

وحيث إن البحث لم يخصص لذكر البعث بكل تفاصيله، فإننا - كما ذكرنا آنفاً - سنين يأي جاز من ذهب إلى إنكار البعث ثم الرد عليهم ببيان حقيقة البعث كما في الكتاب والسنّة، ثم نذكر بعض أقوال السلف.

* * *

١- المنكرون للبعث مطلقاً

ومن هؤلاء النفاة بعض الفلاسفة الذين اعتقدوا عدم البعث مطلقاً، فلا إعادة للأجسام الميتة بعد أن انعدمت فيها طبيعة الحياة وأصبح هذا الميت ذرة من ذرات الكون، ولا هناك حساب ولا جزاء ولا جنة ولا نار، إنما هي الحياة الأولى فإذا انتهت انتهى كل شيء بالنسبة لصاحبها.

وإذا كان هؤلاء قد أنكروا البعث مطلقاً فإنهم قد زادوا إلى إنكارهم فرية عظيمة على الله وعلى رسله كما يحدثنا الشهير ستاني عنهم بقوله:

«الفلاسفة الإلهيون قالوا: الشرائع وأصحابها أمور مصلحية عامة، والحدود والأحكام والحلال والحرام أمور وضعية، وأصحاب الشرائع رجال لهم حكم عملية، وربما يؤيدون من عند واهب الصور بإثباتات أحكام ووضع حلال وحرام مصلحة للعباد وعمارة للبلاد».

وما يخبرون عنه من الأمور الكائنة في حال من أحوال عالم الروحانيين من الملائكة، والعرش والكرسي، واللوح، والقلم، فإما هي أمور معقولة لهم قد عبروا عنها بصور خيالية جسمانية، وكذلك ما يخبرون به من أحوال المعاد من الجنة والنار مثل قصور، وأنهار، وطيور، وثمار في الجنة؛ فترغيبات للعوام بما تميل إليه طباعهم، وسلسل وأغلال وخزي ونکال في النار، فترهيبات للعوام بما تزجر عنه طباعهم، وإلا ففي العالم

العلوي لا يتصور أشكال جسمانية وصور جرمانية»^(١).

وأي فرية على الله وعلى رسله أكبر من هذه، وأي مسلك أفحش من هذا المسلك المكذب بجميع الأديان.

ومن الذين أنكروا البعث كذلك بعض العرب، وقد تحدث القرآن الكريم والسنّة النبوية عن مواقفهم تجاه البعث وبين شبههم ورد عليهم مبطلاً تلك الشبه في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

والعرب كما هو معلوم عاشوا في انعزازٍ تامٍ عن حضارات وديانات الأمم من حولهم، ولكن تسربت إليهم الوثنية والقول بالتناسخ وغير ذلك من الأقوال بسبب تسرب تلك الأفكار إليهم وتأثّرهم بها رغم وجود بعض أهل الكتاب إلى جوارهم.

فإن هؤلاء قد انحرفوّا هم أيضاً في عقائدهم انحرافات بعيدة شائنة، ومن ذلك عقيدتهم بالبعث، فكانوا ينكرونـه أشد إنكاراً ووقفوا من الإيمان بالبعث المواقف التي تحدث عنها القرآن الكريم في كثير من الآيات فقال تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَعْثُثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حِيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْلُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

(١) الملل والنحل (٤، ٣/٢).

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَّنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

وآيات كثيرة كلها تتحدث عن موقف هؤلاء الضلال الذين استولى عليهم الشيطان وغير عقائدهم وأبعدهم عن طريق ربهم أيما إبعاد.

وقد ذكر العلامة الشهيرستاني أصناف العرب بالنسبة لوقفهم من قضية الإيمان بالله وكذا البعث فقال: «الفصل الأول: معطلة العرب: وهم أصناف:

١ - منكرو الخالق والبعث والإعادة :

فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني ، وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] ، إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي ، وقصر للحياة والموت على تركبها وتخللها ، فالجامع هو الطبع والمehler هو الدهر ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدُّهُرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَظْنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] ثم ذكر أدلة القرآن في رده عليهم .

٢ - منكرو البعث والإعادة :

وصنف منهم أقرروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة ، وهم الذين أخبر عنهم القرآن ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

٣ - منكرو الرسل: عباد الأصنام :

وصنف منهم أقرروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة ، وحجوا إليها ونحرروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربيوا إليها بالمناسك

والمشاعر وأحلوا وحرموا وهم الدهماء من العرب»^(١).

وفي قول الشهيرستاني: «نوع من الإعادة» هذه اللفظة فيها غموض؛ إذ المعروف أن من يؤمن بالإعادة والبعث يؤمن به كاملاً لانواعاً منه، ثم ما المراد بهذا النوع من الإعادة هل هي إعادة الأجسام فقط أو إعادة الأرواح فقط دون إعادة الأجسام؟ والظاهر أن كلام الشهيرستاني يصدق على هذا، لكن الكثرة الكاثرة منهم وهم الذين سماهم الدهماء كانوا على إنكار البعث مطلقاً، أو ربما يريد الشهيرستاني أن هؤلاء الذين ذكرهم كانوا يؤمنون بالبعث وعبر عنه بقوله: «نوع من الإعادة»، فإن كان هذا هو المراد فظاهر أنه لا يسمى نوعاً من الإعادة بل هو القول بالإعادة.

* * *

(١) الملل والنحل (٤، ٣/٢).

٢- المنكرون لبعث الأجساد

وهناك قسم آخر من الفلاسفة أنكروا بعث الأجساد رغم وضوح دليله وإجماع أهل الملل على اعتقاده، وسنذكر في الرد على منكري البعث وحقيقة في الكتاب والسنة ما يثبت وقوعه ويدحض شبه القائلين باستبعاده. وهؤلاء قد نفوا وقوعه وعدم جوازه فيما يذكره عنهم أهل العلم.

قال الإيجي: «المقصد الثاني في حشر الأجساد: أجمع أهل الملل عن آخرهم على جوازه ووقوعه وأنكرهما الفلاسفة»^(١).

ويقول ابن أبي العز عنهم: «وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى وينكرون معاد الأبدان»^(٢).

وقال ابن الجوزي: «وقد أنكرت الفلاسفة بعث الأجساد ورد الأرواح إلى الأبدان»^(٣).

وهم بلاشك يخالفون -في هذا الإنكار- جميع ما عليه أهل الإسلام، وقد أضافوا إلى إنكار بعث الأجساد إنكار وجود الجنة وما فيها من الحور العين وسائر ما وعد الله به أهلها من أنواع المأكل والمشارب والمساكن، وأنكروا كذلك وجود النار الجسمانية وقالوا: «إن كل ذلك أمثلة ضربت لعوام الخلق

(١) المواقف: ص ٣٧٢.

(٢) شرح الطحاوية: ص ٤٥٧.

(٣) تلبيس إبليس: ص ٤٧.

لفهم ثواب وعقاب روحانيين هما أعلى رتبة من الجسمانيين^(١)، بل زعموا أن الأنبياء تخيلوا ما ورد في الشرع لأجل مصلحة الخلق، «وذلك ما يتقدس عنه منصب النبوة»^(٢). كما قاله الإمام الغزالى رحمه الله .

ويقول ابن رشد في بيان ذلك: «وكذلك الأمر فيما قيل في المعاد هو أحدث على الأعمال مما قيل في غيرها، ولذلك كان تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَثُلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَقْرُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الرعد: ٣٥] ، وقال عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر بخاطر بشر»^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ليس في الآخرة من الدنيا إلا الأسماء^(٤)، وقال أيضاً: «إنهم -يعني الأنبياء أصحاب الشرائع- رأوا أن التمثيل بالمحسوسات هو أشد تفهيمًا للجمهور، والجمهور إليها وعنها أشد تحركاً، فأخبروا أن الله يعيد النفوس السعيدة إلى أجساد تنعم فيها الدهر كله بأشد المحسوسات نعيمًا وهو مثلاً الجنة، وأنه تعالى يعيد النفوس الشقيقة إلى أجساد تتأذى فيها الدهر كله بأشد المحسوسات عذاباً وهو النار»^(٥) .

وهذا ما عنده ابن أبي العز حين ذكر أن الفلسفه أنكروا البعث وما جاء

(١) تهافت الفلاسفة: ص ٢٨٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٩٢.

(٣) نص الحديث في البخاري: عن النبي ﷺ قال: قال الله: أعددت لعبادِي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، البخاري (٤٦٥/١٣).

(٤) تهافت التهافت: ص ٨٧٠.

(٥) مناجي الأدلة في عقائد الملة: ص ٢٤٣.

من تفاصيله، وأنهم «جعلوا هذهـ يعني ذكر تفاصيل أمور الآخرةـ حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري»^(١).

ويؤكد إنكارهم للبعث الجسماني وما فيه من نعيم مادي أيضاً الفيلسوف «خوجه زاده» فيقول في معرض تعداده للخلاف في أمر المعاد: «وثانيةها: ثبوت المعاد الروحاني فقط وهو قول الفلسفة الإلهيين»^(٢).

وقد اضطرب كلام ابن سينا حول الإيمان بقضية البعث الجسمانيـ كما يظهر ذلك فيما حرقه الدكتور سليمان دنيا في تعليقه على ما ذكره الغزالى عن الفلسفـ فقد نقل سليمان أقوالاً مضطربة مطولة للفلاسفة خلاصتها أن رأى ابن سينا في البعث يتمثل في شطرين :

١ـ شطر رجع فيه إلى الشريعة المحمدية وما جاء فيها عن بعث البدن ونعيمه وعدابه، وقد آمن بكل ذلك وأذعن له.

٢ـ شطر رجع فيه إلى العقل وما تأدى إليه من بعث الروح ونعيمها وعدابها، وقد حكى كل ذلك أيضاً حكاية المذعن المؤمن.

قال سليمان دنيا: «والذي لا يستطيع المنصف أن يماري فيه أن ما جاء في الشطر الثاني يكاد يودي بما جاء في الشطر الأول؛ إذ قد جعل مناط السعادة والشقاوة في الخلاص من البدن، فالنفوس التي توفرت لديها أسباب السعادة إنما كان يمنعها من الشعور بها البدن، فإذا خلعته وتخلصت منه استذوقت سعادتها واستكمالتها، والنفوس التي توافرت لديها أسباب الشقاوة إنما كان يحول بينها وبين الشعور بها البدن وشواغله فإذا ألقته جانبًا تأذت وتتألمت.

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٥٧.

(٢) تهافت الفلسفة (٢/١٠٧)، ط. مصر سنة ١٣٢١ هـ.

ولقد ورد في عبارته ما يفيد أن كلا الصنفين من النفوس سيفارق بدنه إلى غير رجعة، ومعنى هذا إنكار البعث الجسماني وما يترب عليه من نعيم البدن وعذابه، فهل كان ابن سينا يعني ما جاء في الشطر الثاني وإنما ذكر الأول تقية؟ هذا محتمل، أم هو الاضطراب الذي كان ظاهرة شائعة في الفلسفة الإسلامية من جراء إيمان أصحابها بمصدرين مختلفين واعتقادهم فيها العصمة والزراهة؟ إن كان الأول فلماذا لم يستشعر «ابن سينا» التقية في غير هذه المسألة مما لا يقل خطره في نظر خصوصه عن خطرها كالقول بقدم العالم؟ وإن كان الثاني فكيف غاب عنه هذا التناقض الواضح بين الجانبين، فإن كلاً منها ينفي ما يثبت الآخر؟

في الحق إن موقف ابن سينا في هذه المسألة غامض ورأيه فيها مضطرب».

ثم ذكر الدكتور دنيا أن ترجح أحد هذين الشطرين على الآخر - كما فعل الغزالى - حين بنى على أحد الشطرين تكفير الفلاسفة أمر لا يوافقه عليه.^(١) وقد ذهب إلى إنكار بعث الأجساد بعض طوائف من النصارى، كما سذكر موقف الديانتين الكبيرتين اليهودية، والنصرانية من قضية البعث فيما يلي :

البعث عند اليهودية:

أما بالنسبة للبعث عند أهل الديانتين الكبيرتين اليهودية، والنصرانية، فإن ما يجدر ذكره أولاً بالنسبة لقضية البعث عند اليهود: أن الديانة اليهودية التي جاء بها موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كانت مشتملة على ذكر وجوب الإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء كما حكى الله عنهم هذا المعتقد

(١) انظر: تهافت الفلاسفة ص ٢٩٥.

في كتابه الكريم، كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةً قَوْمًا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» [يوسف: ٣٧]، وقال تعالى عنه : «رَبِّنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَمْتِنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطَّرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْتَ وَلِيَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّيْنِ بِالصَّالِحِينَ» [يوسف: ١٠١].

وقد أخبر الله تعالى موسى عن يوم القيمة في أول وحي أوحاه إليه ، حين قال له تعالى : «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَّةً أَكَادُ أَخْفِيَهَا لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدُّنِكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هُوَاهُ فَتَرَدِّي» [طه: ١٤، ١٦].

وكذلك قال تعالى حكاية عن أحد أتباع موسى عليه السلام : «وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقُرْأَرِ» [غافر: ٣٨، ٣٩].

وقال عنه أيضاً : «لَا جَرْمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرْدَنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ» [غافر: ٤٢، ٤٣].

ولكن هذه العقيدة بالنسبة لليوم الآخر لم تطل بعد موسى ، إذ حرفت التوراة «العهد القديم» بأسفاره الخمسة .

وحيث أن المقام لا يستدعي ذكر تلك الأسفار ولا شرحها ، فإن الواقع أن العهد القديم «التوراة» لم يذكر فيه أخبار اليوم الآخر وما جاء فيها من أخبار تفيد الثواب والعقاب أو الوعيد ، فإما يدل على أن ذلك الجزاء الذي يحصل إثنا عشر في الدنيا ، وهذا ما عناه بعض العلماء في نسبة إنكار اليهود آخر إلى اليهود عامة ، كما قال محمود بن الشريف : «إن المتبع للتوراة

المتداولة، والمستقرة لآياتها ، والقارئ لأسفارها لا يكاد يجد فيها ذكرأ للروح ولا للروحانية ولا لليوم الآخر وما يحفل به من جزاء ومثوبة»^(١) .

وهذا ما يقوله علي عبد الواحد وافي حينما ذكر أن «الديانة اليهودية في أصلها تقرر البعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة والنار كما يبني بذلك القرآن الكريم ، ولكن أسفار العهد القديم التي بين أيدينا الآن قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعمته وجحيمه ، ومن ثم لا نجد من بين فرقهم الشهيرة من يؤمن بالاليوم الآخر على الوجه الذي يقرره الإسلام»^(٢) .

ويقول سيد قطب - رحمه الله - : «فاما في العهد القديم الذي بين أيدينا؛ كتاب اليهود الأول - لأن الكتاب الثاني هو التلمود - فلا نجد ذكرأ للعالم الآخر بتاتاً ، ومن السياق كله نفهم أن الجزء على الشر كان يتحقق في الدنيا بالقياس إلى الأفراد وإلى الجماعات»^(٣) .

فلا ذكر للاليوم الآخر في العهد القديم ، على إنه قد وجد بعض العبارات في سفر إشعيا وفي سفر دانيال تشير إلى تهوييلات تحدث في الكون يتغير كل شيء لصالح اليهود .

وهذه التهوييلات لانص فيها أيضاً صراحة على ذكر البعث الأخروي بمعناه الصحيح ، وإنما هي محل احتمال أن تكون في البعث الأخروي وأن تكون كذلك في يوم نصر اليهود على أعدائهم ورفع شأنهم .

ففي سفر إشعيا ما نصه : «ويقال في ذلك اليوم .. هوذا هذا إلينا انتظرناه

(١) الأديان في القرآن ص ١١٤ ، ١١٥ ، ط ١٩٧٦ م.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ٣٤ .

(٣) مشاهد القيامة في القرآن الكريم ص ٣٠ .

فخلصنا، هذا هو الرب انتظرناه نتبهج وتفرح بخلاصه، لأن يد الرب تستقر على هذا الجبل -- ويداس مؤاب في مكانه كما يداس التبن في ماء المزبلة، فيبسط يديه فيه كما يبسط السابع ليسبح، فيضع كبريهاته مع مكايده يديه، وصرخ ارتفاع أسوارك بخضمه، يضعه يلصقه بالأرض إلى التراب»^(١).

وفي سفر دانيال يقول: «وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تَرَابِ الْأَرْضِ يَسْتَيقظُونَ، هُؤُلَاءِ إِلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَهُؤُلَاءِ إِلَى الْعَارِ لِلَّازِدَاءِ الْأَبَدِيِّ»^(٢). وكذا قوله: «أَمَا أَنْتَ فَإِذْهَبْ إِلَى النَّهَايَةِ فَتَسْتَرِيحْ وَتَقْوِيمْ لِقَرْعَتِكَ فِي نَهَايَةِ الْأَيَّامِ»^(٣).

فأما النص الوارد في سفر إشعياء فإنه لا يدل دلالة صريحة على ذكر البعث في الآخرة؛ بل هو أقرب إلى أن يكون معناه مجيء اليوم الذي يتنصر فيه اليهود على من سواهم من البشر.

وأما النص الوارد في سفر دانيال فإنه يظهر منه القول بالبعث الآخر وهي لكنه على فكرة محرفة، إذ إن الأشرار يكونون في عار الازداء وليس في النار كما ثبته الأديان الصحيحة.

ثم إن قوله: «وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تَرَابِ الْأَرْضِ» لا يدل على بعث الناس كلهم بل كثير منهم، ومعناه أن فيه بقية لم يذكر مصيرهم.

ومن فرق اليهود الذين أنكروا البعث فرقة الدوستانية، وهم فرقة انشقت

(١) الإصلاح ٢٥ رقم ٩-١٢.

(٢) الإصلاح ١٢ رقم ٢-٣.

(٣) الإصلاح ١٢ رقم ١٣.

عن فرقة السامرة، وفيهم يقول الشهريستاني: «والدوستانية تزعم أن الثواب والعقاب في الدنيا»^(١).

ومعنى الدوستانية «الفرقة المترفة الكاذبة»^(٢) تميّز ألهم عن فرقـة الكوستانية وهي الفرقة الثانية من فرقـة السامرة والتي معناها (الجماعـة الصادقة)، وهؤلاءـ الكوستانيةـ يؤمنون بالبعث والثواب والعقاب في الدنيا.

والخلاصة أنـ البعث فيـ الديانـة اليـهودـية ثـابت قبلـ أنـ يـدخلـ عـلـيـهاـ التـحـرـيفـ، وـبـعـدـ اـمـتـادـ يـدـ الـبعـثـ وـالـتـحـرـيفـ إـلـيـهـ رـأـيـنـاـ كـيـفـ أـنـ فـرـقـهـمـ قدـ ذـهـبـواـ إـلـىـ إـنـكـارـ الـبعـثـ أـوـ القـوـلـ بـالـتـنـاسـخـ.

البعث عند المسيحية :

أماـ الـبعـثـ عـنـدـ الـمـسـيـحـيـةـ.ـ أـيـ الـدـيـنـ السـماـويـ المـنـزـلـ عـلـىـ عـيـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامــ فـلـاشـكـ أـنـهـ قـبـلـ التـحـرـيفـ يـثـبـتـ أـمـورـ الـآـخـرـةـ شـأنـهـ شـأنـ بـقـيـةـ الـأـدـيـانـ.

وـفـيـ هـذـاـ يـحـكـيـ اللـهـ عـنـ عـيـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامــ إـيمـانـهـ بـالـبعـثـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ: ﴿وـالـسـلـامـ عـلـيـ يـوـمـ وـلـدـتـ وـيـوـمـ أـمـوتـ وـيـوـمـ أـبـعـثـ حـيـاـ﴾ [مرـيمـ: ٣٣ـ].

لـكـنـ هـذـهـ الـدـيـانـةـ قـدـ شـمـلـهـاـ التـحـرـيفـ وـامـتـدـتـ إـلـيـهـ أـيـدـيـ العـابـثـينـ وـلـمـ تـكـنـ بـأـحـسـنـ حـالـاـ مـنـ الـيـهـودـيـةـ.

عـلـىـ إـنـهـ مـاـ يـجـبـ ذـكـرـهـ أـنـ الإـيمـانـ بـالـبعـثـ فـكـرـةـ أـصـيـلـةـ فـيـ الـدـيـانـةـ الـمـسـيـحـيـةـ،ـ فـإـنـ مـنـ يـرـجـعـ إـلـىـ الـأـنـاجـيلــ وـإـنـ كـانـتـ مـحـرـفـةـ كـمـاـ ذـكـرـنـاـ مـنـ قـبـلــ.ـ سـيـجـدـ فـيـهـاـ التـصـرـيـعـ بـالـبعـثـ الـجـسـمـانـيـ وـالـرـوحـانـيـ فـيـ أـكـثـرـ مـوـضـعـ.

(١) الملل والنحل ٢١٩/١.

(٢) المصدر السابق: ص ٢١٨.

كإنجيل متى^(١)، وإنجيل لوقا^(٢)، وإنجيل يوحنا^(٣)، وإنجيل مرقس، ففي هذه الأنجليل إشارات كثيرة إلى ذكر البعث الجسماني الروحاني، وحيث إن المقصود هو ذكر المنكرين للبعث، فنقول: إن بعضًا من النصارى أنكروا أن يكون البعث بالروح والجسم فقالوا بيعث الروح فقط دون بعث الجسم، وهذا ما يفيده كلام العلامة الشهيرستاني حين قال: «وفي النصارى من قال بحشر الأرواح دون الأبدان، وقال إن عاقبة الأشرار في القيمة غم وحزن الجهل، وعاقبة الآخيار سرور وفرح العلم»^(٤).

ويقول البغدادي: «وأنكرت الخلولية وأكثر النصارى إعادة الأجساد؛ وزعموا أن الثواب والعذاب إنما يكون للأرواح»^(٥).

وما جاء مصريحاً به من أمر البعث الجسماني والروحاني في الأنجليل ما يلي:

١ - في إنجيل متى جاء في الإصلاح الثاني عشر قول المسيح: «ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له؛ لا في هذا العالم ولا في الآتي»، «ولكن أقول لكم إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس يعطون عنها جواباً يوم الدين؛ لأنك بكلامك تبرر وبكلامك تدان»^(٦).

(١) انظر الإصلاح الثاني عشر، والإصلاح التاسع عشر، والإصلاح الخامس والعشرين.

(٢) انظر الإصلاح الرابع عشر، والإصلاح الثاني والعشرين.

(٣) انظر الإصلاح الثاني عشر.

(٤) الملل والنحل ١/٢٢٣.

(٥) أصول الدين ص ٢٣٥.

(٦) الإصلاح الثاني عشر. رقم ٢٢-٢٣.

وفي الإصلاح الخامس والعشرين قوله: «ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة والقديسين، فحيثئذ يجلس على كرسي مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض، كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار، ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رُبُّوا الملوك العدل لكم منذ تأسيس العالم؛ لأنني جعت فأطعمنوني، عطشت فسقيتموني، كنت غريباً فأوتيتني، عرياناً فكسوتني، مريضاً فزرتني، محبوساً فأتيتكم إليّ».

فيجيئه الأبرار حيثئذ قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاً فسقيناك، وممتى رأيناك غريباً فأربيناك، أو عرياناً فكسوناك، وممتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك، فيجيب الملك ويقول لهم الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصغر في فعلتم، ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار اذهبوا عندي يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته؛ لأنني جعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني، كنت غريباً فلم تؤونني، عرياناً فلم تكسوني، مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني، حيثئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك؟

فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصغر في لم تفعلوا، فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدى، والأبرار إلى حياة أبدية»^(١).
هذا ما جاء في إنجيل متى.

وفي إنجيل مرقس كذلك تصريح بإعادة هذا الإنسان ودخوله في الحياة أو

(١) الإصلاح الخامس والعشرون. رقم ٤٦.٣١

في عذاب جهنم التي لا تطفأ ودودها لا يموت^(١).

ومثله إنجيل لوقا من دعوة المسيح الناس إلى الصدقة التي يكافؤن بها في
قيامة الأبرار^(٢).

وفي إنجيل يوحنا ذكر اليوم الآخر وإشارات إلى الحساب والجزاء^(٣).

ومن تلك النصوص يتضح أن عقيدة البعث الجسمني والروحاني أمر مقرر في العقيدة المسيحية، وإن من خالف ذلك من النصارى فإنه يعتبر خارجاً عمادلت عليه الأنجليل، وإلى جانب ذلك فقد رأينا كيف دخل الانحراف في هذه العقيدة؛ حينما قررت تلك الأنجليل أن المحاسب والمجازي هو المسيح، حيث يُدخل هؤلاء الحياة الأبدية ويدخل أولئك في العذاب الأبدي، وبطلاًن هذا معلوم من دين الإسلام؛ لأن المحاسب للخلق هو ربهم مالك يوم الدين.

* * *

(١) انظر إنجيل مرقس الإصلاح التاسع. رقم ٤٣.

(٢) انظر إنجيل لوقا الإصلاح الرابع عشر. رقم ١٤.

(٣) انظر إنجيل يوحنا الإصلاح الثاني عشر. رقم ٤٨.

٣ - الذين يقولون بالتناسخ

أما القول بالتناسخ فإنه يعني انتقال روح الميت إلى جسد آخر بعد خروجها من جسدها الأول، وهكذا تظل تتقلّ من جسد إلى جسد آخر حتى يتم تطهيرها وتزكيتها، فإذا أصبحت ظاهرة زكية وصلت إلى درجة النيرvana عند البوذيين، أو اتحدت بالنجوم عند النصيرييـن، أو تظهرت في الأجساد حتى ترجع إلى جسد يهودي عند اليهود، أو تقمصت جسد درزي عند الدروز . . . إلخ، وهي تساوي في عقيدة المسلمين الجنة أو النار ، فهي نهاية مصير الروح بعد أن تستنفذ جميع طلباتها ورغباتها في هذه الحياة.

وتكون روحه في هذا التجوال إنما هي تابعة لعمله ولما في نفسه من شر أو خير ، فإذا كان الشخص الذي مات روحه شريرة فإنها ستنتقل إلى جسم شرير تعذب به إلى أن تصفو وتتپهر من الآثام وجميع الرغائب .

وبناءً لهذا المعتقد فإن القائلين به يبالغون في التزهد وتعذيب أنفسهم في الدنيا لما يرجون من اتحاد أرواحهم بالذات الأقدس والوصول إلى النيرvana التي هي نهاية التجوال للروح التي هي مناط الأمر ، بخلاف الجسد فإنه لا قيمة له ولا ينظر إليه بل يجب حرقه بعد خروج الروح منه ، ولهذا فإن الهندوس الбраhma يبادرون إلى حرق الميت فور موته .

يقول الشهريـاني عن التناسخ : « هو أن تكرر الأκوار والأدوار إلى ما لا نهاية ، ويحدث في كل دور مثلاً ما حدث في الأول . والشواب والعـقاب في

هذه الدار لا في دار أخرى لا عمل فيها، والأعمال التي نحن فيها إنما هي أجزية على أعمال سلفت منها في الأدوار الماضية، فالراحة والسرور والفرح والدعة التي نجدها هي مرتبة على أعمال البر التي سلفت منها في الأدوار الماضية. والغم، والحزن، والضنك، والكلفة التي نجدها هي مرتبة على أعمال الفجور التي سبقت منها^(١).

والغاية التي يهدف إليها أصحاب التناسخ هي الوصول إلى النيرفانا. كما تقدم..

وفي هذا يقول سيد قطب رحمة الله عن التناسخ في الهندوكية: «وتحطيم حدود الذات يفسره بعضهم بالخلص من الجسد، وينشأ عن هذا ما هو مشهور عن الهندوكيين من تعذيب الجسد وتعریضه لأشق التجارب في سبيل تخلص الروح من سيطرته لتنطلق منه في النهاية، وتصل إلى درجة النيرفانا، والإنسان لا يصل إلى هذه الدرجة إلا حين تتطهر روحه وتخلص وتصبح جديرة بأن تفني في الكل، هنا يقوم التناسخ بتحقيق هذه الغاية، فالإنسان حينما يموت تنتقل روحه إلى جسم حيوان أو إنسان، وتلقي العذاب ألواناً حتى تتطهر بهذا العذاب فتصل في النهاية إلى النيرفانا وتستريح من التناسخ»^(٢).

وهو كذلك الاندماج في الكائن الأسمى (طلعة براهما)، كما يقول الكيلاني في تعداده لأفكار العقلية الهندية.

«أما الفكرة الثالثة فهي: فكرة الانطلاق، وهي قتل محاولة النفس

(١) الملل والنحل ٥٥/٢.

(٢) مشاهد القيمة في القرآن ص ٢٧.

الإفلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها، فالحياة في عرف البراهمة شر وخداع وأسر، أما الحياة الحق فهي استجلاء (طلعة براهما) التي لا تكتسب إلا بالاندماج فيه كما تندمج قطرة الماء من المحيط العظيم، وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود التسلالية والاندماج في الكائن الأسمى، وهذا الانطلاق لن يكتسب بالأعمال؛ لأن الأعمال الصالحة تتبع ثمارها عن طريق الميلاد المتكرر»^(١).

وأشد من تزعم القول بالتناسخ واعتبره عقيدة ثابتة لا يسع الخروج عنها، هم البراهمة الهندو، ولهذا فإنهم لا يعتبرون من لم يقل به من أهل ملتهم وموافقيهم، وهو يمثل عدم النطق بالشهادتين في الدين الإسلامي، كما يذكر ذلك البيروني بقوله: «وكما أن الشهادة بكلمة الإخلاص من شعار المسلمين، والتشليث علامة النصرانية، والإسبات علامة اليهود، كذلك التناسخ فإنه علم النحلية الهندية ومن لم يتحله لم يكن فيها ولم يعد من جملتها»^(٢).

ومن قال بالتناسخ كذلك: البوذيون؛ وأهل هذه النحلية ينسبون إلى بوذا واسميه «سد هارثا» وقيل: «سيزاراسا» ولقب «ساكيا موني»، ومعناه المتبل ومعنى بوذا أي المستنير.

وقد أنشأ بوذا نحلته على أساس من مقاومة الشهوات والتجرد من الأطماع والانسلاخ من الذاتية ليصل الشخص إلى النيرvana^(٣).

(١) انظر: ذيل الملل والنحل لمحمد سيد الكيلاني بهامش الملل والنحل للشهرستاني (١٢/٢).

(٢) تحقيق ما للهند من مقوله ص ٣٨.

(٣) مشاهد القيمة ص ٢٨.

ولابد قبل الوصول إلى درجة النيرفانا أن يمر بأربعة أطوار من مجاهدة النفس :

الطور الأول : الإحياء والتجدد، حين يدرك الإنسان الحقائق، وعندما يبلغ الإنسان هذا الطور يقوى على كسر القيود الثلاثة الأولى وهي الوهم الخادع في وجود النفس ، والشك في بوذا وتعاليمه ، والاعتقاد في تأثير الطقوس والرسوم الدينية .

أما في الطور الثاني : فيقوى المهتدى على التخفيف من حدة الشهوة والكراءة وغرور الأوهام .

وفي الطور الثالث : يحطم قيود الشهوة .

وأما الطور الرابع : فيسمى صراط المقدسين وفي هذا الطور يتحرر القدس من القيود الباقيه وهي : الرغبة في البقاء المادي وغير المادي ، والكبراء ، والاعتزاز بالبر الذاتي ، والجهل ، وعند بلوغه هذا الطور يكون قد أدرك الهدف الذي يسعى إليه وهو « النيرفانا »^(١) .

ويقول سيد قطب - رحمة الله عن عقيدة البراهمة والبوذيين : « لا نجد في الديانات الهندوسية ولا في الديانة البوذية - وهي عقيدة طائفية من الهندوس ، وعقيدة أهل سيلان ومعظم اليابانيين وكثير من الصينيين - لا نجد في هذه الديانات عالما آخر للحساب والجزاء ؛ إنما نجد مكانه النيرفانا وهي الفناء في الروح الأعظم ، وإن اختلفت وسائل الوصول إلى هذه المرتبة بين الديانتين »^(٢) .

(١) ذيل الملل والنحل للكيلاني ٢/٦ .

(٢) مشاهد القيامة في القرآن ص ٢٦ .

ومن الذين يعتقدون القول بالتناسخ أيضاً: فرقة الحرنانية من الصابئة وهم أول من قال بالتناسخ كما يذكر الشهريستاني عنهم ذلك بقوله: «إثنا نشأ أصل التناسخ والحلول من هؤلاء القوم»^(١). وهم طائفة من الصابئة.

ومن قال بالتناسخ كذلك بعض اليهود وهو ما يذكره التلمود بقوله:

«أما اليهود الذين يرتدون عن دينهم بقتلهم يهودياً، فإن أرواحهم تدخل بعد موتهم في الحيوانات أو النباتات، ثم تذهب إلى الجحيم وتتعذب عذاباً أليماً مدة اثني عشر شهراً، ثم تعود ثانيةً وتدخل في الجمادات، ثم في الحيوانات، ثم في الوثنين، ثم ترجع إلى جسد اليهود بعد تطهيرها»^(٢).

وهذا النص يفيد إنكار البعث والقول بالتناسخ، وربما يفهم من هذا أن التناسخ إنما يشمل أولئك الذين يرتدون عن اليهودية، فإنه يكون عقابهم إذا فعلوا ذلك أن يشمل أرواحهم التناسخ حتى تتطهر تلك الروح، فإذا ما تطهرت رجعت فحلت في جسد اليهود.

قال البغدادي: «وقال بعض اليهود بالتناسخ، وزعم أنه وجد في كتاب دانيال أن الله تعالى مسخ بختنصر في سبع صور من صور البهائم والسباع، وعذبه فيها كلها، ثم بعثه في آخرها موحداً»^(٣).

والبيانية وهي نسبة إلى بيان بن سمعان النهدي من يقول بالحلول والتناسخ^(٤).

(١) الملل والنحل ٥٥/٢.

(٢) الكتز المرصود في قواعد التلمود ص ٦١.

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٧٢.

(٤) الأد الفرق والمذاهب المعاصرة ص ١٦٢.

ومثلهم كذلك الحرية أتباع عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي؛ وقد كان من أتباع بيان بن سمعان ثم فارقهم وهم على عقيدة القول بالتناسخ^(١).

وذكر البغدادي أن فريقاً من السمنية يقول بالتناسخ «وأجازوا أن ينقل روح الإنسان إلى كلب وروح الكلب إلى إنسان»^(٢).

ويذكر البغدادي أن المانوية -أتباع ماني- قد ذهبت إلى القول بالتناسخ «وذلك أن ماني قال في بعض كتبه: إن الأرواح التي تفارق الأجسام نوعان: أرواح الصديقين وأرواح أهل الضلال؛ فأرواح الصديقين إذا فارقت أجسادها سرت في عمود الصبح إلى النور الذي فوق الفلك فبقيت في ذلك العالم على السرور الدائم، وأرواح أهل الضلال إذا فارقت الأجساد وأرادت اللحوق بالنور الأعلى ردت منعكسة إلى السفل، فتناسخ في أجسام الحيوانات إلى أن تصفو من شوائب الظلمة ثم تلتحق بالنور العالى»^(٣).

ثم ذكر أن سقراط وأفلاطون وأتباعهما من الفلسفه قد قالوا بتناسخ الأرواح أيضاً.

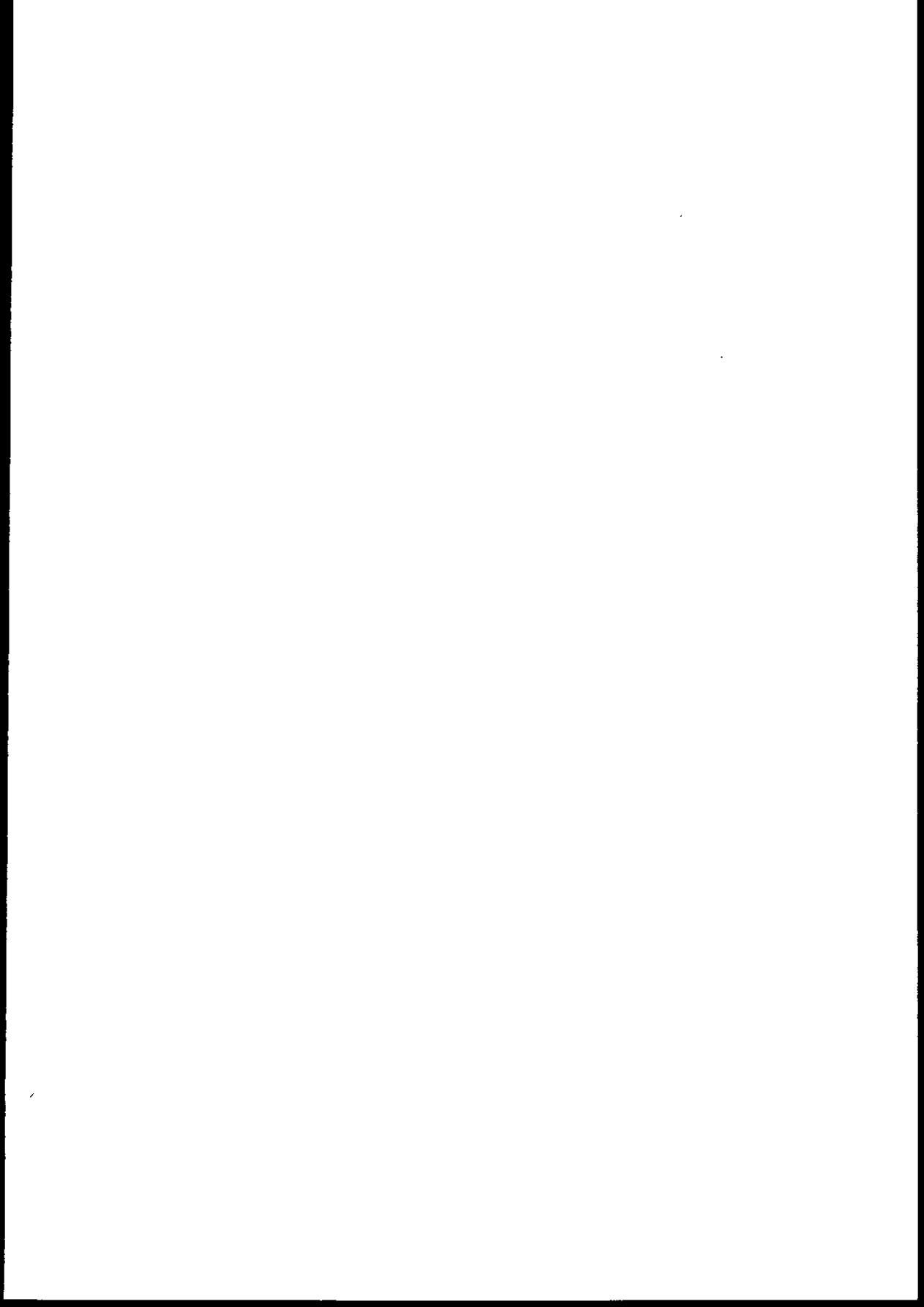
وكل أولئك الفرق على جهل وضلال سببه عدم الرجوع إلى الله وكراهية الدين وتکذیب الرسل؛ بل وتکذیب ما يوحی به العقل السليم والفطرة المستقیمة.

وأخيراً . . . فإن ذكر هذه الفرق وإن كانت ليست من صميم الموضوع إلا أنني قد وجدت أن ذكرها والإشارة إليها مما يستتبع البحث ويتممه فوجدت أن من المناسب ألا يخلو البحث عن مثل ذلك.

(١) الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ص ١٦٤.

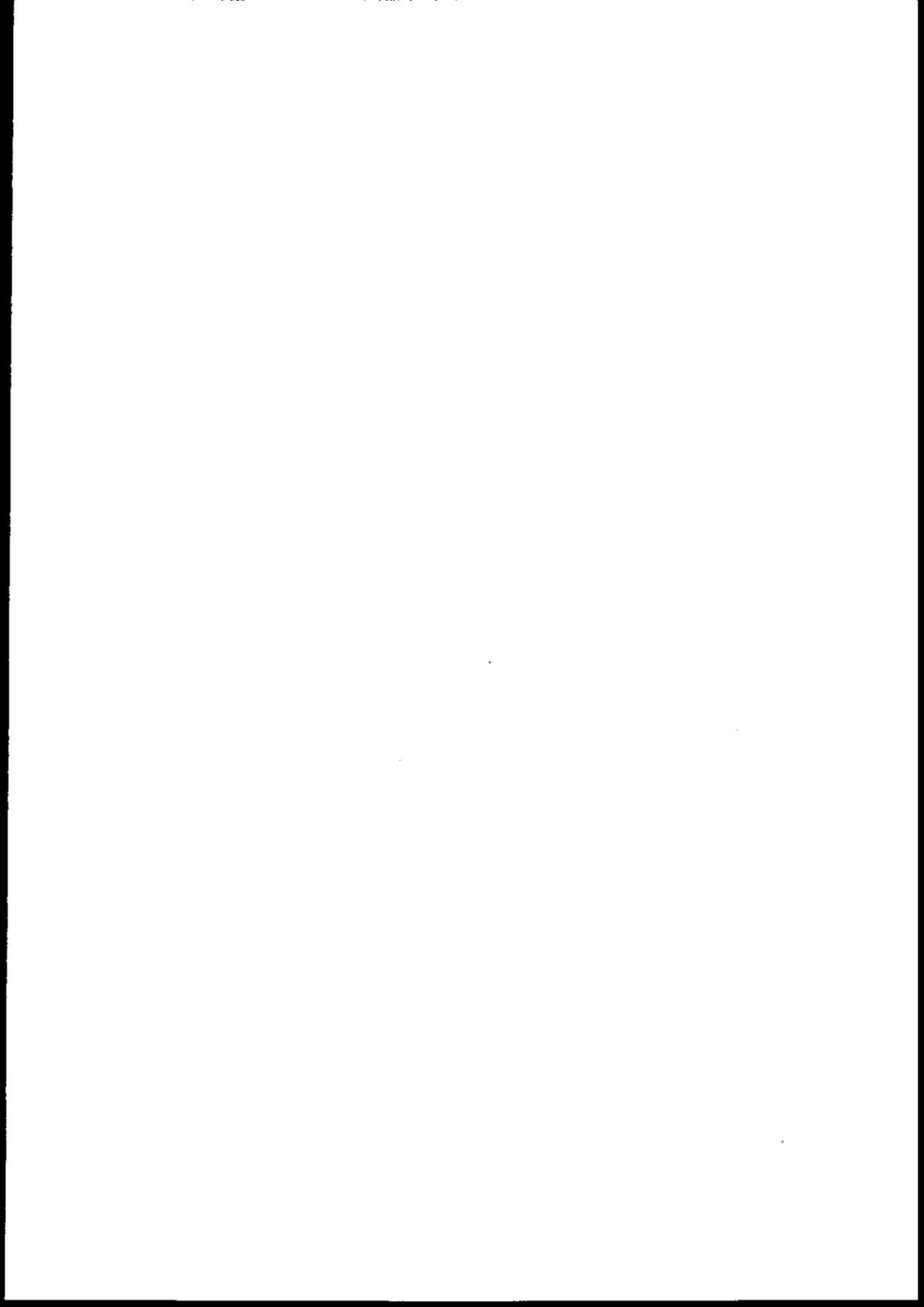
(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق ص ٢٧١.



الفصل السادس

أسباب إنكار البعث



الفصل السادس

أسباب إنكار البعث

وبعد عرض ما تقدم يتضح لنا مدى قوة وصلابة المشركين في تمسكهم بکفرهم وإنكارهم أمر البعث أشد إنكار، ويتبين كذلك صعوبة إقناعهم بالإيمان بالبعث وكيف كان جل الاهتمام بأمر العقيدة يتمثل في إقناعهم بالإيمان والإقرار به.

هنا يتبدّل سؤال إلى الذهن: ما هي الأسباب الكامنة وراء هذا العناد والنفور؟

ومن الإجابة عن ذلك أن يقال: إن هناك أسباباً عديدة؛ لعل من أهمها ما يأتي:

١- الاستبعاد: ولكونهم درجوا على ذلك مقلدين فيه الآباء والأجداد كان مجرد طلب تغيير عقيدتهم عن هذا المأثور أمراً من الصعوبة بمكان؛ بل جعلوه وهو الأمر المأثور الذي يقتضيه العقل السليم أمراً مستبعداً غاية البعد، فهم لم يشاهدوا أن الأموات يحيون بعد دفنهم فيقومون من قبورهم ليخبروهم بالعالم الآخر، وهم كذلك يشاهدون دائماً أن الميت بعد دفنه بأيام تأكله الديдан ويستحيل إلى تراب وظامام نخرة، فكيف يتصور أن ترجع إليه الحياة من جديد؟!

هذا بعيد في مقياسهم السقيم، غير مكتفين بأن قدرة الله تعالى لا يحدّها

حدود ولا يعجزها أمر، وقد استلزم هذا إنكارهم أيضاً لكمال علم الله تعالى، حيث تصوروا أن الإنسان حينما يصبح ذرات متفرقة في الكون في مشارق الأرض ومغاربها فكيف يعلم أماكن هذه الذرات ليجمعها و يجعلها كما كانت قبل الموت؟ ونسوا أن الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق علیم لا يعجزه ذلك.

٢ - **الكبير** : وهو آفة الجهل والمعرضين عن الله ، وقد قص الله تبارك وتعالى علينا قصة أهل هذا الكبير منذ رسالة نوح عليه السلام ﴿وَإِنِّي كُلُّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتَكْبَارًا﴾ [نوح : ٢٧] ، ﴿فَقَالَ الْمُلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعْكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوكَ بِأَدَيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بِلَّ نَظَنَّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود : ٢٧].

إلى هود عليه السلام ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جَنَّتْنَا بَيْتَنَا وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٣] إن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءِ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشَرِّكُونَ﴿ [هود : ٥٤] .

إلى عاد الذين ﴿أَتَبْعَوْا أَمْرَ كُلِّ جَارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود : ٥٩] .

إلى ثمود الذين قالوا النبي لهم : ﴿يَا صَالِحٍ قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوا قَبْلَ هَذَا أَتَهَا نَأْنَى أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ أَبَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَفِي شَكٌ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود : ٦٢] .

إلى قوم شعيب الذين قالوا له عليه السلام : ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود : ٩١] .

إلى غير ذلك من القصص التي أخبرنا الله جل وعلا بها من أول الرسل

إلى آخرهم، بما في ذلك قصة كفار قريش و موقفهم من الإسلام حين قالوا في حق النبي الإسلام ﷺ **﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ﴾** [الزخرف: ٣١].

أو قوله لهم له عليه الصلاة والسلام: **﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾** [١] أو تكون لك جنة من نخيل و عبد فتفجر الأنوار خلاها **﴿تَفْجِيرًا﴾** [٩١] أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا أو تأتي بالله والملائكة **﴿فَيَلًا﴾** [٦٦] أو يكون لك بيت من ذخرف أو ترقى في السماء ولن تؤمن لرفيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه [٩٣، ٩٠]. [الإسراء: ٩٣، ٩٠]

كل ذلك كان ناشئاً عن الكبر والتعالي والتعتن، فكان جزاء ذلك أن حرموا نعمة الإيمان ودخولهم في رحمة الله تعالى.

٣ - ميلهم إلى الشهوات وانغماسهم في الملذات التي يعز عليهم أن يترکوها: فهم يعلمون أن افتناهم بالإيمان بالبعث والنشور سيحول بينهم وبين هذه القاذورات التي ألغوها وأشربت قلوبهم حبها.

٤ - عامل اقتصادي: فهم كانوا يتاجرون بالخمور والربا يكرهون فتياتهم على البناء لقاء مبلغ من المال، وفي معلومهم أن الدخول في الإسلام وبالتالي الإيمان بالبعث سيحول بينهم وبين هذه الموارد الفاجرة والأرباح الخاسرة.

٥ - عامل سياسي: ألا وهو حب الزعامة والمحافظة عليها وقهراً وإذلال من لا حول له ولا قوة، لتبقى الرعامة في أيديهم ولتبقى مراكزهم في المجتمع خالصة لهم، لأنهم يعرفون أن الإيمان مطلقاً وخاصة البعث سيجعلهم سواسية مع عبيدهم، ومع سائر الناس، وسيحرمهم من نصب أنفسهم آلهة

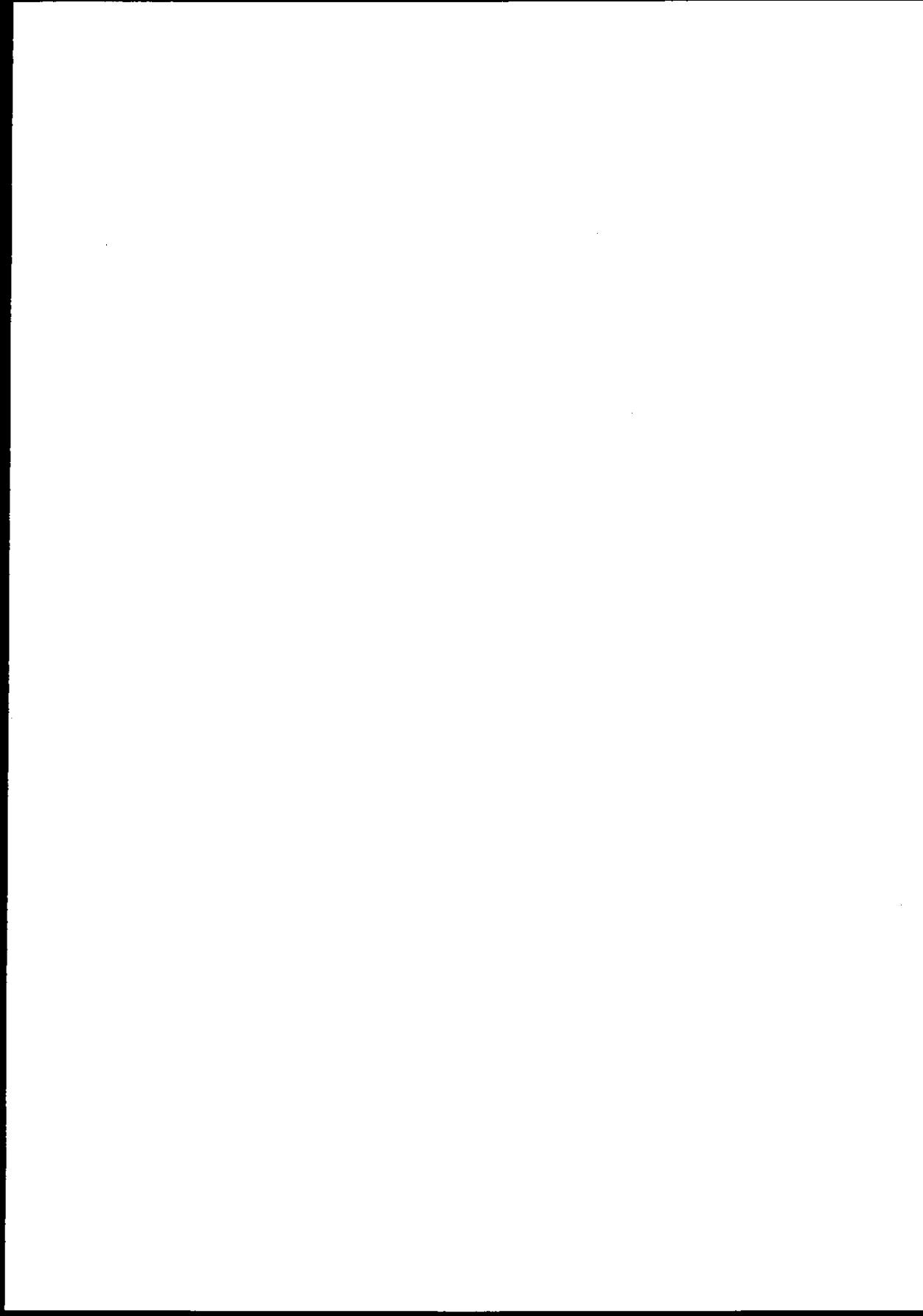
للناس وساسته لهم .

فلهذه العوامل وغيرها كانت فكرة الإيمان بالبعث مرفوضة لدى الكفار وكان أمره مستبعداً في نفوسهم ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً منهم الراغب ومنهم الراهن ، ومحا الإسلام تلك العقبات التي كانت تحول بين الناس وبين الإيمان بالله ولقائه .

* * *

الفصل السابع

البعث كما في الكتاب والسنة



الفصل السابع

البعث كما في الكتاب والسنة

نريد من عرض هذا الموضوع بيان ما هو الذي يبعث في يوم القيمة: هل هو الجسد وحده أم الروح وحدها أم كلاهما؟ وقد أردنا إثبات المعمود من تلك الأمور كما أثبته الله ورسوله، فإذا ما تبيّنت الأدلة ووضّح المقصود منها في حقيقة ذلك المعمود كان فيها غنى وإراحة للنفس واطمئنان وخروج بها من دنس أهل الكفر والوثنية نفأة البعث.

وفيها كذلك الرد عليهم وعلى الفلاسفة الذين أنكروا البعث الجسماني أو الروحاني والجسماني، وإبطال خبطهم واضطرايهم في حقيقة المعمود، وإبطال الإيرادات التي يوردونها على تناقض كلامهم؛ فإنه بحث لم يبن على النصوص الصحيحة ولا نتيجة من ورائه إلا إضاعة الوقت وفتح باب للتشكيك في أمر المعاد، وحباً لترك الاشتغال بذكرة إذ كيف نشغل أنفسنا بما لم نؤمر به، فإن الحق هو ضالة المؤمن، ومادمتنا مجده واضحاً في كتاب الله عزوجل وسنة نبيه ﷺ فلا حاجة إلى تكلف ما لم ينفعنا في ديننا ولا في دنيانا.

أـ أما البعث في كتاب الله تعالى : فقد قدمنا إيراد كثير من نصوص القرآن الكريم التي جاءت لإثبات البعث والرد على من ينكره .

١ - من مثل قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ

العِظَامُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحِبُّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيهِمْ ﴿﴾ [يس : ٧٩ ، ٧٨].

أي فكما أنه هو الذي خلقها أول مرة في الدنيا وبعث فيها الروح ، قادر على أن يعيدها مرة أخرى ويعث فيها الروح كما بعثها في أول مرة .

٢- وقال تعالى : «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٢﴾ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوِّيَ بَنَائِهِ ﴿﴾ [القيمة : ٣ ، ٤].

٣- وقال تعالى : «فَوَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذَرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَنَّذَا مَتَّا وَكَانَ تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعْدَ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنَقُّصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعَدْنَا كِتَابًا حَفِظٌ ﴿﴾ [ق : ٤ - ١].

٤- وقال تعالى : «وَقَالُوا أَنَّا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتًا أَنَّا لَمْ يَبْعُثُنَا خَلْقاً جَدِيداً ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدَةً ﴿٥﴾ أَوْ خَلْقاً مَمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسِيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً فَسِيَنْفَضُونَ إِلَيْكُمْ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَنِّي هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُونَكُمْ فَسِتَّجِبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَنْهَنُونَ إِنْ لِبِسْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿﴾ [الإسراء : ٥٢ - ٤٩].

٥- وقال تعالى : «ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنَّا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتًا أَنَّا لَمْ يَبْعُثُنَا خَلْقاً جَدِيداً ﴿﴾ [الإسراء : ٩٨].

٦- وقال تعالى : «وَقَالُوا أَنَّا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ أَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿﴾ [السجدة : ١٠].

٧- وقال تعالى : «وَاللَّهُ أَنْتَ كُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيَخْرُجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿﴾ [نوح : ١٧ ، ١٨].

٨ - وقال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

فهذه الآيات وغيرها مما جاء في معناها كلها تثبت البعث لهذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، وفيها الإشارة كذلك إلى أن الكفار لا يملكون أي دليل على نفي البعث غير مجرد الاستبعاد لوقوعه لقصر أفهمهم وعقولهم، وفيها كذلك الرد عليهم بما يبطل ذلك الاستبعاد، وإثبات أن الله القدرة الكاملة في إحياء أولئك الأموات برد الحياة إليهم؛ فيخرجون من قبورهم سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون، خاشعة أبصارهم يأتون إلى الموقف كما بدأهم أول خلق لا يملكون سوى أنفسهم وأبدانهم، وقد علم الله حين أراد سريان الحياة فيهم بإعادة أرواحهم. علم ما تنقص الأرض منهم.

وإضافة إلى ذلك فإنه قد سجل كل ذلك في كتاب حفيظ، وأن الناس لا يؤخرهم إلى البعث بعد موتهم إلا دعوة الله لهم، فإذا دعاهم بحمده وعظمته استجابوا فوراً وخرجوا إلى لقاء ربهم، بكل يسر وسهولة يجمع الله تعالى العظام ويركب كل بنان.

أما مجرد الاستبعاد كما أشارت إليه الآيات السابقة في الإخبار عنهم فإن الاستبعاد ليس بحججة، وإنما هو حجة المنقطع العاجز.

على أنه من المشاهد المحسوسة أن النفس قد تستبعد أشياء وهي واقعة، ولهذا يقول أبو حامد الغزالي رحمة الله : «في طبع الآدمي إنكار كل مال ميأس به، ولو لم يشاهد الإنسان الحياة وهي تمشي على بطنه كالبرق الخاطف لأنكر تصور الشيء على غير رجل، والشيء بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك ، فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيمة لمخالفته قياس ما في

الدنيا، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكتن أشد إنكاراً لها»^(١).

وهكذا من نفي البعث الجسماني واستبعده بحججة أن الإنسان بعد دفنه يصير تراباً وعظاماً ويتفرق في الأرض فكيف يعاد.

والآيات السابقة تعطينا الصورة التي يتم عليها بعث الناس ، إعادة الجسد الأول بروحه التي كانت في الدنيا لم ينقص منه شيء ، وإضافة إلى ذلك ذكر الله تعالى أن تلك الأعضاء التي يعيدها إلى جسدها هي التي ستكون شاهدة على الإنسان بكل ما عملته في الدنيا ، ولو أن تلك الأعضاء لم تكن في ذلك الجسد لكان شهادتها في غير محلها إذ كيف تشهد على جسم لم تكن فيه !

وقد قال الله تعالى : «يَوْمَ تَشَهِّدُ عَلَيْهِمْ أَسْتَهْمُ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئذٍ يُوقَيْهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» [النور : ٢٤ ، ٢٥].

وقال تعالى : «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتَكَلَّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشَهِّدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٢٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُصِرُّونَ» [يس : ٦٥ ، ٦٦].

وقال تعالى : «حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهَدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٦) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لَمْ شَهَدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٧) وَمَا كُنْتُمْ

(١) إحياء علوم الدين (٤ / ٤٩٧).

تَسْتَرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَّتُمْ أَنَّ
الَّهُ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَّتُمْ بِرِبِّكُمْ أَرْدَادُكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣-٢٠﴾ [فصلت: ٢٣-٢٠].

فلا أدل على بعث الأجساد التي كانت في الدنيا من هذه الآيات، ذلك أنه لا يعقل أن تشهد تلك الجوارح في الإنسان من السمع والبصر والجلود شيء لم تعمله في الدنيا ولم تباشر العمل فيه بنفسها، والله يقول: ﴿وَقَالُوا
لِجَلُودِهِمْ﴾ ولم يقل: (جلود) مما يدل على أن تلك الجلود هي التي كانت في الدنيا، ولو أنها جلود أخرى وكانت تلك الشهادة باطلة، ولكن شهادة زور.

يمكن للشخص أن يقول - وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً - يمكن له أن يقول إن هذه الجوارح لا عهد لي بها ولم تكن معني في الدنيا، ولا سيما وأن الإنسان شديد الجدال لربه، شديد الجحود لما صدر منه في الدنيا.

بل تلك الجوارح ربما تعذر - أمام أعدل العادلين - حين يستنطقها تعالى - والمقام مقام إظهار العدل - بأنها لا تشهد بما لم تعلم منه شيئاً، وللإذن بعدل الله أن تدل بي شيء في هذا الموقف الخطير . فدل نطقها بما باشرت العمل به أنها هي نفسها التي كانت في الدنيا، وهذا هو الحق والمعقول عند كل منصف .

ومن الأدلة الدالة على أن الأجساد التي تبعث هي الأجساد التي كانت في الدنيا بعينها، ما ذكره الله في قصة إبراهيم وإحياء الطيور التي أمره الله بذبحها بعد أن يقطعها إرباً إرباً ويخلطها مع بعضها بعضاً، ثم يجعل على كل جبل منها جزءاً، وحين فعل ذلك كانت النتيجة ما شاهده إبراهيم بنفسه، إذ رجع

كل عضو إلى عضوه الآخر حتى تكاملت الطيور الأربع ثم جاءته سراعاً، وهذه صورة لما يقع عليه البعث في الآخرة.

ويصور القرآن الكريم كذلك الإنسان وهو سائر إلى ربه للموقف ليحاسب على ما قدم في الدنيا أخذأ طريقه نحو الموقف هو وما يحيط به من السائق والشهيد، فقال تعالى: ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَاقٌِ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

ثم أخبر تعالى عن الإنسان وقد اكتمل خلقه وعادت جميع حواسه إليه فهو يسمع ويبصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَجِيءُ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَ﴾ [الفجر: ٢٣]، ولفظ الإنسان - كما عبرت عنه الآية - إذا أطلق فإنه - كما هو معلوم - يشمل الروح والجسد معاً، وقد أخبر تعالى أن الإنسان في يوم البعث يتذكر ما عمله في الدنيا من خير أو شر، فقال تعالى: ﴿وَجِيءُ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَ﴾.

وفي هذا السياق وبلفظة (الإنسان) دليل على أن المعموظ هو الجسد والروح معاً، لأن الإنسان جسم مركب من هذين الوصفين من الجسم والروح، والقول بأن الإنسان يراد به الجسد فقط أو الروح فقط قول لا دليل عليه.

ب - كيفية البعث في السنة :

وبعد ما قدمنا عرضه من الآيات البينات التي دلت بوضوح على أن الله

تعالى يعيد كل مخلوق خلقه في الدنيا ل يوم القيمة وأن الإنسان يعاد بروحه وجسده الذي كان في الدنيا.

بعد هذا نود أن نعرض أيضاً نماذج من النصوص النبوية تدل على حقيقة المبعوث، أهو الجسد أم الروح أم كلاهما؟ وهي نصوص تدل بوضوح كذلك على أن المبعوث هو الروح والجسد.

١ - ومن ذلك حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ ، في ذكر النفحات التي تسبق قيام الناس من القبور ، وفيه : « ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل » ، قال : « وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيمة »^(١) .

وقال البرديسي : « قال العلماء : وهو عظم كالخردلة في العصعص وهو آخر سلسلة الظهر عند الصلب ، وهو من الإنسان بمثابة مغرس الذنب من الدابة ، ولذا أضيف إليه ، وهو بفتح العين المهملة وسكن الجيم آخره باء موحدة وقد تبدل ميمًا » .

« وقيل : عجب الذنب حبة نسلبني آدم ، فإذا نزل عليها الماء كالمني الذي هو من جنسه جذب إليه كل ما انحل من جسده في حال الحياة والموت ، فإن ذلك كله محفوظ وجواهره مصونة في خزان العالٰم وهي العناصر الأربع : الأرض ، والهواء ، والماء ، والنار ، قال تعالى : « قَدْ عَلِمْنَا مَا تَسْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » ، فيجذب عجب الذنب ذلك كله فترجع تلك الأجزاء كلها إلى عجب الذنب فتركب عليه الجسد مرة أخرى بقدرة من أحاط بكل شيء

(١) صحيح مسلم / ٤ - ٢٢٧٠ - ٢٢٧١.

علماء»^(١).

وقد روي هذا الحديث بعدة روایات، ففي رواية: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب»^(٢).

وفي رواية أخرى: «إن في الإنسان عظماً واحداً لا تأكله الأرض أبداً، فيه يركب الخلق يوم القيمة. قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: عجب الذنب»^(٣).

وفي هذا الحديث يخبر الرسول ﷺ أن الأرض تأكل جميع الجسد، لم تبق منه إلا عجب الذنب ليعيده الله الجسد من ذلك العظم، وهو عجب الذنب، بعد أن استحال الجسد إلى تراب في الأرض، ثم الله تعالى بقدرته يعيده ذلك الجسد الذي استحال إلى تراب إلى خلق سوي يركبه على عجب الذنب، وينشه خلقاً سوياً كما كان بواسطه ذلك المطر الذي اقتضت حكمه تعالى أن يكون سبباً لإنباتهم من عجب الذنب.

قال البرديسي: «قال الزركشي: فإن قيل: ما فائدة إبقاء هذا العظم - عند القائل به - دون سائر الجسد؟ قلت: أجاب ابن عقيل الحنفي بأن الله في هذا سرًا لا نعلمه، وعمل بجواز أن يكون البارئ جعل ذلك للملائكة علامه على أنه يحيي كل إنسان بجوهره التي كانت في الدنيا بأعيانها، ولو لاه لجوزت الملائكة إعادة الأرواح إلى أبدان غيرها»^(٤).

فيعود الجسد إلى الحشر في أكمل صورة لم ينقص منه شيء، حتى تلك

(١) تكميلة شرح الصدور ص ١٠.

(٢) صحيح مسلم ٤ / ٢٢٧١.

(٣) صحيح مسلم ٤ / ٢٢٧١.

(٤) تكميلة شرح الصدور ص ١١.

الغرلة التي ذهبت عند الختان تعود يوم القيمة، كما في حديث عائشة رضي الله عنها «يحضر الناس يوم القيمة حفاة عراة غرلاً»^(١).

وأخبر عليهما السلام بأن الروح تعود إلى الجسد حين يأذن الله بالبعث، ومعلوم أن مقر الروح غير مقر الجسد حين يأمر الله الأرواح لتدخل في أجسادها، كما في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجع إلى جسده يوم يبعث»^(٢).

وأخبر عليهما السلام عن بعث الأجساد بما قاله في الرجل الذي وقصته ناقته فمات في الحج: «إنه يبعث يوم القيمة وهو يلبي»، وفي رواية: «يهلل»، وهذه الصفات لا تكون إلا لإنسان سوي.

وهذا ما يروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: خر رجل عن بعيه فوقص فمات، فقال النبي عليهما السلام: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبه ولا تخمر وارأسه، فإن الله يبعثه يوم القيمة ملبياً».

وفي رواية: «فإنه يبعث يوم القيمة ملبداً».

وفي رواية: «فإنه يبعث يوم القيمة وهو يهلال»^(٣).

وهي روایات كلها صحيحة، والتلبية، والتلبيذ، والتهليل؛ هذه صفات لا تقوم إلا بإنسان روحًا وجسداً، وكذلك ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليهما السلام وفيه «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل»^(٤).

(١) البخاري ٧/١٩٥، مسلم ٨/١٥٦.

(٢) سنن ابن ماجه ٢/١٤٢٨، سنن النسائي ٤/١٠٨.

(٣) صحيح مسلم ٢/٨٦٥-٨٦٦.

(٤) صحيح مسلم ٤/٢٢٧١.

وقد قدمنا في ذكر الأدلة من القرآن الكريم على بعث الجسد الأول بعينه، أن من الأدلة على ذلك: شهادة أعضاء الإنسان وجوارحه، كما رأينا في الآيات التي ثبت ذلك.

وجاء من السنة النبوية في هذا عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: هل تدرؤن م أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد رب، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بل، قال: فيقول: فإبني لا أجيئ على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلص بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعدَ لِكَنْ وسحقاً، فعنكِنْ كُنْتَ أَنْاصِلَ»^(١).

وكذا ما جاء عن أبي هريرة في تقرير الله لعبدة في الحساب، وفيه قال ﷺ عن المنافق: «ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علىي؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليغذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه»^(٢).

ومثل دلالة هذا الحديث على بعث الأجساد ما روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل لم ي عمل خيراً قط إذا مات فحرقوه وأذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لنن قدر الله عليه ليغزبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، فأمر الله البحر فجمع ما فيه ثم قال: لم فعلت؟ قال: من

(١) صحيح مسلم / ٤ - ٢٢٨٠ - ٢٢٨١.

(٢) صحيح مسلم / ٤ - ٢٢٨٠.

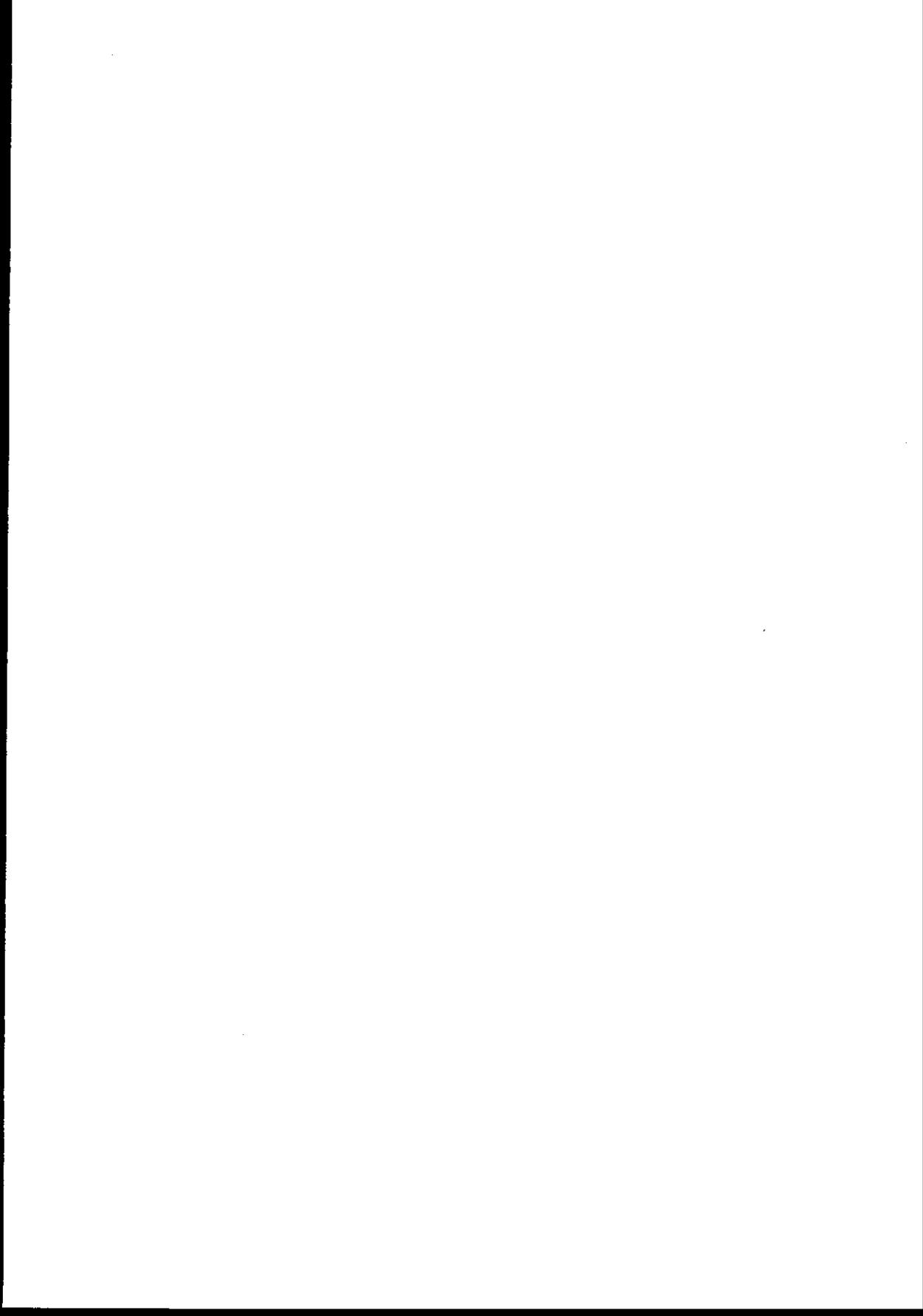
خشيتك وأنت أعلم، فغفر له^(١).

وهذه الأحاديث صريحة في قيام الأجساد التي هي تحت الأرض قد استحالت إلى تراب وتفرقت، وحين يأذن الله بقيامها تقوم لرب العالمين.

و بما تقدم نكتفي لإثبات بعث الأجساد من السنة، وهي ظاهرة في دلالتها على ذلك لا ينكرها إلا من عطل فكره وانساق مع هواه، وكيف يجيب من ينكر بعث الأجساد عن السبب الذي يمنع بعث الجسد مادام العدل يقتضي ذلك؟ لأن الروح والجسد هما اللذان اشتركا في العمل خيراً وشرأ، فإذا كان العذاب على الروح فقط أو الجسم فقط؛ كان ذلك إخلالاً ظاهراً بالعدل بينهما، فيجب إذاً أن يتحملما العذاب معاً وأن يتنعمما معاً وهذا هو مقتضي الحق والعدل، وهو مقتضى العقل كذلك.

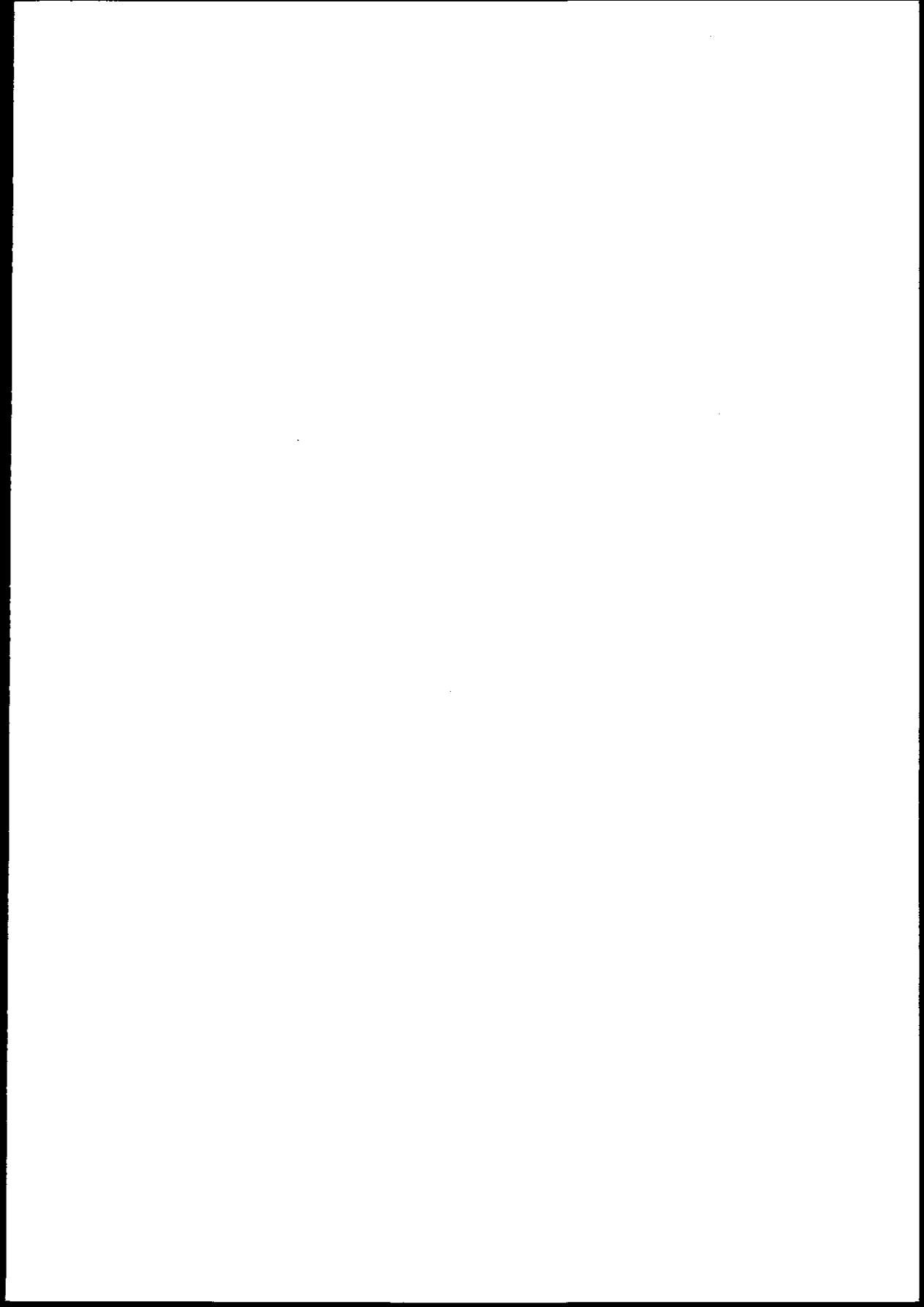
* * *

(١) البخاري ١٣ / ٤٦٦، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري ٤ / ٢١١٠.



الفصل الثامن

**أقوال علماء الإسلام في كيفية البعث
والرد على الفلسفه وإبطال حجتهم في
إنكار البعث**



الفصل الثامن

أقوال علماء الإسلام في كيفية البعث والرد على الفلسفه وإبطال دججهم في إنكار البعث

بعد ما تقدم ذكره في إثبات كيفية البعث من كتاب الله عزوجل ومن سنة نبيه ﷺ ، وأن ذلك يكون بالروح والجسد، أود أن أقول: إن هذا هو الاعتقاد الصحيح الذي عليه عامة علماء السلف، وأنه من الأمور المعلومة لديهم، كما تبين هذا من أقوالهم الآتية :

سئل شيخ الإسلام رحمه الله : هل تبعث هذه الأجسام بعينها؟ فأجاب بقوله : «وهذه الأجساد هي التي تبعث كما نطق به الكتاب والسنة»^(١) .

ويقول ابن القيم رحمه الله : «وأما من خلقه سبحانه فإنه أوجده لحكمة في إيجاده، فإذا اقتضت حكمته إعدامه جملة، أعدمه وأحدث بدل، وإذا اقتضت حكمته تبديله وتغييره وتحويله من صورة إلى صورة، بدله وغيره وحوله ولم يعدمه جملة، ومن فهم هذا فهم مسألة المعاد وما جاءت به الرسل فيه، فإن القرآن والسنة إنما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله لا جعله عندما محضاً وإعدامه بالكلية، فدل على تبديل الأرض غير الأرض والسموات، وعلى تشقق السماء وانفطارها، وتكون الشمس وانتشار الكواكب وسفر البحار، وإنزال المطر على أجزاءبني آدم المختلطة بالتراب فينبتون كما ينبت

النبات، وترد تلك الأرواح بعينها إلى تلك الأجساد التي أحيلت ثم أنشئت نشأة أخرى».

إلى أن يقول: «وقد أخبر الله سبحانه أنه يحيي العظام بعدما صارت رميمًا، وأنه قد علم ما تنقص الأرض من لحوم بني آدم وعظامهم، فيرد ذلك إليهم عند النشأة الثانية، وأنه ينشئ تلك الأجساد بعينها بعدما بلية نشأة أخرى، فيرد إليها تلك الأرواح»^(١).

وقد استفاض الإمام ابن القيم -رحمه الله- في كتابه الفوائد في بيان إعادة الإنسان حينما شرح آيات من سورة «ق» نأخذ منها ما يأتي:

«وتأمل كيف دلت السورة صريحةً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه كما ينعم الروح التي آمنت بعينها ويعذب التي كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحًا آخرًا غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدنًا غير هذا البدن من كل وجه عليه يقع التعيم والعداب، والروح عنده عرض من أعراض البدن فيخلق روحًا غير هذه الروح وبدنًا غير هذا البدن... إلى أن يقول: «وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين»^(٢) إلخ كلامه في هذه المسألة.

وعلماء الفرق كلهم على هذا المعتقد، فالأشعرى يذكر أن أكثر المسلمين يقولون: «إن المبتدأ في الدنيا هو المعاد في الآخرة»^(٣).

(١) مفتاح دار السعادة ٢/٣٤-٣٥.

(٢) الفوائد ص ٥-١٣.

(٣) المقالات ٢/٦٢.

ويقول البغدادي عن عقيدة السلف: «وقالوا: إن الله عزوجل يعيده في الآخرة الناس وسائر الحيوانات التي ماتت في الدنيا»^(١).

وقال علي بن أبي العز الحنفي: «القول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء: أن الأجسام تقلب من حال إلى حال فتستحيل تراباً، ثم ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال في النشأة الأولى، فإنه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة ثم صار عظاماً ولحماً ثم أنشأه خلقاً سوياً، كذلك الإعادة: يعيده الله بعد أن يلي كله إلا عجب الذنب»^(٢).

قال الفاكهاني - فيما ينقله عنه البرديسي -: «وفي الحديث: إذا صار العظم رمياً ولم يبق إلا عجب الذنب فيأمر الله تعالى بمطر ينزل من تحت العرش كمني الرجال يحيي الله الخلائق من ذلك كما كانوا أول مرة»^(٣).

وقال مالك: «بلغني أنه إذا كان قبل قيام الساعة ت قطر السماء أربعين ليلة حتى تنفلق الأرض عن الهمام كما تنفلق عن الكمة، والهمام: رؤوس الناس، فتنشق الأرض عنهم فإذا هم قيام ينظرون»^(٤).

ويقول ابن حزم: «اتفق أهل القبلة على تنابذ فرقهم على القول بالبعث في القيامة وعلى تكفير من أنكر ذلك، ومعنى هذا القول: أن لم يكتب الناس وتتناسلهم في دار الابلاء التي هي الدنيا أمداً يعلمه الله تعالى، فإذا انتهى ذلك الأمد ممات كل من في الأرض، ثم يحيي الله عزوجل كل من مات منذ

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٤٨.

(٢) شرح الطحاوية ص ٤٦٤.

(٣) تكمة شرح الصدور ص ١١.

(٤) نفس المصدر السابق.

خلق الله عزوجل الحيوان إلى انقضاء الأمد المذكور، ورد أرواحهم التي كانت بأعيانها، وجمعَهُم في موقف واحد وحاسبهم عن جميع أعمالهم ووفهم جراءهم، ففريق من الجن والإنس في الجنة وفريق في السعير، وبهذا جاء القرآن والسنة^(١).

ويقول الجرجاني عن إثبات القول ببعث الجسد والروح معاً: «وهو قول كثير من المحققين كالحليمي، والغزالى، والراغب، وابن زيد الدبوسي، ومعمر من قدماء المعتزلة، وجمهور من متأخري الإمامية وكثير من الصوفية»^(٢).

ويقول ابن كثير: «وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا فضيل بن عبد الوهاب أخبرنا هاشم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: جاء العاص ابن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففته، وقال يا محمد، يبعث الله هذا؟ قال: نعم، يبيتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم، ونزلت ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِي خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٣) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]^(٤).

ويقول محمد رشيد رضا: « ولو كان البعث للأرواح وحدها لنقص من ملوكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق المؤلف من روح وجسد، فهو يدرك اللذات الروحية، واللذات الجسمانية، ويتحقق بحكم الله. جمع حكمة. وأسرار صنعه فيها معاً، من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى

(١) انظر: الفصل لابن حزم ٤/٧٩.

(٢) انظر: المواقف بشرح الجرجاني ٣/٢٨٨.

(٣) النهاية ١/٢٥٣.

والملائكة من الثانية»^(١).

وأما ما حصل من خلاف في إعادة الأجسام: هل تعود عن العدم المحس - وهو أن الله يعدم الذوات بالكلية ثم يعيدها؟ أو تعاد الأجسام عن تفريق محس؟ أو يكون الأولى التوقف في ذلك؟

الثابت في ذلك أن الله تعالى يعيدها الجسد الذي كان في الدنيا بعينه وترجع إليه روحه بقدرة الله تعالى، والبحث عما وراء ذلك يعتبر من التكاليف التي تحتاج إلى إثبات.

قال البرديسي: «إعادة الأجسام حق يجب الإيمان بها، لكن اختلف هل تعود عن العدم المحس - وهو أن الله يعدم الذوات بالكلية ثم يعيدها. وهذا قول الأكثر، وقال الزركشي: وهو الصحيح، وقيل: بل تعاد الأجسام عن تفريق محس، وقال السعد: الحق التوقف، وقال في شرح المواقف: وهل يعدم الله الأجزاء البدنية ثم يعيدها أو يفرقها ويعيدها التأليف؟ الحق أنه لم يثبت في ذلك شيء، فلا جزم فيه نفياً ولا إثباتاً لعدم الدليل على شيء من الطرفين»^(٢).

هذا هو رأي السلف، ومن المؤسف بعد تلك النصوص جميعها أن نرى من المسلمين من يزعم أن الله لم يشأ في القرآن أن يقطع بحكم واضح في مسألة كيفية البعث، وأنه قابل للاحتمالات، فيحتمل أن يكون بعثاً للجسد والروح، وأن يكون بالجسد فقط، أو بالروح فقط، وأن تلك الكيفية التي أثبتتها الحقائق السابقة جزئية بسيطة لا تقدم ولا تؤخر، وهذا ما نراه في كلام عبد الكريم

(١) الوحي الحمدي ص ١٨٠ ، ط ٨ المكتب الإسلامي.

(٢) تكملاً شرح الصدور ص ١٢ .

الخطيب حين يقول: «والشيء الذي لم يشا القرآن أن يعرض له وأن يدخل مع المجادلين فيه هو «كيفية البعث»، وهل هو بالجسد والروح أو بالروح دون الجسد؟ فإن القرآن لم يلتفت إلى هذه الجزئية من القضية لأن أمرها لا يقدم ولا يؤخر في هذه المسألة، فإذا ثبت البعث وأمن به من آمن فلا يعنيه بعد هذا أن يقع على أي صورة، ليكن بالجسد والروح أو ليكن بالروح وحده، فهو على أية حال حياة يجدها الإنسان ويجد فيها وجوده الذي يتعامل به في الحياة الآخرة فينعم بالنعيم أو يشقى بالعذاب».

ويقول كذلك: «وكذلك شأن القرآن في موضوع البعث لم يقل إنه بالروح أو الجسد، ولكنه يقف موقفاً وسطاً، فتارة ييلدو وكأنه يقول بالبعث الروحي ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ﴾ ارجعني إلى ربك راضية مرضية (٢٨) فاذْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴿ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، وتارة يلوح وكأنه يقول بالبعث الجسدي فيقول ﴿أَيْحُسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمِعَ عَظَامَهُ﴾ [القيمة: ٣]. وفي حال أخرى يجمع بين الأمرين في موقف واحد ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٣٠) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢١، ٢٢].

ثم ذكر أن المسلم غير مطالب أن يبحث عن حقيقة البعث ولا على أية صورة يقع ولا في أي مكان أو في أي زمان يكون، بل المطالب به هو الإيمان بوقوع البعث وتحميته بعض النظر عن كون البعث بالجسد وبالروح أو الروح بلا جسد أو الجسد بلا روح، «فالامر كله سواء ما دام الإنسان سيجد في اليوم الآخر وجوده ويعرف إلى ذاته، فليكن بعد هذا على أية صورة»^(١).

(١) الله والإنسان ص ٢٨١ - ٢٨٣.

والواقع أن هذا الكلام يعد كلاماً خاطئاً يدل على أن صاحبه لم يتبع له الأمر في هذا، ولم تبين له الحقيقة الساطعة التي قررها القرآن الكريم والستة النبوية في بعث الأجساد والأرواح.

ويجب الانتهاء عن هذا القول الخاطئ، فإنه قول في مقابلة النصوص، ذلك أن النصوص جمیعاً من كتاب الله ، وسنة نبیه ﷺ، وأقوال علماء الإسلام؛ كلها - كما قدمنا - تدل على أن المعموت هو الجسد الأول بعينه، لا الجسد وحده، ولا الروح وحدها، ولا الجسد بلا روح، أو الروح بلا جسد. كما يقرره عبد الكريم الخطيب، ومن الضروري أن القائل بهذه الأقوال يحتاج إلى إعادة النظر فيها وتقرير الحق منها الموافق لما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة نبیه ﷺ.

وهو مع مخالفته لجميع النصوص الدالة على البعث الجسماني والروحاني رأي غير واضح في هذه القضية، وهو يشابه قول القائل : يكفي أن يعلم الإنسان أن له رباً وليس عليه بعد ذلك أن يكون على أي مذهب !! ومعلوم أن الشع لم يرد هذا، وقد صرخ القرآن ببعث الأجساد في أكثر من آية وصرحت السنة النبوية بذلك في أكثر من حديث.

فالادعاء بعد ذلك «أن الشيء الذي لم يشأ القرآن أن يعرض له وأن يدخل مع المجادلين فيه هو كيفية البعث»، كما قال عبد الكريم - قول غير مقبول، وليس له ما يؤيده لا من القرآن ولا من السنة ولا من أقوال السلف. فيما أعرف ..

فالقرآن يبدأ ويعيد في وصف الجنة ونعميمها ونعميم أهلها ووصف مأكلolas لهم، ومساكنهم، وثيابهم، وخدمتهم، بل يذكر القرآن ما هو أبعد من

ذلك، يذكر ما يدور بين أهل الجنة من أحاديث الذكريات التي كانت لهم في الدنيا، ثم يحمدون الله على ما وصلوا إليه من الخير العظيم، ويعتذر ذلك يذكر أهل النار، ويعتذر ذلك أيضاً جاءت السنة النبوية، فكيف يمكن أن يقال بعد ذلك أن القرآن لم ينشأ أن يعرض قضية البعث وبيان ما هو المبعث؟! فكيف نسي عبد الكريم هذه النصوص، وكيف نسي كذلك ما أجمع عليه علماء الإسلام من تكفير منكري البعث الجسدي؟

وما استند إليه من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ﴾ [٢٧] ارجع إلى رِبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨، ٢٧] على أنه قول بإعادة الأرواح دون الأجساد.

وما استند إليه كذلك من قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّ لَنْ تَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيمة: ٣] على أنه قول بالبعث الجسدي فقط، أو ما استند إليه من قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] على أنه قول بالبعث الروحي والجسدي.

ثم استنتج بعد ذلك من تلك النصوص أن القرآن لم يبين هذا الأمر بياناً قاطعاً بل كان قابلاً لتلك الاحتمالات في البعث، فيتمكن أن يكون بالروح أو الجسد أو كليهما، لا شأن للمسلم بذلك بل عليه أن يؤمن بالبعث ثم ليكن على أي صورة كان !! لا شك أن هذا قول غير سديد.

وذلك أن الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ﴾، جاء خطاباً عاماً لكل نفس، ثم لا يمكن أن يفهم منه قصر البعث على الروح وحدها، وإنما كان حكماً بلا مستند.

مع أن هذا الخطاب إنما يقال لكن نفس عند احتضارها، كما ذكر ابن جرير رحمة الله في روايته عن أبي صالح، أو يعني رجوع الروح إلى الجسد في يوم القيمة كما جاء عن ابن عباس أنه قال في تفسيرها: «أي ترد الأرواح المطمئنة يوم القيمة في الأجساد»، وعن الضحاك: «أي يأمر الله الأرواح يوم القيمة أن ترجع إلى الأجساد فیأتون الله كما خلقهم أول مرة».

ومن عكرمة: «أرجعي إلى ربك راضية مرضية» : إلى الجسد، وهو ما فسره به الكلبي أيضاً^(١).

وكذلك الآية: «أيحسب الإنسان أن لن تجمع عظامه» لا يمكن أن يفهم منه بعث العظام دون الأرواح.

قال ابن جرير في شرح معنى الآية: «يقول تعالى ذكره: أيظن ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها، بل قادرٌ على أعظم من ذلك، أن نسوى بنائه. وهي أصابع يديه ورجليه. ف يجعلها شيئاً واحداً كخف البعير أو حافر الحمار فكان لا يأخذ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم، ولكن فرق أصابع يديه يأخذ بها، ويتناول، ويقبض إذا شاء ويسقط؛ فحسن خلقه»^(٢).

ثم نسب هذا القول إلى ابن عباس، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك.

وعلمون أن هؤلاء لا يقولون ببعث العظام بمفردها جسماً بلا روح. ويوضح هذا المعنى الشوكاني رحمة الله فيقول: «وما يعني أن الله سبحانه

(١) انظر: جامع البيان /٣٠-١٩٢.

(٢) المصدر السابق: ٢٩/١٧٥.

يبعث جميع أجزاء الإنسان، وإنما خص العظام لأنها قالب الخلق^(١). ومن ذلك يتضح أن القول الحق هو اعتقاد ببعث الروح والجسد معاً لا التفرقة بينهما.

وما قدمناه من أدلة على إثبات إعادة الأرواح إلى الأجساد التي قد بليت وصارت رمياً إنما يتوجه هذا على الأجساد التي فنيت، وهناك أجساد لا تفني تعود إليها الأرواح قد أكرمتها الله ببقاء أجسادها كالأنبياء والشهداء، على خلاف في الشهداء.

ونفصل ذلك فيما يلي :

الأنبياء: فقد ورد أن أجسادهم لا تأكلها الأرض، وذلك لما روى أوس بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم عليه السلام، وفيه قبض، وفيه النفحـة، وفيه الصـعـقة، فـاكـثـرـوا عـلـيـّـ من الصـلاـةـ، فـإـنـ صـلـاتـكـمـ مـعـرـوـضـةـ عـلـيـّـ، قـالـوـاـ: يـاـ رـسـوـلـ الـلـهـ، وـكـيـفـ تـعـرـضـ صـلـاتـنـاـ عـلـيـكـ وـقـدـ أـرـمـتـ؟ـ أـيـ يـقـولـونـ:ـ قـدـ بـلـيـتـ،ـ قـالـ:ـ إـنـ اللـهـ قـدـ حـرـمـ عـلـىـ الـأـرـضـ أـنـ تـأـكـلـ أـجـسـادـ الـأـنـبـيـاءـ»^(٢).

وقال ابن حجر رحمة الله عند شرحه لقول رسول الله ﷺ : «كل بني آدم يبلـيـ إلا عـجـبـ النـبـ»ـ،ـ قالـ:ـ «ـقـالـ الـعـلـمـاءـ:ـ هـذـاـ عـامـ يـخـصـ مـنـهـ الـأـنـبـيـاءـ لـأـنـ الـأـرـضـ لـأـ تـأـكـلـ أـجـسـادـهـمـ،ـ وـأـلـحـقـ اـبـنـ عـبـدـ الـبـرـ بـهـمـ الشـهـداءـ،ـ وـالـقـرـطـبـيـ الـمـؤـذـنـ الـمـحـتبـ»ـ.ـ ثـمـ قـالـ:ـ «ـقـالـ عـيـاضـ:ـ فـتـأـوـيلـ الـخـبـرـ وـهـوـ كـلـ اـبـنـ آـدـمـ يـأـكـلـ التـرـابـ،ـ أـيـ كـلـ اـبـنـ آـدـمـ مـاـ يـأـكـلـ التـرـابـ،ـ وـإـنـ كـانـ التـرـابـ لـأـ يـأـكـلـ أـجـسـادـ كـثـيرـةـ الـأـنـبـيـاءـ»^(٣).

(١) فتح القدير ٥/٣٢٦.

(٢) سنن النسائي ٣/٩١.

(٣) فتح الباري ٨/٥٥٣.

وقال ابن القيم رحمه الله :

أجسادهم حفظت من الديدان
والأنبياء فإنهم تحت الشري
أبداً وهم تحت التراب يدان
ما للبلى بلحومهم وجسومهم
وكذلك عجب الظاهر لا يلى بلى
منه يركب خلقه الإنسان^(١)
ومن الذين وجدوا بعد مدة من دفنهم لم تأكل الأرض أجسادهم:
الشهداء :

فقد ورد في صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنهما قال: «لما حضر أحد
دعاني أبي من الليل فقال لي: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب
النبي ﷺ، وإنني لا أترك بعدي أعز منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن علي
ديناً، فاقض واستوص بأخواتك خيراً، فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفن معه
آخر في قبره، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر فاستخر جته بعد ستة أشهر،
إذا هو كيوم وضعه هنية غير أذنه» وفي رواية: «غير هنية في أذنه»^(٢).

وقال ابن حجر في الرواية الأخيرة: وهي الصواب^(٣).

وقد ذكر العلماء السبب الذي جعل الأرض لا تأكل أجساد الشهداء،
وهو لكونهم أحياء عند ربهم يرزقون.

قال العلماء: إنما لم تأكل الأرض أجساد الشهداء لكونهم أحياء عند ربهم
يرزقون كما صرخ به القرآن، وثبت في الصحيح أن عمرو بن الجموح وعبد الله

(١) التونية ص ١٦.

(٢) صحيح البخاري ٣/٢١٤.

(٣) فتح الباري ٣/٢١٦، ومعنى هنية: أي شيئاً يسيراً.

ابن عمرو الأنباري دفنا في قبر واحد يوم أحد، فجرى السيل عن قبرهما فحضروا عليهما لينقلوا إلى مكان آخر فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك، فكانوا يرتفعون يده عن الجرح فترجع إلى ما كانت، وذلك بعد ست وأربعين سنة من وقعة أحد^(١).

وكذلك ما ورد عن الإمام أحمد رحمة الله أنه وجد لم يتغير فيه أي شيء بعد مائتين وثلاثين سنة من دفنه، وهو ما ذكره ابن حجر العسقلاني بقوله: «وقال أبو الحسن بن الزاغوني: كُشف قبر أَحْمَدَ حِينَ دُفِنَ الشَّرِيفُ أَبُو جعفر ابن أبي موسى إلى جانبه فوجد كفنه صحيحًا لم يبل وجنبه لم يتغير، وذلك بعد موته مائتين وثلاثين سنة»^(٢).

والواقع أنه لا يوجد نص صريح عن الرسول ﷺ في أن الشهداء لا تأكل الأرض أجسامهم، فيحتمل أن يقوا كذلك ويحتمل أن يفتنوا بعد مدة، والله أعلم.

وفي هذا يقول شارح الطحاوية ابن أبي العز: «وحرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء كما روي في السنن، وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنه كما هو لم يتغير، فيحتمل بقاوته كذلك في تربته إلى يوم محشرة، ويحتمل أنه يليل مع طول المدة والله أعلم، وكأنه - والله أعلم - كلما كانت الشهادة أكمل والشهيد أفضل كان بقاء جسده أطول»^(٣).

(١) انظر: مختصر التذكرة للشعراني ص ٥١.

(٢) تهذيب التهذيب ١/٧٦.

(٣) شرح الطحاوية ص ٤٥٦.

وإذا كنا قد خرجنَا عن مَوْضِعِنَا الأصْلِيِّ وَتَكَلَّمَنَا عَنْ حَيَاةِ الشَّهَدَاءِ هَلْ
تَبْلِي أَجْسادَهُمْ أَمْ لَا ، فَإِنْ ذَلِكَ تَكْمِيلًا لِلْفَائِدَةِ وَتَتْمِيمًا لِلْبَحْثِ .

هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّسْبَةِ لِلْبَعْثِ عَنْ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَّا الرَّدُّ عَلَى الْفَلَاسِفَةِ
وَإِبْطَالِ حَجَجِهِمْ فِي نَفْيِ الْبَعْثِ ، فَهُوَ مَا سَنْدَرْسَهُ فِي الصَّفَحَاتِ الْآتِيَّةِ :

الرَّدُّ عَلَى الْفَلَاسِفَةِ وَإِبْطَالِ حَجَجِهِمْ فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ :

وَإِذَا كَنَا قَدْ قَدَّمْنَا بِيَانِ حَقِيقَةِ الْبَعْثِ وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ خَالَفَ فِي ذَلِكَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ وَالْمُلَاحِدَةِ ، وَكَنَا قَدْ ذَكَرْنَا كَذَلِكَ آرَاءَ غَيْرِ هُؤُلَاءِ فِي قَضِيَّةِ الْبَعْثِ
وَهُمُ الْفَلَاسِفَةُ ، فَإِنَّا سَنَخْتَمُ فِيمَا يَلِي بِالرَّدِّ عَلَى الْفَلَاسِفَةِ وَبِبَيَانِ ضَلَالِهِمْ ،
وَرَدِّ عَلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ .

وَالوَاقِعُ أَنَّ الَّذِي حَمَلَ الْفَلَاسِفَةُ عَلَى هَذَا الْمَعْتَقَدِ الْفَاسِدِ هُوَ إِنْكَارُهُمْ
لِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْبَعْثِ الْجَسْمَانِيِّ بَعْدَ تَفَتُّتِ الْجَسْدِ وَصِيرُورَتِهِ تَرَابًا ،
مَضَافًا إِلَيْهِ عَدَمُ التَّفَاتِهِمْ إِلَى الْجَسْدِ وَمَا يَقُولُ لَهُ مِنَ النَّعِيمِ وَالْعَقَابِ ، وَجَعَلُوا
حَصْوَلَ ذَلِكَ لِلرُّوحِ وَحْدَهَا ، فَذَهَبُوا إِلَى «أَنَّ النَّفْسَ تَبْقَى بَعْدَ الْمَوْتِ بِقَاءً
سَرْمَدِيًّا ، إِمَّا فِي لَذَّةٍ لَا يُحِيطُ الْوَصْفُ بِهَا لِعَظَمَهَا ، وَإِمَّا فِي أَلَمٍ لَا يُحِيطُ
الْوَصْفُ بِهِ لِعَظَمِهِ» ، وَهُمْ لَا يَجْزِمُونَ بِبَقَاءِ هَذَا الْأَلَمِ دَائِمًا بَلْ «قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ
الْأَلَمُ مَخْلُدًا وَقَدْ يَنْمَحِي عَلَى طُولِ الزَّمَانِ»^(١) .

ثُمَّ يَقْسِمُونَ تَفاوتَ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْأَلَمِ وَاللَّذَّةِ إِلَى أَقْسَامِ لَا
تَنْحُصُرُ ، كَثْفَاؤُهُمْ فِي الْمَرَاتِبِ الدِّينِيَّةِ وَلِذَاتِهَا غَيْرِ الْمُنْحَصَرَةِ ، فَيَقُولُونَ :
إِنَّ اللَّذَّةَ السَّرْمَدِيَّةَ تَكُونُ «لِلنَّفُوسِ الْكَامِلَةِ الْزَّكِيَّةِ» .

(١) يَرْجِعُ لِهَذِهِ النَّصْوصِ الَّتِي سَنْذَكِرُهَا إِلَى كِتَابِ الْإِمَامِ الغَزَالِيِّ «تَهَافُتُ الْفَلَاسِفَةِ» مِنْ
صَ ٣٠٣ - ٣٠٢ بِتَصْرِيفِ فِي بَعْضِ الْأَماَنَاتِ .

والألم السرمدي «للنفوس الناقصة الملطخة».

والألم المنقضي «للنفوس الكاملة الملطخة».

والتالي من ذلك أن السعادة المطلقة لا تتأتى إلا بالكمال والتزكية والطهارة، وسبيل الكمال يكون بالعلم، وسبيل الزكاء والطهر يكون بالعمل.

وبعد أن ذكر الغزالى ما قدمناه - بتصرف - شرع في بيان وجه الحاجة إلى العلم، ببيان مفاضلة الفلاسفة بين حاجة النفس إلى إدراك المعقولات والتذاذها بها، وبين الوصول إلى اللذات الجسمانية التي هي لا تساوي شيئاً في جانب إدراك اللذات العقلية، مدعين أن اللذة الكاملة هي في إدراك اللذات العقلية التي هي أشرف وأعلى من اللذات الجسمية، مستدلين على ذلك بأمرتين :

أحدهما : أن حال الملائكة أشرف من حال السباع والخنازير من البهائم، وليست لها اللذات الجسمية من الشراب والأكل^(١) وإنما لها لذة الشعور بكمالها وجمالها الذي خصت به في نفسها في اطلاعها على حقائق الأشياء.

والثاني : أن الإنسان أيضاً قد يؤثر اللذات العقلية على الجسمية، «وضربوا لهذا من الأمثلة بحال من يتمكن من غلبة عدوه والشماتة به ، فإنه قد يهجر في سبيل الحصول على ذلك ملاذ الأنكحة والأطعمة .

وكذا لاعب الشطرنج والنرد ، فإن المتصر فيهما قد لا يحس بألم الجوع ويستمر في اللعب طول النهار .

(١) في الأصل من الجمال والأكل والصحيح من الشراب والأكل كما هو ظاهر من سياق العبارة.

وكذا الرجل الذي يحب الثناء عليه ، فإنه قد يهجم على عدوه ولو كانوا جمعاً غفيراً مستحقرأ خطر الموت شغفاً بما يتوهمه من لذة الثناء والإطراء عليه». والت نتيجة بعد هذا أن اللذات العقلية أفضل من اللذات الجسمية الدنيوية .

هذا ما يتعلق باستدلالهم على أن اللذات العقلية أفضل من اللذات الجسمية ليتوصلوا إلى أن الحسد لا قيمة له فلا يبعث ولا يحاسب ولا ينعم .

أما بالنسبة لاستدلالهم على وجاه الحاجة إلى العمل والعبادة بقصد زكاء النفس فهو «أن النفس في هذا البدن مصدودة عن درك حقائق الأشياء ، لا تكونها منطبعة في البدن بل لاشتغالها ونزع عنها إلى شهواتها وشوقها إلى مقتضياتها» ، ويدركون أنه إذا صار حب الشهوات طبيعة لتلك النفس ومات البدن على هذا المسلك ، فإن نتيجة ذلك تكون مؤذية للنفس من وجهين :

أحدهما : أنها تمنعها عن لذاتها الخاصة بها وهي الاتصال بالملائكة والاطلاع على الأمور الجميلة الإلهية ، ولا يكون معها البدن الشاغل فيلهيها عن التأمل كما قبل الموت .

والثاني : أنه يبقى معها الحرص والميل إلى الدنيا وأسبابها ولذاتها وقد استولت منها الآلة ، فإن البدن هو الآلة للوصول إلى تلك اللذات .

ويمثلون لذلك «بحال من عشق امرأة وألف رياسة واستئناس بأولاده واستراح إلى مال وابتھج بحشمة ، فُقتلت معشوقته وعُزل عن رياسته وسبُّ أولاده ونساؤه وأخذ أمواله أعداؤه وسقطت بالكلية حشمته ؛ فيقاسي من الألم ما لا يخفى ، وهو في هذه غير منقطع الأمل عن عودة أمثال هذه الأمور ، فإن أمر الدنيا غاد ورائع ، فكيف إذا انقطع الأمل بفقدان البدن بسبب الموت؟» .

فالنتيجة إذن للخروج عن هذا المسلك لا يكون إلا «بكف النفس عن الهوى والإعراض عن الدنيا والإقبال بكتنه الجد على العلم والتقوى، حتى تقطع علاقتها عن الأمور الدنيوية وهي في الدنيا وتستحکم علاقتها مع الأمور الأخروية، فإذا ماتت كان كالمخلص من سجن، والواصل إلى جميع مطالبه وهو جنته».

وهم مع ذلك يعترفون بأنه «لا يمكن سلب جميع هذه الصفات عن النفس ومحوها بالكلية فإن الضرورات البدنية جاذبة إليها، إلا أنه يمكن تضييف تلك العلاقة»، وكتبيجة لذلك «فقد ورد الشرع في الأخلاق بالتوسط بين كل طرفين متقابلين، فيقدم ويحجم بإشارته^(١) لا باختياره، فتهذب به أخلاقه».

قالوا: «ومن عدم هذه الفضيلة في الخلق والعلم جميـعاً فهو الـهـالـكـ، ولـذـلـكـ قـالـ اللـهـ تـعـالـىـ: ﴿قـدـ أـفـلـعـ مـنـ زـكـاـهـ﴾ (٥) وـقـدـ خـابـ مـنـ دـسـاـهـ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، ومن جمع الفضيلتين، العلمية والعملية، فهو العارف العـابـدـ وـهـوـ السـعـيدـ، وـمـنـ لـهـ الفـضـيـلـةـ الـعـلـمـيـةـ دـوـنـ الـعـمـلـيـةـ فـهـوـ الـعـالـمـ الـفـاسـقـ، وـيـتـعـذـبـ مـدـةـ وـلـكـنـ لـاـ يـدـوـمـ لـأـنـ نـفـسـهـ قـدـ كـمـلـتـ بـالـعـلـمـ، وـلـكـنـ الـعـوـارـضـ الـبـدـنـيـةـ لـطـخـتـهـ تـلـطـيـخـاـ عـارـضاـ، وـمـنـ لـهـ الفـضـيـلـةـ الـعـلـمـيـةـ دـوـنـ الـعـلـمـ فـيـلـمـ وـيـنـجـوـ عـنـ الـأـلـمـ وـلـكـنـ لـاـ يـحـظـىـ بـالـسـعـادـةـ الـكـامـلـةـ».

وأخيراً فقد «زعموا أن من مات فقد قامت قيامته، ثم زعموا القصد بإبطال القول بالبعث أن «ما ورد في الشرع من الصور الحسية؛ فالقصد به ضرب الأمثل لقصور الأفهام عن درك هذه اللذات، فمثل لهم ما يفهمون،

(١) أي بالشرع.

ثم ذكر لهم أن تلك اللذات فوق ما وصف لهم».

هذه هي خلاصة آراء الفلاسفة في إنكار البعث كما ذكرها الإمام الغزالى.

وقد تصدى الغزالى للرد على تلك المزاعم ببيان الصحيح وال fasid منها، فقال إجمالاً: «ونحن نقول: أكثر هذه الأمور ليست على مخالفة الشرع، فإننا لا ننكر أن في الآخرة أنواعاً من اللذات أعظم من المحسوسات، ولا ننكر بقاء النفس عند مفارقة البدن، ولكننا عرفنا ذلك بالشرع، إذ قد ورد الشرع -بالمعاد، ولا يفهم المعاد إلا ببقاء النفس، وإنما أنكرنا عليهم من قبل دعواهم معرفة ذلك بمجرد العقل».

ثم بين أقوالهم المخالفة للشرع ومنها:
«إنكار حشر الأجساد.

وإنكار اللذات الجسمانية في الجنة.

وإنكار الآلام الجسمانية في النار.

وإنكار وجود الجنة والنار كما وصف في القرآن».

ثم ذكر في رده على الفلاسفة حينما فرقوا بين السعادة أو الشقاوة الجسمانية والروحانية، بأنه ليس هناك مانع من تتحقق الجمع بين السعادتين الروحانية والجسمانية، ثم أبطل استدلالهم بقوله تعالى: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَيَ لَهُمْ مِنْ قُرْبَةٍ أَعْيُنٍ» [السجدة: ١٧]، على أن اللذات إنما هي روحانية فقط، بأن معنى النص الكريم هو بيان أنه لا يعلم جميع ذلك.

وكذا قوله تعالى في الحديث القدسي : «أعددت لعبادِي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١) : معناه أن «وجود هذه الأمور الشريفة لا يدل على نفي غيرها، بل الجمع بين الأمرين أكمل، والموعد به أكمل الأمور، وهو ممكن، فيجب التصديق به على وفق الشرع».

وأما زعمهم بأن ما ورد من أخبار اليوم الآخر إنما هي أمثال ضربت لتفهيم عوام الخلق ، ولتفهيمهم التعيم الروحاني بالأمثلة المادية التي يعرفونها ، فإن إبطال هذا القول ظاهر ، إذ إن أخبار اليوم الآخر قد بلغت حد التواتر ، وهي كذلك من الأمور الممكنة وليس من المستحيلات ، وليس هناك داع يضطر المؤمن إلى أن يسلك مسلك التأويلات التي سلكها الفلاسفة بالنسبة للنصوص الصريحة في ذلك ، المثبتة للتعيم الروحاني والجسماني معاً.

أما قولهم بأنه قد دل الدليل العقلي على استحالة بعث الأجساد ، فهذا ليس ب صحيح ، بل دل الدليل العقلي على جواز ذلك ، وجاء بإثباته الشرع ، فوجب التصديق به .

وإيضاح ذلك نقول : إنهم قد سلكوا في استدلالهم مسلكين وهما :

المسلك الأول : قالوا : تقدير العود إلى الأبدان ثلاثة أقسام :

١ - إما أن يقال : الإنسان عبارة عن البدن والحياة التي هي عرض قائم به ، كما ذهب إليه بعض المتكلمين ، وأن النفس التي هي قائمة بنفسها ومديرة للجسم فلا وجود لها ، ومعنى الموت انقطاع الحياة : أي امتناع الخالق عن

(١) قد تقدم إخراجه .

خلقها فتنعدم، والبدن أيضاً ينعدم، ومعنى المعاد: إعادة الله تعالى للبدن الذي انعدم، ورده إلى الوجود، وإعادة الحياة التي انعدمت. أو يقال إن مادة البدن تبقى تراباً، ومعنى المعاد أن يجمع ويركب على شكل الأدمي ويخلق فيه الحياة ابتداء. فهذا قسم.

٢ - وإنما أن يقال: إن النفس موجودة وتبقى بعد الموت ويكون رد النفس إلى البدن الأول بجمع تلك الأجزاء بعينها. وهذا قسم.

٣ - وإنما أن يقال: رد النفس إلى بدن، سواء كان من تلك الأجزاء أو من غيرها، ويكون العائد ذلك الإنسان من حيث أن النفس تلك النفس، وأما المادة فلا التفات إليها إذ الإنسان ليس إنساناً بها بل بالنفس.

ثم عقب الفلسفه على تلك الافتراضات أو الأقسام الثلاثة ببطلانها فقالوا: «وهذه الأقسام الثلاثة باطلة»:

أما الأول: فظاهر البطلان، لأنه مهما انعدمت الحياة والبدن فاستثناف خلقها إيجاد مثل ما كان لا لعين ما كان، بل العود المفهوم هو الذي يفرض بقاء شيء وتجدد شيء، كما يقال: عاد فلان إلى الإنعام، أي أن المنعم باق وترك الإنعام ثم عاد إليه، أي عاد إلى ما هو الأول بالجنس ولكنه غيره بالعدد، فيكون عوداً بالحقيقة إلى مثله لا إليه.

ويقال: فلان عاد إلى البلد أي بقي موجوداً خارجاً، وقد كان له كون في البلد فعاد إلى مثل ذلك، وإن لم يكن شيء باقياً وشيشان متعددان متباينان يتخللهم ما زمان لم يتم اسم العود، إلا أن نسلك مذهب المعتزلة؛ فيقال: المعدوم شيء ثابت، والوجود حال يعرض له مرة وينقطع تارة ويعود أخرى،

فيتحقق معنى العود باعتبار بقاء الذات، ولكنه رفع للعدم المطلق الذي هو النفي المحسن، وهو إثبات اللذات مستمرة الثبات إلى أن يعود إليها الوجود، وهو محال.

قالوا: فإن احتال ناصر هذا القسم بأن قال: تراب البدن لا يفنى فيكون باقياً فتعاد إليه الحياة، فتقول عند ذلك: يستقيم أن يقال عاد التراب حياً بعد أن انقطعت الحياة عنه مدة، ولا يكون ذلك عوداً للإنسان ولا رجوعاً ذلك الإنسان بعينه لأن الإنسان إنسان لا يعادته، والتراب الذي فيه إذ يتبدل عليه سائر الأجزاء أو أكثرها بالغذاء وهو ذاك الأول بعينه، فهو هو باعتبار روحه ونفسه، فإذا عدلت الحياة والروح فما عد لا يعقل عوده وإنما يستأنف مثله.

ومهما خلق الله تعالى حياة إنسانية في تراب يحصل من بدن شجرة أو فرس أو نبات كان ذلك ابتداء خلق إنسان، فالمعدوم قط لا يعقل عوده، والعائد هو الموجود، أي عاد إلى حالة كانت له من قبل، أي إلى مثل تلك الحالة، فالعائد هو التراب إلى صفة الحياة، وليس الإنسان ببدنه، إذ قد يصير بدن الفرس غذاء لإنسان فيتخلى منه نطفة يحصل منها إنسان، فلا يقال: الفرس انقلب إنساناً بل الفرس فرس بصورة لا يعادته، وقد انعدمت الصورة وما بقي إلا المادة.

وأما القسم الثاني: وهو تقدير بقاء النفس وردها إلى ذلك البدن بعينه، فهو لو تصور لكان معاداً أي عوداً إلى تدبير البدن بعد مفارقته، ولكنه محال، إذ بدن الميت يستحيل تراباً أو تأكله الديدان والطيور، ويستحيل ماء وبخاراً وهواء، ويترنح بهواء العالم وبخاره ومائه امتزاجاً يبعد انتزاعه

واستخلاصه .

ولكن إن فرض ذلك اتكالاً على قدرة الله تعالى ، فلا يخلو إما أن يجمع الأجزاء التي مات عليها فقط ، فينبع أن يعاد الأقطع ومجدوع الأنف والأذن وناقص الأعضاء كما كان ، وهذا مستقبح لاسيما في أهل الجنة ، وهم الذين خلقوا ناقصين في ابتداء الفطرة ، فإعادتهم على ما كانوا عليه من الهزال عند الموت في غاية النكال ، هذا إن اقتصر على جمع الأجزاء الموجودة عند الموت .

وإن جمع جميع أجزائه التي كانت موجودة في جميع عمره فهو محال من وجهين :

أحدهما : أن الإنسان إذا تغذى بلحם إنسان ، وقد جرت به العادة في بعض البلاد ويكثر وقوعه في أوقات القحط ، فيتعذر حشرهما جمياً ، لأن مادة واحدة كانت بدنًا للمأكل وصارت بالغذاء بدنًا بعد ذلك للأكل ، ولا يمكن رد نفسين إلى بدن واحد .

والثاني : أنه يجب أن يعاد جزء واحد يدًا وقلباً ورجلًا ، فإنه ثبت بالصناعة الطبية أن الأجزاء العضوية يتغذى بعضها بفضلة غذاء بعضها ، فيتغذى الكبد بأجزاء القلب ، وكذا سائر الأعضاء ، فنفرض أجزاء معينة قد كانت مادة بحملة من الأعضاء ، فإلى أي عضو تعاد؟ !

بل لا يحتاج في تقدير الاستحالة إلى أكل الناس الناس ، فإنك إذا تأملت ظاهر التربية المعمورة علمت بعد طول الزمان أن ترابها جث الموتى ، قد تربت وزرع فيها وغرس وصارت حباً وفاكهه ، وتناولها الدواب ، فصارت لحماً ،

وتناولناها فصارت أبداناً لنا، فما من مادة يشار إليها إلا وقد كانت بدنًا لأناس كثيرة، فاستحالت وصارت تراباً ثم نباتاً ثم لحمًا ثم حيواناً !!

قالوا: بل يلزم منه محال ثالث، وهو أن النفوس المفارقة للأبدان غير متناهية، والأبدان متناهية، فلا تفي الموارد التي كانت مواد الإنسان بأنفس الناس كلهم بل تضيق عنهم.

وأما القسم الثالث: وهو رد النفس إلى بدن إنسان من أي مادة كانت وأي تراب اتفق فهذا محال من وجهين:

أحدهما: أن المواد القابلة للكون والفساد محصورة في مقرع ذلك القمر لا يمكن عليها مزيد، وهي متناهية والأنفس المفارقة للأبدان غير متناهية، فلا تفي بها.

والثاني: أن التراب لا يقبل تدبير النفس ما بقي تراباً، بل لابد وأن تترج العناصر امتزاجاً يضاهي امتزاج النطفة، بل الخشب والحديد لا يقبل هذا التدبير، ولا يمكن إعادة الإنسان ويدنه من خشب أو حديد، بل لا يكون إنساناً إلا إذا انقسم أعضاء بدنـه إلى اللحم والعظم والأخلاط، ومهما استعد البدن والمزاج لقبول نفس استحق من المبادئ الواهية للنفوس حدوث نفس، فيتوارد على البدن الواحد نفسان.

وبهذا بطل مذهب التناسخ، فإن رجع إلى اشتغال النفس بعد خلاصها من البدن بتدبیر بدن آخر غير البدن الأول، فالمسلك الذي يدل على بطلان التناسخ يدل على بطلان هذا المذهب.

ثم يتبع الغزالي بيان مذهب الفلاسفة في إنكارهم البعث ببيان المسلك الثاني من تلك المسالك فيقول:

المسلك الثاني: إن قالوا: ليس من المقدور أن يقلب الحديد ثواباً منسوجاً، بحيث يتعمم به الإنسان، إلا بتحلل أجزاء الحديد إلى بسائط العناصر بأسباب تستولى على الحديد فتحلله إلى بسائط العناصر، ثم تجمع العناصر وتدار في أطوار الخلقة إلى أن يكتسب صورة القطن، ثم يكتسب القطن صورة الغزل، ثم الغزل يكتسب الانظام المعلوم الذي هو النسج على هيئة معلومة، ولو قيل: إن قلب الحديد عمامة قطنية يمكن من غير الاستحالة في هذه الأطوار على سبيل الترتيب كان محلاً.

قالوا: نعم يجوز أن يخطر للإنسان أن هذه الاستحالات يجوز أن تحصل كلها في أزمان متقاربة لا يحس الإنسان بطولها؛ فيظن أنه وقع فجأة دفعه واحدة، وإذا عقل هذا؛ فالإنسان المبعوث المحشور لو كان بدنـه من حجر أو ياقوت أو در، أو تراب محض؛ لم يكن إنساناً.

بل لا يتصور أن يكون إنساناً إلا أن يكون متشكلاً بالشكل المخصوص، مركباً من العظام والعروق واللحوم والغضاريف والأخلط، والأجزاء المفردة تتقدم على المركبة، فلا يكون البدنـ ما لم تكن الأعضاء، ولا تكون الأعضاء المركبة ما لم تكن العظام واللحوم والعروق، ولا تكون هذه المفردات ما لم تكن الأخلط، ولا تكون الأخلط الأربعـة ما لم تكن موادها من الغذاء، ولا يكون الغذاءـ ما لم يكن حيواناً أو نباتاً وهو اللحم والحبوب، ولا يكون حيواناً ونباتاً ما لم تكن العناصر الأربعـة جميعاً مترتبـة بشرطـات مخصوصـة طويلـة أكثر مما فصلـنا جملـتها.

فإذن لا يمكن أن يتجدد بدن الإنسان لترد النفس إليه إلا بهذه الأمور ولها أسباب كثيرة.

ثم أوردوا التساؤلات الآتية فقالوا: أفينقلب التراب إنساناً بأن يقال له كن فيكون؟ أو بأن تهدم أسباب انقلابه في هذه الأدوار؟ وأسبابه هو إلقاء النطفة المستخرجة من لبان بدن الإنسان في رحم حتى يستمد من دم الطمث ومن الغذاء مدة، ثم يخلق مضغة، ثم علقة، ثم جنيناً، ثم طفلاً، ثم شاباً، ثم كهلاً.

فقول القائل: يقال له: كن فيكون: غير معقول، إذ التراب لا يخاطب، وانقلابه إنساناً دون التردد في هذه الأطوار محال، وترددده في هذه الأطوار دون جريان هذه الأسباب محال، فيكون البعث محالاً^(١).

هذا هو مذهب الفلسفه في قضية البعث استوفاه الغزالى كما سبق ذكره، فما مدى صحة قولهم في هذه القضية؟ وهل ترد تلك الشبه على من يقول بالبعث الجسماني والروحاني أم لا؟

والجواب سيكون بالنفي ولاشك، ذلك أن قول الفلسفه برد النفس إلى بدن إنسان من أي مادة كانت، وأي بدن اتفق، قول يخالف ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو أمر يأبه العدل الإلهي.

وقد رد الغزالى على الفلسفه في هذه القضية، فقال في الاعتراض عليهم:

«الاعتراض هو أن يقال: بم تنكرون على من يختار القسم الأخير ويرى

(١) نهافت الفلسفه ص ٣٠١.

أن النفس باقية بعد الموت، وهو جوهر قائم بنفسه، فإن ذلك لا يخالف الشرع، بل دل عليه الشرع في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءً عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وبقوله عليه السلام: «أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر معلقة تحت العرش».

وبما ورد من الأخبار بشعور الأرواح بالصلوات والخيرات، وسؤال منكر
ونكير، وعذاب القبر وغيره، وكل ذلك يدل على البقاء.

نعم، قد دل مع ذلك البعث والنشور بعده وبعث البدن، وذلك ممكن بردتها إلى بدن، أي بدن كان، من مادة البدن الأول، أو من غيره، أو من مادة استأنف خلقها، فإنه هو بنفسه لا يبده، إذ تتبدل عليه أجزاء البدن من الصغر إلى الكبر بالهزال والسمن، وتتبدل الغذاء ويختلف مزاجه مع ذلك، وهو ذلك الإنسان يعنيه.

فهذا مقدور لله تعالى، ويكون ذلك عوداً لتلك النفس، فإنه قد تعذر عليها أن تحظى بالآلام واللذات الجسمانية بفقد الآلة، وقد أعيدت إليها آلة مثل الأولى، فكان ذلك عوداً محققاً».

ثم يتابع الغزالى إبطال حجج الفلاسفة فيقول: وما ذكرتموه من استحالة
هذا بكون النفس غير متناهية، وكون الموارد متناهية؛ محال لا أصل له؛
فإنه بناء على قدم العالم وتعاقب الأدوار على الدوام، ومن لا يعتقد قدم
العالم؛ فالنقوس المفارقة للأبدان عنده متناهية، وليس أكثر من الموارد
الموجودة.

وإن سلم أنها أكثر؛ فالله تعالى قادر على الخلق واستئناف الاختراع، وإنكاره إنكار لقدرة الله تعالى على الإحداث، وقد سبق إبطاله في مسألة حدوث العالم.

وأما إحالتكم الثانية : بأن هذا تناسخ : فلا مشاحة في الأسماء، فما ورد الشرع به يجب تصديقه؛ فليكن تناسخاً، وإنما نحن ننكر التناسخ في هذا العالم، فاما البعث فلا نكره، سمي تناسخاً أو لم يسم تناسخاً.

وقولكم : إن كل مزاج استعد لقبول نفس؛ استحق حدوث نفس من المبادىء؛ رجوع إلى أن حدوث النفوس بالطبع لا بالإرادة، وقد أبطلنا ذلك في مسألة حدوث العالم، كيف ولا يبعد على مساق مذهبكم أيضاً أن يقال: إنما يستحق حدوث النفس إذا لم تكن نَفْس موجودة فستأنف نفس.

فيبقى أن يقال : فلم لم تتعلق بالأمزجة المستعدة في الأرحام قبل البعث والنشور، بل في عالمنا هذا.

فيقال : لعل الأنفس المفارقة تستدعي نوعاً آخر من الاستعداد، ولا يتم سببها إلا في ذلك الوقت، ولا يبعد في أن يفارق الاستعداد المشروط للنفس الكاملة المفارقة، الاستعداد المشروط للنفس الحادثة ابتداء، التي لم تستفد كمالاً بتدبير البدن مدة، والله تعالى أعلم بتلك الشروط وبأسبابها وبأوقات حضورها.

وقد ورد الشرع به وهو ممكن؛ فيجب التصديق به».

وهذه المناقشة العملية للإمام الغزالى في تفنيد شبه الفلسفه في تلك المسائل الغيبية قوية مقنعة، لو لا أنه يرد عليه اعتراض ينبغي التوقف عنده،

وذلك في رأيه بجواز رد النفس إلى بدن إنسان كيما اتفق، سواء كان من مادة البدن الأول أو من غيره، أو من مادة استؤنف خلقها.

فالواقع أن الصحيح الذي يفيده مفهوم القرآن والسنة خلاف هذا، وهو إثبات المعاد للجسد الأول بعينه، ورد الروح إليه بعينه، لجسم آخر كيما اتفق، فهذا يأبه عدل الله أن يعذب جسداً لا ذنب له، وأن يقبل كذلك شهادة أعضاء ما كانت هي الفاعلة. كما سيأتي إيضاح هذا في مبحث الحساب..

ثم قال الغزالى في رده على الشبهة الثانية التي توصلوا بها إلى أن القول بالبعث يعد من المحال قال: «أنا نسلم أن الترقى في هذه الأطوار لابد منه حتى يصير بدن إنسان لحماً، بل لابد منه حتى يصير الحديد عمامة، فإنه لو بقي حديداً لما كان ثواباً، بل لابد وأن يصير قطناً مغزواً ثم منسوجاً.

ولكن ذلك في لحظة أو في مدة ممكناً، ولم يبين لنا أن البعث يكون في أدنى ما يقدر أن يكون جمع العظام وإنشاز اللحم وإنباته في زمان طويل، وليس المناقشة فيه وإنما النظر في أن الترقى في هذه الأطوار يحصل بمجرد القدرة من غير واسطة^(١)، أو بسبب من الأسباب، وكلاهما ممكناً عندنا.

وأما الثاني : فهو أن نقول : ذلك يكون بأسباب، ولكن ليس من شرطه أن يكون السبب هو المعهود، بل في خزانة المقدورات عجائب وغرائب لم يطلع عليها، ينكرها من يظن أن لا وجود إلا لمشاهدته، كما ينكر طائفة السحر والنارنجيات والطلسمات والمعجزات والكرامات، وهي ثابتة بالاتفاق بأسباب غريبة لا يطلع عليها.

(١) قوله تعالى للشيء: (كُنْ فَيَكُونُ).

بل لو لم ير إنسان المغناطيس وجذبه الحديد، وحكي له ذلك لاستنكره، وقال: لا يتصور جذب الحديد إلا بخيط يشد عليه ويجدب، فإنه المشاهد في الحسن، حتى إذا شاهده تعجب منه وعلم أنه قاصر عن الإحاطة بعجائب القدرة.

وكذلك الملحدة المكرونة للبعث والنشور، إذا بعشوا من القبور ورأوا عجائب صنع الله فيه ندموا ندامة لا تنفعهم، ويتحسرون على جهودهم تخسراً لا يغيب لهم، ويقال لهم: هذا الذي كسم به تكذبون»^(١).

وفيما تقدم إثباته من كتاب الله تبارك وتعالى، ومن أقوال نبيه ﷺ، وأقوال علماء الإسلام؛ ما يبطل هذا المذهب كما لا يخفى ذلك.

وقد أثبتت كلام الغزالى هنا في عرض حجج الفلسفه والرد عليهم ليكون العرض والرد من جنس كلام الفلسفه، مع تعقب الغزالى فيما لا يتفق مع الاعتقاد الصحيح. والله الموفق.

* * *

(١) تهافت الفلسفه ص ٣٠٢.

الفصل التاسع

النفخ في الصور

نفحة البعث

١ - معنى النفخ:

١ - في اللغة .

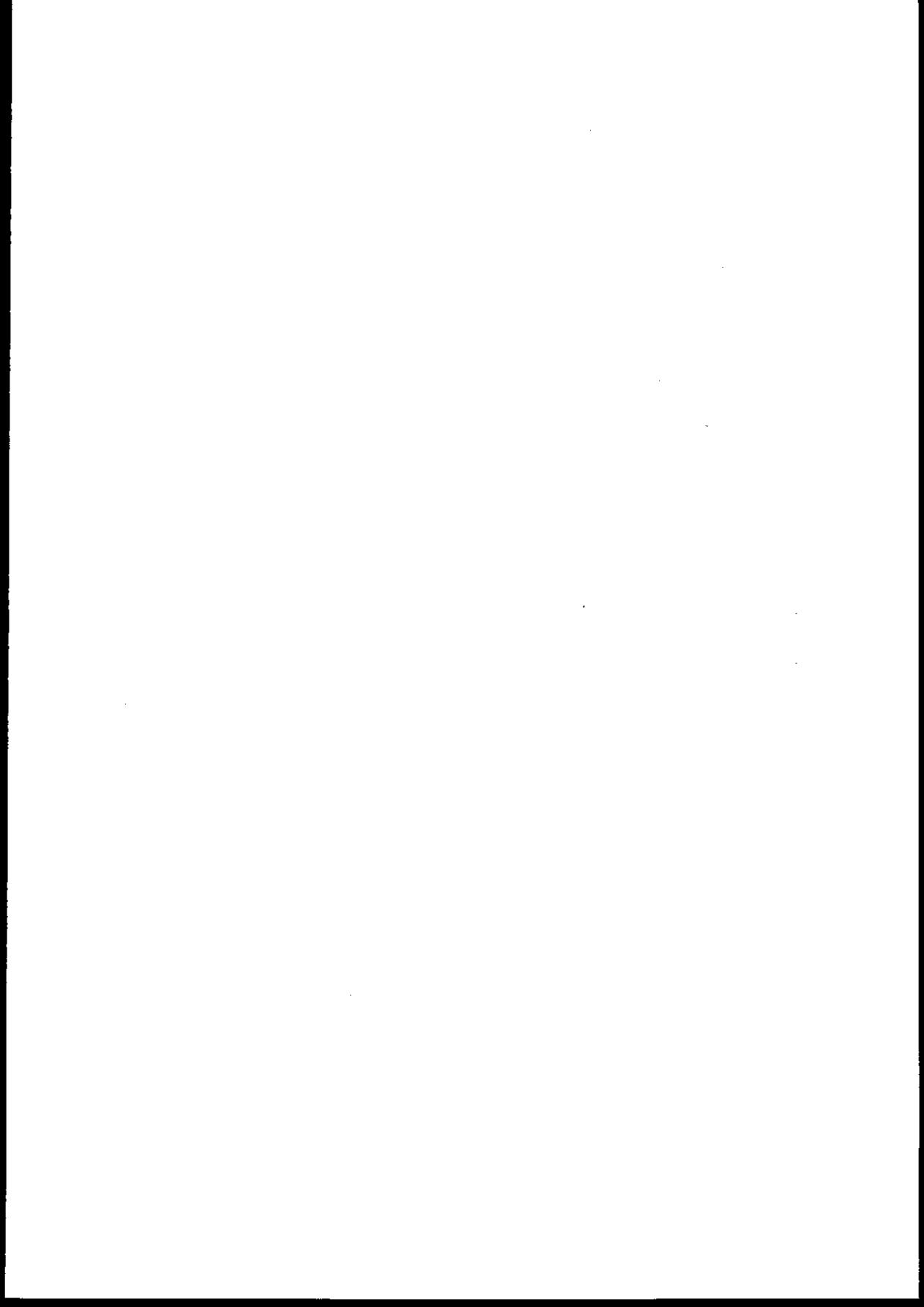
٢ - في الاصطلاح .

٢ - عدد النفخات .

٣ - الأدلة على إثبات النفخ في الصور :

١ - من القرآن الكريم .

٢ - من السنة النبوية .



الفصل التاسع

النفع في الصور

نفخة البعث

وبعد أن انتهينا من ذكر البعث بما تقدم من ذكر الأدلة، فإن ما ينبغي معرفته أنه لا يتم البعث إلا إذا حصل أمر الله لإسرافيل بالنفع في الصور نفخة البعث التي يتم بها قيام الناس من قبورهم، ليستقر بهم الحال في الموقف المعد لكتلهم فيه، إلى أن يقضي الله بينهم. كما سنتذكر ذلك في موضعه.

ونفخة البعث هذه هي المقصودة في بحثنا. من بين بقية النفحات التي نعرض لها بإيجاز لاستكمال البحث. وقبل البدء في ذكر تلك النفحات والخلاف فيها نبين الأمور الآتية :

- ١ - ما معنى النفخ في اللغة، وفي الاصطلاح؟
- ٢ - كم عدد النفحات؟ وما الذي يحصل في كل نفخة منها؟
- ٣ - الأدلة على إثبات النفخ في الصور من الكتاب والسنة.

١ - معنى النفخ في اللغة :

قال الراغب : «النفع؛ نفخ الريح في الشيء»، قال تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [طه: ١٠٢] ، ﴿وَنَفَخَ فِي الصُّورِ﴾ [يس: ٥١] ، ﴿ثُمَّ نُفَخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ [الزمر: ٦٨].

وذلك نحو قوله: ﴿فَإِذَا نُفِّرَ فِي النَّارِ﴾ [المدثر: ٨] ومنه نفح الروح في الشأة الأولى»^(١).

وذكر الزمخشري بعض الإطلاقات التي تقال على النفح، ومنه «نفح في النار، ونفح النار بالمنفاح: وهو الكبير، ونصبوا على النار المنافحة، ونفخت في الرزق فانتفخ، ونفخت فيه فتنفس، وهو يجد نفحة في بطنه، ونفحه انتفاحاً من طعام وغيره»^(٢).

وهذه المعاني اللغوية كلها تدور حول النفح المعروف، هو دفع الهواء.

٢- أما معناه الاصطلاحي :

فهو النفح المخصوص ، في الوقت المخصوص ، من الملك المخصوص؛ لإيجاد ما أراد الله تعالى ، كما جاء في كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ من أن نافخاً ينفح في صور عظيم لإرادة الله تعالى تغيير ما يريد تغييره في خلقه لأمر القيمة .

وأما ما هو الصور؟ فمن أقوال العلماء في ذلك:

ما قاله ابن جرير الطبرى - رحمه الله - من أن الناس قد اختلفوا فيه «فقال بعضهم: هو قرن ينفح فيه نفختان، إحداهما لفناء من كان حياً على الأرض، والثانية لنشر كل ميت.

وقال آخرون: الصور في هذا الموضع: جمع صورة، ينفح فيها روحها

(١) المفردات ص ٥٠٠ .

(٢) أساس البلاغة ص ٤٦٦ .

فتحيا»^(١).

ولكنه وهو يذكر هذين القولين يرجح أن الصور قرن ينفع فيه؛ لقوة الأدلة على هذا، فقال: «والصواب من القول في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته يتضرر متى يؤمر فينفع» وأنه قال: «الصور قرن ينفع فيه»^(٢).

وقال الإمام الرازى: «المسألة الثالثة: قوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

ولا شبهة أن المراد منه يوم الحشر، ولا شبهة عند أهل الإسلام أن الله سبحانه خلق قرناً ينفع فيه ملك من الملائكة، وذلك القرن يسمى بالصور، على ما ذكر الله تعالى هذا المعنى في مواضع من الكتاب الكريم.

ولكنهم اختلفوا في المراد بالصور في هذه الآية على قولين:

القول الأول: أن المراد منه ذلك القرن الذي ينفع فيه، وصفته مذكورة في سائر السور.

والقول الثاني: أن الصور جمع صورة، والنفع في الصور عبارة عن النفع في صور الموتى»^(٣).

ثم أبطل الرازى هذا القول الأخير واعتبره خطأ فاحشاً من قائله، كما نقل ذلك عن أهل العلم.

وقد أيد الإمام ابن كثير ما قاله الإمام الرازى، حيث قال فيمن ذهب إلى

(١) جامع البيان (٢٤١/٧).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) التفسير الكبير (٣٤/١٣).

أن الصور هنا جمع صورة، وأن معناه: أي يوم ينفع فيها فتحيا ، قال: «والصحيح أن المراد بالصور: القرن الذي ينفع فيه إسرافيل عليه السلام»^(١).

وكذلك ذهب الآلوسي حيث قال عن قوله تعالى: «ثُمَّ نُفَخَ فِيهِ أُخْرَى» [الزمر: ٦٨]: ظاهر في أن الصور ليس جمع صورة، وإنما لقال سبحانه «فيها» بدل «فيه»، وارتكاب التأويل يجعل الكلام من باب التمثيل ظاهر في إنكار أن يكون هناك صور حقيقة، وهو خلاف ما انطقت به الأحاديث الصحيحة.

ثم قال الآلوسي: «وقد قال أبو الهيثم . على ما نقل عنه القرطبي في تفسيره:- من أنكر أن يكون الصور قرناً، فهو كمن أنكر العرش والصراط والميزان، وطلب لها تأويلاً»^(٢).

وعلى هذا؛ فإن الصور هو قرن ينفع فيه، وقد ورد أن الذي ينفع فيه على التعين هو إسرافيل عليه السلام، كما سيأتي النص عليه، ينفع فيه النفحات التي سنذكرها.

ويتبين لنا كذلك مما تقدم في التعريف اللغوي والاصطلاحي أنهما متطابقان في المعنى، وإن كان المعنى اللغوي عاماً يشمل النفع في الصور وغيره من أنواع النفع، لكنه خصص في الاصطلاح بالنفع في الصور .

٢ - عدد النفحات^(٣) :

النفحات الواردة ثلاثة، يتضمن بها كل شيء كان قبلها، وهذه

(١) تفسير القرآن العظيم (١٤٦/٢).

(٢) روح المعاني (٣٠/٢٠).

(٣) ذكرت هنا أن النفع في الصور يكون ثلاثة مرات اعتماداً على حديث الصور، وفي ص ١٧٢ الآية ذكرت أنهما نفختان، ولا معارضة في هذا؛ إذ إن عدد النفحات ليس من =

النفحات هي :

- ١ - نفحة الفزع .
- ٢ - نفحة الصعق .
- ٣ - نفحة القيام من القبور لرب العالمين إلى الموقف .

والقول أنها ثلاثة هو قول أكثر أهل العلم، وسنذكر الخلاف في عددها، أما نفحة الفزع، ونفحة الصعق: فإنما ذكرها استطراداً لا كتمال البحث؛ لعدم تعلق الغرض بها كما تقدم.

وقد ورد ذكر هذه النفحات الثلاث في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: ينفع في الصور ثلاثة نفحات، الأولى نفحة الفزع، والثانية نفحة الصعق، والثالثة نفحة القيام لرب العالمين تبارك وتعالى، يأمر الله إسرافيل بالنفحة الأولى، فيقول: انفع نفحة الفزع؛ فتفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله».

قال أبو هريرة: يا رسول الله ، فمن استثنى حين يقول: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقام الله فزع ذلك اليوم وأمنهم^(١).

وقال ابن كثير: «وفي حديث الصور أن إسرافيل هو الذي ينفع فيه

= الأمور المتفق عليها، فمنهم من يرجع أنها ثلاثة، وأخرون يرون أنها اثنان، وقيل أربع، والله أعلم بالصواب.

(١) ذكره الطبرى (٢٤/٣٠) في التفسير.

بأمر الله تعالى، فينفح فيه أولاً نفحة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء؛ فيفزع من في السموات ومن في الأرض»^(١).

وأما النفحة الثانية : وهي نفحة الصعق :

فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثم يأمر الله إسرافيل بنفحة الصعق، فيقول: انفح نفحة الصعق؛ فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فإذا هم خامدون»^(٢) الحديث.

وأما النفحة الثالثة : وهي نفحة البعث :

فإنها بداية الحياة الآخرة، يأمر الله إسرافيل فينفح في الصور؛ فتبعد
الخلائق من قبورهم أحياه للحساب والجزاء.

وفيها يقول الله تعالى: «ثُمَّ نُفخَ فِيهِ أُخْرَى إِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» [الزمر: ٦٨]، وقد ذكر الطبرى عن السدى «ثُمَّ نُفخَ فِيهِ أُخْرَى» قال: في الصور، وهي نفحة البعث^(٣).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٧٧.

(٢) ذكره الطبرى (٢٤/٣٠) في التفسير.

(٣) تفسير الطبرى (٢٤/٣١).

الخلاف في عدد النفحات

اختلف العلماء في عدد النفحات: فمنهم من يجعلها نفختين، ومنهم يجعلها ثلاثة، والذين جعلوها نفختين: جعلوا نفحة الصعق ونفحة الفزع نفحة واحدة، والذين جعلوها ثلاثة: جعلوا نفحة الفزع نفحة مستقلة عن نفحة الصعق.

ونذكر فيما يلي أقوال العلماء في ذلك، وحججة من قال إنها نفختان أو ثلاثة أو غير ذلك من أقوالهم.

يقول الرازى: «وأختلفوا في الصعقة: منهم من قال إنها غير الموت، بدليل قوله تعالى في موسى عليه السلام ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، مع أنه لم يمت، فهذا هو النفح الذي يورث الفزع الشديد، وعلى هذا التقدير فالمراد من نفح الصعقة ومن نفح الفزع واحد، وهو المذكور في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَغَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧] وعلى هذا القول فتفتح الصور ليس إلا مرتين.

والقول الثاني: أن الصعقة عبارة عن الموت، والقائلون بهذا القول قالوا: إنهم يموتون من الفزع وشدة الصوت، وعلى هذا التقدير فالنفح تتحقق ثلاثة مرات:

أولها: نفحة الفزع، وهي المذكورة في سورة النمل.

والثانية: نفحة الصعق.

والثالثة: نفحة القيام، وهو ما مذكورتان في هذه السورة»^(١).

وقال ابن كثير عند قوله ﴿فِي نَفْخَةِ الْفَزَعِ وَمَا بَعْدَهَا﴾: «ثم ينفح في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا». قال^(٢): «أول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله». أو قال: ينزل الله. مطراً كأنه الطل؛ فتبينت منه أجساد الناس، ثم ينفح فيه أخرى؛ فإذا هم قيام ينظرون».

قال: «الليت: هو صفة العنق، أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً، فهذه نفحة الفزع، ثم بعد ذلك نفحة الصعق وهو الموت، ثم بعد ذلك نفحة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق».

ويقول الشوكاني: «والنفحات في الصور ثلاثة: الأولى^(٣): نفحة الفزع، والثانية: نفحة الصعق، والثالثة: نفحة البعث، ثم قال: «و قبل إنها تفتحان، وأن نفحة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفحة الصعق أو إلى نفحة البعث، و اختيار هذا القشيري والقرطبي وغيرهما، وقال الماوردي: هذه النفحة المذكورة هنا يوم النشور من القبور ﴿فَفَزَعَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧] أي خافوا وانزعجوا الشدة ما سمعوا»^(٤).

(١) التفسير الكبير (٢٧/٢٧).

(٢) راوي الحديث عبد الله بن عمرو.

(٣) تفسير ابن كثير (٣٧٨/٣)، وهو في صحيح مسلم (٤/٢٢٥٩).

(٤) فتح القدير (٤/١٥٤-١٥٥).

والبرديسي بعد أن ذكر أن النفحات ثلاثة قال: «وقال قوم: نفختان فقط بدليل قوله: ﴿أُخْرَى﴾، وأجابوا عن الآية: أن المراد أن يلقى عليهم الفزع حتى يصعقوا، واستدلوا على ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ [الزمر: ٦٨] فالآخر لا تقال إلا للثانية، وجرى على هذا القول البغوي، والزمخشري، والبيضاوي، وصححه القرطبي، وصحح بعضهم الأول، وقال إن الأخرى تقال للثالثة، قال: «والأكثر أنهما نفختان»^(١).

وذكر الألوسي الخلاف في عدد النفحات فقال: «واعلم أنهم اختلفوا في عدد النفحات، فقيل ثلاثة: نفحة الصعق المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، ونفحة البعث المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رِبِّهِمْ يَسْبِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، ونفحة الفزع المذكورة في الآية المذكورة هنا»^(٢). يعني قوله تعالى: ﴿فَفَزَعَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ﴾ وذكر أن هذا هو اختيار ابن العربي^(٣).

ثم قال: «وقيل: اثنان، ونفحة الفزع هي نفحة الصعق؛ لأن الأمرين: الفزع يعني الخوف، والصعق يعني الموت، لا زمان لها»^(٤).

والقرطبي من ذهب إلى أنهما نفختان فقط لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «ثُمَّ ينفخُ فِي الصُّورِ، فَأُولُو مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلْوَطُ حَوْضَهُ؛ فَيَصْعَقُ، ثُمَّ

(١) تكميلة شرح الصدور ص ٤.

(٢) روح المعاني (٢٠/٣١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

يصعق الناس، ثم ينفع فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون^(١).

فهذا الحديث يدل فيما يذهب إليه القرطبي أن النفح مرتان لا ثلثاً، ثم قال: «وهو الصحيح»^(٢) أي وتكون نفحة الفزع هي نفحة الصعق بعينه لاتحاد الاستثناء في آيتها^(٣).

وقال الألوسي عن رأي القرطبي المذكور: «وتعقب... بأنه لا دلاله في الحديث على عدم النفحة الثالثة»^(٤)، غايته أنه وسائر الأحاديث الواردة على نسقه ساكت عنها، ولا يلزم من ذلك عدمها، وكذا لا دلاله في اتحاد الاستثناء في الآيتين أن يكون المذكور فيهما نفحة واحدة، وهذا ظاهر.

ثم قال: وال الصحيح عندي ما في القول الأول من أن نفحة الفزع غير نفحة الصعق؛ فإن حديث الصحيحين «لا تغیر وني من بين الأنبياء؛ فإن الناس يصعقون يوم القيمة فاكونوا أول من يفيق، فإذا أنا بموسى عليه السلام أخذ بقانمة من قوانم العرش، فلا أدرى أفق قبلي أو جزء بصفعة الطور»، صريح في أن الصعق يوم القيمة، وأن لا موت فيه فهو فزع بلا موت^(٥)، فمن قال هي ثلاثة نفحات؛ نفحة الفزع، ثم نفحة الصعق، وهو الموت، ثم نفحةبعث، فقد أصاب في التفرقة بين نفحة الفزع ونفحة الصعق، إلا إنه لم يصب في زعمه أن

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أي الفزع.

(٥) وهذا يحصل في الموقف، كما سيأتي.

نفحة الفزع قبل نفحة الصعق^(١).

كيف وقد دل حديث الصحيحين المذكور على عموم حكم نفحة الفزع للأنبياء عليهم السلام الذين ماتوا قبل نفحة الصعق أي الموت».

ثم نقل عن القاضي عياض قوله: «إن نفحة الفزع بعد النشر حين تنشق السموات والأرض، وعلى هذا فإن النفخات تكون أكثر من ثلاثة، وهو ما نص عليه بقوله:

«فظهر أن النفخات ثلاثة، بل أربع، نفحة يحيى الله تعالى جميع الخلق بها. كما جاء في الحديث، وعند ذلك ينادي سبحانه ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، وينادي على ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

ونفحة البعث. كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَنَفْخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، ونفحة الصعق وهي نفحة الفزع بعينها، وقد سمعت آيتها، ونفحة للإفاقه كما قال تعالى بعد ذكر نفحة الصعق ﴿ثُمَّ نُفْخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظَرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. ثم قال: «وقد عرفت ما في زعم أن نفحة الصعق هي نفحة الفزع بعينها؛ فتدبر»^(٢).

قال الألوسي: «وتعقبه بعضهم بأنه يلزم حينئذ على القول بالمعايرة بين نفحة الفزع ونفحة الصعق أن تكون النفخات خمساً، ولم نسمع متنفساً يقول

(١) هنا بناء على أن نفحة الفزع هي التي تحدث بعد نفحة الصعق وبعد نفحة البعث والخلائق كلهم أحياء، وهذا القول لا يتفق مع قول من يجعل نفحة الفزع هي التي تحصل في آخر عمر الدنيا.

(٢) روح المعاني (٢٠/٣١-٣٢).

بذلك، وأيضاً فيه القول بأن نفخة الصعق بعد نفخة البعث، وبيانه قوله عَزَّللهُ عَنْهُ : «أنا أول من تشق عن الأرض، فارفع رأسي؛ فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش، فما أدرى أفقاً قبل أم كان ممن استثنى الله تعالى».

فإن انشقاق الأرض عنه عَزَّللهُ عَنْهُ بعد نفخة البعث لا محالة، فإذا عقبه رفع رأسه عَزَّللهُ عَنْهُ، ومجاجة كون موسى عليه السلام متعلقاً بقائمة من قوائم العرش، فأين نفخة الصعق؟^(١).

وسيأتي بيان توجيه العلماء لهذا الحديث.

وما تقدم نقله يتبيّن لنا الأمور الآتية :

١ - أن أكثر العلماء على أن النفحات ثلاثة؛ نفخة الفزع، والصعق، والبعث على القول الراجح.

٢ - أن نفخة الفزع هي النفخة الأولى، ثم تتبعها نفخة الصعق، وأن بعضهم قد خالف في هذا جاعلاً نفخة الفزع ونفخة الصعق يعني واحد، أو جعلها ضمن نفخة البعث.

٣ - أن القول بأن نفخة الفزع قبل نفخة الصعق هو ما ذهب إليه كثير من العلماء، وبعضهم يخطئ من يذهب إلى هذا، كما ذكر ابن الكمال والقاضي عياض، كما نقل عنه الألوسي قوله في نفخة الفزع: بأنها تكون بعد النشر حين تشق السموات والأرض، وهذه النفخة غير نفخة الفزع الأولى التي تقع في آخر عمر الدنيا.

(١) روح المعاني (٢٠/٣٢)، والحديث في صحيح البخاري (٤٤١/٦).

٤ - القول بتعدد النفحات إلى أكثر من ثلاثة - كما نقله الألوسي عن القاضي عياض - ليس عليه نص ثابت.

وإن من ذهب إلى أنها أكثر من ثلاثة يقول : «نفخة الموت لجميع الخلق، ونفخة البعث، ونفخة الصعق - وهي نفخة الفزع بعينها، ونفخة الإفاقة، وأنه قد تعقب هذا القول بأنه يلزم من القول بالغاية بين نفخة الفزع ونفخة الصعق أن تكون النفحات خمساً؛ أي نفخة الموت، ونفخة البعث، ونفخة الصعق، ونفخة الفزع، ونفخة الإفاقة، وهذا قول قدره العلماء .

٥ - القول بأن نفخة الصعق تكون قبل نفخة البعث؛ هو ما ذهب إليه كثير من العلماء؛ بناء على أن نفخة الصعق التي تكون بعد البعث هي نفخة خاصة تحصل عند نزول الله لفصل القضاء، لا نفخة الصعق التي تعقب النفخة الأولى نفخة الفزع.

وذهب بعضهم إلى القول بأنَّ جعل نفخة الصعق بعد نفخة البعث يأبه قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ : «أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأرفع رأسي، إلخ...» الحديث كما ذكره الألوسي؛ فإن العلماء قد أجابوا عن هذا الحديث . والحديث الآخر الذي يعارضه، وهو قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ : «إن الناس يصعقون يوم القيمة فأكون أول من يفيق فإذا موسى أخذ بقانمة العرش، فلا أدرى أفق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور». بقولهم : إن هذا الصعق المذكور في الحديث يراد به الصعق الحاصل في موقف القيمة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنور ربها، فحينئذ يصعن الخلائق كلهم ، وإن هذه الرواية هي المحفوظة ، وأما الرواية

الأولى فإن الراوي لها أدخل حديثاً في حديث؛ حيث أدخل الرواية الأولى على الثانية فنشأ الإشكال.

قال العلامة ابن أبي العز رحمة الله بعد أن ذكر الرواية الأولى والرواية الثانية قال: «قيل لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث؛ فركب بين اللغظين؛ فجاء هذان الحديثان هكذا»:

أحدهما: «إن الناس يصعقون يوم القيمة فتكون أول من يفيق كما تقدم».

والثاني: «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيمة»، فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر.

ثم قال ابن أبي العز «ومن نبه على هذا أبو الحجاج المزي، وبعده الشيخ شمس الدين ابن القيم، وشيخنا الشيخ عماد بن كثير رحمهم الله، وكذلك اشتبه على بعض الرواية فقال: «فلا أدرى أفاق قبلي أم كان من استثنى الله عزوجل».

والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول، وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيمة؛ لتجلی الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فموسى عليه السلام إن كان لم يصعق معهم فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلی رب للجبل فجعله دكاً، فجعلت صعقة هذا التجلی عوضاً عن صعقة الخلاائق لتجلی ربهم يوم القيمة، ثم قال ابن أبي العز: «فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله»^(١).

(١) الطحاوية ص ٤٦٧ - ٤٦٨.

وقال البرديسي : « قال شيخنا في شرح عقيدة الرسالة^(١) : وهذه الصعقة ليست صعقة الموت ، بل هي صعقة ثالثة تقع للناس يوم القيمة إذا تجلى الله للفصل بين العباد يوم المعاد ، وهو المشار إليها بقوله : ﴿فَدَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور : ٤٥]^(٢) .

* * *

(١) الرسالة التشيرية.

(٢) تكملة شرح الصدور ص ١٢ .

٣ - الأدلة على إثبات النفح في الصور :

١ - الأدلة من القرآن الكريم على إثبات النفحات في الصور :

ذكر الله سبحانه وتعالى عدة آيات في إثبات أن النفح في الصور العظيم يحصل حينما يأمر الله بذلك، حسب ما يريد سبحانه من تغيير، وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم هذا النفح في أكثر من آية، مما يدل على أهميته ومدى خطورته.

لكي يدرك أولئك الهاريون عن ربهم - وهم لا يعجزونه - أن هذه الحياة التي قد غرتهم ليست بشيء، فهي تنتهي بنفحة واحدة، فإذا بها كأن لم تكن بالأمس.

نفحة واحدة فإذا بالفزع قد بلغ من كل نفس منتهاه، ونفحة أخرى فإذا هم أجساد بلا أرواح، ثم نفحة ثالثة فإذا هم قيام ينظرون، فـأي قدرة هذه، وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عن ربه وأغتر بقوته، ونسى أنه يموت بنفحة، ويحيا بنفحة، رغم هذا التعالي الذي قد ملا رأسه وجميع مشاعره. وسنذكر فيما يلي مصداق ما قدمنا من كتاب الله تعالى ومن سنة نبيه ﷺ.

والواقع أن الله تعالى قد ذكر النفح في الصور فيما يقارب اثنى عشر موضعًا في كتابه الكريم، ونذكر من تلك الآيات:

١ - قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَغَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا

- من شاء الله وكل أثره دأهرين ﴿ [النمل: ٨٧].
- ٢ - ﴿ وَنُفْخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفْخَ فِيهِ أُخْرَى إِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْتَظِرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].
- ٣ - ﴿ إِذَا نُفْخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً ﴿٢﴾ وَحَمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدَكَتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٤].
- ٤ - ﴿ وَنُفْخَ فِي الصُّورِ إِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسُلُونَ ﴾ [يس: ٥١].
- ٥ - ﴿ وَنُفْخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعَنَاهُمْ جَمِيعًا ﴾ [الكهف: ٩٩].
- ٦ - ﴿ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه: ١٠٢].
- ٧ - ﴿ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ [النَّبَا: ١٨].
- ٨ - ﴿ إِذَا نُفْخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١].
- ٩ - ﴿ وَنُفْخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ [ق: ٢٠].
- ١٠ - ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلِهِ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وهذه الآيات وغيرها تدل دلاله واضحة ليس بعدها خفاء على حتمية
وقوع النفح في الصور.

وستتبع ذلك بذكر أدلة أخرى من السنة النبوية فيما يأتي:

٢ - الأدلة من السنة على إثبات النفح في الصور:

رأينا كيف اهتم القرآن الكريم بذكر النفح في الصور، وكيف كرره.

لتقريره وثبيته في النقوص - في أكثر من آية ، وبين سبحانه وتعالى نتيجة كل نفحة وما يحصل بسببها من التغيير الهائل .

ويعد ذكر تلك الآيات التي تدلنا على مدى أهمية تلك النفحات ومدى عناية القرآن الكريم بذكرها ، يجب معرفة أنه قد جاءت السنة النبوية فبینت كذلك هذا الأمر العظيم ، واعتنت بذكره عنابة شديدة ، فتكرر ذكره في أكثر من حديث ، كما نتبين ذلك من عرض الأحاديث الآتية :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « بينما يهودي يعرض سلطنه أعطي بها شيئاً كرهه ، فقال : لا والذى اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار ؛ فقام فاطم وجهه وقال : تقول والذى اصطفى موسى على البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا؟ »

فذهب إليه فقال : أبا القاسم ، إن لي ذمة وعهداً ، فما بال فلان لطم وجهي ؟ فقال : لم لطمت وجهه ؟ فذكره ؛ فغضب النبي ﷺ حتى رؤي في وجهه ، ثم قال : لا تفضلوا بين أولياء الله ، فإنه ينفع في الصور ؛ فيصعب من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفع فيه أخرى فاكون أول من بعث ، فإذا موسى أخذ بالعرش ، فلا أدرى أحوس بصعنته يوم الطور أم بعث قبلي ؟^(١) .

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة « لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعبون فاكون أول من يفique ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ؟^(٢) . »

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إني أول من يرفع رأسه بعد

(١) البخاري (٤٥١/٦) ، ومسلم (٤/١٨٤٤) .

(٢) مسلم (٤/١٨٤٤) .

النفحة الآخرة، فإذا أنا بموس متصل بالعرش، فلا أدرى كذلك كان أم بعد النفحة؟^(١).

وقد قدمنا ذكر حديث عبد الله بن عمرو وتخرجه^(٢).

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس في قول الله تعالى: «إِذَا نُقْرَ فِي النَّاقُورِ» [المدثر: ٨]، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ تَقَمَّ الْقَرْنِ، وَحْنِي جَبَهَتِهِ يَسْتَمِعُ مَتِي يُؤْمَرُ فَيَنْفَخُ، فَقَالَ أَصْحَابُ مُحَمَّدَ: كَيْفَ تَقُولُونَ؟ قَالَ: «قُولُوا حَسِبَنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»^(٣). وأخرجه كذلك الترمذى عن أبي سعيد^(٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفع فيه»^(٥).

فهذه النصوص صريحة في إثبات الصور، ونفع إسرافيل فيه النفحات المذكورة، ومنها النفحة الثالثة وهي نفحة البعث.

قال ابن كثير: فتخرج الأرواح كأنها التحل قد ملأت ما بين السماء والأرض؛ فيقول الله تعالى: «وَعَزَّتِي وَجَلَّتِي لَتَرْجِعُنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدهَا، فَتَدْخُلُ الْأَرْوَاحُ فِي الْأَرْضِ إِلَى الْأَجْسَادِ فَتَدْخُلُ فِي الْخِيَاشِ، ثُمَّ تَمْشِي فِي الْأَجْسَادِ مَشِي السَّمْ فِي الْلَّدِيعِ، ثُمَّ تَسْقُقُ الْأَرْضَ عَنْكَ»^(٦).

(١) البخاري (٨/٥٥١).

(٢) وقد تقدم شرحه.

(٣) آخر جهأحمد (١/٣٢٦).

(٤) الترمذى (٤/٦٢٠)، وقال: حديث حسن.

(٥) الترمذى (٤/٦٢٠)، وقال: «هذا حديث حسن»، وأخرجه أبو داود (٢/٥٣٧).

(٦) النهاية لابن كثير (١/٢١٧).

ويقول السفاريني: «قال المفسرون: المنادي هو إسرافيل عليه السلام، ينفع في الصور وينادي: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحومن التمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء»^(١).

ثم بعد هذا يساقون إلى الموقف ليقع فيه ما سند ذكره عند بحث الموقف.

مقدار ما بين النفحتين:

وعلى القول بأنهما نفختان، أي نفخة الفزع والصعق، ونفخة البعث^(٢)، فإن بينهما أربعين يوماً أو سنة أو شهراً، حسب ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «ما بين النفحتين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. «ويبلي كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركب الخلق»^(٣).

وسبب امتناع أبي هريرة عن التعين: أنه ليس عنده الجزم بالتعيين.

قال ابن حجر: «وزعم بعض الشرح أنه وقع عند مسلم «أربعون سنة، ولا وجود لذلك».

وذكر روایات أخرى في التحديد وضعفها، كرواية التحديد بأربعين سنة، أو أربعين جمعة^(٤). وقال عن الأخيرة: إنها منقطعة.

(١) لوامع الأنوار (٢/١٦٦).

(٢) انظر تكملة شرح الصدور ص ١١.

(٣) البخاري (٨/٥٥١)، ومسلم (٤/٢٢٧١، ٢٢٧٠).

(٤) فتح الباري (٨/٥٥٢).

وذكر القرطبي أن الحليمي قال: «اتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعين سنة، وذلك بعد أن يجمع الله تعالى ما تفرق من أجساد الناس»^(١).

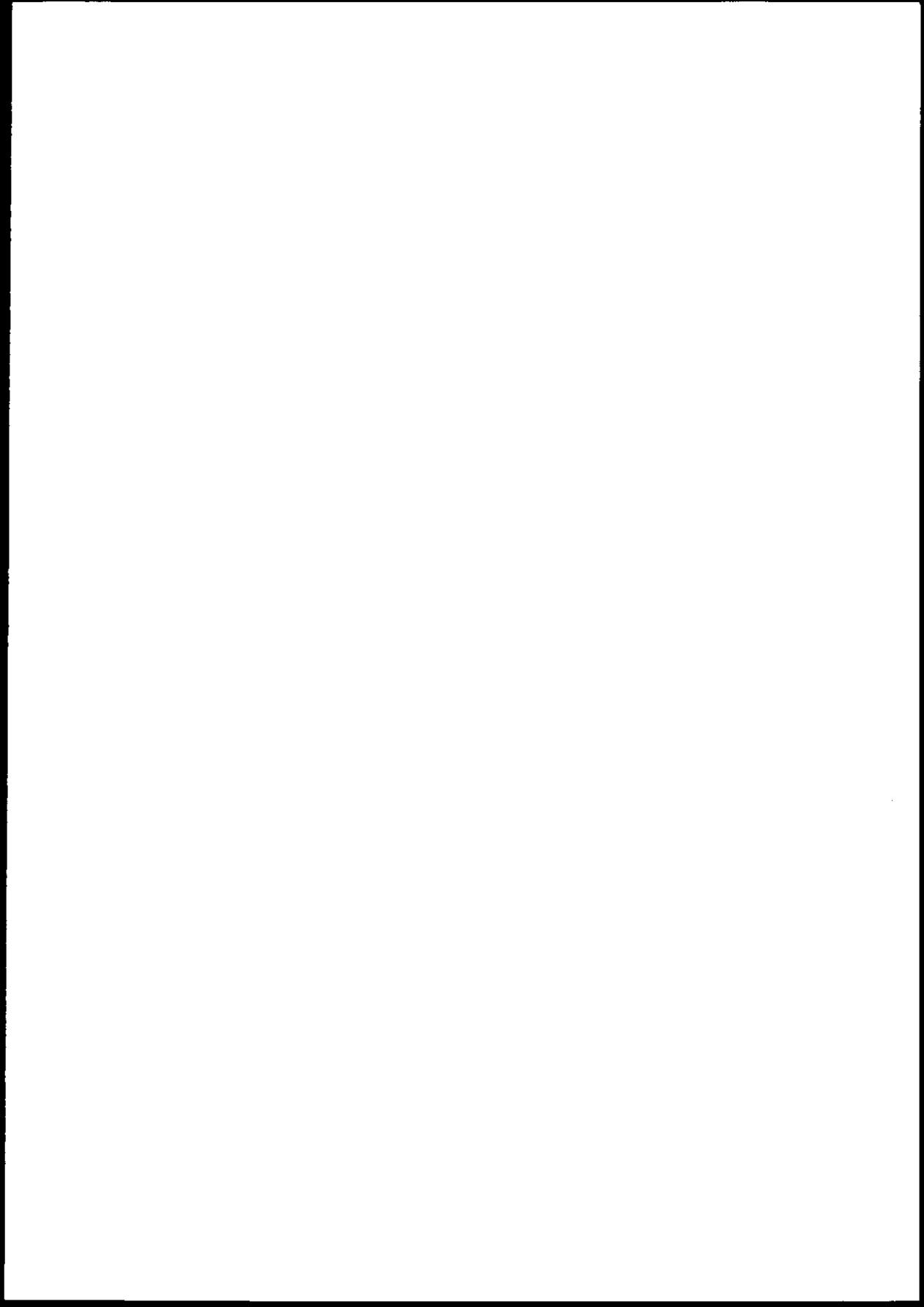
وذكر البرديسي - تبعاً للسيوطى - أن بين النفختين أربعين سنة من زمن الدنيا^(٢).

وقد سبق رد ابن حجر على مثل هذا القول.

* * *

(١) التذكرة ص ١٨٤.

(٢) تكملة شرح الصدور ص ٩.



الفصل العاشر

صفة حشر الخلق وأنهم على صورٍ شتى

١ - حشر الخلق حفاة عراة غرلاً.

٢ - حشر الكفار يسجرون على وجوههم.

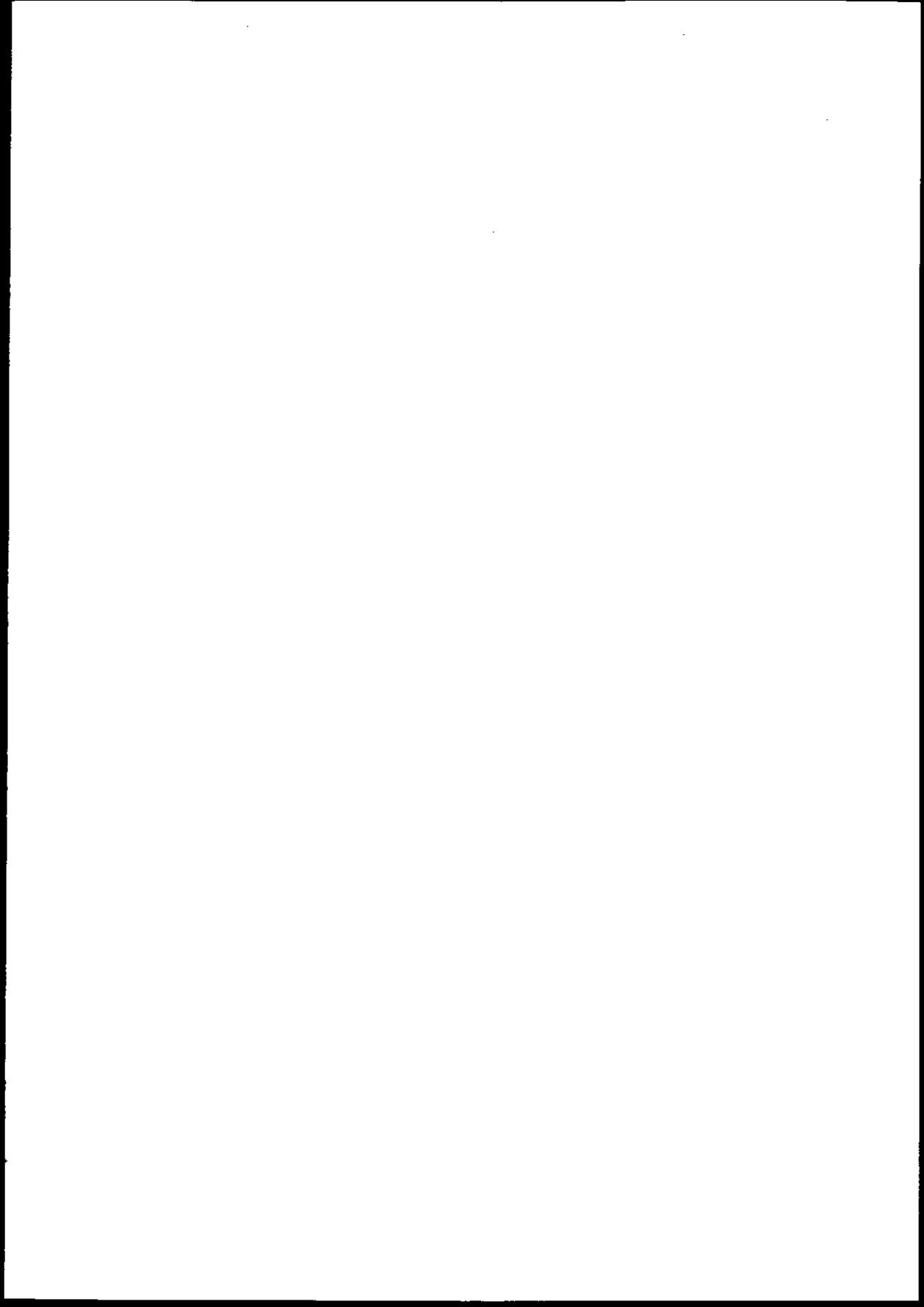
٣ - حشر المتكبرين.

٤ - حشر السائلين.

٥ - حشر أصحاب الغلول.

٦ - حشر أهل الوضوء أهل الغرّة والتحجّيل.

٧ - حشر الشهداء.



الفصل العاشر

صفة حشر الخلق وأنهم على صور شتى

حينما يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين يساقون إلى المحشر^(١) لفصل القضاء، ولتجزى كل نفس بما تستحق؛ فيجزى كل عامل ما يستحق من الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ولكن كيف يكون مجئهم للحضر؟

والجواب: قد بينت السنة النبوية الهيئات التي يأتي بها الحالات، وهي هيئات وحالات مختلفة؛ إما حسنة، وإما قبيحة، بحسب ما قدموا من خير، وشر، وإيمان، وكفر، وطاعة ومعصية، فتزود لها بالعمل الصالح.

ومن تلك الهيئات الأمثلة الآتية:

١ - ما أخبر به عَلِيٌّ عن حالة الناس عند حشرهم لفصل القضاء - مؤمنهم وكافرهم - من أنهم يكونون في هيئة واحدة، لا عهد لهم بها في الدنيا، ولا يتصورون حدوثها، ولهذا فقد كثر التساؤل والاستغراب لتلك الحالة

(١) ذهب البرديسي إلى أن مكان الحشر هو أرض الشام، مستدلاً بما أخرج البزار في مسنده من حديث أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: «الشام أرض المحشر والمنشر» أي البقعة التي يجتمع الناس فيها إلى الحساب وينشرون من قبورهم ثم يساقون إليها، ثم ذكر سبب ذلك وهو أنها «إما خصت به لأن الأنبياء بعثوا منها؛ فانتشرت في العالم شرائعهم، فناسب كونها أرض المحشر».

تكلمة شرح الصدور ص ١٦ . والله أعلم بحقيقة ذلك.

حينما أخبر بها الرسول ﷺ .

كما في الحديث الذي ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال: رسول الله ﷺ : «تحشرون حفاة عراة غرلاً». قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يفهمه ذاك»^(١).

ومعنى حفاة: أي تمشون على أرجلكم دون نعل أو خف.

والعاري: هو من لا ثوب له على جسده، والأغبر: هو الذي لم يختن، أي إن البشر يرجعون كهيتهم يوم ولدوا، حتى إن الغرلة ترجع وإن كان قد اختن صاحبها في الدنيا؛ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أُولَئِكُنَّا نُعِيدُهُم﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقد ورد هذا المعنى في حديث ابن عباس رضي الله عنهمما قال: قام علينا النبي ﷺ يخطب فقال: «إنكم محشورون حفاة عراة»^(٢) ﴿كَمَا بَدَأْنَا أُولَئِكُنَّا نُعِيدُهُم﴾.

٢ - يحشر بعض الناس (وهم الكافرون) وهم يسحبون في المحشر على وجوههم، وكم يستغرب كثير من الناس هذه الحال؛ لأنهم في الدنيا لم يعرفوا تلك الحال، ولم يتصوروا وقوعها، ومع أنها حالة غريبة لكنها غير متفية لا عقلاً ولا تقلاً.

فأما العقل فإنه لا ينفي وقوعها، وذلك إذا علمنا أن قدرة الله على

(١) أخرجه البخاري (١٩٥/٧)، ومسلم (١٥٦/٨). وبنحوه أخرجه النسائي (٤/١١٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٥/٧).

كل شيء أمرٌ هين، فإن الذي أمشى هؤلاء على الرجلين له القدرة على أن يشيمهم على وجوههم؛ بل لو أراد الله ذلك لحصل في الدنيا فضلاً عن الآخرة.

ومصدق ما قدمنا ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه. كما في الصحيحين. أن رجلاً قال: يا نبِيَ اللَّهُ ، كَيْفَ يَحْسِرُ الْكَافِرَ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يَمْشِيهِ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، قَالَ قَتَادَةُ: بَلِي وَعْزَةَ رَبِّنَا^(١).

قال ابن حجر في بيان معنى المشي المذكور في الحديث: قوله. «أليس الذي أمشاه... إلخ» ظاهر في أن المراد بالمشي حقيقته؛ فلذلك استغربوا حتى سألوا عن كيفيةه^(٢).

ثم رد على الذين يزعمون أن هذا هو مثل ضربه النبي ﷺ بأن: «الجواب الصادر عن النبي ﷺ ظاهر في تقرير المشي على حقيقته»، أي فلا حاجة إلى صرف الكلام عن ظاهره.

ومعلوم أن أمر الآخرة وأحوالها غير أمر الدنيا وأحوالها، فكل شيء في الآخرة جديد ولا عهد للناس به، فهي حياة أخرى لها مميزات وكيفيات لا توجد في الدنيا، وليس على الله بعزيز في أن يشمي الكافر على وجهه، إذ لو أراد الله ذلك في الدنيا لكان حاصلًا فيها، ولكن أمراً مأثورًا كما هو الحال في المشي على الرجلين.

(١) أخرجه البخاري (١٩٤/٧)، ومسلم (١٣٥/٨).

(٢) فتح الباري (١١/٣٨٢).

وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ هَذَا كُلَّهُ حُكْمٌ قَدْ نَدِرَكَهَا، وَقَدْ لَا نَدِرَكَهَا، فَإِنَّ الْكَافِرَ فِي الدُّنْيَا كَانَ ذَا عَنْتَوْ وَاسْتَكْبَارَ، يَمْشِي عَلَى رَجْلِيهِ مُتَبَخِّرًا مُعْتَزِّاً بِنَفْسِهِ، لَا يَحْنِي رَأْسَهُ لِشَيْءٍ غَيْرَ هُوَاهُ، فَلَا يَعْرِفُ التَّواضُعَ لِلَّهِ فِي شَيْءٍ، بَلْ كَانَ يَسْتَنْكِفُ مِنَ السُّجُودِ لِرَبِّهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ.

وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبْنَ حَسْرٍ فِي بَيَانِ حِكْمَةِ هَذَا الْمَشْيِ حِينَ قَالَ: «الْحِكْمَةُ فِي حَشْرِ الْكَافِرِ عَلَى وَجْهِهِ: أَنَّهُ عَوْقَبٌ عَلَى عَدَمِ السُّجُودِ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا؛ بِأَنَّ يَسْحَبَ عَلَى وَجْهِهِ فِي الْقِيَامَةِ؛ إِظْهَارًا لِهُوَانِهِ، بِحِيثُ صَارَ وَجْهُهُ مَكَانًا يَدِهِ وَرِجْلِهِ فِي التَّوْقِيِّ عَنِ الْمُؤْذِيَاتِ»^(١).

وَكُثْرَةُ النَّصْوصِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ تَعْنِي كُونَهُ مِنْ بَابِ التَّمْثِيلِ، فَهُوَ إِذَا عَلَى حَقِيقَتِهِ فَلَا يَنْبَغِي تَأْوِيلُهُ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُ مِنَ الْأَمْرِ الْمُمْكَنَةِ عَقْلًا، وَلَيْسَ مِنْ قَبْلِ الْمُسْتَحِيلَاتِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَمَا سَبَقَ.

٣ - حَشْرُ الْمُتَكَبِّرِينَ:

وَمِنَ الْأَوْصَافِ الْأُخْرَى الَّتِي وَرَدَتْ فِي السُّنْنَةِ لِحَشْرِ فَثَاتِيْنِ مِنَ النَّاسِ، صَنْفٌ مِنَ النَّاسِ يَحْشُرُونَ فِي أَحْقَرِ صَفَةٍ وَأَذْلَاهُ، وَهُؤُلَاءِ هُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ.

فَلَأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا يَمْشُونَ فِي كُبْرِهِمْ وَتَبَخَّرُهُمْ عَلَى النَّاسِ، عَالِيَّةُ رُؤُوسِهِمْ عَنِ التَّوْاضُعِ لِلَّهِ أَوْ لِخَلْقِهِ، هُؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرُونَ وَرَدَ فِي صَفَةِ حَشْرِهِمْ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا رَوَاهُ عُمَرُ بْنُ شَعْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَحْشُرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الْذَّلِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»^(٢) الْحَدِيثُ.

(١) فتح الباري (١١ / ٣٨٢).

(٢) صحيح الترمذى (٤ / ٢٦٥٥)، وقال: حديث حسن صحيح.

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه : عن النبي ﷺ قال : «يبعث الله يوم القيمة ناساً في صور الذر ، يطهون الناس بأقدامهم ، فيقال : ما هؤلاء في صور الذر ؟ فيقال : هؤلاء المتكبرون في الدنيا »^(١) .

وهذه الحالة المخزية تناسب ما كانوا فيه في الدنيا من تعاظم وغرور بأنفسهم ، لأنهم كانوا في الدنيا يتصورون أنفسهم أعظم وأجل المخلوقات ؛ فجعلهم الله في دار الجزاء أحقر المخلوقات وأصغرها .

٤ - حشر السائلين :

ومن الصور الأخرى التي تشاهد في يوم القيمة صور أولئك السائلين الذين يسألون الناس وعندهم ما يغنينهم ، يأتون يوم القيمة وفي وجوههم خمous أو كدough ، أو يأتون وليس في وجوههم مزعة لحم ، يعرفهم الناس كلهم .

وهذا ما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيمة وليس في وجهه مزعة لحم »^(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من سأله ما يغنيه جاءت خموشاً أو كدوحاً في وجهه يوم القيمة »^(٣) ، والجزاء من جنس العمل . والمزعة هي : «بضم الميم - وحكي كسرها - وسكون الزاي بعدها مهملة : أي قطعة » ، «وقال ابن التين : ضبطه بعضهم بفتح الميم والزاي » .

قال ابن حجر : «والذي أحفظه عن المحدثين الضم» .

(١) قال المنذري (٤/٣٨٧) : رواه البزار .

(٢) صحيح البخاري (٣/٣٣٨) .

(٣) أخرجه النسائي (٥/٩٧) .

ومعنى الحديث: «قال الخطابي: يحتمل أن يكون المراد أنه يأتي ساقطاً لا قدر له ولا جاه، أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه، لشاكلاة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء، لكونه أذل وجهه بالسؤال، أو أنه يبعث ووجهه عظم كله؛ فيكون ذلك شعاره الذي يعرف به».

والمعنى الأول الذي ذكره الخطابي تأويل للحديث بغير معناه، ولهذا قال ابن حجر: «والأول صرف للحديث عن ظاهره».

وإن كان قد ورد ما يؤيده، وهو ما أخرجه الطبراني والبزار من حديث مسعود بن عمرو مرفوعاً «لا يزال العبد يسأل وهو غني؛ حتى يخلق وجهه؛ فلا يكون له عند الله وجه».

(وقال ابن أبي جمرة: معناه: أنه ليس في وجهه من الحسن شيء، لأن حسن الوجه هو بما فيه من اللحم، وما المهلب إلى حمله على ظاهره).

ثم ذكر أن السر في ذلك هو «أن الشمس تدنو يوم القيمة، فإذا جاء لا لحم بوجهه؛ كانت أذية الشمس له أكثر من غيره» قال - يعني المهلب -: «والمراد به: من سأل تكثراً وهو غني لا تحمل له الصدقة، وأما من سأله وهو مضطرب فذلك مباح له فلا يعاقب عليه»^(١).

٥ - حشر أصحاب الغلول^(٢) :

ومن المشاهد كذلك: مشهد أقوام يأتون حاملين أثقالاً على ظهورهم، كالبعير والشاة وغيرهما، وهؤلاء هم أهل الغلول، فإنهم يحشرون في هيئة

(١) انظر: فتح الباري (٣٣٩/٣).

(٢) الغلول: له معان كثيرة، إلا أن المراد به هنا: الأخذ من بعض الغنائم على سبيل الخفية، انظر: تفسير القرآن العظيم (١/٤٢٠ - ٤٢١).

تشهد عليهم بالخيانة والغلوت أمام الخلق أجمعين، فمن غل شيئاً في حياته الدنيا ولم يظهره؛ فسيظهره الله عليه يوم يبعث، يكون علاماً له، وزيادة في النكبة وتشهيراً بجريته يحمل ماغل على ظهره.

ومصداق هذا ما جاء في كتاب الله عز وجل حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَيْنَ أَنْ يَغْلُبَ وَمَنْ يَغْلُبُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوقَنَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١] ^(١).

قال قتادة في معنى الآية: «كان النبي ﷺ إذا غنم مغنمًا، بعث منادياً: ألا يغلن رجل مخيطاً فما دونه، ألا لا يغلن رجل بعيداً؛ ف يأتي به على ظهره يوم القيمة له رغاء، ألا لا يغلن رجل فرساً؛ ف يأتي به على ظهره يوم القيمة له حمامة».

وما جاء في السنة النبوية كما في حديث أبي مسعود الأنصاري قال: «بعثني النبي ﷺ ساعياً، ثم قال: انطلق أبا مسعود، لا ألفينك يوم القيمة تجيء وعلى ظهرك بعيد من إبل الصدقة له رغاء قد غلتة، قال: إذاً لا أنطلق، قال: إذاً لا أكرهك» ^(٢).

وسنذكر مزيد بيان لهذا في مبحث الحساب.

والخلاصة : أن من مات على عمل بعث عليه.

قال البرديسي في شرح حديث جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث كل عبد على ما مات عليه».

قال: «أي على الحالة التي مات عليها من خير أو شر؛ فالزامر يأتي يوم

(١) تفسير ابن جرير الطبرى (٤/١٦١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/١٢٢).

القيامة بعزماته، والسكران بقدرها، والمؤذن يؤذن، ونحو ذلك»^(١).

٦ - حشر أهل الوضوء، أهل الغرة والتحجيل :

وإذا كان من قدمنا ذكرهم كانوا أمثلة سيئة لمن يعمل أعمالاً لهم، فإنه في الجانب الآخر نجد من يتسم بالصفات الحميدة، ولهذا فإنه يبعث حميداً عليه سيما أهل الصلاح والتقوى، سيما أمة محمد ﷺ؛ من الغرة والتحجيل بسبب آثار الوضوء.

وهي كرامة من الله تعالى لأوليائه وأحبائه، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة : «إن أمتي يدعون يوم القيمة غرّاً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»^(٢).

وكما قال ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الله بن بسر عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أمتى يوم القيمة غر من السجود محجلون من الوضوء»^(٣).

٧ - حشر الشهداء :

ومن المشاهد الأخرى : مشهد لأقوام يحشرون ودماؤهم تسيل عليهم ، وهم الشهداء ، فإنهم يحشرون ودماؤهم تسيل كهينتها يوم جرحت في الدنيا ، تفجر دماً ، كما ورد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «كل كلام يكلمه المسلم في سبيل الله ثم تكون يوم القيمة كهينتها إذا طعنت تفجر دماً ، اللون لون دم والعرف عرف المسك» إلى آخر الحديث^(٤).

(١) نكملة شرح الصدور ص ١٢

(٢) أخرجه البخاري (٤٣/١)، وقوله «فمن استطاع... إلى آخر الحديث مدرج من كلام أبي هريرة».

(٣) أخرجه الترمذى (٥٠٦/٢)، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث عبد الله بن بسر.

(٤) أخرجه مسلم (٤/٥٤٠)، والترمذى مع اختلاف في بعض الألفاظ (٤/١٨٤)، وبنحوه عند النسائي (٦/٢٥).

وهذا إكرام لهم وبيان لمزاياهم، وتشهيرًا بعواقبهم وعلو مقامهم عند الله تعالى، لأن الجزاء من جنس العمل.

قال النووي : «وأما الكلم - بفتح الكاف وإسكان اللام - فهو الجرح، ويكلم - بإسکال الكاف - أي يجرح» قال : «وفيه دليل على أن الشهيد لا يزول عنه الدم بغسل ولا غيره، والحكمة في مجيهه يوم القيمة على هيئة أن يكون معه شاهد فضيلته وبذله نفسه في طاعة الله تعالى»^(١).

ويلخص البرديسي أحوال البشر في مجئهم إلى الموقف فيقول : «واعلم أن الناس يحشرون يومئذ على ثلاثة أصناف : ركباناً، ومشاة، وعلى وجوههم . قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَا﴾^(٢) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدَا﴾ [مريم : ٨٦-٨٥].

ثم قال : الوفد في اللغة : القوم المكرمون ، يفدون من بلادهم في جماعتهم إلى ملكهم ؛ فينزلون ويكرمهم ، والورد : العطاش ، يساقون كما تساق الإبل وغيرها من الأنعام ، فتسوّقهم الملائكة بأسياط النار إلى النار ، وقوم يمشون على وجوههم .

وقال بعضهم : إذا قام الناس من قبورهم لفصل القضاء ؛ حضروا على أحوال مختلفة : فمنهم من يكسى ، ومنهم من يحشر عرياناً ، ومنهم راكباً ، ومنهم ماش ، ومسحوب على وجهه ، ومنهم من يذهب إلى الموقف راغباً ، ومنهم من يذهب خائفاً ، ومنهم من تسوقه النار سوقاً^(٣).

(١) صحيح مسلم (٤ / ٥٤١).

(٢) تكميلة شرح الصدور ص ١٨.

وقوله : «ومنهم راكباً» ؛ هذه المسألة مما أكثر فيه المؤلف الكلام عنها ، وإن كان القول بأن الناس يأتون ركباناً يخالف ما ثبت في الصحيح من أنهم يأتون «حفاة عراة غرلاً» ، إلا أن المؤلف جمع بين أقوال من ذهب إلى أنهم يأتون ركباناً ، وبين هذا النص وما جاء في معناه بقوله :

«ثم إن الروايات التي فيها الركوب في المحسن تختلف حديث الصحيحين أن الناس يحشرون حفاة عراة ، ولا يبعد أن يكون الركوب في المحسن لبعض السعداء ، فيكون حديث الصحيحين محمولاً على بعض الصور»^(١) .

ونكتفي هنا بما قدمنا من الأمثلة لبيان اختلاف الناس وتبابنهم عند المحسن ، وإن كانت هناك صور أخرى سندكرها إن شاء الله في باب الحساب .

وقد اتضح مما تقدم عرضه من الأحاديث - أنها إضافة إلى إثبات البعث وأنه أمر واقع لا بد منه - أن المبعوثين يكونون على كيفيات مختلفة حسب أعمالهم التي قدموها في دار الدنيا ، وأنهم يأتون إلى الموقف أصنافاً شتى ، وعلى هيئات غريبة لم ير مثلها في الدنيا .

فهذا يسحب على وجهه بدلاً من المشي على رجليه ؛ لأن جزاءه هو هذه الحال التي هي أحط ما يكون من الخزي والهوان .

وذاك يحشر في أذل ما يكون ؛ يحشر في صورة حقيرة يدوسها الناس بأقدامهم وهم في صور الرجال ؛ يغشاهم الذل من كل مكان ؛ لأن جزاءهم المناسب هو جعلهم في هذه الحال الحقيرة .

(١) تكميلة شرح الصدور ص ١٨ .

وهناك فريق آخر من الناس يأتون إلى الموقف وفي وجوههم خموش أو كدوح، أو يأتون وليس في وجوههم مزعة لحم؛ لأنهم لم يصونوها في الدنيا؛ فعاقبهم الله في الآخرة بما يناسب أعمالهم السيئة.

ومن الناس من يأتي ودمه يسيل من جسده طریاً كأغاً جرح في ساعته تلك؛ إكراماً له، وإظهاراً لشرفه وفضل عمله الذي قدمه في الدنيا.

إلى آخر ما ورد من الصفات المشاهد مما ذكر في الأحاديث الشريفة واستفاضت بها الروايات.

* * *

مسائل

أ- الحكمة في إعادة الخلق غرلاً :

عرفنا فيما مضى أن الناس يعيشون على هيئات مختلفة، حفاة العراة غرلاً، والحفاة وال العراة معروفون، والأغلب: هو الذي لم يختن.

وهنا يعرض سؤال وهو: ما الحكمة التي لأجلها يعاد بنو آدم غرلاً، من اختن منهم ومن لم يختن؟

الظاهر من كلام الإمام ابن القيم أنه يرى أن تلك الغرلة التي حدثت فيهم لم تكن في وقت قيامهم من القبور، وإنما حدثت بعد ذلك، وعلى فرض أنهم بعشا كذلك فإن تلك الغرلة لا يلزم أن تكون معهم دائماً، بل يحتمل أن تبقى وتحتمل أن تزول؛ إذ ليس هناك نص يقطع هذا الاحتمال.

قال ابن القيم في ذلك ما نصه: «لما وعد الله سبحانه و هو صادق الوعد الذي لا يخلف و عده - أنه يعيد الخلق كما بدأهم أول مرة؛ كان من صدق و عده أن يعيده على الحالة التي بدأ عليها من تمام أعضائه و كمالها .

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَّى السَّجْلَ لِلْكِتَبِ كَمَا بَدَأْنَا أُولَئِكُنَّ حَلْقَ نَعِيْدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وأيضاً فإن الختان إنما شرع في الدنيا لتكميل الطهارة والتنتزه من البول، وأهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون؛ فليس هناك بمحاسة تصيب الغرلة فيحتاج

إلى التحرز منها، والقلفة لا تمنع لذة الجماع ولا تعوقه.

هذا إن قدر استمرارهم على تلك الحالة التي بعثوا عليها، وإنما فلا يلزم من كونهم يبعثون كذلك أن يستمرروا على تلك الحالة التي بعثوا عليها، فإنهم يبعثون حفاة عراة بهما، ثم يكسون، ويدخلقهم ويزاد فيه، بعد ذلك يزداد في خلق أهل الجنة، وأهل النار.

وإنما، فوقت قيامهم من القبور يكونون على صورتهم التي كانوا عليها في الدنيا، وعلى صفاتهم، وهياكلهم، وأحوالهم؛ فيبعث كل عبد على ما مات عليه، ثم ينشئهم الله سبحانه كـ شاء.

وهل تبقى تلك الغرلة التي كملت خلقهم في القبور أو تزول؟ يمكن هذا وهذا، ولا يُعلم بخبر يجب المصير إليه، والله سبحانه وتعالى أعلم^(١).

وهنا يعرض سؤال آخر وهو: هل تغير الأجسام في المحشر أو في الجنة؟
قال البرديسي فيما ينقله عن شرح الجوهرة:

«الناس في الموقف يكونون على حالتهم التي خلقوا عليها، فإذا دخلوا الجنة دخلوها جرداً مرمداً أبناء ثلاثة وثلاثين، على عظم آدم، طول كل واحد ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع، لا يزيدون ولا ينقصون، لا يأكلون لجوع، ولا يلبسون لبرد؛ بل للتلذذ والنعم»^(٢).

قال: «وأما أجسام الكفار فمختلفة المقاييس، حتى ورد أن ضرس الكافر مثل أحد، وفيه مثل ورقان، جبلان بالمدينة»^(٣).

ونشير هنا إلى مسألة ظهرت في هذا الزمان في عالم الطب: وهي قضية

(١) تحفة المردود ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٢)، (٣) تكملاً شرح الصدور ص ٣٨.

زرع القلوب، فقد أصبح إجراء هذه المسألة أمراً عادياً في البلاد الغربية، والبلاد الأخرى.

هل هذه الأعضاء التي أخذت من جسم وزرعت في جسم آخر ؟ هل ستعاد عندبعث إلى الجسم الأول أم إلى الجسم التي زرعت فيه ؟

والذي يظهر أنها ستعاد إلى صاحبها الأول ، كما سيعاد العضو التالف الذي أخذ من المريض يعاد إليه ؛ فيعاد كل عضو إلى صاحبه . والله أعلم .

وهنا مسألة ثالثة : « وهي أن بعض الناس يولدون بعاهات ، ويبقون بها إلى الممات ، كمن يولد بغير عينين ويفقى كذلك ، أو كمن يولد بغير يدين أو رجلين ويفقى كذلك ، فكيف يعاد هذا ؟ هل يعاد كما مات من غير أعضائه الناقصة أم يعطي أعضاء جديدة مثل ما نقص منه ؟

والجواب :

أن الظاهر من قوله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْكُمْ تَعُودُونَ﴾ أنه يعاد كما كان عليه ، ثم ينشئ الله تبارك وتعالي له الأعضاء التي تكمله . والله أعلم .

نقرأ في بعض الجرائد ونسمع في بعض الأخبار عن عجائب في مخلوقات الله تعالى منها :

١ - أن أشخاصاً يولدون توائم متحددين .

فإذا وجد الأطباء أن لكل واحد قلباً مستقلاً أجريت له عملية انفصال ، وكثيراً ما يبقى على قيد الحياة ، وأما إذا وجد الأطباء أن القلب واحد؛ فيبقى على ما هو إلى الممات لعدم استطاعة فصله عن توامه الآخر ، فكيف تكون النسأة الآخرة ؟ هل العودة تكون بالاتصال أو بالانفصال ؟

والله تعالى يقول: ﴿كَمَا بَدَأْتُمْ تُعُودُنَّ﴾.

٢- كذلك تذكر الجرائد أن بعض المواليد ولدوا برأسين، أو بأربعة أرجل، أو بأربعة أيد، ثم أجريت لبعضهم عمليات لاستصال هذه الزوائد، فكيف تكون العودة؟

والجواب :

أن هذه المسألة وسابقتها مما لم يتضح الجواب فيها والله تعالى أعلم بذلك.

٢- بعث الموتى في أكفانهم:

تفيد الأحاديث الصحيحة المتعددة أن الناس يعيشون حفاة عراة غر لا شيء معهم، وأجسادهم عارية عن كل شيء، وهذا هو الثابت في الصحيحين وغيرهما، ولكن قد وردت بعض روایات أخرى تفيد أن الناس يعيشون في ثيابهم التي ماتوا فيها.

ومن ذلك :

ما أخرجه الإمام أبو داود عن أبي سعيد الخدري، أنه لما حضره الموت دعا بشباب جدد فلبسها، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها»^(١).

وقد أخرج الإمام أبو داود هذا الحديث مترجماً له بقوله «باب: ما يستحب من تطهير ثياب الميت عند الموت».

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا: أخبرنا أحمد بن إبراهيم بن كثير حدثنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح أخبرني سعد بن هاني عن عمرو بن

(١) سنن أبي داود (٢/١٦٩).

الأسود قال: أوصاني معاذ بامرأته وخرج؛ فماتت، فدفناها، فجاءنا وقد رفعنا أيدينا من دفنها؛ فقال: في أي شيء هيأتموها؟ قلنا: في ثيابها، فأمر بها فنبشت، وكفتها في ثياب جدد، وقال: أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يحشرون فيها^(١).

وهاتان الروايتان تعارض - كما هو ظاهر - تلك الروايات التي قدمنا ذكرها، والتي تفيد أن الناس يعيشون عراة حفة غرلاً.

وفي الجمع بين تلك الروايات أجاب البيهقي رحمه الله عن ذلك بثلاثة أجبوبة فقال:

أحدها : أنها تبلى بعد قيامهم من قبورهم، فإذا وافوا الموت يكونون عراة، ثم يكسون من ثياب الجنة.

الثاني : أنه إذا كسي الأنبياء ثم الصديقون ثم من بعدهم على مراثتهم؛ فتكون كسوة كل إنسان من نفس ما يموت فيه، ثم إذا دخلوا الجنة ألسوا من ثياب الجنة.

الثالث : أن المراد بالثياب هنا الأعمال؛ أي يبعث في أعماله التي يموت فيها من خير وشر، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ .
وقال: ﴿وَثِيَابُكَ فَطَهَرَ﴾ قال قتادة: عملك فأخلصه^(٢).

ولعل الأرجح من تلك الأجبوبة هو الجواب الثالث، وهو ما يشهد له حديث عائشة رضي الله عنها الذي استشهاد به بهذا الموضوع، وحديث

(١) ذكره ابن كثير في النهاية (١/٢٨٨). وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

(٢) ذكره ابن كثير في النهاية (١/٢٨٨). وعزاه إلى البيهقي.

أم سلمة الواردين في الصحيح في قصة الجيش الذي يغزو الكعبة، ثم يخسف الله بهم جميعهم بما فيهم المكره، ثم يبعثهم الله على نياتهم.

فقد قال عليهما السلام في حديث أم سلمة: «ولكنه يبعث يوم القيمة على نيته»^(١).

وقال عليهما السلام في حديث عائشة: «يبعثهم الله على نياتهم»^(٢).

وقد ذكر ابن كثير رحمة الله حديث بعث الموتى في أكفانهم مترجمًا له بقوله: «الإنسان يبعث يوم القيمة في ثياب عمله من خير أو شر»^(٣).

وهذه الترجمة تشعر برأيه في معنى الحديث، وأنه ليس المراد به بعث الميت في الكفن الذي دفن فيه، وإنما المراد بعثه في ثياب عمله من خير أو شر.

٣- هل تخسر بقية المخلوقات غير الجن والإنس؟

قد دلت الآيات والأحاديث على أن الجن والإنس سيحشرون، ويجازون بأعمالهم؛ إن خيراً فخير وإن شرًا فشر.

وهذا أمر معلوم كما قدمنا، ويبقى سؤال وهو: هل المخلوقات الأخرى غير الجن والإنس تخسر أم لا؟

والجواب: أن هذه المسألة مما وقع فيها الخلاف بين العلماء، فذكر البرديسي:

١- أن بعضهم ذهب إلى القول بأنها تخسر؛ لظاهر حديث «حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء»^(٤).

(١) صحيح مسلم (٥/٧٣١).

(٢) المصدر السابق ص ٧٣٣.

(٣) النهاية (١/٢٨٨).

(٤) مسلم (٨/١٩)، والترمذى (٤/٦١٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

٢- وذهب بعضهم إلى القول بأنها لا تخسر؛ لأنها لا تحاسب... وإليه نحا الأقهسي^(١).

وقد اختلف النقل عن ابن عباس:

قال القرطبي: «فروي عن ابن عباس أن حشر الدواب والطير موتها». وقال الضحاك: وروي عن ابن عباس في رواية أخرى أن البهائم تخسر وتبعث. قاله أبو ذر، وأبو هريرة، وعمرو بن العاص، والحسن البصري وغيرهم. قال القرطبي: وهو الصحيح^(٢).

وقد استدل القائلون بأنها تخسر بأدلة كثيرة من القرآن والسنة.

أما من القرآن الكريم فمنها:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أَمْلَأْتُكُمْ مَا فِرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٢- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرتُ﴾ [التوكير: ٥].

٣- وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَ فِيهِمَا مِنْ دَبَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

وأما ما استدلوا به من السنة: فمنها ما روي عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ كان جالساً وشاتان تقترنان، فنطحت إحداهما الأخرى؛ فأجهضتها، قال: فضحك رسول الله ﷺ ، فقيل: له ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «عجبت لها، والذي نفسي بيده ليقادن لها يوم القيمة»^(٣).

(١) انظر: تكملة شرح الصدور ص ١٤.

(٢) التذكرة ص ٣٢٩.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/١٧٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا والذى نفسي بيده ليختصمن كل شيء يوم القيمة، حتى الشاتان فيما انتطحتا»^(١).

قال القرطبي: ذكر ابن وهب أخبرني ابن لهيعة وعمرو بن الحارث عن يكرب بن سوادة أن أبا سالم الجيشهاني حدثه أن ثابت بن طريف استأذن على أبي ذر فسمعه رافعاً صوته يقول: أما والله لولا يوم الخصومة لسؤالك، قال ثابت فدخلت فقلت: ما شأنك يا أبا ذر؟ قال: هذه، قلت: وما عليك إن رأيتك تضر بها؟ قال: والذى نفسي بيده - أو نفس محمد بيده - لتسألن الشاة فيما نطحت صاحبها، وليسألن الجماد فيما نكب أصبح الرجل».

وروى عن شعبة عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين تتطحان، فقال: «يا أبا ذر، تدرى فيم تتطحان؟ قلت: لا يا رسول الله ، قال: لكن الله يدرى ويقضى بينهما يوم القيمة».

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: إذا كان يوم القيمة؛ مدت الأرض مد الأديم، وحشر الجن والإنس والدواب والوحوش، فإذا ان ذلك اليوم؛ جعل الله القصاص بين الدواب، حتى يقتضى للشاة الجماء من القرناء تتطحها، فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها: كوني تراباً، فيراها الكافر فيقول: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [البأ: ٤٠].

وذكر عبد الكريم الإمام أبو القاسم القشيري في التحبير له، فقال: وفي خبر الوحوش والبهائم تحشر يوم القيمة، فتسجد لله سجدة؛ فتقول الملائكة: ليس هذا يوم سجود، هذا يوم الشواب والعقاب. وتقول البهائم: هذا سجود شكر؛ حيث لم يجعلنا الله من بني آدم.

ويقال إن الملائكة تقول للبهائم: لم يحشركم الله جل ثناؤه لشواب ولا عقاب، وإنما يحشركم تشهدون فضائح بني آدم.

وهذه الروايات قد ذكرها الإمام القرطبي في تذكرة^(١) وقال: إنها أخبار ثابتة.

وهذه الروايات - مع ما تقدم من الآيات - تفيد القطع بحشر البهائم كسائر الثقلين، إلا أنها تستوفى قصاصها في الموقف، وليس لها جنة ولا نار كما هو معلوم؛ بل تكون تراباً، ولهذا فإن الكافر يقول: يا ليتني كنت تراباً.

وقد ذهب كثير من العلماء إلى هذا الرأي؛ وهو القول بحشر جميع الحيوانات، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه وتعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة» ثم ذكر الأدلة على هذا، وهي الآيات السابقة، إلى أن قال: «والآحاديث في ذلك مشهورة، فإن الله عز وجل يوم القيمة يحشر البهائم ويقتضي بعضها من بعض، ثم يقول لها كوني تراباً، فتصير تراباً، فيقول الكافر حينئذ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾

[الثانية: ٤٠].

ومن قال إنها لا تحييا؛ فهو مخطئ في ذلك أقبح خطأ؛ بل هو ضال أو كافر^(٣).

ويستدل ابن رحمة الله على حشر بقية الحيوانات بما سبق من الآيات والأحاديث التي تدل على انتصاف البهائم بعضها من بعض، وب الحديث

(١) التذكرة من ٣٢٢-٣٢٣. وانظر الباب الثامن «مبحث الحساب» الفصل الحادي عشر «عدل الله تعالى في القصاص بين الخلق» ذكر الأدلة من السنة.

(٢) الفتاوى (٤/٢٤٨).

صاحب الغلول ثم قال: «فهذه الأحاديث مع الآيات فيها دلالة على حشر الحيوانات كلها»^(١).

وسنعرض بعض الأدلة على ذلك أيضاً في باب الحساب.

وقد فسر أبو هريرة وابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص قوله تعالى في شأن الكافر يوم القيمة، وتنبيه أن يكون تراباً، أنه يقول ذلك حينما يشاهد عدل الله تعالى بين الحيوانات، ثم يقول لها: كوني تراباً؛ فإنه يتمنى عند ذلك أن يكون مصيرها كمصيرها ويخلص مما يتنتظره من العذاب والخزي^(٢).

ولقد ذكرنا هذه المسألة - وإن لم تكن في موضوعنا - إنما للبحث، ولما فيها من الفوائد التي تتعلق بالموضوع جملة.

٤- دفع تعارض :

وردت في القرآن الكريم آيات تفيد أن الله تعالى يسلب الكفار أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم؛ فيكونون صمّاً بكمأ عميأ يوم القيمة عند حشرهم.

ووردت آيات تفيد أن الكفار يصررون ويسمعون ويتكلمون.

أما مثال النوع الأول: فمثل قول الله تعالى:

١- ﴿وَمَنْ يَهِدُ اللَّهُ فَهُرُبَّ الْمُهَتَّدِ وَمَنْ يُضْلَلُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولَيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عَمِيًّا وَيَكْمَأُ وَصُمًّا مَا وَاهَمُ جَهَنَّمُ كُلُّمَا خَبَتْ زِدَانُهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

(١) النهاية (٢/١١٣).

(٢) انظر: الذكرة ص ٣٢٩.

٢ - ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشَرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [١٢٤] .
 قَالَ رَبِّ لَمْ حَشِرتِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا [١٢٥] . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا
 وَكَذَلِكَ الْيَوْمُ تُنسَى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

ومثال النوع الثاني قوله تعالى :

- ١ - ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَا﴾ [مريم: ٣٨].
- ٢ - ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].
- ٣ - قالوا : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢].

ووردت كذلك آيات تفيد أن الكفار لا يحاسبون، ووردت آيات أخرى
 تفيد أنهم يحاسبون.

ومن أمثلة النوع الأول :

- ١ - قوله تعالى : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].
- ٢ - قوله تعالى : ﴿فِي يَوْمٍ مِّذِلَّةٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ [الرحمن: ٣٩].

ومن أمثلة النوع الثاني قوله تعالى :

- ١ - قوله تعالى : ﴿وَقَفُوْهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤].
- ٢ - قوله تعالى : ﴿تَالَّهُ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].
- ٣ - قوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنْسَأْلُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

فهل بين تلك الآيات تعارض؟

الجواب : ليس بين آيات الله تعالى تعارض، ولا يمكن أن يكون في
 كلام الله تعارض، ومن لم يعرف المراد من مدلول تلك الآيات يظن أن بينها

تعارضًا، ومعتقد هذا لا شك في كفره.

وقد أجاب العلماء عن ذلك: بأن الناس عند البعث لا يكونون على حالة واحدة من وقت بعثهم إلى وقت تفرقهم إلى الجنة أو النار؛ بل هناك مواقف عديدة وأحوال مختلفة يجتازها الناس.

وهناك من الأحوال: حالة البعث من القبور؛ وفي هذه الحالة يكون الكفار كاملي الحواس والجوارح، فهم يتذمرون، ويتحفظون، وينظر بعضهم إلى بعض، ويتكلمون؛ بنص القرآن.

ومثل تلك الحال: حالة حشرهم إلى موقف الحساب، قال تعالى:

﴿اْحْشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَآزْوَاجُهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْدُونَ ﴾ [٢٢] من دون الله فاهدوهم إلى صراطِ الجحيم **﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتُولُونَ﴾** [الصفات: ٢٤ - ٢٢].

وكذلك أيضًا حالة محاسبة الله لهم، فإنهم عندها يكونون في كامل حواسهم وجوارحهم؛ ليسمعوا ما يقال لهم وما يوجه إليهم، وليرءوا ما في كتبهم من الحسنات والسيئات، وقد أخبر الله تعالى أن الكفار يوجهون اللوم إلى جوارحهم؛ من أسماعهم وأبصارهم وجلودهم قائلين لهم: لم شهدتم علينا؟ وإلا، فكيف يعقل محاسبة أعمى أصم أبكم؟ ولكن في حالة حشرهم وسوقهم إلى جهنم يصدق عليهم قوله تعالى: **﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيًّا وَبَكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾** [الإسراء: ٩٧].

ففي هذه الحالة يسلب الله الكفار أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم؛ زيادة في التنكيل بهم وشدة الأمر عليهم.

أما في حال الخلود في النار والملائكة فيها؛ فإنهم إذا انطلقا من الموقف

إلى النار. وهم في حالة سلب الله إياهم الأسماع والأبصار والألسنة. فإنهم إذا أوصلوا إلى النار؛ رد الله إليهم تلك الحواس؛ ليشاهدوا جهنم وما أعد الله لهم من العذاب فيها، فهم ﴿يُعَرَّضُونَ عَلَيْهَا خَائِفِينَ مِنَ الدُّلُّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، ويتكلمون قائلين: ﴿يَا لَيْتَنَا نَرَدُ وَلَا نَكَبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

ويحدث هناك خصام وتحاطب بين أولاهم وأخراهم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أَحْقَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادْأَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبِّنَا هُوَلَاءِ أَضْلَلُونَا فَاتَّهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضَعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ويعرفون بالسليم حينما يسألهم خزنة جهنم ﴿أَلَمْ يَأْتُكُمْ نَذِيرٌ﴾ ⑧ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: ٨، ٩].

ويستغيثون بأهل الجنة قائلين لهم: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠].

ثم يستغيثون بالله ويستشفعون به إلى ربهم في إهلاكهم قائلين له: ﴿يَا مَالِكَ لِيَقْضِي عَلَيْنَا رِبِّنَا﴾ [الزخرف: ٧٧]، فلا يجدون عنده إلا الجواب الشديد: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فيتوسلون بخزنة جهنم يقولون لهم: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُحْفَفُ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، فيجيبونهم بقولهم - توبيقاً وتقريراً لهم: ﴿أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيَكُمْ رَسُلُّنَا بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بلى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠].

فإذا انتهى الأمر إلى خلودهم في النار؛ كانوا فيها لا يسمعون شيئاً ولا يسمع منهم إلا الزفير ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنياء: ١٠٠].

لأن الجزاء من جنس العمل، فهم في الدنيا كانوا لا يسمعون الحق ولا يحبون أن يسمعوا، فعاقبهم الله بأن سلب أسماعهم^(١).

وقد أجاب الشيخ محمد الأمين الشنقيطي عن هذا بثلاثة أجوبة فقال:

الوجه الأول:

واستظهره أبو حيان: أن المراد بما ذكر من العمى والصم والبكم؛ حقيقته، ويكون ذلك في مبدأ الأمر، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم؛ فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني:

أنهم لا يرون شيئاً يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحججه، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه.

وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وروي أيضاً عن الحسن، كما ذكره الألوسي وغيره، وعلى هذا القول فقد نزل ما يقولونه ويسمعونه ويفيرون منه منزلة العدم لعدم الانتفاع به . . . إلخ.

الوجه الثالث:

أن الله إذا قال لهم: ﴿اَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾؛ وقع بهم ذلك العمى والصم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج، قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطَقُونَ﴾، وعلى هذا القول؛ تكون الأحوال الخمسة مقدرة، أعني قوله في طه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، قوله فيها:

(١) انظر: التذكرة للقرطبي ص ٢٠٥.

﴿لَمْ حَشِرْتَنِي أَعْمَى﴾، قوله في الإسراء ﴿وَنَحْشِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيَا وَبُكْمَا وَصَمَا﴾، وأظهرها عندي الأول^(١).

وقد سأله نافع بن الأزرق ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطَقُونَ﴾ [المرسلات: ٢٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

فقال ابن عباس: «ويحك يا ابن الأزرق، إنه يوم طويل، وفيه مواقف؛ تأتي عليهم ساعة لا ينطقون، ثم يؤذن لهم فيختصمون، ثم يكون ما شاء الله يحلرون ويجدرون، فإذا فعلوا ذلك ختم الله على أفواههم، وتؤمر جوار حهم فتشهد على أعمالهم بما صنعوا، ثم تنطق ألسنتهم فيشهدون على أنفسهم بما صنعوا، وذلك قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^(٢).

وقد أجاب بمثل هذا الجواب عبد الله بن عمرو بن العاص حين سئل عن قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطَقُونَ﴾ فقال: «إن يوم القيمة له حالات ونارات؛ في حال لا ينطقون، وفي حال ينطقون»^(٣).

وكذلك المسائلة: فإنها تكون في مواطن خاصة، وفي مواطن أخرى لا يسألون.

(١) انظر: أضواء البيان /٤ - ٥٩٨ - ٥٩٩.

(٢) انظر: فتح الباري /١١ - ٦٨٦.

(٣) نفس المرجع السابق.

قال القرطبي : «القيامة مواطن : فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، ومواطن لا يكون ذلك ، فلا يتناقض الآي والأخبار»^(١) . وقال عكرمة : «القيامة مواطن : يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها»^(٢) .

وقال ابن عباس : «لا يسألون سؤال شفاء وراحة ، وإنما يسألون سؤال تقرير وتبيين ؛ لم عملتم كذا وكذا؟»^(٣) .

وقد قيل كذلك إن نفي السؤال لهم يراد به : أنهم لا يسألون سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين ، أي إن الملائكة لا تحتاج إلى سؤال أحد عن دينه ؛ بل يعرفونهم بعلاماتهم الظاهرة على وجوههم : من الفرح والسرور والبياض ، أو سواد الوجه وزرقة العيون والعبوس والهم والحزن ، وهذا خاص بيوم القيمة^(٤) .

ويضاف إلى هذا جواب آخر بالنسبة إلى بعض الآيات التي تنص على السؤال والآيات الأخرى التي تبني السؤال ، وهو : أن السؤال قد ينصب على بعض الخلق من الكفار دون بعضهم ؛ فالعتاة منهم كإبليس وفرعون وهامان فهو لا يسألون ؛ بل يساقون إلى جهنم ورداً ، أو تخطفهم جهنم حينما يرونها ؛ فهم اللقمة السائفة للعنق الذي يخرج من النار .

وأما السؤال لبعض الكفرا ؛ فهم الذين دون ذلك من لم يكونوا بمنزلة الأولين ، فهو لا يسألون تحييناً للعدالة الإلهية .

(١) التذكرة ص ٣٤٤ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) التذكرة ص ٣٤٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٤٥ .

فوائد

١- أول من يحشر من الخلق :

اختلف العلماء في أول من يحشر من الخلق؛ هل هو نبينا محمد ﷺ أو غيره من الأنبياء مثل موسى عليه السلام؟ وال الصحيح في ذلك: أن نبينا ﷺ هو أول من يحشر؛ حيث تنشق عنه الأرض قبل كل مخلوق؛ قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيمة، وأول من ينشق عنه القبر»^(١).

فهو أول الناس يحشر، وأول الخلق تنشق عنه الأرض ، لا غيره من البشر.

قال البرديسي: «وأما أول من تنشق عنه الأرض يوم القيمة فنبينا محمد ﷺ»^(٢).

ونقل عن شارح الجوهرة قوله: «وأول من يحيا ويحشر نبينا ﷺ ، لا موسى على الأصح»^(٣).

٢- وأما أول من يكسى من الخلق :

فقد ورد في حديث ابن عباس أن إبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - هو أول من يكسى يوم القيمة ، وذلك في قوله ﷺ: «وإن أول الخلق

(١) أخرجه مسلم ١٣٦/٥.

(٢) تكملة شرح الصدور ص ١٢.

يكسى يوم القيمة إبراهيم.

وهذا يدل على أن الخلائق يخرجون من القبور دون كسوة كلهم، ثم يكسى بعد ذلك من أراد الله كسوته من أصفيائه، وهذا يعارض ما ورد في حديث أبي سعيد، وما جاء أيضاً عن معاذ بن جبل؛ من أن الأموات يبعثون في ثيابهم التي كفروا فيها.

وقد جمع الإمام ابن حجر بين هذه الأحاديث «بأن بعضهم يحشر عارياً، وبعضهم كاسياً، أو يحشرون كلهم عراة، ثم يكون أول من يكسى الأنبياء، فأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو يخرجون من القبور بالثياب التي ماتوا فيها، ثم تناثر عنهم عند ابتداء الحشر؛ فيحشرون عراة، ثم يكون أول من يكسى إبراهيم».

وتحمل بعضهم حديث أبي سعيد على الشهداء؛ لأنهم الذين أمر أن يزملوا في ثيابهم ويدفنوا فيها، فيحتمل أن يكون أبو سعيد سمعه في الشهيد فحمله على العموم.

ومن حمله على عمومه معاذ بن جبل؛ فأنخرج ابن أبي الدنيا بسند حسن عن عمرو بن الأسود قال: «دفنا أم معاذ بن جبل، فأمر بها فكفت في ثياب جدد وقال: أحسنا أكفان موتاكم، فإنهم يحشرون فيها»، قال: وحمله بعض أهل العلم على العمل» إلخ ما أورده ابن حجر^(١).

وقد أكثر العلماء من الإجابة حول اختصاص إبراهيم عليه السلام

(١) فتح الباري (١١/٣٨٣)، وقد أورد ابن كثير هذه الرواية. كما تقدم. على أنها واردة في حق امرأة معاذ، وأوردها ابن حجر على أنها واردة في أمه، ولم أجد من يتبناه على هذا، فقد يحتمل أن تقع الحادستان معأ لأمه وامرأته، وقد يكون الصحيح أنها أمه فكتتها بعضهم أمر أنه.

بالكسوة قبل نبينا محمد ﷺ ، فهل يكون المراد أن إبراهيم هو أول من يكتسي على الإطلاق قبل نبينا محمد ﷺ ، أم أن هناك أمراً آخر لم يبين في الحديث ، وأن نبينا ﷺ قد كان في ذلك الوقت قد كسي ؟ لأن تقديم إبراهيم في الكسوة يشعر بأنه أفضل من نبينا محمد ﷺ ، فهل هنا مفاضلة ؟

أجاب العلماء عن هذه المسألة بأنه : «لا يلزم من تخصيص إبراهيم عليه السلام بأنه أول من يكتسي أن يكون أفضل من نبينا عليه الصلاة والسلام مطلقاً».

هذا ما أجاب به العلامة ابن حجر ، ثم ظهر له أن هناك احتمالاً آخر ، وهو : «أن يكون نبينا عليه الصلاة والسلام خرج من قبره في ثيابه التي مات فيها ، والحلة التي يكتسها حيثئذ من حلل الجنة خلعة الكرامة ، بقرينة إجلاله على الكرسي عند ساق العرش ، فتكون أولية إبراهيم في الكسوة بالنسبة لبقية الخلق».

أما الحليمي فإنه يرى أن الخبر يجب أن يمر على ظاهره دون اللجوء إلى التعليل ؛ إلا ما يرى من تقasseة حالة نبينا ﷺ ، فقد أجاب بقوله : «بأنه يكتسي أولاً ، ثم يكتسي نبينا ﷺ ؛ على ظاهر الخبر ، لكن حالة نبينا ﷺ أعلى وأجمل ؛ فتجبر تقاستها ما فات من الأولية»^(١) .

ويذكر القرطبي في حكمة تقديم إبراهيم عليه السلام بالكسوة أقوالاً للعلماء منها :

١ - أنه لم يكن - من الأولين والآخرين - الله عز وجل عبد أخو福 من إبراهيم

(١) فتح الباري ١١ / ٣٨٥.

عليه السلام، فتعجل له كسوته أماناً له ليطمئن قلبه.

٢- وذكر أيضاً أنه تعجل له كسوته لاحتمال أن يكون ذلك لما جاء به الحديث من أنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى؛ مبالغة في التستر وحفظاً لفرجه من أن يماس مصلاه.

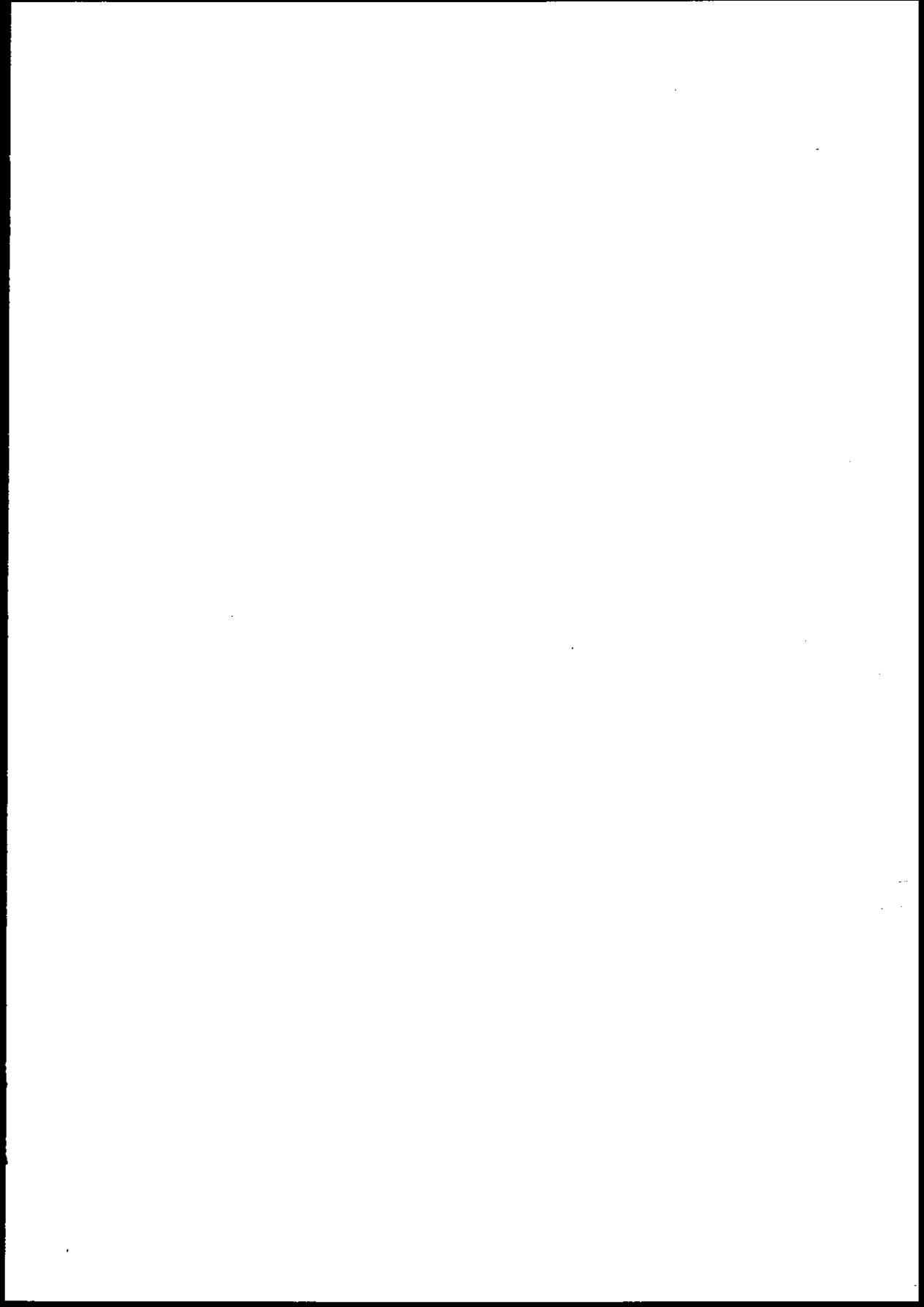
٣- أو لاحتمال أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس. كما يفعل بمن يراد قتله.. وقال بأن هذا الاحتمال أحسن الأقوال.

وقال البرديسي: «ومن حديث عائشة: أول من يكسى إبراهيم، أي أول من يكسى. بعد ما يحشر الناس كلهم عراة، أو بعد تناثر ثيابهم التي ماتوا فيها وخرجوها من قبورهم -إبراهيم؛ فيكسى من حل الجنة، أي بعد نبينا محمد^(١)؛ لأن جرد في ذات الله حين ألقى في النار فجوزي بذلك»^(٢).

* * *

(١) وقد سبق تقرير أن أول من يكسى هو إبراهيم، ولعل البرديسي يريد أن الرسول محمد^ﷺ هو أول من يلبس من حل الجنة لا أنه أول من يلبس من البشر.

(٢) تكملة شرح الصدور ص ١٢.

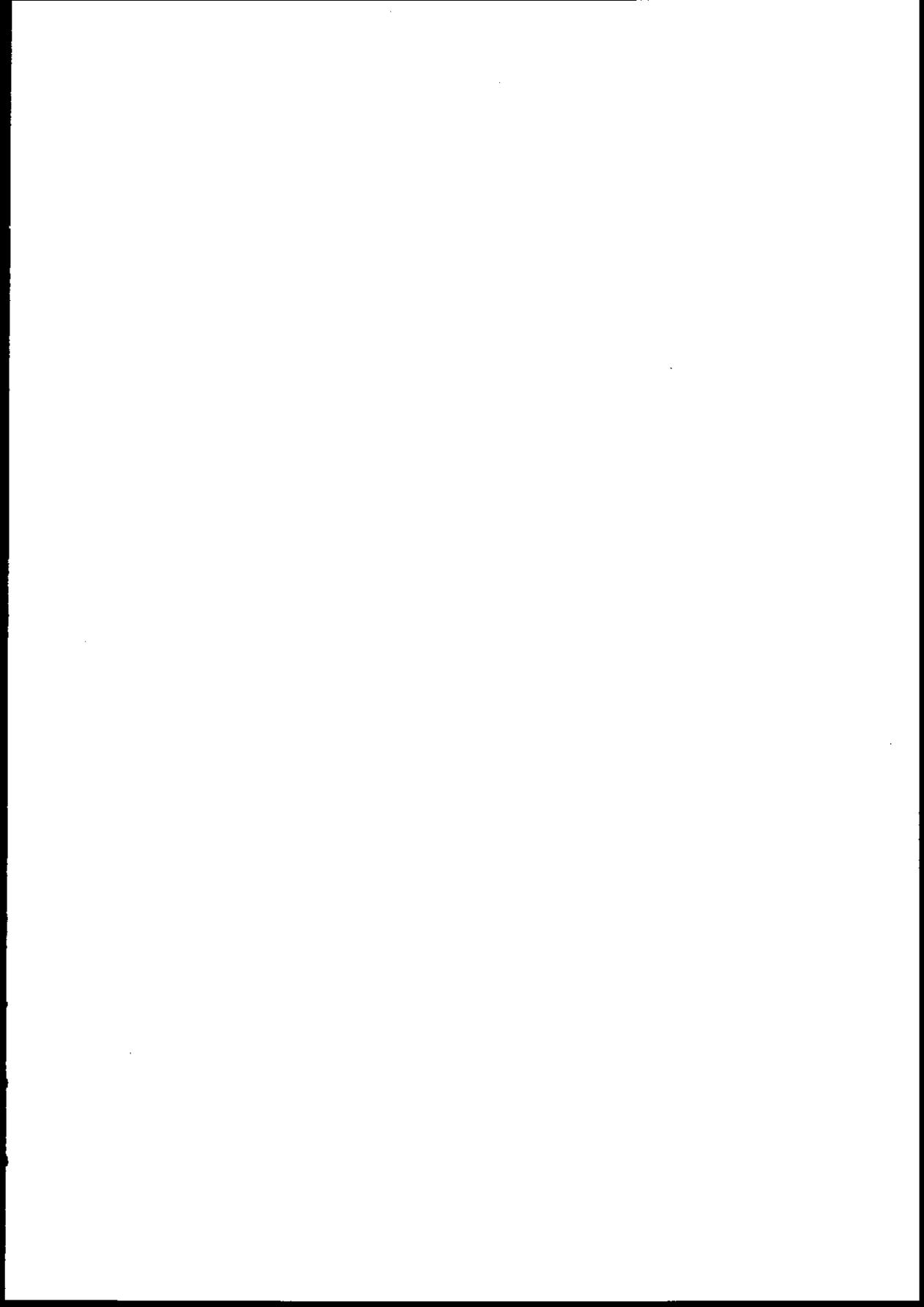


الفصل العادي عشر
الموقف

تعريفه :

١ - في اللغة.

٢ - في الاصطلاح.



الفصل الحادي عشر الموقف

تعريفه في اللغة :

الموقف في اللغة : المكان الذي يقف فيه الإنسان.

قال الراغب : «وموقف الإنسان حيث يقف»^(١).

وقال الفيروزآبادي : «وقف يقف وقوفاً : دام قائماً»^(٢).

وقال أيضاً : «الموقف محل الوقوف»^(٣).

اما معناه في الاصطلاح :

فهو المكان الخاص الذي أعده الله تبارك وتعالى لخسر الناس لحسابهم
وفصل القضاء بينهم.

* * *

(١) المفردات ص ٥٣٠.

(٢) ، (٣) القاموس المحيط (٢١٢ / ٣).

صفة حالة الناس وهم في الموقف

١ - تهيد.

٢ - صفة ذلك في القرآن الكريم.

٣ - صفة ذلك في السنة النبوية.

٤ - صفة الأرض التي يقف عليها الخلق.

وبيان الخلاف في أرض المبشر.

٥ - مدة وقوف الخلق في الموقف.

٦ - ما جاء في القرآن الكريم.

٧ - ما جاء في السنة النبوية.

صفة حالة الناس وهم في الموقف

نهاية :

إذا انتهى الناس إلى الموقف الذي أعده الله تبارك وتعالى مكاناً لاجتماع خلقه فيه، وشرفه جل وعلا بتزوله فيه لفصل القضاء بين عباده؛ فإن الخلق يكونون فيه على ما لا يتصور ولا يدرك كنهه من القلق والخوف العظيم، وقد جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة أوصافاً كثيرة لهذا الموقف العظيم.

فالشمس فوق رؤوسهم، والعرق قد بلغ من كل واحد قدر عمله، حتى إن منهم من يلجمه إجحاماً، وهم وقوف حفاة عراة غرلاً، شاخصة أبصارهم إلى السماء؛ يتظرون فصل القضاء، لا ينظر أحد إلى أحد، يفر الحميم من حميته، والقريب من قريبه، قد ملئت قلوبهم بما يشغلها، وكيف لا تملأ وهم يتظرون إما ناراً حامية، وإما جنة عالية.

كل واحد يتذكر ما سعى وما قدم لهذا الموقف العظيم؛ لا شغل له إلا ذلك، حتى يفصل الله بينهم، ويتبين مصير كل واحد منهم، كما يتبيّن ذلك من عرض الآيات، والأحاديث الآتية:

١- صفة ذلك في القرآن الكريم :

أما ما جاء في صفتة من القرآن الكريم: فهو ما تتحدث عنه الآيات الآتية:
قال الله تعالى في وصف خوف وامتلاء الخلائق بالغم، ووقف قلوبهم

في حناجرهم:

١- ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْقَفِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

قال قتادة: «وقفت القلوب في الحناجر من الخوف؛ فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها»، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد^(١).

٢- وقال تعالى مبيناً حال الكفار وما يصيّبهم من الفزع الشديد لهول ما يرون وذلتّهم وفراغ قلوبهم عن كل شيء: ﴿وَلَا تَخْسِنَ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤْخِرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشَخَّصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْتَعِينَ^(٢) رُعْوَسِهِمْ لَا يَرْتَدُ إِلَيْهِمْ طَرَفُهُمْ وَأَقْنَدُهُمْ^(٣) هَوَاءً^(٤)﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

«يقول تعالى ذكره: إنما يؤخر ربك يا محمد هو لاء الظالمين - الذين يكذبونك ويجحدون نبواتك - ليوم تشخيص فيه أبصار الخلق، وذلك يوم القيمة»^(٥).

وقال تعالى في بيان حال المؤمنين والكافرين، وما امتاز به كل فريق من علامات الشقاء أو السعادة :

﴿يَوْمَ تَبَيَّنُ وُجُوهُ وَتَسُودُ وُجُوهُ فَإِنَّمَا الَّذِينَ أَسْوَدُتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِنَّمَا الَّذِينَ آتَيْتُمْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

(١) تفسير القرآن العظيم ٧٥ / ٤.

(٢) أي راغبي رذوسيهم.

(٣) قلوبهم.

(٤) أي قلوبهم حالية من العقل لفزعهم.

(٥) جامع البيان ٢٣٦ / ١٣.

فقد جعل الله جميع أهل الآخرة فريقين :

«أحدهما: سوداء وجوهه، والآخر: بيضاء وجوهه»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاهِيَّةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨].

«قال الليث: الجنو: الجلوس على الركب كما يجئى بين يدي الحاكم».

وقال ابن عباس: «جائحة: مجتمعه مرتبة لما يعمل بها، و﴿إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي إلى صحف أعمالها»^(٢).

وقال ابن كثير: «جائحة: أي على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال إن هذا إذا جيء بجهنم؛ فإنها تزفر زفرا لا يبقى أحد إلا جثا لركبته»^(٣).

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَقَوَّنَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطَرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مُفْعُولًا﴾ [الزلزال: ١٧، ١٨].

يقول تعالى: كيف تكون أنفسكم إن كفرتم؛ أي إن بقيت على كفركم، ﴿يَوْمًا﴾: أي عذاب يوم يجعل الولدان شيئاً؛ لشدة هوله، أي يصير الولدان شيئاً، والشيب: جمع أشيب، وهذا يجوز أن يكون حقيقة وأنهم يصيرون كذلك، أو ثانية؛ لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه وصار كالشيخ في الضعف وسقوط القوة، ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطَرٌ بِهِ﴾ أي

(١) جامع البيان ٤ / ٤٠، وهو في جامع البيان بهذا اللفظ.

(٢) التفسير الكبير ٢٧٢ / ٢٧٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٥١.

مشقة به لشدة وعظيم هوله^(١).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النَّبَأٌ: ٤٠]، أخرج ابن حجر رحمة الله عدّة روایات عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن ذكوان، وسفيان: أن الكافر يقول ذلك حينما يشاهد البهائم وقد أمر الله بها فصارت تراباً، فعند ذلك يتمنى أنه صار تراباً مثلها ولم يقف بين يدي الله تعالى^(٢). ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوِّيَ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكُنُّونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النَّسَاءٌ: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفْرُّ الْمَرءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُمَّهُ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَيْهِ (٢٦) لِكُلِّ امْرَئٍ مِّنْهُمْ يُوَمِّدُ شَأنَ يُغْنِيهِ (٢٧) وَجُوهٌ يُوَمِّدُ مُسْفَرَةً (٢٨) ضَاحِكَةً مُّسْتَبِشَةً (٢٩) وَجُوهٌ يُوَمِّدُ عَلَيْهَا غَبْرَةً (٣٠) تَرْهَقُهَا قَرْتَةً﴾ [عبس: ٣٤ - ٤١].

أي يفرّ عن أخيه، وصاحبته: أي زوجته التي كانت زوجته في الدنيا، وبنيه حذراً من مطالبتهم إياه بما بينه وبينهم من التبعات والمظالم.

و﴿غَبْرَةٌ﴾ ذكر أن البهائم التي يصيرها الله تراباً يومئذ - بعد القضاء بينها - يتحول ذلك التراب غبرة في وجوه أهل الكفر، والقرفة بمعنى الغبرة^(٣).

وما هذا الفرار من الأخ والأم والأب والزوجة والأبناء إلا لما يتوقع الإنسان من الأمور العظام التي هو في انتظارها بين لحظة وأخرى ﴿لِكُلِّ امْرَئٍ مِّنْهُمْ يُوَمِّدُ شَأنَ يُغْنِيهِ﴾.

(١) فتح القدير ٥/٣١٩.

(٢) انظر: جامع البيان ٣٠/٢٦.

(٣) جامع البيان ٣٠/٦٢ - ٦٣.

وقال تعالى: في بيان حال المشركين الذي كذبوا على الله بنسبة الشريك والولد إليه جل وعلا وميّنا علامتهم التي يتصرفون بها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مُثْرَى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

أي يوم القيمة ترى يا محمد هؤلاء الذين كذبوا على الله من قومك؟ فزعموا أن له ولداً وأن له شريكاً، وعبدوا آلهة من دونه. وجوهم مسودة^(١).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الواردة في وصف هذا الموقف العظيم وما يقع فيه من الشواب والعقاب، وما يقع فيه كذلك للخلق من الكرب الشديد والفزع العظيم، وما يكونون عليه من صفات شتى، بينها القرآن الكريم تمام البيان؛ حتى إنها لتکاد أن تصل إلى أن يتخيّلها الإنسان وكأنها قد وقعت؛ لظهورها وكثرة العناية بإبرازها واضحة جلية في أساليب متعددة مؤثرة.

٢ - صفتة في السنة النبوية :

وأما في السنة النبوية فقد جاء أن العرق يبلغ من الإنسان على مقدار عمله، فمن الناس من يبلغ العرق إلى أنصاف أذنيه، ومنهم من يلجمهم إجمالاً، ومنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقوقه، فهم على حالات شتى، ومصداق هذا:

١ - ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه،^(٢)

(١) تفسير الطبرى جامع البيان ٢٤/٢٢.

(٢) البخارى ١١/٣٩٢، ومسلم ٥/٧١٤.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيمة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يصل إلى أذانهم»^(١).

وفي رواية مسلم «سبعين عاماً، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس»^(٢).

ولهذا فإن الإنسان ليتمنى من شدة الهول والعرق أن يذهب به ولو إلى النار ويستريح منه، كما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيمة؛ فيقول: يا رب أرجوني ولو إلى النار»^(٣).

وفي الصحيح من حديث عدي بن حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «ثم ليقفن أحدكم بين يدي الله ليس بيته وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالاً؟ فليقولن: بلى، ثم ليقولن: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فليقولن: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماليه فلا يرى إلا النار، فليتمنى أحدكم النار ولو بشق نمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة»^(٤).

وفي هذا الموقف الرهيب يكون للشمس وقع شديد على الناس ، فهي تدنو من رؤوس البشر . رغم حرارتها الهائلة . حتى تكون كمقدار ميل ، وللإنسان أن يتصور مدى ما يلحق أهل الموقف من ألم حرارتها .

وهذا ما رواه المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى

(١) البخاري ٣٩٢/١١.

(٢) مسلم ٧١٥/٥.

(٣) قال المنذري ٤/٣٩٠: رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد، ولعل هذا خاص بغير المؤمنين .

(٤) صحيح البخاري ٣/٢٨١.

الشمس يوم القيمة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل. قال سليم ابن عامر - أحد رواة الحديث -: فوالله ما أدرى ما يعني بالميل ؟ أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين ؟ قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق؛ فمنهم من يكون إلى كعبية، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقوية، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً، قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه»^(١).

وروى أنس بن مالك قال : «لم يلق ابن آدم قط شيئاً منذ خلقه الله أشد عليه من الموت ، ثم إن الموت لأهون عليه مما بعده ، إنهم ليلقون من هول ذلك اليوم وشدته حتى يلجمهم العرق ؛ حتى لو أرسلت فيه السفن لجرت»^(٢).

وربما استشكل بعضهم ما جاء في لفظ الحديث من أن العرق يبلغ أذانهم بأن في الناس الطويل وفيهم القصير وهم وقوف على أرض مستوية ؛ فيلزم من ذلك عدم استواةهم في وصول العرق إلى هذا الحد^(٣).

ويرد هذا الاستشكال ما جاء في لفظ الحديث من بيان درجات الناس في ذلك ، واختلافهم في العرق باختلاف أعمالهم ، والحديث لم يقصر وصول العرق لجميع من في الموقف إلى أذانهم ، وإنما ذكر حالات متعددة مقسمًا ذلك كله بحسب العمل .

وهنا قد يرد على أذهان بعضهم سؤال : من أين هذا العرق ؟ هل هو من الإنسان نفسه ، أم من غيره ؟ ثم ما سبب هذا العرق كله ؟

وقد أجاب النووي فيما يعزوه إليه البرديسي عن ذلك بقوله :

(١) أخرجه مسلم . ٧١٥/٥

(٢) ذكره البرديسي في تكملة شرح الصدور ص ١٩ ، ولم يعره إلى أحد .

(٣) انظر : تكملة شرح الصدور ص ٢١ .

قال النووي: «يتحمل أن المراد بالعرق عرق نفسه وغيره، ويتحمل عرق نفسه خاصة»، قال: «وسبب كثرة العرق تراكم الأهوال ودنو الشمس من رؤوسهم»^(١).

على أنه لا ينبغي أن يستبعد الإنسان مثل هذه الحالات في أهل الموقف؛ فلا يقال، مثلاً: كيف يفرق أحدهم بعرقه ويكون الذي بقربه - مثلاً - عرقه إلى ركبتيه.

لأننا نقول: إن أحوال الآخرة لا تقادس على أحوال الدنيا؛ فهي أمور غيبية ومردها إلى قدرة الله تبارك وتعالي، فهو القادر أن يجعل واحداً يغرق في عرقه وأخر لا تصيبه قطرة من الماء.

ويقرب لنا هذا المعنى ما حصل لموسى عليه السلام عندما ضرب البحر بعصاه فانفلق كل فرق كالطود العظيم فمشوا فيه ومع ذلك لم يصب الماء أحداً منهم.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَسِّأْ لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [٧٧] فَاتَّبَعُهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشَّيْهِمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِّيَهُمْ ﴾[طه: ٧٧، ٧٨].

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرِ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [٦٣] وَأَرْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ [٦٤] وَأَجْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ [٦٥] ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ [٦٦] [الشعراء: ٦٣ - ٦٦].

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٢.

فهذا دليل مشاهد محسوس من قدرة الله تعالى، قوم دخلوا في البحر جميعاً؛ هولاء نجوا؛ وأولئك غرقوا، وكل ذلك بقدرة الله تعالى؛ فكذلك العرق في الآخرة.

٣- صفة الأرض التي يقف الخلق عليها :

عن سهل بن سعد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيمة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى»، قال سهل - أو غيره -: ليس فيها معلم لأنحد»^(١).

ويتبين من معانى تلك الكلمات الواردة في الحديث: أن تلك الأرض التي يقف عليها الخلق غير هذه الأرض، وليس بينهما تشابه، فتلك أرض لها صفات وهذه أرض لها صفات أخرى، وأن هذه الأرض المعهودة قد انتهت وحلت محلها أرض أخرى هي أكبر منها وأشرف.

أما معنى كونها عفراء، فقال الخطابي: «العفر: بياض ليس بالناصع». وقال عياض: «العفر: بياض يضرب إلى حمرة قليلاً، ومنه سمي عفر الأرض وهو وجهها».

وقال ابن فارس: «معنى عفراء: خالصة البياض».

وقال الداودي: «شديدة البياض»، قال ابن حجر: «كذا قال، والأول هو المعتمد».

ومعنى «كقرصة النقى»: «بفتح التون وكسر القاف: أي الدقيق النقي من الغش والنخالة، قاله الخطابي».

(١) البخاري ٩٧٢/١١، ومسلم ٦٥٩/٥.

ومعنى «ليس فيها معلم لأحد، أو علم» كما في رواية مسلم . وهمما يعني واحد ، قال الخطابي : «يريد أنها مستوية ، والمعلم - بفتح الميم واللام بينهما مهملة ساكنة . هو الشيء الذي يستدل به على الطريق » .

وقال عياض : « المراد أنها ليس فيها علامات سكن ولا بناء ولا أثر ، ولا شيء من العلامات التي يهتدي بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة » .

قال ابن حجر : « وفيه تعریض بأرض الدنيا وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها » ، وقال الداودي : « المراد أنه لا يحوز أحد منها شيئاً ، إلا ما أدرك منها » .

ويذكر ابن حجر - نقلأً عن ابن أبي جمرة . أن في الحديث إشارة إلى أن أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جداً .

وأن الحكمة في نقاء وصفاء تلك الأرض المبدلة وانبساطها : أن ذلك اليوم يوم عدل وظهور حق ؛ فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الذي يقع فيه ذلك ظاهراً عن عمل المعصية والظلم ، ولذلك تخليه سبحانه عن عباده المؤمنين على أرض ظاهرة لعظمتها ، ولأن الحكم فيه إنما يكون لله وحده ؛ فناسب أن يكون المحل خالصاً له وحده^(١) .

وقال عليه السلام : « يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد؛ فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر^(٢) .

قال البرديسي : «يريد عليه الصلاة والسلام أرضاً مستوية ، لا جبل فيها ولا أكمة ولا ربوة ولا ودة ، أرض بيضاء نقية ، لم يسفك عليها دم ، ولا

(١) فتح الباري ١١/٣٧٥ . وانظر : تكميلة شرح الصدور ص ١٧ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٨/٣٩٥ ، ومسلم ١/٤٦٩ .

عمل عليها خطيئة، ولا ارتكب فيها محرم^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : عَنِ النَّبِيِّ قَالَ : «يَقْبَضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيُطْوِي السَّمَاوَاتِ بِسِيمِينَ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ، أَنِّي مَلُوكُ الْأَرْضِ»^(٢).

بيان الخلاف في أرض المحسوس :

وتبديل هذه الأرض بأرض أخرى جديدة مما وقع الخلاف فيه بين السلف على ضوء قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

«هل معنى تبدلها: تغيير ذاتها وصفاتها، أو تغيير صفاتها فقط؟».
الظواهر من النصوص تشير إلى أن ذلك التغيير يحصل في ذاتها وفي صفاتها، ويستدل له بما يلي:

١ - حديث سهل بن سعد المقدم.

٢ - ما أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والطبراني في تفاسيرهم، والبيهقي في الشعب، من طريق عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود. في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ الآية. قال: «تبدل الأرض أرضاً كأنها فضة، لم يسفك فيها دم حرام، ولم يعمل عليها خطيئة».

ورجاله رجال الصحيح، وهو موقف، وأخرجه البيهقي من وجه آخر مرفوعاً. وقال: الموقف أصلح.

وأخرجه الطبراني والحاكم من طريق عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود بلفظ: «أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة»، ورجاله موثقون أيضاً.

(١) تكملة شرح الصدور ص ١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١١ / ٣٧٢.

ولأحمد من حديث أبي أويوب: «أرض كالفضة بيضاء، قيل: فأين الخلق يومئذ؟ قال: هم أضياف الله لن يعجزهم مالديه».

وللطبرى من طريق سنان بن سعد عن أنس مرفوعاً: «يبدلها الله بارض من فضة لم يعمل عليها الخطايا، وعن علي موقوفاً نحوه.

ومن طريق ابن أبي نجح عن مجاهد: «أرض كأنها فضة والسموات كذلك»، وعن علي: «والسموات من ذهب»، وعند عبد من طريق الحكم بن أبيان عن عكرمة قال: بلغنا أن هذه الأرض -يعنى أرض الدنيا- تطوى، وإلى جنبها أخرى يحشر الناس منها إليها.

وفي حديث الصور الطويل: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات؛ فيسقطها وبسطحها ويمدها مد الأديم العكاضي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زمرة واحدة؛ فإذا هم في هذه الأرض المبدلة في مثل مواضعهم من الأولs؛ ما كان في بطونها كان في بطونها، وما كان على ظهرها كان عليها»^(١).

قال ابن حجر: «وهذا يؤخذ منه أن ذلك يقع عقب نفخة الصعق بعد الحشر الأول، ويربىده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ وألقت ما فيها وَتَخَلَّتْ﴾ [الإنشقاق: ٣، ٤].

وبعد أن ذكر الحافظ ابن حجر ما سبق نقله. من حجاج القائلين بأن التغيير يحصل في ذات الأرض هذه وفي صفاتها. ذكر مستند القول الآخر وهو أن التبديل إنما يقع في صفات الأرض دون ذاتها:

(١) قال ابن كثير في تفسير الإماماء: أي «لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف» تفسير ابن كثير ١٦٥ / ٣.

بما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال: «إذا كان يوم القيمة؛ مدت الأرض مد الأديم، وحشر الخلائق».

ومن حديث جابر رفعه: «تمد الأرض مد الأديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قديمه»، ورجاله ثقات، إلا أنه اختلف على الزهرى في صحابته.

ووقد في تفسير الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ» قال: «يزاد فيها وينقص منها، ويذهب آكامها وجبالها، وأوديتها وشجرها، وتمد مد الأديم العكاضي»، وعزاه الشعبي في تفسيره لرواية أبي هريرة، وحكاه البيهقي عن أبي منصور الأزهري.

قال ابن حجر: «وهذا وإن كان ظاهره يخالف القول الأول؛ فيتمكن الجمع بأن ذلك كله يقع لأرض الدنيا، لكن أرض الموقف غيرها»^(١).

وخلالصة للأقوال في أرض المحشر: أن بعضهم ذهب إلى أنها أرض بيضاء كالفضة، ويعزى هذا القول إلى:

عبد الله بن مسعود. وذكر له الطبرى عدة روايات، وإلى عبد الله بن عباس، وإلى مجاهد، وإلى عمرو بن ميمون.

وبعضهم ذهب إلى أنها أرض بيضاء من فضة، ويعزى هذا القول إلى أنس بن مالك، وعلي بن أبي طالب. لكن لم يبين اسم الراوى عنه، ورواية عن ابن عباس.

وذهب بعضهم إلى أنها تبدل خبزة، ويعزى هذا القول إلى سعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظى، أو عن محمد بن قيس.

(١) فتح البارى ١١/٣٧٥ - ٣٧٦.

وذهب بعضهم إلى: أنها تبدل الأرض بأرض أخرى ، ويعزى هذا القول إلى كعب، ورواية عن أبي هريرة مرفوعة ، وفي سندتها من لم يسم من الرواوه . وإلى عمرو بن ميمون الأودي .

وقال بعضهم: إنها تبدل ناراً ، ويعزى هذا القول إلى عبد الله بن مسعود ، وذكر له الطبرى روایتين غير مرفوعة ، يذكر فيها أن الأرض تبدل ناراً .

وبعد أن ذكر الطبرى رحمة الله تلك الأقوال قال: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال معناه: يوم تبدل الأرض - التي نحن عليها اليوم - يوم القيمة غيرها ، وكذلك السموات اليوم تبدل غيرها؛ كما قال جل ثناؤه ، وجائز أن تكون المبدلة أرضاً أخرى من فضة ، وجائز أن تكون ناراً ، وجائز أن تكون غير ذلك ، ولا خبر في ذلك عندنا من الوجه الذي يجب التسليم له أى ذلك يكون؛ فلا قول في ذلك يصح إلا ما دل عليه ظاهر التنزيل»^(١) .

مدة وقوف الخلق في الموقف :

- ١ - ما جاء في القرآن الكريم.
- ٢ - ما جاء في السنة النبوية.

عرفنا مما سبق أن الناس يقفون في الموقف الذي أعدده الله تعالى ، في الأرض الطاهرة التي تظهر لجلال الله سبحانه وتعالى؛ لينزل فيها الفصل القضاء بين المخلوقات .

وقد اختلف العلماء في مقدار تلك المدة التي يقفونها قبل الانتهاء إلى المصير النهائي ، وفي مدى مكثهم في الموقف؛ هل له مدة محددة معلومة في القرآن أو السنة أم لا؟

(١) جامع البيان / ١٣ / ٢٥٤.

وللإجابة عن هذا السؤال أذكر ما يلي:

١- أما من القرآن الكويم:

فقد جاءت بعض الآيات تفيد التحديد، ولكن ذلك التحديد فيه تباعد جداً، ويظهر ذلك واضحاً في تحديد المدة بـألف سنة أو بـخمسين ألف سنة؛ فإن هذا التحديد لما استشكله جماعة من العلماء كما ذكر الشركاني^(١).

فمما ورد في تحديد المدة بـألف سنة قول الله تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ [السجدة: ٥]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عَدَ رِبَّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ [المجادلة: ٤٧].

وما ورد من تحديده بـخمسين ألف سنة قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

وتفصيل تلك الآيات وبيان ما قاله علماء التفسير فيها نبينه فيما يلي:

أما الآية الأولى: فإنها واردة على غير يوم القيمة؛ بل هي حالة من الحالات التي تحصل للملائكة من الهبوط والصعود ما بين الأرض والسماء، كما ذهب إليه كثير من العلماء^(٢).

وبعضهم يذهب إلى أنها واردة في تحديد يوم القيمة، ولكن هؤلاء قد أشكل عليهم ما جاء في الآية الثانية التي تحدد مقداره بـخمسين ألف سنة.

لأن بين هاتين المسافتين ما لا يخفى من التفاوت، ولهذا كان لابد من

(١) فتح القدير / ٤ / ٢٤٨.

(٢) انظر: جامع البيان / ٢٩ / ٧٠.

الجمع بينهما، على أن العلماء من فسر الآية الثانية أيضاً بحصول تلك المسافة - وهي خمسون ألف سنة - بالنسبة للملائكة في الدنيا؛ من صعودهم وهبوطهم ما بين الأرض والسماء^(١).

و سنذكر فقط من الأقوال ما له علاقة بتحديد يوم القيمة فنقول :

١ - من العلماء من فسر هذا اليوم بأنه يوم القيمة، وقالوا: إن معنى تقديره بخمسين ألف سنة؛ أن الله يفرغ من القضاء بين عباده في يوم واحد قدره كخمسين ألف سنة.

ويعزى هذا الرأي فيما يذكر الطبرى إلى عكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد^(٢).

ويذكر ابن كثير أن الرواية إلى ابن عباس في تفسيره للأية : «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» بأنه يوم القيمة، سندها صحيح^(٣).

٢ - ومن السلف من خصص طول هذا اليوم بالنسبة للكفار بخلاف المؤمنين؛ فإنه يكون قصيراً عليهم رغم أنه خمسون ألف سنة.

ويعزى هذا الرأي إلى : ابن عباس رضي الله عنهما.

ويروى عنه أنه توقف عن بيان هذا اليوم؛ بل وغضب على السائل حينما سأله عن هذا؛ كما أخرج الطبرى بسنده إلى ابن أبي مليكة قال : سأله رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة، قال : فاتهمه، فقيل له فيه ، فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فقال : إنما سألك لتخبرني ، فقال : هما

(١) انظر : جامع البيان / ٢٩ / ٧٠.

(٢) جامع البيان / ٢٩ / ٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم / ٤ / ٤١٩.

يومان ذكرهما الله جل وعز، الله أعلم بهما، وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا
أعلم^(١).

ومن توقف كذلك من السلف: سعيد بن المسيب؛ كما أورد الشوكاني
عنه^(٢).

أما تلك الرواية عن ابن عباس الدالة على توقفه فإنه يعارضها ما أخرج
الطبرى - أيضاً - بسنده إلى ابن عباس في قوله: «تَرْجُّ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ
فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»: «فهذا يوم القيمة، جعله الله على
الكافرين مقدار خمسين ألف سنة»^(٣).

وإلى هذا ذهب كثير من العلماء في توفييقهم بين الآيات الوارددة في
تحديد، وقد ذهب الرازى إلى الجزم بأن تخصيص طول الموقف إنما هو بالنسبة
للكفار، وذلك في قوله: «واعلم أن هذا الطول إنما يكون في حق الكافر، أما
في حق المؤمن فلا، والدليل عليه الآية والخبر، أما الآية فقوله تعالى:
﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقْرًا وَأَخْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]. واتفقوا
على أن ذلك المقيل المستقر هو الجنة، وأما الخبر فما روى عن أبي سعيد
الحدري أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: ما أطول هذا اليوم! فقال: والذي نفسي
بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليهها في
الدنيا»^(٤).

(١) ، (٢) جامع البيان / ٢٩ / ٧٢-٧١.

(٣) فتح القدير / ٤ / ٥١.

(٤) التفسير الكبير / ٣٠ ، ١٢٣ ، والحديث قد أخرجه الطبرى في تفسيره / ٢٩ / ٧٢.

ومن الأقوال الأخرى :

- ٣- ما ذكره الرازي عن الحسن أنه قال: «المراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا، ثم بعد ذلك يستقر أهل النار في دركات النيران»^(١).
- ٤- ومنها: «أن هذه المدة واقعة في الآخرة؛ لكن على سبيل التقدير لا على سبيل التحقيق، والمعنى أنه لو اشتغل بذلك القضاة والحكومة أعقل الخلق وأذكاهم لبقي فيه خمسين ألف سنة، ثم إنه تعالى يتمم ذلك القضاة والحكومة في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا»^(٢).
- ٥- أن يوم القيمة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، ولكنه باعتبار صعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة»^(٣)، وهذا القول ذكره الشوكاني، وفيه تحديد المدة بـألف سنة من أيام الدنيا.
- ٦- وقيل: «إن يوم القيمة فيه أيام؛ فمتها ما مقداره ألف سنة، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة»^(٤).
- ٧- وقيل: «هي أوقات مختلفة، يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة، ثم ينتقل إلى نوع آخر فيعذب به خمسين ألف سنة»^(٥).
- ٨- وقيل: «مواقف القيمة خمسون موقفاً، كل موقف ألف سنة، فيكون معنى ﴿يَرْجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] أنه يرجع

(١) التفسير الكبير ٢٠/١٢٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٤.

(٣). (٤) فتح القدير ٤/٢٤٨-٢٤٩.

إليه في وقت من تلك الأوقات، أو موقف من تلك المواقف»^(١).

قال البرديسي: «ومقدار ذلك اليوم كما قال تعالى في سورة السجدة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ مَا تَعْدُونَ﴾ أي في الدنيا، وقال تعالى في سورة سأل: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [العارج : ٤] وهو يوم القيمة لشدة أحواله بالنسبة إلى الكافر، وأما المؤمن فيكون أخف عليه من صلاة مكتوبة في الدنيا، وقيل يوم القيمة خمسون موطنًا، كل موطن ألف سنة»^(٢).

ويقول الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عَنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَا تَعْدُونَ﴾ [الحج : ٤٧]، وكذا قوله تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأُمُرَ مِنِ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ مَا تَعْدُونَ﴾ [السجدة : ٥]، وبين قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الآية. [العارج : ٤]؛ قال: «اعلم أولًا: أن أبي عبد الله روى عن إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة^(٣) أنه حضر كلاماً من ابن عباس وسعيد بن المسيب سئل عن هذه الآيات؛ فلم يدر ما يقول فيها؛ ويقول: لا أدرى، وللجمع بينهما وجهان:

الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماع عن عكرمة عن ابن عباس: من أن يوم ألف في سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، ويوم ألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى، ويوم الخمسين ألفاً هو يوم القيمة.

(١) فتح القدير ٤ / ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) كتاب تكميلة شرح الصدور ص ٢.

(٣) انظر جامع البيان ج ٢٩ ص ٧٢

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها: يوم القيمة، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يُومٌ عَسِيرٌ﴾ [١] على الكافرين غير يسير﴿﴾ [المدثر: ٩ - ١٠].

ذكر هذين الوجهين صاحب الإتقان، والعلم عند الله﴾^(١).

وقد وردت أخبار تفيد تحديد مدة الوقوف بأربعين سنة؛ كما يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لمبقات يوم معلوم، قياماً أربعين سنة، شاخصة أبصارهم يتظرون فصل القضاء»^(٢).

وكذا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يحشر الناس يوم القيمة حفاة عراة غرلاً، قياماً أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء»^(٣) الحديث.

ووردت أخبار تفيد أن مدة المكث في الموقف ألف سنة؛ كما جاء عن زيد الرشد، قال: «يقوم الناس يوم القيمة ألف سنة، ويقضى بينهم في مقدار عشرة آلاف سنة»^(٤).

وهذه الأخبار التي تحدد المدة بأربعين سنة أو بألف سنة؛ لا تتفق مع ما جاء في كتاب الله وفي الصحيح من تحديد ذلك اليوم بما ذكر، وتوجيه ذلك ما تقدم ذكره من أقوال العلماء.

وأما التحديد بأربعين سنة فقد جاءت مزاداً بها ما بين النفحتين لا مدة القيام في الموقف، وحتى هذه المدة ما بين النفحتين غير مسلمة أنها أربعون

(١) دفع إيهام الاضطراب، مع أصوات البيان ص ٢٠٧ ج ٩.

(٢) ذكره المننري في الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٩١، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا، والطبراني من طرق أحدهما صحيح، واللقط له، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) النهاية ١/٢٦٥ وعزاه إلى البيهقي.

(٤) النهاية ٢/١٥ وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

سنة؟ على ضوء ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
وأما التحديد بـألف سنة قياماً، وعشرة آلاف سنة للقضاء بينهم؛ فهو
تفصيل فيه نظر لما أسلفنا ذكره .

وفيما ييدو؛ فإن القول: بأن تلك المدة - وهي خمسون ألف سنة - إنما هي
مدة نسبية ، إذ هي على الكافر كذلك ، بخلاف المؤمن؛ فإنها تكون عليه
قصيرة؛ هو القول الذي تجتمع عليه تلك الأقوال .

وما هو معروف أن الإنسان حينما يكون في بلوى وهم؛ يكون الوقت
عليه بطيناً ثقيلاً وكأن الساعات أيام ، بخلاف من كان في سرور وانشراح؛ فإن
الوقت يمر عليه خفيفاً مسرعاً .

وفي هذا يقول الشيخ الأمين الشنقيطي رحمه الله : «إن يوم القيمة يطول
على الكفار ويقصر على المؤمنين ، ويشير لهذا قوله تعالى - بعد هذا بقليل - :
﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

فتخصيصه عسر ذلك اليوم بالكافرين؛ يدل على أن المؤمنين ليسوا كذلك ،
وقوله تعالى: «فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرٌ يَسِيرٌ ⑩» [المدثر:
٩ ، ١٠] ، يدل بمفهومه أيضاً على أنه يسير على المؤمنين غير عسير؛ كما دل عليه
قوله تعالى: «مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑪» [القمر: ٨].

ومن المعلوم أن السرور يقصر به الزمن ، والクロب والهموم سبب
لطوله»^(١) .

وما ورد في تقوية هذا الرأي: ما روي عن أبي سعيد قال: قيل
لرسول الله ﷺ: يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم ! فقال

(١) أضواء البيان ج ٩ ص ٢٤٣.

رسول الله ﷺ : «والذي نفس بيده، إنه ليغف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا»^(١).

وقال عبد الله بن عمرو : «إن للمؤمنين يوم القيمة كراسى من نور؛ يحبسون عليها، وتظلل عليهم الغمام، ويكون يوم القيمة عليهم كساعة من نهار أو كأحد طرفيه»^(٢).

وعن أبي هريرة قال : «يوم القيمة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر إلى العصر»، وذكر ابن كثير عن البيهقي أنه قال : «هذا هو المحفوظ، وقد روي مرفوعاً»^(٣).

وقال ابن مسعود في قوله تعالى : «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقْرٌ وَأَحْسَنُ مَقْيِلاً» [الفرقان : ٢٤] ، قال : «لا يتصف النهار يوم القيمة حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء»^(٤).

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «يوم القيمة يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة؛ فيهمون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب»^(٥).

* * *

(١) مستند أحمد ج ٣ ص : ٧٥ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٣٧ / ١٠ : «وإسناده حسن على ضعف في رواية».

(٢) ذكره ابن كثير في النهاية ج ١ ص ٣٢٤ ، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

(٣) النهاية لا بن كثیر ج ١ ص ٣٢٦.

(٤) القيلولة : هي النوم وقت الظهيرة القاموس ج ٤ ص ٤٣ ، وإذا كان النوم وقت الظهيرة في الجحيم كان أشد عذاباً ونكلاً.

(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ، وقال : ورجاته رجال الصحيح غير إسماعيل بن عبد الله وهو ثقة ، مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٣٧ . ثم عزاه إلى أبي يعلى.

٣ - الأحاديث الواردة في تحديد مدة الموقف

وبالإضافة إلى ما تقدم ذكره من بعض الروايات التي جاءت من خلال شرح الآيات في تحديد مدة يوم القيمة، فقد وردت أحاديث في الصحيح تنص على تحديد مدة يوم القيمة بخمسين ألف سنة، غير أنها تقبل - فيما يظهر - تلك الاحتمالات التي تقدمت في النصوص السابقة، ومن تلك الأحاديث :

ما أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقها، إلا إذا كان يوم القيمة صفت له صفات من نار فاحمي عليها في نار جهنم فيكوني بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد؛ فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

قيل : يا رسول الله، فالإبل؟ قال : ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وردها، إلا إذا كان يوم القيمة بطبع لها بقاع قرقر أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحداً، تطؤه بأخفافها وتغضبه بأفواهها، كلما مر عليه أولها رد عليه آخرها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؛ حتى يقضى بين العباد؛ فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

قيل : يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال : ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي

منها حقها؛ إلا إذا كان يوم القيمة بطح لها^(١) بقاع قرقر^(٢)، لا يفقد منها شيئاً، ليس فيها عقصاء^(٣)، ولا جلحاء^(٤)، ولا عضباء^(٥)؛ تتطحه بقرونها وتطوؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه آخرها^(٦)، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؛ حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار^(٧).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحصي عليه في نار جهنم؛ فيجعل صفان؛ فيكوى بها جنباه وجبينه، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر، كأوفر ما كانت تستن^(٨) عليه، كلما مضى عليه آخرها ردت عليه أولاها، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار.

وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت، فتطوؤه بأظلافها وتتطحه بقرونها، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء، كلما مضى عليه

(١) بطح لها، قال الترمذى: «قال جماعة: معناه ألقى على وجهه». قال القاضى: قد جاء فى رواية للبخارى: يخبط وجهه بأخلفها، قال: وهذا يقتضى أنه ليس من شرط البعث كونه على الوجه، وإنما هو في اللغة بمعنى البسط والمد، فقد يكون على وجهه، وقد يكون على ظهره، ومنه سميت بطحاء مكة لأنبساطها».

(٢) بقاع قرقر: القاع: المستوى الواسع من الأرض يعلوه ماء السماء؛ فيما يسمى به القرقر: المستوى أيضاً من الأرض الواسع، وهو بفتح القافين».

(٣) عقصاء: قال أهل اللغة: العقصاء: ملتوية القرنين.

(٤) والجلحاء: التي لا قرن لها.

(٥) والعضباء: التي انكسر قرنها الداخلي.

(٦) وفي رواية: كلما مر عليه آخرها رد عليه أولاها، وبهذا يتنظم الكلام.

(٧) آخر جه مسلم ج ٣ ص ١٨.

(٨) تستن: أي تجري.

آخرها ردت عليه أولاها؛ حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار،^(١).

وأخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: «قيل لرسول الله ﷺ: »فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ الْفَ سَنَةً« ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: والذى نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا،^(٢).

ولكن في سند هذا الحديث راويان ضعيفان، وهما دراج، وأبو الهيثم^(٣).

وأخرج كذلك عن أبي عمر العదاني قال: «كنت عند أبي هريرة؛ فمر رجل من بني عامر بن صعصعة؛ فقيل له: هذا أكثر عامري مالاً، فقال أبو هريرة: ردوه إلى فردوه، فقال: نبشت أنك ذو مال كثير، فقال العامري: إني والله، إن لي مائة حمراء، أو مائة أدماء، حتى عدم من ألوان الإبل وأفنان الرقيق ورباط الخيل؛ فقال أبو هريرة: إياك وأخلفات الإبل وأظلاف الغنم؛ يردد ذلك عليه حتى جعل لون العامري يتغير. فقال: ما ذاك يا أبي هريرة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت له إبل لا يعطي حقها في نجيتها ورسلها. قلنا: يا رسول الله، ما نجيتها ورسلها؟ قال: في عشرها ويسرها. فإنها تأتي يوم القيمة كاغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وأشره، حتى يبسط لها بقاع قرقر؛ فتطوئه بأخلفاتها؛ فإذا جاوزته آخرها أعيدت عليه أولاها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس، فيرى سبيله.

(١) صحيح مسلم ج ٣ ص ٢١.

(٢) المستند ج ٣ ص ٧٥، وتفسير ابن جرير ج ٢٩ ص ٧٢.

(٣) ابن كثير في تفسيره ج ٤ ص ٤١٩.

وإذا كانت له بقر لا يعطي حقها في نجيتها ورسلها؛ فإنها تأتي يوم القيمة كاغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وأشره، ثم يبطح لها بقاع قرقر؛ فتطوئه كل ذات ظلف بظلفها، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها، ليس فيها عقصاء ولا عضباء، إذا جاوزته آخرها أعيدت عليه أولاهما في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس؛ فيرى سبيله.

وإذا كانت له غنم لا يعطي حقها في نجيتها ورسلها؛ فإنها تأتي يوم القيمة كاغذ ما كانت وأسمنه وأشره، حتى يبطح لها بقاع قرقر، فتطوئه كل ذات ظلف بظلفها، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها، ليس فيها عقصاء ولا عضباء، إذا جاوزته آخرها أعيدت عليه أولاهما، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله...^(١) إلخ الحديث.

ويتبين لنا مما تقدم بحثه: أنه ليس معنى طول ذلك اليوم هو تحديده بزمن ينتهي بنهاية وقته، كما هو الحال في أيام الدنيا إذا انتهى وقت النهار جاء وقت الليل وبالعكس، ليس ذلك اليوم كذلك؛ بل إنه يوم على صفة واحدة، يطوله الله تعالى كيفما شاء، ينتهي بإكمال الله تعالى فصله بين خلقه.

وهذا ما أشار إليه البرديسي بقوله: «واعلم أن يوم القيمة ليس بطوله كما عهد من طول الأيام؛ بل هو آلاف من الأعوام، وليس يكون كلامهم دفعة واحدة، ولا فراغهم في مرة واحدة؛ بل يتخلصون ويفرغون شيئاً بعد شيء، لكن طول ذلك اليوم خمسون ألف سنة، فيفرغون بفراغ اليوم، ويفرغ اليوم بفراغهم».

وليس أيضاً هذا اليوم مثل أيام الدنيا التي تكون على حكم دوران الفلك؛

(١) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٦٢، وأبو داود ج ١ ص ٣٨٦، والنسائي ج ٥ ص ١٣ - ٢٤.

إذا ذهب الليل جاء النهار، وإذا ذهب النهار جاء الليل، حكمة الله التي حيرت العقول وأكلت الأبصار وأخرست الألسن، ليس هناك ليل؛ إنما هو وقت واحد على صفة واحدة، وهو الذي يسمى يوماً، إنما هو مقدار من ذلك الوقت يطوله الله عز وجل ما شاء ويقصره إن شاء . . .

واعلم أن هذا اليوم يتلون الواناً ويستحيل أحوال الناس فيه أحوالاً، فينبثون فيه من قبورهم، ويساقون فيه إلى محشرهم ومكان القصاص فيهم، ويقفون منه ما شاء الله أن يقفوا، شاخصة أبصارهم إلى السماء، مبهوتين سكارى حيari؛ من عظم ما أصحابهم وهول ما نزل بهم.

ويأتي في ذلك اليوم وقت منه يتكلم فيه المشركون فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، ويأتي عليهم منه وقت آخر لا يتكلمون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، وفيه تكون المحاسبة والمناقشة، وفيه يتعلق الناس بعضهم ببعض، ويطلب بعضهم بعضاً، ويخاصم بعضهم بعضاً» إلى أن يقول: «وبالجملة فليس يتم ذلك اليوم إلا وقد نزل كل إنسان بداره، واستقر في قراره، من جنته أو ناره»^(١).

وقال البرديسي أيضاً - في كلام نفيس -: «واعلم أنه كلما طال قيامك في أيام الدنيا؛ قل تعبك في ذلك اليوم، وكلما كثر تصرفك في طاعة الله تعالى وانتصبك له؛ قصر قيامك في ذلك اليوم، وكلما قصر تصرفك في طاعة الله وإنما لك وإنما لك في قضاء حاجة مسلم ومشيك معه ومشاركتك له؛ تقلل مشيك في ذلك اليوم وتقلل نصبك فيه، وبقدر ما تبذل تعطى، وكما تدين تدان.

(١) تكملة شرح الصدور ص ٢٠.

ولعلك يا هذا تستطيل ركعتين تقرأ فيهما جزءاً أو جزأين تقدم فيهما لربك جل جلاله، ولعلك تعجز من ميل في قضاء حاجة مسلم أو ميلين، وبين يديك هذا اليوم الطويل المديد، والكرب العظيم الشديد، الذي لا ينصر إلا على من أطال التعب لله، ولا يسهل إلا على من تحمل الشدائـد في ذات الله.

ولعلك إن صلـيـتـهـماـ لـيـلـةـ عـجـزـتـ عـنـهـمـاـ لـيـلـةـ أـخـرـيـ، ولـعـلـكـ إـنـ مـشـيـتـ يـوـمـاـ فيـ قـضـاءـ حـاجـةـ مـسـلـمـ بـرـمـتـ مـنـ ذـلـكـ يـوـمـاـ آخـرـ وـضـجـرـتـ مـنـهـ وـكـسـلـتـ عـنـهـ، وـرـبـماـ وـقـفـتـ لـسـمـاعـ حـدـيـثـ فـارـغـ يـكـونـ تـقـدـيرـهـ أـكـثـرـ مـنـ جـزـءـ أوـ جـزـأـيـنـ، وـرـبـماـ مـشـيـتـ فـيـ فـضـولـ الـمـيـلـ وـالـمـيـلـيـنـ وـأـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ، وـلـوـ تـدـبـرـتـ فـيـ أـمـرـكـ وـنـظـرـتـ فـيـمـاـ يـرـادـ بـكـ؛ لـسـهـلـ عـلـيـكـ مـنـ أـمـرـكـ الـعـسـيرـ، وـقـرـبـ عـلـيـكـ فـيـ الـبـعـيدـ.

فـاعـمـلـ رـحـمـكـ اللهـ. فـيـ أـيـامـ قـصـارـ وـعـمـرـ قـصـيرـ؛ لـأـيـامـ طـوـالـ وـعـمـرـ طـوـيلـ؛ فـتـنـفـعـكـ رـحـمـكـ اللهـ. فـيـ ذـلـكـ الزـحامـ، وـالـانـضـامـ، وـالـانـشـاقـ، وـالـتـلاـقـ، وـاجـتمـاعـ الإـنـسـ وـالـجـانـ، وـمـنـ يـجـمـعـ مـنـ سـائـرـ أـصـنـافـ الـحـيـوانـاتـ، وـاـنـتـقـالـهـمـ، وـتـدـافـعـهـمـ، وـاـخـتـلاـطـهـمـ، وـلـاـ قـرـارـ وـلـاـ اـنـتـهـاءـ، وـلـاـ مـلـاذـ وـلـاـ اـنـقـيـادـ، وـقـرـبـ الـشـمـسـ فـيـهـمـ قـبـلـ تـكـوـيـرـهـاـ، وـكـانـ كـمـقـدـارـ مـيـلـ، وـتـزـيـدـ فـيـ حـرـهاـ، وـضـوـعـفـ فـيـ وـهـجـهاـ، وـلـاـ ظـلـ إـلـاـ ظـلـ عـرـشـ رـبـكـ بـمـاـ قـدـمـتـهـ مـنـ كـسـبـكـ.

وـقـدـ اـنـضـافـ إـلـىـ حـرـ الـشـمـسـ حـرـ الـأـنـفـاسـ، وـمـزـاحـمـةـ النـاسـ، وـاـخـتـرـاقـ الـقـلـوبـ لـمـاـ غـشـيـهـاـ مـنـ الـكـرـوبـ، وـاـشـتـدـ الـفـرقـ، وـعـظـمـ الـقـلـقـ، وـسـالـ مـنـ الـأـجـسـامـ الـعـرـقـ، وـانـبـعـثـ مـنـ كـلـ مـوـضـعـ مـنـ الـجـسـدـ وـانـبـثـقـ، وـكـانـ النـاسـ فـيـهـ عـلـىـ قـدـرـ أـعـمـالـهـمـ.

فـتـفـكـرـ فـيـ نـفـسـكـ أـيـهـاـ الـمـسـكـينـ وـقـدـ ضـاقـ نـفـسـكـ، وـزـادـ قـلـقـكـ، وـسـالـ عـرـقـكـ، وـجـرـىـ مـنـ جـمـيعـ بـدـنـكـ، مـنـ مـفـرـقـكـ إـلـىـ قـدـمـكـ، وـوـصـلـ مـنـهـ إـلـىـ

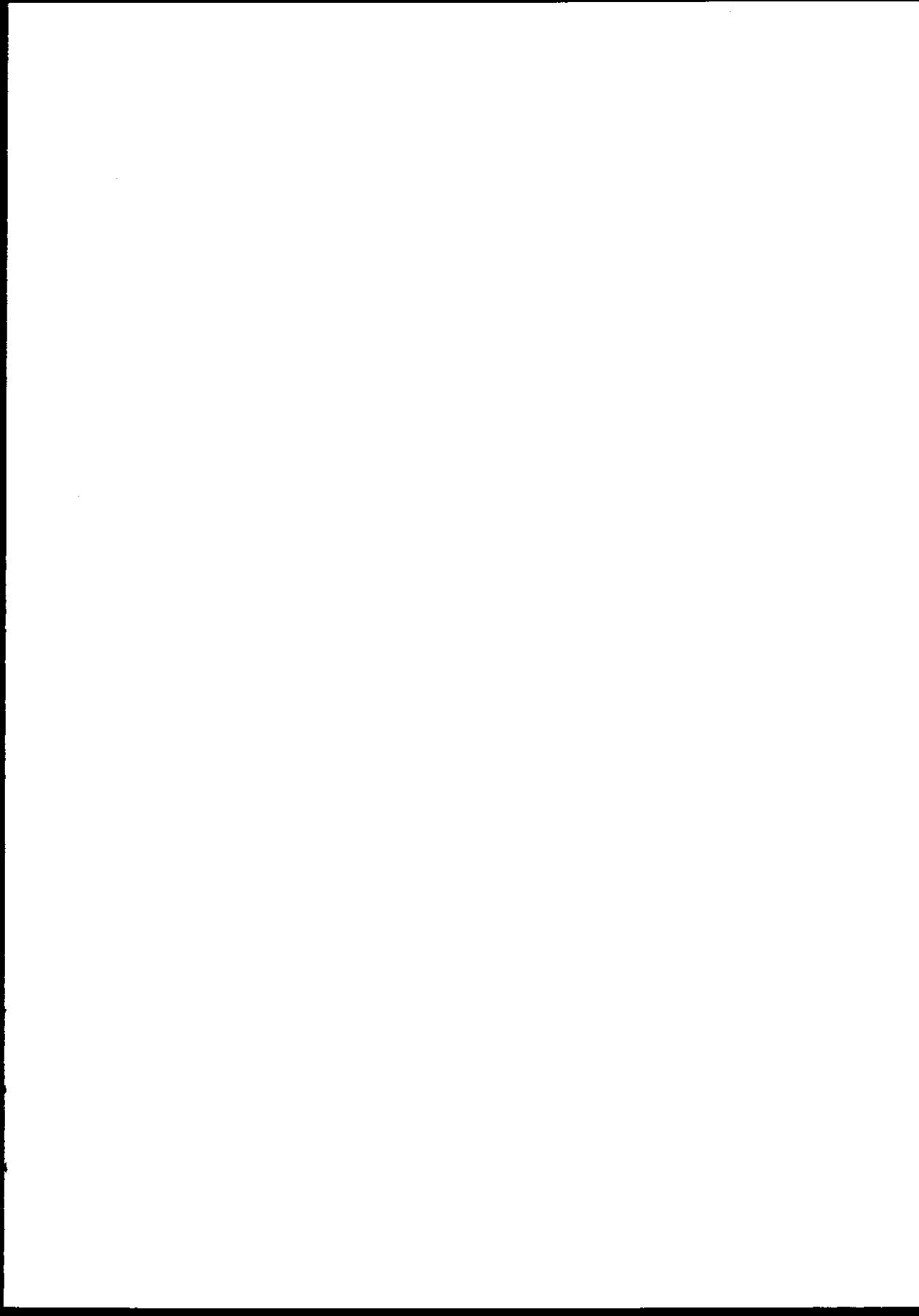
حيث أوصلته بعملك؛ إما إلى كعبك، أو صاعداً إلى أذنك.

فانظر إلى هذا الحال، وتفكر في هذا الوبال، وسوء هذا المال، واعلم أنه لو سال عرقك في الدنيا، طول عمرك وأضعاف عمرك، في طاعة ربك وفي رضا سيدك على ألا تعرق في ذلك اليوم؛ لكان ذلك يسيراً، أو لكنك به جديراً، ول كانت سلامتك منه مغنمًا كثيراً، وفوزاً كبيراً، نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، آمين»^(١).

وقد نقلنا هذه العبارات لنفاستها؛ ولأنه لا يستطيع الاطلاع عليها؛ لأنها لا تزال في غياب المخطوطات.

* * *

(١) تكميلة شرح الصدور ص ٢٠-٢١.



الباب الثاني في الشفاعة

ويتكون من الفصول الآتية :

نهاية :

الفصل الأول : تعريف الشفاعة :

١- في اللغة

٢- في الشرع

الفصل الثاني : أقسام الشفاعة :

١- الشفاعة المثبتة التي ورد بها النص.

٢- الشفاعة المنافية.

الفصل الثالث : أقسام الشفاعات الثابتة التي ورد بها النص :

١- الشفاعة العظمى.

٢- الشفاعة لقوم استحقوا النار أن لا يدخلوها.

٣- الشفاعة في أهل الكبائر.

٤- الشفاعة لأقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

٥- شفاعة الرسول ﷺ لأهل المدينة المنورة.

٦- الشفاعة في دخول المؤمنين الجنة.

٧- الشفاعة لرفع درجات أهل الجنة.

٨- شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه.

الفصل الرابع : ثبوت الشفاعة في بعض الأعمال :

١- طلب الوسيلة للرسول ﷺ، والإكثار من الصلاة عليه.

٢- قول الشخص: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، وموته على ذلك.

٣- الإكثار من السجود.

الفصل الخامس : الشفاعات التي لم يرد بها نص صحيح :

نهاية :

١- الشفاعة لمن زار قبر الرسول ﷺ.

٢- الشفاعة للأقرب فالأقرب منه ﷺ.

٣- الشفاعة لأهل مدن بعيتها غير المدينة المنورة.

٤- الشفاعة لأكثر مما على وجه الأرض من شجر ومدر.

٥- الشفاعة لمن مات في أحد الحرميin.

٦- الشفاعة لمن تأخى في الله.

٧- الشفاعة لمن قضى حوائج آل البيت.

٨- الشفاعة لمن حفظ أربعين حديثاً.

٩- الشفاعة لمن قضى دوائح الناس.

الفصل السادس : الأمور التي تمنع الشفاعة :

١- الإشراك بالله تعالى.

٢- كثرة تعمد اللعن.

٣- التكذيب بوقوع الشفاعة.

الفصل السابع : ذنوب لم يثبتت نفي الشفاعة فيها :

١- القول بمنع الشفاعة عن صاحب البدعة.

٢- المرجئة والقدرية.

٣- من غش العرب.

٤- من سار تحت رايات العباسين.

الفصل الثامن : أقسام الشفاعة :

١- قسم ثبت صحة شفاعتهم، وهم:

١- شفاعة نبينا محمد ﷺ.

٢- شفاعة الأنبياء الآخرين غير نبينا محمد ﷺ.

٣- شفاعة الملائكة.

٤- شفاعة الشهداء.

٥- شفاعة الولدان.

٦- شفاعة المؤمنين بعضهم في بعض.

٧- شفاعة القرآن الكريم.

ب - قسم لم تثبت صحة شفاعتهم :

١- شفاعة الحجر الأسود.

٢- شفاعة بعض الأعمال مثل :

أ - الصيام.

ب - قراءة (قل هو الله أحد) ألف مرة .

٣- شفاعة بعض الأشخاص مثل:

أ - المؤذنين.

ب - الحجاج.

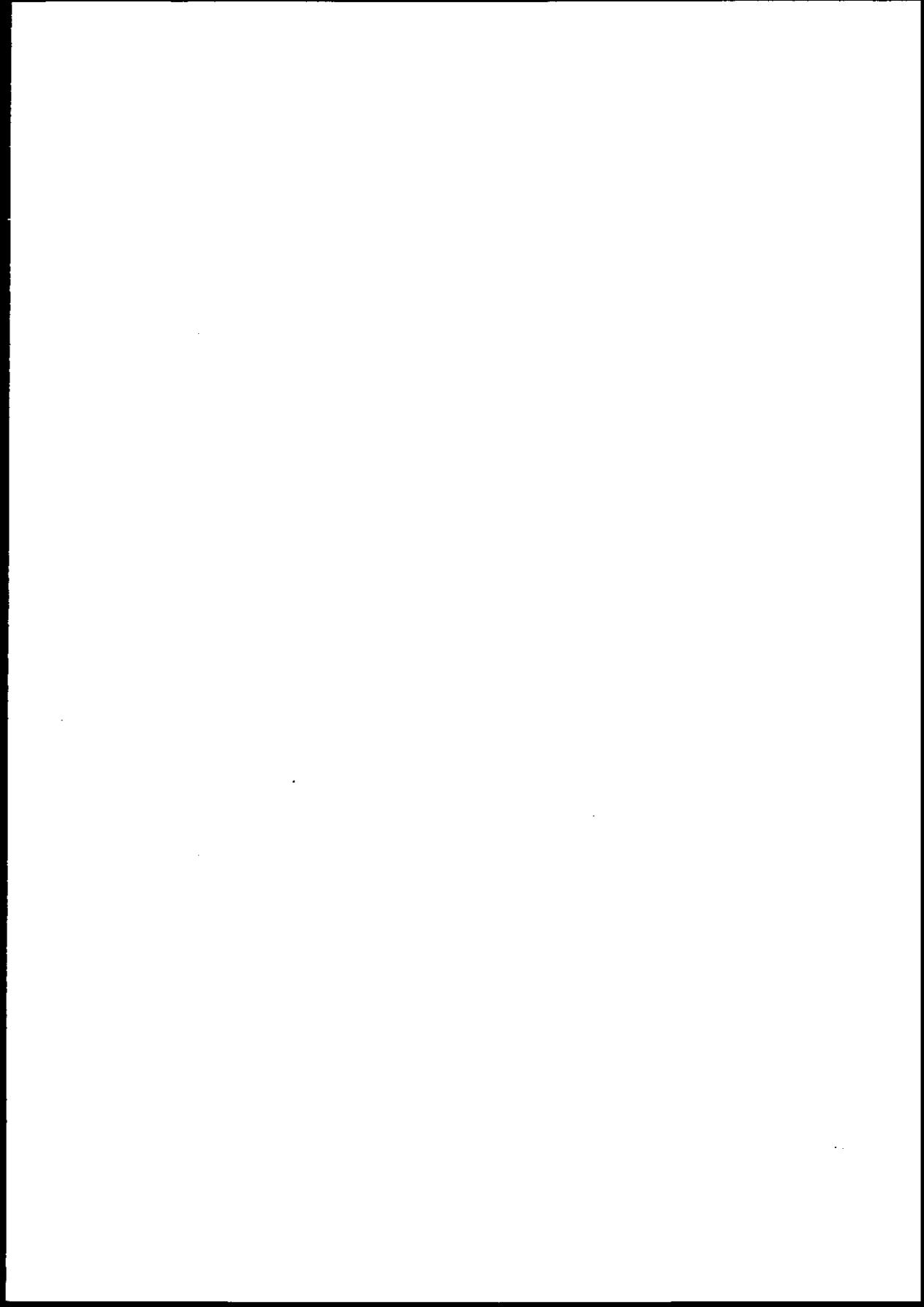
الفصل الأول

تعريف الشفاعة

نمهيد

١- في اللغة.

٢- في الشرع.



الفصل الأول

تعريف الشفاعة

نَمْهِيد

بحث الشفاعة في الآخرة من أحب الأبحاث إلى النفس؛ إذ بها يعرف المسلم قدر رحمة الله تعالى، ويعرف تفضيله على أنبيائه - عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام -، وقد جعلها الله كرامة منه ورفعاً لدرجة الشافع وإظهاراً لمنزلته، وهي بالإضافة إلى أنها إكرام الشافع؛ فهي كذلك نفع للمشفوع له من أهل المعاصي، الذين توافت سعادتهم على حصولها، بعد إذن الله ورضاه.

وإذا كان الله قد تفضل بإكرام أقوام فقبل شفاعتهم، وسنذكرهم؛ فإن لنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقام الأول والحظ الأوفر في كثرة شفاعته لأمته؛ وهو الرؤوف بهم، الصادق في إيصال الخير إليهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليماً كثيراً.

وإذا كان أمر الشفاعة من الأمور التي يعتقدها كل مسلم اتخذ الكتاب والسنة هادياً، وابتعد عن أقوال أهل البدع والزيغ؛ فإن من المؤسف أن يوجد من بين صفوف المسلمين من ينكر بعض جوانب الشفاعة؛ بحجج واهية وأقوال سقيمة.

وإذا كان قد وجد من ينكر بعض جوانب الشفاعة - من يتسمى إلى أهل القبلة - فإن قسماً آخر منهم قد أثبتوها جوانب أخرى من الشفاعة لم يثبت بها

نص، ولم يقل بها أحد من السلف؛ مبالغة منهم في حب من أثبتوه ذلك الشفاعات، وهؤلاء هم جهلة المسلمين، وكلتا الطائفتين خرجتا عن الحق وعن الاعتقاد السليم.

و قبل التفصيل لأقسام الشفاعات الثابتة وغير الثابتة، نذكر تعريف الشفاعة في اللغة وفي الشرع.

١. معنى الشفاعة في اللغة :

الشفاعة في لغة العرب مشتقة من الشفع الذي هو غير الوتر، أي أن الشفع هو الزوج الذي هو عكس الوتر عند الإطلاق، تقول: أعطيتك كتاباً ثم شفعته بأخر، أي صار ما معك زوجاً بعد أن كان وترًا، قال ابن منظور: «شفع الوتر من العدد شفعاً: صيره زوجاً»^(١).

والمشفع - بكسر الفاء - هو الذي يقبل الشفاعة.

والمشفع - بفتح الفاء - هو الذي تقبل شفاعته.

قال ابن الأثير في النهاية: «قد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع، والمشفع الذي يقبل الشفاعة والمشفع الذي تقبل شفاعته»^(٢).

وعرفها اللقاني بأنها في اللغة هي: «الوسيلة والطلب»^(٣).

(١) لسان العرب / ٨ / ١٨٣.

(٢) النهاية / ٢ / ٤٨٥.

(٣) شرح جوهرة التوحيد ص ١٨٦.

ومن الشفع أخذت تسمية الشفعة التي هي الزيادة؛ لأن من حقت له الشفعة زاد في ماله ذلك المشفوّع؛ فيصير ما معه شفعاً، وكأن ما حصل معه من الملك قبل الشفعة وترأ، وبعدأخذ المشفوّع صار شفعاً.

وفي هذا يقول ابن الأثير: «الشفعة في الملك معروفة، وهي مشتقة من الزيادة؛ لأن الشفيع بضم الميم إلى ملكه»^(١).

وقال الراغب: «الشفع ضم الشيء إلى مثله»، قال: «والشفعة: هو طلب مبيع في شركته بما يبع به ليضمه إلى ملكه، وهو من الشفع»^(٢).

وقد سميت المخلوقات بالشفع - كما قال أهل التفسير في بيان معنى قول الله تعالى: «**وَالشَّفَعُ وَالْوَتْرُ**» [الفجر: ٣] أنهم المخلوقات الذكر والأئمّة، على أحد الأقوال التي قيلت في معنى الشفع^(٣)، كما ذكر ابن كثير.

وذكر الراغب أن المخلوقات سميت بالشفع «من حيث إنها مركبات، كما قال: «**وَمَنْ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ**»^(٤) [الذاريات: ٤٩].

ويطلق الشفع كذلك على الشيئين مطلقاً، سواء أكانا في شيء واحد أم في أشياء متفرقة، وذلك كإطلاق لفظ الشفعة على ركعتي الضحى، في قولهم: شفعة الضحى، ومنه: «من حافظ على شفعة الضحى غفر له ذنبه»، قال ابن الأثير: يعني ركعتي الضحى^(٥).

(١) النهاية لابن الأثير / ٢ ٤٨٥.

(٢) المفردات ص ٢٦٣.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير / ٤ ٥٠٥، ٥٠٦.

(٤) المفردات للراغب ص ٢٦٣.

(٥) النهاية لابن الأثير / ٢ ٤٨٥.

وللشفع معان كثيرة كلها تدور حول معنى لغوي واحد، وهو صيغة الور شفعاً، أي: زوجاً^(١)، وقد أطلق الله تعالى في كتابه الكريم على من طلب شيئاً لغيره - سواء أكان في فعل الخير أو الشر - شفيعاً وشافعاً؛ فقال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفُعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفُعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

يقول ابن كثير في بيان معنى الآية: «أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير؛ كان له نصيب من ذلك، ﴿وَمَنْ يَشْفُعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب عليه سعيه ونيته، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء»^(٢).

ويقول الشوكاني في معرض تفسيره للآية: «أصل الشفاعة والشفعة ونحوهما من الشفع، وهو الزوج، ومنه الشفيع؛ لأنَّه يصير مع صاحب الحاجة شفعاً، والشفع ضم واحد إلى واحد... فالشفاعة ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك»^(٣).

وفي لسان العرب: «والشافع: الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب، يقال: تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه»^(٤)، وكذا قوله عن الشفاعة:

(١) انظر: كتب اللغة مادة «شفع».

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٥٣١.

(٣) فتح القدير ١ / ٤٩٢.

(٤) لسان العرب ٨ / ١٨٤.

«الشفاعة : كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره»^(١).

* * *

٢. معنى الشفاعة في الشعور :

معاني الشفاعة الشرعية متقاربة مع معانيها اللغوية؛ وذلك لأن الشفاعة في اللغة يراد بها معانيها اللغوية من انضمام شيء إلى شيء آخر وزيادته في شيء مخصوص، وأما في الشرع فهي التي يراد بها معناها الواضح الذي ورد به الشرع، مخبراً عنه ومبيناً أمره، مما يحصل في الدار الآخرة، وهي : طلب الرسول محمد ﷺ أو غيره - من الله في الدار الآخرة حصول منفعة لأحد من الخلق.

ويدخل تحت هذا التعريف جميع أنواع الشفاعات الخاصة ببنينا محمد ﷺ وغيره، كالشفاعة العظمى وهي طلب الرسول محمد ﷺ من ربه إراحتة الناس من الموقف بمجيئه لفصل القضاء، ويدخل كذلك شفاعته ﷺ في دخول أهل الجنة، وشفاعته في تخفيف العذاب عن أبي طالب، وشفاعة الشفاعة في رفع الدرجات في الجنة، وكذا الشفاعة في إخراج قوم من النار وإدخالهم الجنة.

ولوضوح أمر الشفاعة في الآخرة؛ فإن تعريفها تعريفاً خاصاً بها ومحدداً لها لم يرد إلا قليلاً على ألسنة علماء العقائد لظهور المراد منها؛ إذ هي إيصال الخير أو دفع الضرر عن الغير بأي صفة كانت.

(١) لسان العرب ٨/١٨٤، انظر: ناج العروس ٥/٤٠١.

وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار - معرفاً لها في الاصطلاح بعد أن عرفها في اللغة - قال : «وأما في الاصطلاح : فهو مسألة الغير أن ينفع غيره ، أو أن يدفع عنه مضره»^(١) .

وهذا التعريف عام يشمل جميع أقسام الشفاعة في الدنيا والآخرة ، ويعرفها ابن الأثير كذلك بقوله : «وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم»^(٢) أي الخلق :

وقال الراغب : «والشفاعة : الانضمام إلى آخر ؛ ناصراً له وسائلاً عنه»^(٣) .

وعرفها الجرجاني بأنها : «هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجنابة في حقه»^(٤) .

وعرفها اللقاني بأنها : «سؤال الخير من الغير للغير»^(٥) .

ومن هنا يتبيّن لنا العلاقة بين تعريف الشفاعة في اللغة وتعريفها في الاصطلاح ، والتنبّه بينهما : أن المعنى اللغوي عام يشمل المعنى الاصطلاحي وغيره ؛ وذلك أن الشفاعة في اللغة يراد بها كل ما يدل على الانضمام والزيادة ، سواء كانت في خير أو شر ، وسواء أكانت في الدنيا أو الآخرة .

وأما في الاصطلاح الشرعي : فهي لا تكون إلا في الخير في دار الآخرة كما هو معلوم ، وحيث إن الشفاعة في الآخرة أصبح لها مدلولها الخاص بها

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٨٨.

(٢) النهاية / ٢ ٤٨٥.

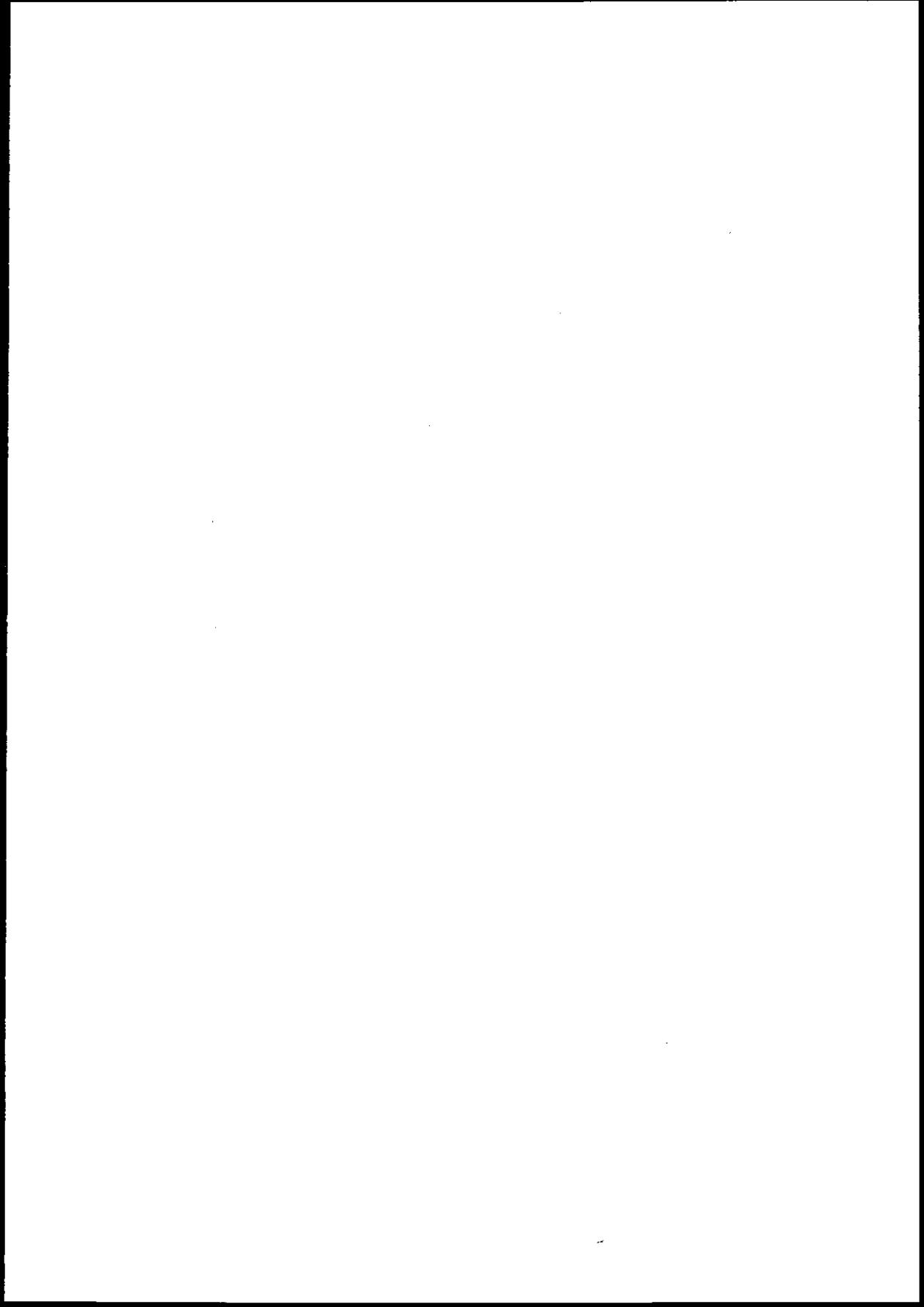
(٣) المفردات ص ٢٦٣.

(٤) التعريفات ص ١٢٧.

(٥) شرح جوهرة التوحيد ص ١٨٦.

عند الناس؛ فإنهم اختلفوا فيها اختلافاً كثيراً؛ بين نافٍ لها، وبين قائل بها،
كما سنفصل هذا في موضعه إن شاء الله تعالى.



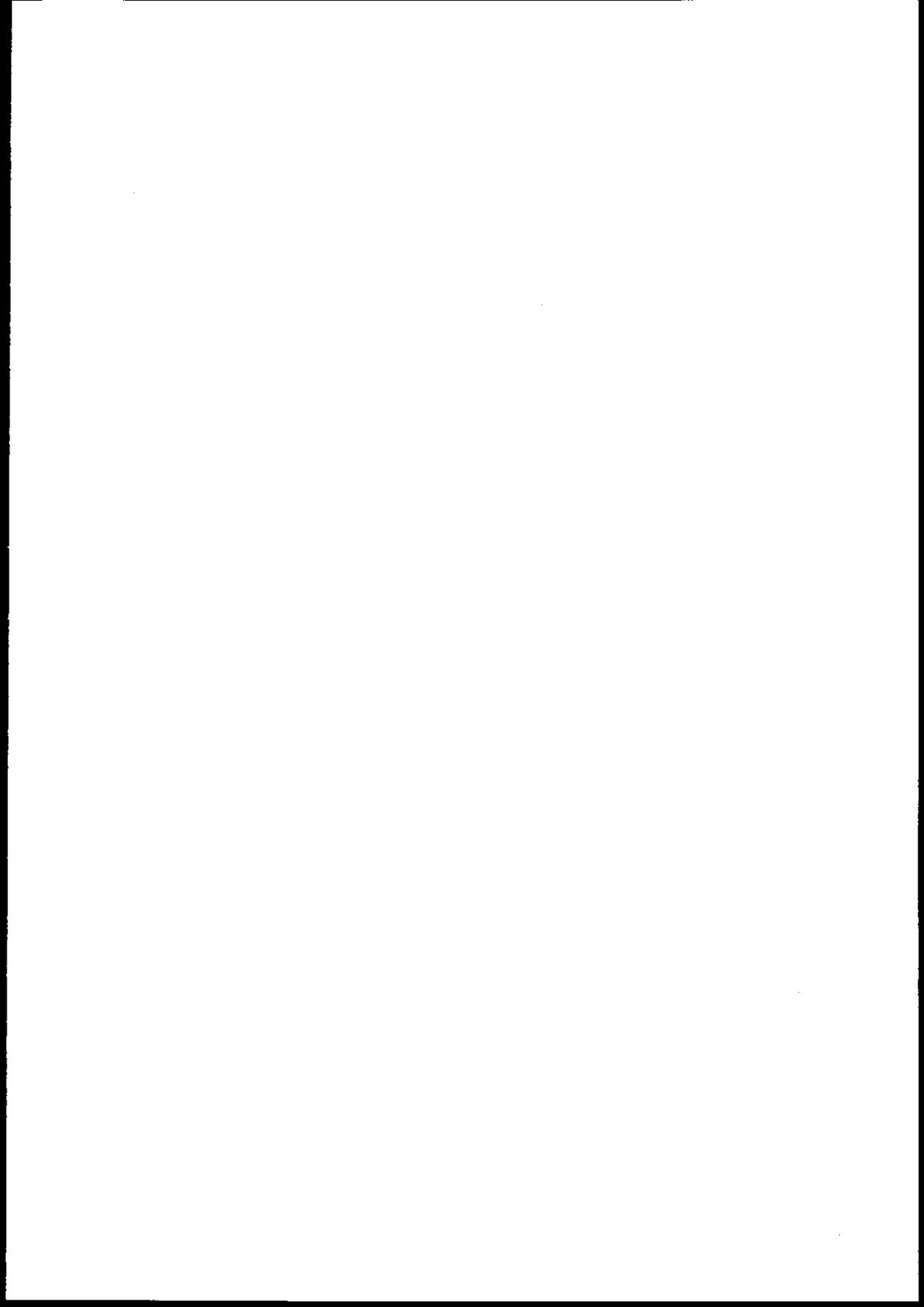


الفصل الثاني

أقسام الشفاعة

١- الشفاعة المثبتة.

٢- الشفاعة المنافية.



الفصل الثاني

أقسام الشفاعة

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل وينجلي على عباده في الموقف بالحلال والجبروت، وقد تقدم لنا من أحوال الموقف أن الناس يغرقون في عرقهم، وأن الشمس تدنو منهم كمقدار ميل؛ حتى يتمنى بعض الناس الانصراف ولو إلى النار، فيتلفتون يميناً وشمالاً ليجدوا مخرجاً من هذا الهول العظيم، وهنا تتجلى حكمة الله تعالى في إنقاذ خلقه بإكرامه لمن أذن له بالشفاعة؛ الشفاعة العظمى التي خصها رسوله ﷺ، وسيأتي الحديث في ذلك مفصلاً.

والشفاعة في الآخرة تنقسم أولاً إلى قسمين:

١ - شفاعة ثابتة.

٢ - شفاعة منفية.

الشعاعات الثابتة، والشعاعات المنفية :

ذكر الله سبحانه وتعالى كثيراً من الآيات في إثبات الشفاعة، وتحقق وقوعها في يوم القيمة، بعد إذنه سبحانه وتعالى للشافع ورضاه عن المشفوع له، كما ذكر آيات أخرى تبني الشفاعة ووقوعها في يوم القيمة.

فهل هناك تعارض بين إثبات الشفاعة ونفيها - حسب ما تقدم من ظواهر الآيات؟

والجواب: أنه لا تعارض بينها، وستعرف أنه ليس هناك تعارض حقيقي، وإنما هو تعارض في الظاهر؛ إذ إن الآيات المبتهنة للشفاعة أثبتتها في مكان خاص ولجماعة خاصة، والآيات التي نفت الشفاعة نفتها في مكان خاص ولجماعة خاصة، كما سألي تفصيل ذلك.

أ- الآيات التي ذكرها الله تعالى لإثبات الشفاعة ووقوعها في يوم القيمة بعد إذنه تعالى ورضاه:

- ١- قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفُعُ عِنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
- ٢- وقال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣].
- ٣- وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيبِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنياء: ٢٨].
- ٤- وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قُولًا﴾ [طه: ١٠٩].
- ٥- وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].
- ٦- ﴿وَكَمْ مَنْ مَلِكٌ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

فقد أثبت الله تعالى في هذه الآيات وغيرها أنه يقبل الشفاعة إذا أذن في ذلك؛ وبالتالي فيها إثبات للشفاعة الخالية عن المowanع.

ب- وأما الآيات التي ذكرها سبحانه وتعالي في نفي الشفاعة وعدم وقوعها:

- ١ - قال تعالى : ﴿ وَأَنْتُوَا يَوْمًا لَا تَجِزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرَوْنَ ﴾ [البقرة: ٤٨].
- ٢ - قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعَثُ فِيهِ وَلَا حُلْلَةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].
- ٣ - قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].
- ٤ - قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سَيْرَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَرَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤].
- ٥ - قال تعالى : ﴿ وَذَرُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعَلًا وَلَهُمْ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسِلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبْسَلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٠].
- ٦ - قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١].
- ٧ - قال تعالى على لسان بعض عباده - وهو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ؛ لينصر قومه بهذه النصحيـة - : ﴿ أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِ شَفَاعَتِهِمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَذُونَ ﴾ [يس: ٢٣].
- ٨ - قال تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ نَحْنُ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ ﴾

شَيْنَا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

٩ - وقال تعالى : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

١٠ - وقال تعالى : ﴿فَمَا تَنْعَمُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

١١ - وقال تعالى : ﴿قُل ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلُكُونَ مُثْقَلَةً فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شُرَكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [٢٢] ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْهُ إِلَّا لِمَنْ أَذْنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فَرَغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

١٢ - وقال : ﴿وَلَقَدْ جَئَنُوكُمْ فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً وَتَرَكْنَاكُمْ مَا خَوَلَنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيْكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقْطَعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرْعَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ونكتفي بما تقدم لإبراده من الأدلة في إثبات الشفاعة وفي نفيها المذكورة في القرآن الكريم .

أما القسم الأول : وهي الشفاعات المشتبة :

فهي خاصة بمن كان على التوحيد الخالص ، وهي التي تطلب من الله تعالى وبأسبابها المعروفة ، وقد ذكر الله تعالى - كما في الآيات السابقة - أنها لا تتحقق إلا بتحقق شرطين :

الأول : رضاه عن المشفوع له ؛ لكونه من أهل التوحيد .

الثاني : إذنه للشافع أن يشفع .

أما الشرط الأول : فقد ذكره الله بقوله : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، ولا يرضي الله تعالى إلا من كان موحداً . ويدخل فيه العاصي إذا كان موحداً . قد رضي قوله وعمله ، لم يتخذ من دون الله شفعاء ، كما فعل المشركون الذين جعلوا مع الله شفعاء يتولون بهم إلى الله زلفى .

وأما الثاني : فقد ذكره الله تعالى بقوله : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يوحنا : ٣] ، أي فلا تحصل هذه الشفاعة إلا بعد إذن الله تعالى .

وقد جمع الله بين الإذن والرضى في آية واحدة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنِ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم : ٢٦] .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه : ١٠٩] ، فإذا أذن الله تعالى ورضي ؛ وقعت تلك الشفاعة ، وإلا لم تقع ولم يتقدم لطلبها أحد ، سواء أكان ملكاً مقرباً أم نبياً مرسلاً .

الشفاعة في الدنيا : يأتي الشافع إلى من يرجى منه النفع فيشفع دون إذن ذلك المرجو أو علمه ، فليس من شروط الشفاعة في الدنيا الإذن فيها ، بخلاف الشفاعة إلى الله تعالى ؛ فإنها لا تكون إلا بتحقق الشرطين السابقين ؛ كما دل عليه كتاب الله تعالى : إذن الله للشافع ، ورضاه عن المشفوع له .

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الشفاعة المنافية والمثبتة : «نفي الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفي أن يكون لغيره ملك ، أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله ، ولم يبق إلا الشفاعة ؛ فيبين أنها لا تنفع إلا من أذن له الرب ، كما قال : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي مرتقبة يوم القيمة، كما نفتها القرآن الكريم، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً. ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، واسأله تعط، واشفع تشفع.

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله، وحقيقة أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع؛ ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفتها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبتت الشفاعة بإذنه في موضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص^(١).

فمن أتى بالتوحيد كان قد أتى بالأسباب التي تجعله من أهل الشفاعة المثبتة، فإن سبب الشفاعة الأعظم هو كون الشخص من أهل التوحيد، وأما المشرك فليس له إليها سبيل، وأن الأنداد التي اتخذها من دون الله لا تفعه يوم القيمة؛ بل يكون أولئك الشفعاء الذين تعلق بهم المشركون عليهم لا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةَ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سـا: ٤٠، ٤١].

فلا شفاعة إذاً من الملائكة لهؤلاء الذين أشركوا مع الله، ولا يستحقون أن

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد ص ٢٨٨.

يكرّهم الله بقبول شفاعة أحد فيهم، فإن الله سبحانه هو الذي يتفضّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بقبوله للشفاعة فيهم، فالامر كله لا يشركه فيه أحد، ولا يملك أحد لأحد نفعاً إلا بإذن الله؛ بل لا يملك الخلق حتى مجرد الكلام بدون إذن الله. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفَّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [البأ: ٣٨].

أما القسم الثاني: وهي الشفاعات المنافية الشركية:

فالمراد بها الشفاعات التي «تطلب من غير الله أو بغير إذنه أو لأهل الشرك»^(١).

وهذه هي التي تعلق بها أهل الشرك، ورکنوا إلى آلهتهم؛ لتشفع لهم عند الله، ولتكون زلفى لهم إليه سبحانه وتعالى. وقد رد الله عليهم زعمهم هذا في آيات كثيرة، وقطع أطماعهم في شفاعة آلهتهم عنده.

ومن الأدلة على أنها شركية: أن طالبها من غير الله - تعالى وقدس -، وبغير أسبابها المعروفة، إن هذا الطالب قد شبّه الله - تعالى وقدس - بذوي السلطان من الناس الذين يحتجّبون غالباً عنهم، فيجهلون كثيراً من أمورهم، أو تصرّفهم عن قضاء حاجاتهم صوارف عديدة، فينصرف ذوو الحاجات إلى وزرائهم والمقربين إليهم ليشفعوا لهم، وعلى هذا فإن من اتخذ الشفاعة من دون الله؛ قياساً وتشبيهاً لله عز وجل بهؤلاء؛ فإنه قد كفر، ولأنه جهل الصفات الإلهية كصفات علم الله تعالى وإحاطته بخلقه، التي منها قوله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، وكونه عز وجل يعلم السر وأخفى، ويعلم سرهما وجههما وما يكتمنون.

(١) انظر: الكراشاف الجليلة ص ٣٥٢.

ويبن تعالى في كتابه الكريم أنه ليس هناك زلفى إلى الله إلا بالعمل الصالح، وأما ادعاؤهم تعظيم الله باتخاذ الوسطاء إليه؛ فإنه من الشرك الذي لم يأمر به، وليس عليه أي حجة إلا اتباع الظن.

وقد أخبر تعالى في كتابه الكريم عن الكفار الذين لا قوه على الكفر أنهم لا تفعهم شفاعة أحد يوم القيمة؛ لأن الشفاعة لا تكون إلا إذا كان الم Hull قابلاً، وهؤلاء ليسوا محلاً لقبول الشفاعة.

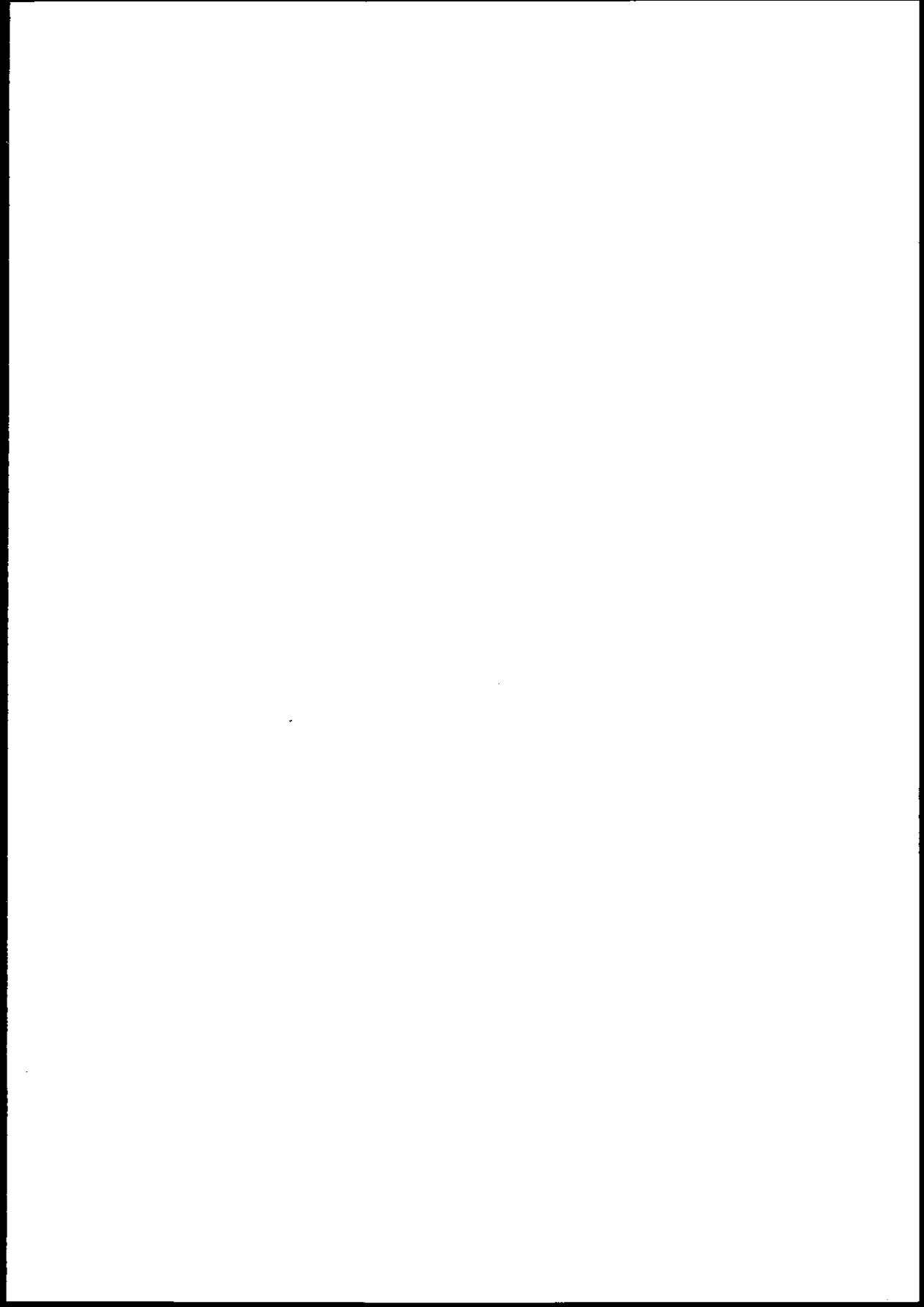
وما نقدم من الآيات التي فيها نص على الشفاعة كلها تفيد أن الشفاعة لله وحده ولمن ارتضى.





الفصل الثالث

أقسام الشفاعات الثابتة



الفصل الثالث

أقسام الشفاعات الثابتة

- ١ - الشفاعة العظمى .
- ٢ - الشفاعة في دخول المؤمنين الجنة .
- ٣ - الشفاعة لرفع درجات أهل الجنة .
- ٤ - الشفاعة لقوم استحقوا النار أن لا يدخلوها .
- ٥ - الشفاعة في أهل الكبائر .
- ٦ - شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه .
- ٧ - الشفاعة لأقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب .
- ٨ - شفاعة الرسول ﷺ لأهل المدينة المنورة .

ومن هذه الشفاعات ما هو خاص بالرسول ﷺ ، ومنها ما يكون له وللأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام ، ومنها ما يكون لخواص الخلق ، إلى غير ذلك مما سنذكر تفصيله .

وحيث إن الشفاعة لمن ذكرناهم ؛ فإن الشفاعة لأبي طالب ليست من غرض بحثنا ؛ لأن أبو طالب من أهل النار الذين استقروا فيها ، وليس لهم مصير غيرها .

وكذا الشفاعة في رفع درجات أهل الجنة ليست من غرضنا ؛ لأنها في

أقوام قد استقر مصيرهم، وإنما ذكرت هذا القسم من الشفاعة من باب التقسيم.

والواقع أن تلك الأقسام السابقة التي ذكرناها للشفاعة ليست من الأمور المتفق عليها بهذا التقسيم؛ بل إن العلماء قد اختلفوا في عد أنواع من الشفاعة مستقلة أو مندرجة مع غيرها. كما يتضح ذلك مما يلي :

فمثلاً هي عند ابن كثير ثمان شفاعات:

الشفاعة العظمى، وشفاعته عليه السلام في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها، وشفاعته عليه السلام في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، وشفاعته عليه السلام في دخول أقوام الجنة بغير حساب. وإن كان هذا النوع من الشفاعة قد تردد فيه، وإنما نقله عن القاضي عياض.

فهو يقول: «ولم أر لهذا شاهداً فيما علمت، ولم يذكر القاضي عياض فيما رأيت مستند ذلك، ثم تذكرت حديث عكاشه بن ممحصن حين دعا له الرسول عليه السلام أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب. والحديث مخرج في الصحيحين. كما تقدم، وهو يناسب هذا المقام»^(١).

وكذا شفاعته عليه السلام في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب، وشفاعته عليه السلام للمؤمنين الذين استحقوا دخول الجنة بدخولها، وأخيراً شفاعته عليه السلام في أهل الكبار من أمتة^(٢)، بينما هي عند ابن القيم ست شفاعات^(٣).

(١) النهاية ٢ / ٢٧٥، وانظر: ص ٢٦٩ إلى ص ٢٧٥.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد ص ٢٩٤.

ويذكر القرطبي «أن العلماء اختلفوا في شفاعاته عليه، وكم هي؟ فقال النقاش: لرسول الله عليه ثلات شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكبار.

وقال ابن عطية في تفسيره: والمشهور أنهم شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار، وهذه الشفاعة الثانية لا يندافعها الأنبياء؛ بل يشفعون ويشفع العلماء.

وقال القاضي عياض: شفاعات نبينا عليه يوم القيمة خمس شفاعات: فذكر الشفاعة العامة، وإدخال قوم الجنة بغير حساب، وشفاعته لقوم استوجبو النار بذنبهم أن يخرجوا منها، وشفاعته لأقوام آخرين استحقوا النار أن لا يدخلوها، وشفاعته عليه في زيادة رفع الدرجات في الجنة»^(١). وهكذا عند السفاريني^(٢).

ويمكن أن يقال في تلك الشفاعات بأن اعتبار كل نوع من أنواع الشفاعات -مستقلًا بنفسه أو مندرجًا تحت غيره من أنواع الشفاعات- إنما هو أمر اجتهادي؛ فبعض العلماء يعدد أنواعًا كثيرة، وبعضهم يدرج أنواع الشفاعات في بعضها.

وقد ذكر ابن حجر رحمة الله أنواعًا من الشفاعات، وذكر أن بعض تلك الشفاعات يمكن أن يندرج تحت بعضها الآخر؛ كما فعل حينما استطرد في بيان أنواع الشفاعات^(٣).

(١) انظر: التذكرة ص ٢٤٩.

(٢) لوامع الأنوار ص ٢١١-٢١٢، ج ٢.

(٣) فتح الباري / ١١ / ٤٢٨-٤٢٩.

وقد أفرد ابن حجر الشفاعة فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة، وأفرد كذلك الشفاعة فيمن قال لا إله إلا الله، ولم ي عمل خيراً فقط^(١).

وسوف نعقد لكل قسم من تلك الأقسام التي تقدمت للشفاعة فصلاً مستقلاً.

وما تجدر الإشارة إليه هنا: أن بحث الشفاعة وأقسامها قد استوفيته في مكان واحد؛ وذلك ليكون بحث الشفاعات مجموعاً مع بعضه في مكان واحد؛ لكي لا يتخلله ما ليس منه، كما لو فرقناه حسب الترتيب الزمني، فإن هذا وإن كان ممكناً، لكنه يفصل بحث الشفاعات عن بعضها.

فمثلاً الشفاعة العظمى يفصلها عن بقية الشفاعات أشياء أخرى من أمور القيمة؛ كمجيء الله لفصل القضاء، وما بعده من أمور وهكذا، فلو فرقناه حسب ترتيبه الزمني في يوم القيمة؛ لتفرق بحث الشفاعة.

وأول ما نبدأ به من بحث تلك الشفاعات، الشفاعة العظمى فنقول:

النوع الأول من أنواع الشفاعات المثبتة: الشفاعة العظمى :

نمهيد :

وفي هذا الموقف العظيم - الذي قدمنا الإشارة إليه - الناس في قلق شديد، وكرب عظيم، لا يدرؤن كيف يهتدون إلى الخلاص مما هم فيه؛ يلهم الله تعالى بعض عباده طلب الشفاعة من الرسل إلى الله تعالى لفصل القضاء وإراحتهم مما هم فيه.

فيتقدم هؤلاء لطلب الشفاعة، وسواء أكان هؤلاء المتقدمون هم من

(١) فتح الباري / ١١ - ٤٢٨ - ٨٢٩.

العلماء العاملين أم من رؤساء أتباع الرسل أم من سائر من في الموقف؛ فهم يتقدمون بذلك الطلب والإلحاح إلى الرسل، وأولهم آدم عليه السلام، ثم من بعده، وكل رسول يعتذر ويقول: «عليكم بفلان، فإنه كذا وكذا» يمدحه.

وهكذا إلى أن يتتهوا إلى محمد ﷺ، عند ذلك تبدأ الشفاعة وتبدا أولى علامات الانتهاء من كرب ذلك الموقف الرهيب، وهذا هو المقام المحمود الذي وعده به ربها، فيقول: أنا لها، أنا لها. وما ذلك إلا لأنه ﷺ يعلم أن الله قد وعده بها، والله لا يخلف الميعاد، ولم يقل ذلك اعتداداً بنفسه لما له عند الله أو تطاولاً، فهو أعلم الناس بربه وبما يليق به.

ثم يأتي ربه فيخر ساجداً تحت العرش، يحمد الله ويعظمه بـ«محمد يلهمه الله تعالى إياها إلهاماً في وقته، فلا يزال ساجداً حامداً ربه تعالى إلى أن يناديه المولى جلت قدرته: «ارفع رأسك، وسلم تعط، واسفع تشفع».

فيغبطه الأولون والآخرون، ويعلمون أنه أفضل البشر وأرفعهم درجة، والظاهر من ترددتهم على الأنبياء؛ أنه متتابع، وإن كان القرطبي قد ذكر أن بين إتيانهم آدم إلى نوح ألف عام، وكذا بين كلنبي إلى محمد ﷺ.

وذكر أن الذين يطلبون الشفاعة لدى الأنبياء هم العلماء العاملون الذين يجلسون على كراسٍ من نور، ثم عزا هذا القول إلى أبي حامد الغزالى، وذكر قوله آخر لابن برجان: أن الذين يلهمون طلب الشفاعة هم رؤوس المحشر، وهم رؤساء أتباع الرسل^(١).

وقد رد السفاريني رحمة الله على قول الغزالى -أن بين إتيان أهل الموقف

(١) انظر: التذكرة ص ٢٤٥ - ٣٢٣.

آدم وإتيانهم نوحاً ألف سنة، وكذا بين كلنبي ونبي. بأنه قول لا دليل عليه^(١).

وقد قال ابن حجر العسقلاني -رحمه الله- في هذا الموضوع: «لم أقف لذلك على أصل»، وقال أيضاً عما أورده الغزالى في كتابه كشف علوم الآخرة: «ولقد أكثر في هذا الكتاب من إيراد أحاديث لا أصول لها؛ فلا يغتر بشيء منها»^(٢).

وأمر الشفاعة العظمى معلوم لدى كل مسلم، يقول ابن كثير رحمه الله عند قوله ﷺ: «وأعطيت الشفاعة» يقول: «يعنى بذلك الشفاعة العظمى؛ وهي الأولى التي يشفع فيها عند الله عز وجل ليأتى لفصل القضاء، وهي التي يرحب إليها فيها الخلق كلهم، حتى الخليل إبراهيم وموسى الكليم وسائر النبيين والمرسلين، والمؤمنين، ويغبطه بها الأولون والآخرون، فهذه هي الشفاعة التي اختص بها دون غيره، فاما شفاعته في العصاة: فكما ثبتت له ثبتت لغيره من الأنبياء، وكذلك الملائكة وسائر المؤمنين»^(٣).

وقال السفاريني: «والشفاعات المختصة به ﷺ عدّة: أولها وأعظمها وأعمّها: شفاعته ﷺ لفصل القضاء بين الوري»^(٤). وقال أيضاً: «شفاعة النبي ﷺ نوع من السمعيات، وردت بها الآثار حتى بلغت مبلغ التواتر المعنوي، وانعقد عليها إجماع أهل الحق من السلف الصالح»^(٥).

(١) انظر: لوامع الأنوار ص ٢٠٨، ج ٢.

(٢) فتح الباري ١١ / ٤٣٤.

(٣) انظر: النهاية ٢ / ٢٦٩.

(٤)، (٥) لوامع الأنوار ٢ / ٢١١.

وذكر أن هذه الشفاعة مجمع عليها لا اختلاف فيها بين المسلمين، فقال: «لكن هذه الشفاعة العظمى مجمع عليها لم ينكرها أحد من يقول بالحشر؛ إذ هي للإراحة من طول الوقوف، حين يتمون الانصراف من موقفهم ذلك ولو إلى النار»^(١).

وحتى المعتزلة فإنهم يثبتون هذه الشفاعة في أهل الموقف، كما قال القاضي عياض- فيما ينقله عنه التزوبي- بقوله: «وهذه- أي شفاعته عَلَيْهِ السَّلَامُ- في رفع درجات أهل الجنة. لا ينكرها المعتزلة، ولا ينكرون أيضاً شفاعة الحشر الأول»^(٢).

وما يؤخذ على ابن أبي العز شارح الطحاوية رحمه الله: أنه عمم الحكم على المعتزلة في نفيهم لما عدا الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، ومعلوم أنهم لا ينفون الشفاعة العظمى، وهذا التعميم في قوله: «وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عدتها من المقامات؛ مع توادر الأحاديث فيها»^(٣).

وهذا التعميم لعله يصدق على طائفة من المعتزلة، كما يفيده كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله- عن الوعيدية من الخوارج والمعزلة- : «وأما الوعيدية من الخوارج والمعزلة فزعموا أن الشفاعة إنما هي للمؤمنين خاصة في رفع بعض الدرجات، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقاً»^(٤).

(١) لوام الأثار ص ٢٠٨.

(٢) انظر شرح التزوبي لسلم ١ / ٤٤٣.

(٣) انظر: شرح الطحاوية ص ٢٥٧.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى ١ / ٣١٤.

وإذا كانت الشفاعة العظمى خاصة به ﷺ، فلماذا لم يبادر إليه أهل الموقف ويطلبون منه التقدم لربه فيها من أول الأمر؟ أو ما السر في تأخيره ﷺ في الطلب؟

أجاب عن هذا السؤال السفاريني بقوله:

«وحكمة إلهام الناس التردد إلى غير النبي ﷺ قبله، ولم يلهموا المجيء إليه من أول وهلة؛ لإظهار فضله وشرفه ﷺ»^(١).

ويقول ابن حجر: «ولعل الله تعالى أنساهم ذلك -يعني المجيء إلى الرسول لطلب الشفاعة من أول وهلة- للحكمة التي تترتب عليه من إظهار فضل نبينا ﷺ»^(٢).

وفيما يلي ذكر أدلة تلك الشفاعة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

أ- الأدلة من القرآن الكريم على حصول الشفاعة العظمى :

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: «وَمِنَ اللَّيلِ فَهَجَدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَعْثُكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً» [الإسراء: ٧٩].

ولئن كان الخلاف قد اشتد بين العلماء في المراد بالمقام المحمود؛ إلا أن أغلب العلماء على اتفاق أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى، وعلى هذا فإن تلك الآية هي الدليل من القرآن الكريم على اختصاص نبينا ﷺ بالشفاعة العظمى، ونذكر فيما يلي -بإيجاز- إيضاح أقوال العلماء في المقام المحمود وهي :

(١) لوعظ الأنوار ٢/٢٠٨.

(٢) فتح الباري ١١/٤٤١.

ما هو المقام المحمود ؟

- ١- المقام المحمود هو الشفاعة العظمى .
- ٢- المقام المحمود هو إعطاؤه عليه الصلاة والسلام لواء الحمد يوم القيمة .
- ٣- المقام المحمود هو إخراجه طائفة من النار .
- ٤- المقام المحمود هو شفاعته رابع أربعة .
- ٥- هو أن يجلس الله تبارك وتعالى نيه محمداً عليه معه على كرسيه^(١) .
- ٦- المقام المحمود هوأخذ الرسول عليه بحلقة باب الجنة .
- ٧- هو أن النبي عليه يكون يوم القيمة بين الجبار وبين جبريل ؛ فيغبطه لمقامه ذلك أهل الجمع .

وفي بيان هذه الأقوال نذكر ما يلي :

أما القول الأول . وهو أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى - فإن أكثر العلماء قد رجحه ، كالطبرى ، وابن كثير ، والقرطبي ، وابن حجر ، وغيرهم من أهل العلم ، وهو القول الذى ينبغى اعتقاده ؛ لكثرة من رواه عن الصحابة من السلف .

وقد ذكر الطبرى منهم : حذيفة بن اليمان ، وابن عمر ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وسلمان ، وقادة .

ومن الأدلة التي تدل على أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى : ما ورد

(١) انظر : جامع البيان / ١٥ - ١٤٨ - ١٤٤ ، والتذكرة للقرطبي ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، وتفصي القرآن العظيم ٣ / ٣٣٩ و ٨ / ٣٩٩ ، وفتح الباري ٣ / ٥٥ - ٥٨ ، وفتاح الباري ٣ / ٣٣٩ و ٨ / ٣٩٩ .

من حديث ابن عمر رضي الله عنهمَا، و قال : « إن الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرْقَ نَصْفَ الْأَذْنِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغْاثُوا بِآدَمَ ثُمَّ بِمُوسَى ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ؛ فَيَشْفَعُ لِيَقْضِيَ بَيْنَ الْخَلْقِ؛ فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا يَحْمُدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلَّهُمْ »^(١).

و بما جاء عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله ﷺ في قوله : ﴿عَسَى أَنْ يَعْثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ و سئل عنها ؟ فقال : هي الشفاعة^(٢).

و بما جاء عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيمة، فـأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربِّي تبارك وتعالى حلَّةُ خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول؛ فـذاك المقام المحمود»^(٣).

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردوه، والبيهقي في شعب الإيمان، من طريق علي ابن حسن قال : أخبرني رجل من أهل العلم أن النبي ﷺ قال : « تمد الأرض يوم القيمة مد الأديم، ولا يكون لبشر منبني آدم فيها إلا موضع قدميه، ثم أدعى أول الناس، فآخر ساجداً ثم يؤذن لي فأقول: يا رب، أخبرني هذا لجبريل وجبريل عن يمين الرحمن، والله ما رأاه جبريل قبلها قط إنك أرسلته إلىِّي، وجبريل عليه السلام ساكت لا يتكلم حتى يقول رب: صدقت، ثم يؤذن لي في الشفاعة فأقول: أي رب، عبادك عبادوك في أطراف الأرض، فـذاك المقام المحمود»^(٤). قال ابن حجر :

(١) صحيح البخاري / ٣ / ٢٣٨.

(٢) سنن الترمذى / ٣ / ٤٥٦.

(٣) تفسير الطبرى / ١٥ / ١٤٦.

(٤) ذكره السيرطي في الدر المنشور / ٥ / ٣٢٥، وعزاه إلى من ذكر، وأخرجه ابن حجر ج ٥ ص ١٤٦ من تفسيره.

«ورجاله ثقات، وهو صحيح إن كان الرجل صحابياً»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن الناس يحشرون يوم القيمة فيجيء مع كلنبي أمنته، ثم يجيء رسول الله ﷺ في آخر الأم هو وأمنته فيرقى هو وأمنته على كوم فوق الناس فيقول: يا فلان، اشفع، ويا فلان، اشفع، فما زال يرددها بعضهم على بعض يرجع ذلك إليه وهو المقام المحمود الذي وعده الله إياه»^(٢).

وعن حذيفة قال: «يجمع الناس في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفة عراة كما خلقوها قياماً لا تكلم نفس إلا ياذنه ينادي: يا محمد، فيقول: لبيك وسعدتك والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهدى من هدى، عبده بين يديك وبك وإليك، لا ملجاً ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت. فهذا المقام الذي ذكره الله تعالى»^(٣).

ولعله لا تنافي بين تلك الأقوال، فهي متقاربة في المعنى؛ ذلك أن القول الثاني لا ينافي القول بأنه الشفاعة العظمى، فإن لواء الحمد يكون بيده، وهو كذلك أول شافع، وكذلك القول الثالث؛ فإن إخراج طائفة من النار بسببه مقام عظيم وشرف جليل، وأما القول الرابع، وهو شفاعته رابع أربعة، وكذلك القول الخامس أن الرسول ﷺ يجلس على كرسى الله تعالى، وكذلك القول السادس، وهو أنه أخذ الرسول ﷺ بحلقة باب الجنة، والقول السابع، وهو وقوفه ﷺ بين الجبار وجبريل؛ فلاشك أن كل ذلك يعتبر مقاماً مهماً، لكن

(١) فتح الباري / ٨ / ٤٠٠.

(٢) جامع البيان / ١٥ / ١٤٦.

(٣) جامع البيان ص ١٤٤.

الأكثرون على القول الأول.

ومعنى القول الرابع - وهو أن المقام المحمود هو شفاعة الرسول ﷺ رابع أربعة - معناه أن يسبق الرسول ﷺ ثلاثة فيشفعون، ثم يأتي ﷺ فيشفع فيكون ترتيبه الرابع، وإذا كان كذلك فمن هم الثلاثة الذين سبقوه بالشفاعة؟ يقول القرطبي عن جواب ذلك: «وذكر ابن السماك أبو عمرو عثمان بن أحمد قال: حدثنا يحيى بن جعفر بن الزبرقان قال: أخبرنا علي بن عاصم قال: حدثنا خالد الحذاء عن سلمة بن كهيل عن أبيه عن أبي الزعراء قال: قال عبد الله بن مسعود: يشفع نبيكم رابع أربعة: جبريل، ثم إبراهيم، ثم موسى أو عيسى، ثم نبيكم ﷺ، ثم الملائكة، ثم النبيون، ثم الصديقون، ثم الشهداء».

قال القرطبي: «قال المؤلف رحمه الله: وقيل: إن هذا هو المقام المحمود لنبينا ﷺ، خرجه أبو داود الطيالسي قال: حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه، عن أبي الزعراء، عن عبد الله قال: ثم يأذن الله عز وجل في الشفاعة فيقوم روح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام، ثم يقوم إبراهيم خليل الله ﷺ، ثم يقوم موسى أو عيسى عليهما السلام، قال أبو الزعراء: لا أدرى أيهما، قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً فيشفع لا يشفع لأحد بعده في أكثر مما يشفع وهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَى أَن يَعْثَلَ رَبُّكَ مَقَاماً مُحْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٩] (١)».

وأما القول الخامس؛ وهو أن يجلس الله تبارك وتعالى نبيه محمدًا ﷺ معه على كرسيه، فإن ابن جرير الطبرى - رحمه الله - قد ذكر كلاماً كثيراً حول

(١) انظر: التذكرة ص ٤١٣.

معنى هذا وتوجيهه، وهذا القول يحكي عن مجاهد. وفيه يقول ابن جرير: «إن ما قاله مجاهد من أن الله يقعد محمداً علي عرشه على عرشه قول غير مدفوع صحته لا من جهة خبر ولا نظر؛ وذلك لأنه لا خبر عن رسول الله عليه وآله وسantu ولا عن أحد من أصحابه ولا عن التابعين بإحالته ذلك».

ثم ذكر أن القائلين بذلك لا يقولون بمسافة الرسول عليه وآله وسantu ولا العرش والكرسي لله سبحانه وتعالى فسواء أقعد محمداً علي عرشه على الكرسي أو على الأرض فهو غير مimas له، وبعضهم ذهب إلى أن الله تعالى - وإن كان ماماً للعرش باستواءه عليه لكن جلوس الرسول عليه وآله وسantu معه ليس موجباً له صفة الربوبية، ولا مخرجه من صفة العبودية لربه^(١).

وقد أعرض بعض العلماء عن ذكر هذا القول، بل وقال فيه بعضهم - وهو القرطبي - : «إنه قول مرغوب عنه»، قال: «وإن صاح الحديث - أي الحديث الذي استدل به الطائفة التي قالت هذا القول - فيتاول على أنه يجلسه مع أنبيائه وملائكته».

ثم استشهد القرطبي بقول ابن عبد البر في مجاهد - الذي نسب إليه هذا القول - وهو قوله: «ومجاهد وإن كان أحد الأئمة في تأويل القرآن، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم؛ أحدهما هذا، والثاني في تأويل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر الثواب وليس من النظر»^(٢).

وأما القول السادس؛ فقد استدل القائلون به بحديث ابن عمر السابق:

(١) انظر: جامع البيان ١٥ / ١٤٧، ١٤٨.

(٢) التذكرة ص ٣٠٠.

«فيسفع ليقضي بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاماً مهوماً يحمده أهل الجمع كلهم»^(١).

وأما القول السابع؛ فيستدل له بما رواه ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن أبي هلال، أنه بلغه أن المقام المحمود الذي ذكره الله أن النبي ﷺ يكون يوم القيمة بين الجبار وبين جبريل، فيعطيه لقامة ذلك أهل الجمع، قال ابن حجر: ورجاه ثقات لكنه مرسل^(٢).

ومهما كثرت الأقوال في بيان المقام المحمود، فإن القول بأنه الشفاعة العامة لإراحة الناس من كرب الموقف يبقى هو الأقوى.

ب - الأدلة من السنة على ثبوت الشفاعة العظمى لنبينا محمد ﷺ :

ووردت في السنة النبوية عدة أحاديث في إثبات الشفاعة العظمى التي أكرم الله بها نبيه محمداً ﷺ، حيث يلبي طلبه فيأتي تبارك وتعالى لفصل القضاء في أهل الموقف، ومن تلك الأدلة ما يلي :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسة، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيمة، وهل تدرؤن مِّمْ ذلك؟ يجمع الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد؛ يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر^(٣) ، وتذنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: الا ترون ما قد بلغكم، الا تنتظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟

(١) فتح الباري ٣ / ٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) المصدر السابق ٨ / ٤٠٠.

(٣) أي يحيط بهم الرائي؛ لا يخفى عليه منهم شيء لا سوا الأرض.

فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بأدم، فيأتون أدم عليه السلام؛ فيقولون له: أنت أبو البشر؛ خلق الله بيده ونفع فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، لا ترى إلى ما نحن فيه؟ لا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول أدم: إن رببي قد غضباليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، لا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن رببي عز وجل قد غضباليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة؛ دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنتنبي الله، وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، لا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن رببي قد غضباليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنني قد كنت كذبت ثلاث كذبات. فذكرهن أبو حيان^(١) في الحديث. نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، لا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن رببي قد غضباليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنني قد قتلت نفسيًا لم أوْزِرْ بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله عليه السلام، وكلمته ألقاها إلى مريم،

(١) هو أحد رواة الحديث.

وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبياً، اشفع لنا، لا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، لا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فاتي تحت العرش، فاقع ساجداً لربِّي عز وجل، ثم يفتح الله علىَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك وسل تعطه واسفع تشفع، فأرفع رأسي فاقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو كما بين مكة وبصرى^(١).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله المؤمنين يوم القيمة، فيهتمون لذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أما ترى الناس؟ خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمه أسماء كل شيء، اشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناك، ويدرك لهم خطيبته التي أصاب، ولكن اتوا نوحًا؛ فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

فيأتون نوحًا فيقول: لست هناك، ويدرك خطيبته التي أصاب، ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن.

فيأتون إبراهيم فيقول: لست هناك، ويدرك لهم خططيه التي أصابها، ولكن اتوا

(١) البخاري ٨ / ٣٩٥، وأخرجه مسلم ١ / ٤٦٩.

موس عبده، آتاه الله التوراة وكلمه تكليماً.

فيأتون موسى فيقول: لست هناك، ويدرك لهم خطيبته التي أصابها، ولكن اتوا عيسى عبد الله رسوله وكلمه وروحه.

فيأتون عيسى فيقول: لست هناك، ولكن اتوا محمداً عليه عبده غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فيأتوني، فأنطلق فأستاذن على ربي، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، قل يسمع وسل تعطه، واسفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً، فادخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واسفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً، فادخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع وسل تعطه واسفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً، فادخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبس القرآن ووجب عليه الخلود.

فقال النبي عليه: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة^(١).

وقال البخاري رحمه الله: «حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن

(١) البخاري ١١ / ٣٩٢، وأخرجه أيضاً في ص ٤٢٢ بعض الزيادات، وفيه قول قتادة: وهذا المقام المحمود الذي وعده نيكم رسول الله ، وأخرجه كذلك في ج ١١ ص ٤١٧ ، وأخرجه مسلم ٤٥٩ / ١.

زيد، حدثنا عبد بن هلال العنزي قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معنا ثابت البغدادي إلينه يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلى الضحى، فاستأذنا فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تأسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة.

فقال: حدثنا محمد عليه السلام قال: إذا كان يوم القيمة ماج الناس في بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربكم، فيقول: لست لها ولكن عليكم ببابراهيم؛ فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى؛ فإنه كليم الله، فيأتون موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد عليه السلام.

فيأتونني فأقول: أنا لها، فاستأذن على ربى فيؤذن لي ويلهمني محمد أحمده بها لا يحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واسفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتى أمتى، فيقال: انطلق فآخر منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واسفع تشفع.

فأقول: يا رب، أمتى، فيقال: انطلق فآخر منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردة من إيمان، فأنطلق فأفعل ثم أعود، فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واسفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتى أمتى، فيقال: انطلق فآخر من كان في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، فآخر جهنم من النار، فأنطلق فأفعل.

فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن وهو متواز في منزل أبي خليفة فحدثنا بما حدثنا أنس بن مالك، فأتبيناه فسلمنا عليه فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة، فقال: هي، فحدثناه بالحديث فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هي، فقلنا: فلم يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثنا وهو جميع من عشرين سنة، فلا أدرى أنسى أم كره أن تتكلوا.

فقلنا: يا أبا سعيد؛ فحدثناه، فصححه وقال: خلق الإنسان عجولاً، ما ذكرته إلا وأنا أريد أحذنك به، حديثي كما حدثكم به قال: ثم أعود الرابعة فأحمدك بذلك المحامد ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واسفع تشفع، فاقول: يا رب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكيرياني وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله،^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيمة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع».^(٢)

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيمة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيمة ولا فخر».^(٣)

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم

(١) البخاري ١٣ / ٤٧٣، ومسلم ١ / ٤٦٥.

(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٣٦.

(٣) ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٤٠، وبنحوه أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٢١ عن أبي هريرة، ولم يذكر لواء الحمد.

وأخرجه الترمذى ج ٥ ص ٥٨٧ عن أبي سعيد بزيادة: «وما من نبي يومئذ ألم فعن سواه إلا تحت لوانى».

فصلى الغداة ثم جلس، حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله ﷺ ، ثم جلس مكانه حتى صلى الأولى والعصر والمغرب، كل ذلك لا يتكلّم، حتى صلى العشاء الآخرة، ثم قام إلى أهله، فقال الناس لأبي بكر: ألا تسأل رسول الله ﷺ ما شأنه؟ صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط ، قال: فسأله فقال:

نعم، عرض على ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد، ففطع الناس بذلك حتى انطلقو إلى آدم عليه السلام، والعرق يكاد يلجمهم، فقالوا: يا آدم، أنت أبو البشر، وأنت اصطفاك الله عز وجل، اشفع لنا إلى ربك، قال: لقد لقيت مثل الذي لقيتكم، انطلقو إلى أبيكم بعد أبيكم؛ إلى نوح، إن الله اصطفى آدم ونوحًا وأل إبراهيم وأل عمران على العالمين.

قال: فينطلقو إلى نوح عليه السلام، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك فأنت اصطفاك الله واستجاب لك في دعائك، ولم يدع على الأرض من الكافررين دياراً، في يقول: ليس ذاكم عندي، انطلقو إلى إبراهيم عليه السلام، فإن الله عز وجل اتخذه خليلاً.

فينطلقو إلى إبراهيم فيقول: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقو إلى موسى عليه السلام، فإن الله عز وجل كلمه تكليماً.

فيقول موسى عليه السلام: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقو إلى عيسى بن مريم، فإنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى.

فيقول عيسى: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقو إلى سيد ولد آدم، فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيمة، انطلقو إلى محمد ﷺ فيشفع لكم إلى ربكم عز وجل.

قال: فينطلق، فيأتي جبريل عليه السلام ربه، فيقول الله عز وجل: اثذن له وبشره بالجنة، قال: فينطلق به جبريل فيخر ساجداً قدر جمعة، ويقول الله عز وجل: ارفع رأسك يا محمد، وقل يسمع، واسفع تشفع، قال: فيرفع رأسه، فإذا نظر

إلى ربه عز وجل، فخر ساجداً قدر جمعة أخرى، فيقول الله عز وجل: ارفع رأسك، وقل يسمع، واسمع تشفع، قال: فيذهب ليقع ساجداً فإذا خذ جبريل عليه السلام بضبعيه، فيفتح الله عز وجل عليه من الدعاء شيئاً لم يفتحه على بشر قط، فيقول: أي رب، خلقتني سيد ولد آدم ولا فخر، وأور من تنشق عنه الأرض يوم القيمة ولا فخر، حتى إنه ليرد على العوض أكثر مما بين صناعه وأيله، ثم يقال: ادعوا الصديقين فيسفعون، ثم يقال: ادعوا الأنبياء.

قال: فيجيء النبي ﷺ ومعه العصابة، والنبي ومعه الخمسة والستة، والنبي وليس معه أحد، ثم يقال: ادعوا الشهداء فيسفعون لمن أرادوا، وقال: فإذا فعلت الشهداء ذلك، قال: يقول الله عز وجل: أنا أرحم الراحمين، أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئاً، قال: فيدخلون الجنة، قال: ثم يقول الله عز وجل: انظروا في النار، هل تلقون من أحد عمل خيراً فقط؟ قال: فيجدون في النار رجلاً، فيقول له: هل عملت خيراً فقط؟ فيقول: لا، غير أنني كنت أسامح الناس في البيع والشراء، فيقول الله عز وجل: اسمحوا العبد كاسماحه إلى عبدي.

ثم يخرجون من النار رجلاً فيقول له: هل عملت خيراً فقط؟ فيقول: لا، غير أنني قد أمرت ولدي إذا مات فأحرقوني بالنار ثم اطحوني، حتى إذا كنت مثل الكحل فاذهبوا بي إلى البحر فاذدروني في الريح، فوالله لا يقدر على رب العالمين أبداً، فقال الله عز وجل: لم فعلت ذلك؟ قال: من مخالفتك، قال: فيقول الله عز وجل: انظر إلى ملك أعظم ملك، فإن لك مثله وعشرة أمثاله. قال: فيقول: لم تسخر بي وأنت الملك؟ قال: وذاك الذي ضحك منه الضحى^(١).

ونكتفي بما تقدم ذكره من عرض أحاديث الشفاعة العظمى الخاصة بنبينا محمد ﷺ؛ لأن الأحاديث فيها كثيرة، ثم هي من القضايا المسلمة لدى كل مسلم.

وقد وردت بعض الإشكالات في أحاديث الشفاعة العظمى وهي :

١ - الإشكال الأول :

أن أحاديث الشفاعة العظمى قد جاءت على أشكال مختلفة، وذلك أن أولها يذكر الشفاعة العظمى لراحة الناس من هول الموقف بنزل الله تعالى لفصل القضاء، وأخرها يذكر الشفاعة لإخراج أقوام من النار.

وهذا هو السبب الذي جعل بعض الرواة لا يذكرون الشفاعة العظمى في أهل الموقف في نزول الله لفصل القضاء فيما بينهم، بل يأخذون بعد سرد أحاديثها في الرد على الخوارج وغيرهم من ينكر إخراج عصاة المؤمنين من النار، ومعلوم أن الشفاعة العظمى إنما هي لراحة الناس من الموقف، لا لإخراجهم من النار؛ لأنهم لم يدخلوها بعد، وإنما هم في الموقف ينتظرون نزول الله تعالى لفصل القضاء بينهم.

وقد تعجب العلامة ابن أبي العز أشد العجب من أغفل الكلام عن الشفاعة العظمى، ولم يأخذ من أحاديثها إلا إثبات شفاعة الرسول ﷺ في إخراج طائفة دخلوا النار أن يخرجوا منها، كما في قوله: «والعجب كل العجب من إبراد الأئمة لهذا الحديث. من أكثر طرقه. لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى في مأتمي الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، كما ورد هذا في حديث الصور^(١) ، فإنه المقصود في هذا المقام، ومقتضى سياق أول الحديث.

فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى الجزء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار،

(١) حديث الصور حديث طويل ذكره ابن كثير في النهاية ١ / ٢١٤ . وقد أحترجه الطبرى في تفسيره ج ٢ ص ٣٣٠ ، وسيأتي الكلام عنه.

وكان مقصود السلف في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث هو الرد على الخوارج، ومن تابعهم من المعتزلة الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث^(١).

وإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف صار الحديث في الشفاعة العظمى مشتملاً على الشفاعة في إخراج عصاة المؤمنين من النار وهم متغايرون؟

وهذا الاستشكال أثاره الداودي كما ينقل عنه ابن حجر ذلك، حيث شرح قوله في الحديث: «ثم أخرجهم من النار»، فقال: «قال الداودي: لأن راوي هذا الحديث ركب شيئاً على غير أصله، وذلك أن في أول الحديث ذكر الشفاعة في الإرادة من كرب الموقف، وفي آخره ذكر الشفاعة في الإخراج من النار، يعني بذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف، والمرور على الصراط، وسقوطه من يسقط في تلك الحالة في النار، ثم يقع بعد ذلك الشفاعة في الإخراج». قال ابن حجر: وهو إشكال قوي».

ثم ذكر الإجابة عن هذا الإشكال بجواب عياض والنووي وغيرهما « بأنه قد وقع في حديث حذيفة المقرن بحديث أبي هريرة بعد قوله: فإذا تون محمدًا فيقوم ويؤذن له. أي في الشفاعة. وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبي الصراط يعينا وشعلاء، فيصر أولكم كالبرق». الحديث.

قال عياض: فبهذا يتصل الكلام؛ لأن الشفاعة التي جأ الناس إليه فيها هي الإرادة من كرب الموقف، ثم تجيء الشفاعة في الإخراج، وقد وقع في حديث أبي هريرة - يعني الأثر في الباب الذي يليه - بعد ذكر الجمع في الموقف.

(١) شرح الطحاوية ص ٢٥٥.

الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه، فكان الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف، قال: وبهذا تجتمع متون الأحاديث وتترتب معاناتها».

وعزا ابن حجر هذا الاختلاف في وقائع الشفاعة العظمى إلى الرواية بقوله: «قلت: فكأن بعض الرواية حفظ مالم يحفظ الآخر»^(١).

قال ابن حجر: «فظهر منه أنه عليه أول ما يشفع ليقضى بين الخلق، وأن الشفاعة فيمن يخرج من النار من سقط تقع بعد ذلك»^(٢).

وقد جاء من طريق حمزة بن عبد الله بن عمر عن أبيه بلفظ: «إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبینا هم كذلك استغاثوا بأدم، ثم بموس، ثم بمحمد عليه؛ فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، في يوم من ذي يبعثة الله مقاماً ممدوّاً يحمده أهل الجمع كلهم»^(٣).

قال ابن حجر: «وتعرض الطبي للجواب عن الإشكال بطريق آخر فقال: يجوز أن يراد بالنار الحبس والكرب والشدة التي كان أهل الموقف فيها، من دنو الشمس إلى رؤوسهم، وكربهم بحرها وسفعها، حتى الجحيم العرق، وأن يراد بالخروج منها خلاصهم من تلك الحالة التي كانوا فيها».

وهذا تأويل لا يتبارى إلى الفهم من نص الحديث، ولهذا فإن ابن حجر لم يوافق على هذا الجواب من الطبي، ووصفه بأنه: «احتمال بعيد».

(١)، (٢) فتح الباري / ١١ / ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٣) صحيح البخاري / ٣ / ٣٣٨.

«إلا أن يقال: إنه يقع إخراجان؛ وقع ذكر أحدهما في حديث الباب على اختلاف طرقه، والمراد به الخلاص من كرب الموقف.

والثاني في حديث الباب الذي يليه، ويكون قوله فيه: «فيقول: من كان بعد شيئاً فليتبعه»، بعد تمام الخلاص من الموقف، ونصب الصراط، والإذن في المرور عليه، ويقع الإخراج الثاني لمن يسقط في النار حال المرور فيتحدا»^(١).

٤ - الإشكال الثاني :

وما يستشكل كذلك في أحاديث الشفاعة العامة؛ قول الرسول ﷺ .
حينما قيل له: «ارفع رأسك وقل يسمع وافشع تشفع». : «أمتى أمتى»، إذ إن المقام يقتضي أن يكون طلب الشفاعة عاماً لجميع الخلق دون أن يخص أمته بذلك، وهو يطلب الشفاعة لإراحة الخلق من كرب الموقف وفصل القضاء بينهم.

وقد أجيب عن ذلك :

- ١ - بأنه لعل هذه اللفظة غير واردة في الحديث، وهذا على سبيل الظن.
- ٢ - أن هذه اللفظة ليست من نص الحديث؛ بل هي زيادة خارجة عنه على سبيل الجزم، ولكن ابن حجر العسقلاني لم يرتض هذا الجواب؛ لأن الحديث متصل بهذا السياق.
- ٣ - وبعضهم أجاب بأن السياق من أول الحديث يتنهى عند قوله: «فاستاذن على ربي فيؤذن لي، أي في الشفاعة العامة، وقوله بعد ذلك: «ويلهمتي محامد، إلى آخر الحديث كلاماً مستأنفاً.

(١) فتح الباري ١١ / ٤٣٨.

وفيما يلي نص كلام ابن حجر ونقله عن العلماء إجاباتهم عن هذا الإشكال:

قال ابن حجر: «فأقول أمتى أمتى»، قال الداودي: «لا أراه محفوظاً؛ لأن الخلائق اجتمعوا واستشفعوا، ولو كان المراد بهذه الأمة خاصة؛ لم تذهب إلى غير نبيها، فدل على أن المراد الجميع، وإذا كانت الشفاعة لهم في فصل القضاء؛ فكيف يخصها بقوله: «أمتى أمتى»؟ ثم قال: وأول هذا الحديث ليس متصلة بأخره، بل بقي بين طلبهم الشفاعة وبين قوله: «فأشفع، أمور كثيرة من أمور القيمة».

قلت: وقد بينت الجواب عن هذا الإشكال عند شرح الحديث بما يعني عن إعادته هنا^(١).

وقد أجاب عنه القاضي عياض بأن معنى الكلام: فيؤذن له في الشفاعة الموعود بها في فصل القضاء، وقوله: «ويلهمني»، ابتداء كلام آخر، وبيان للشفاعة الأخرى الخاصة بأمته، وفي السياق اختصار.

وادعى المهلب أن قوله: «فأقول: يارب أمتى»، مما زاد سليمان بن حرب على سائر الرواة، كذا قال، وهو اجتراء على القول بالظن الذي لا يستند إلى دليل؛ فإن سليمان بن حرب لم ينفرد بهذه الزيادة؛ بل رواها معه سعيد بن منصور عند مسلم، وكذلك أبو الربيع الزهراني عند مسلم، والإسماعيلي - ولم يسوق مسلم لفظه -. ويحيى بن حبيب بن عدي عند النسائي في التفسير، ومحمد بن عبيد بن حساب، ومحمد بن سليمان. كلها عند الإسماعيلي.

(١) لعله يشير إلى ما سبق من قوله: «فكأن بعض الرواة حفظ مالم يحفظ الآخر».

كلهم عن حماد بن زيد شيخ سليمان بن حرب فيه بهذه الزيادة، وكذا وقعت هذه الزيادة في هذا الموضع من حديث الشفاعة في رواية أبي هريرة الماضية في كتاب الرقاق، وبالله التوفيق»^(١).

وأخيراً، وبعد عرض ما تقدم، فإنه يتضح من بحث الشفاعة العظمى أنها تتلخص فيما يلي:

- ١ - أنها أولى الشفاعات.
- ٢ - أنها خاصة بنبينا محمد ﷺ.
- ٣ - أنه لم يخالف فيها أحد من يقول بالحشر.
- ٤ - أنها تكون خلاص الناس مما هم فيه من كرب الموقف بنزول الله تعالى لفصل القضاء.
- ٥ - أنها هي المقام المحمود.
- ٦ - أنها قد رواها عدد كثير من الصحابة.
- ٧ - أن بعض الرواية أغفلتها بتحويل أنظارهم إلى الشفاعة لإخراج أقوام من النار دون التركيز على الشفاعة العامة.
- ٨ - أن الرسول ﷺ قد تحدث بأحاديث الشفاعة في مناسبات عديدة، وكل مناسبة يحضرها من لم يكن حضر في المناسبة التي قبلها، ولا بد أن يحصل نوع اختلاف في أشكال الشفاعة، فيحدث كل شخص بما سمعه؛ فحصل فيها الاختلاف.

(١) فتح الباري ١٣ / ٤٧٦.

٩ - أو لعل ذلك يرجع إلى الرواية أنفسهم؛ بحيث إنهم يختلفون في الحفظ، فلابد أن يختلف ذكر وقائع أحاديث الشفاعة؛ لأن كل راو حفظ ماله بحفظه الآخر، كما ذكر ابن حجر^(١).

١٠ - يؤخذ من مجموع تلك الروايات والواقع المختلفة: أن شفاعة خاصة للرسول ﷺ، ستقع في يوم القيمة لفصل القضاء، وهي أولى الشفاعات، والمقام المحمود الذي وعد به نبينا محمد ﷺ كما تقدم.

٢ - الشفاعة لأناس قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها :

يذكر كثير من العلماء أن هذا النوع من الشفاعة ثابت لنبينا محمد ﷺ، كباقي الشفاعات الثابتة الأخرى.

وهي في أقوام قد استحقوا النار بأعمالهم أن لا يدخلوها، ولكن العلماء وهم يقررون ثبوت هذه الشفاعة لم يذكروا لها دليلاً ثابتاً لوقوعها، غير أن تضافرهم على ذكرها يوحى بأن لها دليلاً استندوا إليه في إثباتها لم يذكروه، وهذا الاستئناس هو ما يستند إليه القائل بإثبات هذه الشفاعة.

فمن أقوالهم في إثباتها :

١ - قال النووي رحمة الله في تعداده لأنواع الشفاعات: «الثالثة: الشفاعة لقوم استوجبو النار، فيشفع فيهم نبينا محمد ﷺ ومن شاء الله تعالى»^(٢).

٢ - وقال القرطبي نقلأً عن القاضي عياض: «الثالثة: في قوم من أمته استوجبو النار بذنوبهم، فيشفع فيهم نبينا محمد ﷺ ومن شاء أن يشفع،

(١) فتح الباري / ١١ / ٤٣٨.

(٢) شرح النووي لسلم / ١ / ٤٤٣.

ويدخلون الجنة»^(١).

٣ - وقال السفاريني : «ثالثها: شفاعته عليه السلام في قوم استوجبوا النار بأعمالهم، فيشفع فيهم؛ فلا يدخلونها»^(٢).

ويقول ابن أبي العز : «النوع الثاني والثالث من الشفاعة: شفاعته عليه السلام في أقوام قد تساوت حسانتهم وسيئتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها»^(٣).

ولكونه لم يرد في هذه الشفاعة نص صريح في إثباتها لأناس استحقوا النار أن لا يدخلوها؛ فقد كانت محل توقف عند بعض العلماء.

فالإمام ابن القيم رحمه الله تعالى - فيما ينقله عنه صاحب عون المعبود - يذكر أن نوعين من الشفاعة لم يجد فيما نصاً عن المصطفى عليه السلام إلا ذكر الناس لها، وأنه لم يقف لهما على دليل ثابت، وهما الشفاعة فيمن استوجب النار أن لا يدخلها، والشفاعة لقوم في زيادة ثوابهم، وذلك في قوله : «وبيقى نوعان يذكرهما كثير من الناس :

أحدهما : في قوم استوجبوا النار، فيشفع فيهم أن لا يدخلوها، وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه، وأكثر الأحاديث صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار، وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول؛ فلا يدخلون؛ فلم أظفر فيه بنص»^(٤).

(١) التذكرة ص ٣٠١.

(٢) لوامع الأنوار ٢/ ٢١١.

(٣) شرح الطحاوية ص ٢٥٧.

(٤) عون المعبود ١٣ / ٧٧.

وقد ذكر الإمام ابن حجر أن دليل هذا النوع من الشفاعة ما جاء في حديث حذيفة عند مسلم وفيه: «ونبِّيُّكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّنَا مُسْلِمٌ»^(١).

ويعنى هذا أن دعاء الرسول ﷺ على الصراط - بقوله: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ» - هو شفاعة لمن هو مستحق للنار وشاء الله أن ينفعه هذا الدعاء، أما من شاء الله أن يدخلها من عصاة المؤمنين فإنه تنفعه الشفاعة الأخرى، وهي الشفاعة في الإخراج من النار التي تواترت بها النصوص.

وقد ورد أن الناس - في مرورهم على الصراط - منهم من يسقط في النار، ومنهم من يمر عليه كالبرق، ومنهم من يمر عليه كالريح، ومنهم من يمر عليه كأجaoيد الخيل؛ كما سنين هذا إن شاء الله في مبحث الصراط.

ومع ما تقدم، فإنه لا يزال بعض الغموض باقياً حول الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت تلك الشفاعة، ولم يصرح بذلك هذه الشفاعة مرفوعة إلى الرسول ﷺ إلا الحافظ ابن أبي الدنيا في كتابه «الأهواز». كما عزاه إليه ابن كثير - في الحديث الآتي :

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنْصَبُ لِلْأَنْبِيَاءِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَنَابِرٌ مِّنْ ذَهَبٍ فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا، قَالَ: وَيَبْقَى مِنْهُ يَرِي لَا يَجْلِسُ عَلَيْهِ، قَاتِلًا بَنِي إِبْرِهِيلَةَ عَزَّ وَجَلَ مُنْتَصِبًا؛ مُخَافَةً أَنْ يُبَعْثَثَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَتَبَقَّى أُمَّتِي بَعْدِي، فَاقُولُ: يَارَبِّ أُمَّتِي، فَيَقُولُ اللَّهُ: يَا مُحَمَّدُ، وَمَا تَرِيدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأُمَّتِكَ؟ فَاقُولُ: يَارَبِّ عَجْلٍ حَسَابِهِمْ، فَيَدْعُسُ بَيْهِمْ فِي حَاسِبَوْنَ، فَمَنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ بِشَفَاعَتِي، وَمَا أَرَأَى أَشَفَعَ حَتَّى أَعْطَى فَكَائِنًا. وَفِي رَوَايَةِ صَكَائِنَةَ بْنِ جَالِيَّةَ قَدْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْهِمْ إِلَى النَّارِ، حَتَّى

(١) فتح الباري ١١ / ٤٢٨، والحديث آخر جمه مسلم ١ / ٤٧٥.

إن مالكًا، خازن جهنم. ليقول: يا محمد، ما تركت لغضب ربك لأمتك من نعمة^(١).

فهذا الحديث صريح في هذا النوع من الشفاعة. لو صح، لكن الحديث فيه علة من جهة السنّد، فقد ضعف من قبل أحد الرواة، وهو محمد بن ثابت البناي البصري؛ الذي تكلم عليه العلماء بالتجريح، يقول فيه ابن حجر: «محمد بن ثابت بن أسلم البناي البصري ضعيف»^(٢).

وذكر ابن كثير حديثاً آخر عزاه إلى ابن مردوه من طريق بقية عن إسماعيل بن عبد الله الكندي عن الأعمش عن سفيان عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «فِيْؤَفَّهُمْ أَجُورُهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» [النساء: ١٧٣]، «أَجُورُهُمْ» قال: أدخلهم الجنة، «وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» قال: الشفاعة فيمن وجبت له النار من صنع إليهم المعروف في دنياهم».

ولكنه ذكر أن إسناده لا يثبت، وأنه إذا روي عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد^(٣).

ومما تقدم يتضح أنه ليس هناك نص قاطع يعتمد عليه في إثباتها غير ما اشتهر عند العلماء من ذكرها، وعددها نوعاً من أنواع الشفاعات الثابتة.

(١) النهاية لابن كثير ٢/٢٧١ حيث يعزره إلى ابن أبي الدنيا في كتاب الأحوال، ولم أجده هذا الكتاب، وقد ذكره أيضاً المنذري في الترغيب والترهيب، وعزاه إلى الطبراني والبيهقي، ثم قال: وليس في إسنادهما من متروك.

(٢) تقرير التهذيب ٢/١٤٨.

ولعل الصحيح أن هذا القدح في محمد بن ثابت البناي لا يتم الاستدلال به على رد الحديث المذكور، وذلك لعدم اتهام الراوي المذكور بالكذب والوضع، ولأخذ أهل العلم عنه وأخذه عنهم، وعلى هذا فإن النفس تميل إلى عدم رد هذا الحديث لاسيما أن منه شبيه في جزاته وأسلوبه ومعانيه بالأحاديث النبوية الكثيرة الصحيحة التي لا تشبه الأساليب العادمة.

(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٩٢.

وقد وقع الخلاف بين المثبتين لها في اختصاص الرسول ﷺ بها أو عدم اختصاصه بها على رأيين متقابلين.

وبسبب ذلك هو عدم وجود نص يقطع ذلك الخلاف، وحاصل الخلاف أنه: جزم القاضي وأبن السبكي بعدم اختصاصها به ﷺ، وتعدد النموذج في ذلك ، قال السبكي : لأنه لم يرد نص صريح بثبوت الاختصاص ولا بتنفيذه .
قال السفاريني : «وجزم في «الأنموذج»^(١) بأنها من خصائصه ﷺ»^(٢) .

أما من ناحية وقوع هذا النوع من الشفاعات : فإن المعتزلة قد نفواها ، وبالغوا في الإنكار على من يعتقدها .

فإذا كانوا ينفون الشفاعة في إخراج قوم دخلوا النار أن يخرجوا منها مع ورود النصوص الصريحة فيها ؛ فكيف الحال بهذا النوع من الشفاعة التي خفي دليلها .

٣- الشفاعة في أهل الكبار :

تمهيد :

الشفاعة في أهل الكبار من أهم مواضيع بحث الشفاعة ، وقد اشتد النزاع في إثباتها وعدم إثباتها بين الفرق الإسلامية ؛ فأهل السنة والجماعة في جانب ، وغيرهم من أهل البدع في جانب آخر .

ويتمثل ذلك الخلاف في هذا السؤال : «هل لأهل الكبار»^(٣) الذين دخلوا

(١) للقرطبي .

(٢) لوامع الأنوار ٢ / ٢١١ .

(٣) ومعلوم أنهم من أهل الترجيد .

النار بذنبهم شفاعة فيخرجون منها؟ أو ليست لهم شفاعة بحيث إن من دخلها لا يخرج منها أبداً؟

تفصيل الكلام حول هذا السؤال سيكون موضوع بحثنا فيما يلي، وأول ما نبدأ من ذلك ببيان آراء الفرق واختلافهم حول هذه الشفاعة.

آراء الفرق في الشفاعة لأهل الكبائر، وإخراجهم من النار :

ذكرنا فيما مضى أن الخلاف في هذه القضية يتمثل بين أهل الحق من جانب وأهل البدع من جانب آخر.

أما الرأي الأول : وهو رأي أهل القول الحق : فهو الاعتقاد الجازم بأن أهل الكبائر هم تحت المشيئة؛ إن شاء عز وجل عذبهم وإن شاء غفر لهم، وأن من دخل النار من أهل التوحيد فإنه يخرج منها بعد أن يعذبه فيها المدة التي يشاؤها الله عز وجل؛ تطهيرًا له، ثم يرحمه ويحسن إليه ويدخله الجنة، وأن لا يخلد في النار مثل خلود أهل الكفر والشرك بالله تعالى.

وقد استند أهل هذا القول إلى ما جاء في كتاب الله تعالى من الآيات البينات، وإلى ما جاء في السنة النبوية، ولهذا فقد أجمعوا على القول بها، وأن نبينا محمدًا عليه السلام له المقام الأعلى في ذلك، كما أنه يشفع غيره أيضًا من ارتضاهما الله تعالى.

وقد كانت هذه المسألة قضية مسلمة بين الصحابة يثبتونها على ضوء ما جاء في كلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ.

وستذكر فيما يلي بعض النصوص الواردة عن السلف في صحة ما قدمنا من التقل عنهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهمما قال: «ما يزال الله يرحم المؤمنين ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بشفاعة الأنبياء والملائكة، حتى إنه تعالى في آخر الأمر يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة، قال: فهناك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين»^(١).

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الشفاعة في أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ، وهل يدخلون الجنة أم لا؟ فأجاب بقوله:

«إن أحاديث الشفاعة في أهل الكبائر ثابتة متواترة عن النبي ﷺ، وقد اتفق عليها السلف من الصحابة وتابعهم بإحسان وأئمة المسلمين، وإنما نازع في ذلك أهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم، ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان، بل كلهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة»^(٢).

وهو يجزم بأن الشفاعة لأهل الذنوب من المسائل المتفق عليها بين الصحابة والتبعين ومن تبعهم بإحسان وسائر الأئمة والعلماء، ويؤكد هذا بقوله عن ثبوت شفاعة الرسول ﷺ فيهم: «وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمتة؛ فمتفق عليها بين الصحابة والتبعين بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعية وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية، وقال هؤلاء: من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها»^(٣).

وفي ثبوت هذه الشفاعة واشتراك الأنبياء وغيرهم - من ارضى الله. في

(١) انظر: التفسير الكبير ١٩ / ١٥٤.

(٢) مجمع الفتاوى ٤ / ٣٠٩.

(٣) الترسيل والوسيلة ص ١٠.

طلبها يقول: «وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم؛ فيشفع فيمن استحق النار ألا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها»^(١).

ويقول السفاريني في لوامع الأنوار: «اتفق أهل السنة والجماعة على أن النار لا يخلد فيها أحد من أهل الإيمان والتوحيد، كما ثبت ذلك في الأحاديث؛ أنه يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ونحوه، لكن لابد أن يدخل النار من أهل التوحيد طائفة بذنبهم، ويعاقبون على مقدار ذنبهم، ثم يخرجون بشفاعة النبي ﷺ أو غيره، أو برحمته أرحم الراحمين»^(٢).

ويقول في شرح ثلاثيات المسند عنهم: «وقال أهل الحق: هم في مشيئة الله تعالى؛ لا يقطع لهم عقاب ولا نجاة، إلا أنهم اتفقوا على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل الإيمان والتوحيد، كما ثبت ذلك في الأحاديث؛ أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»^(٣).

وقال الآجري فيمن يكذب بالشفاعة في العصاة ويتأول النصوص الواردة في ذلك على غير وجهها:

«قال محمد بن الحسين رحمة الله: إن المكذب بالشفاعة أخطأ في تأويله خطأ فاحشاً، خرج به عن الكتاب والسنّة؛ وذلك أنه عمد إلى آيات من القرآن نزلت في أهل الكفر - أخبر الله عز وجل أنهم إذا دخلوا النار أنهم غير خارجين منها - فجعلها المكذب بالشفاعة في الموحدين، ولم يتلفت إلى إخبار

(١) مجموع الفتاوى٣ / ١٤٧.

(٢) لوامع الأنوار ج٢ ص ٧٧٣.

(٣) شرح ثلاثيات المسند٢ / ٥٣٧.

الرسول ﷺ في إثبات الشفاعة؛ أنها إنما هي لأهل الكبائر...»^(١) إلخ.

ويقول ابن حزم: «قد نص الله تعالى على صحة الشفاعة في القرآن؛ فقال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مرم: ٨٧].

فأوجب عز وجل الشفاعة لمن اتخذ عنده عهداً بالشفاعة، وصحت بذلك الأخبار المتوترة المتناصرة بنقل الثقات لها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قُولًا﴾ [طه: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذْنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]. فنص تعالى على أن الشفاعة يوم القيمة تتفع عنده عز وجل من أذن له فيها ورضي قوله، ولا أحد من الناس أولى بذلك من محمد ﷺ؛ لأنه أفضل ولد آدم عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مَنْ مَلِكٌ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهَدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣].

فقد صحت الشفاعة بنص القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه، فصح يقيناً أن الشفاعة التي أبطلها الله عز وجل هي غير الشفاعة التي أبْتَهَا عز وجل، وإذا لاشك في ذلك؛ فالشفاعة التي أبطل عز وجل هي الشفاعة للكفار الذين هم مخلدون في النار^(١) إلخ كلامه في الاستدلال على الشفاعة وإثباتها للعصاة، ونفيها عن الكفار الذين قد حكم الله عليهم بالخلود في النار وأبعدهم عن رحمته على الدوام.

ويقول الباقياني: «والأخبار في الشفاعة أكثر من أن يؤتى عليها، وهي كلها متواترة متواافية على خروج الموحدين من النار، وقد أطبق سلف الأمة على تسليم هذه الرواية. يعني رواية شفاعتي لأهل الكبار من أمتي - وصحتها، مع ظهورها وانتشارها، والعلم بأنها مروية عن الصحابة والتابعين»^(٢).

وأما ما ورد من اختلاف في بعض الروايات في أحاديث الشفاعة وإخراج أقوام من النار، مثل قوله ﷺ في بعض الروايات أنهم يخرجون «بعد ما امتحنوا»^(٣) فيه وعادوا حمماً^(٤)، وفي خبر آخر أنهم يخرجون من النار «ضبائر ضبائر»^(٥)، وكذلك ما جاء أنهم يدخلون الجنة مكتوبًا على جيابهم:

(١) الفصل ٤ / ٦٣ - ٦٥.

(٢) التمهيد ص ٣٦٧.

(٣) هذه الرواية مخرجة في البخاري ١١ / ٤١٦، ومسلم ١ / ٤٤٤.

ومعنى امتحنوا: أي احترقوا، فتح الباري ١١ / ٤٥٧.

(٤) والحمم: قريب من معنى امتحنوا.

(٥) «ضبائر ضبائر»: هذه الرواية أخر جها مسلم ١ / ٤٤٥، وضبائر: «فتح الضاد المعجمة»، وهو

جمع ضبارة بفتح الضاد وكسرها لفتان... قال أهل اللغة: الضبائر: جماعات في

نفرة، (شرح النووي ١ / ٤٤٦).

«الجهنميون»^(١) وفي بعض الروايات : «عتقاء الرحمن»^(٢) وغير ذلك .

فلا ينبغي أن يعد ذلك قادحًا في ثبوت الشفاعة للعصاة بزعم أن ذلك فيه تناقض ، فالواقع أنه ليس فيه تناقض ولا اضطراب ، وإنما هو من باب اختلاف الألفاظ .

قال الباقياني : «إن كل ما ورد في هذه الروايات إنما هو من اختلاف الألفاظ ، ولا يقدح في صحة الشفاعة أي قادح ، ولو كان هناك أي مطعن على أخبار الشفاعة ؛ لكن الصحابة أول الناس تحذيرًا من اعتقادها أو روایتها ، ولكان الأمر بعكس الحال»^(٣) .

وغمي عن القول فإن هذه المسألة - أي عدم تخليل أهل الكبائر في النار وثبوت الشفاعة لهم - تعتبر من المسائل المشهورة المعلومة لدى جميع علماء السلف وعامتهم ، فالكل على إثباتها وإثبات بقية الشفاعات الأخرى ، كالشفاعة العظمى وغيرها مما ورد به النص ، وشفاعة من ورد بهم النص كالملائكة والشهداء والصالحين ، وما ورد كذلك من شفاعة القرآن وغيره ، كما سيأتي ذلك مفصلاً .

ولا ينفي السلف أي نوع من أنواع الشفاعات التي جاء بها النص ؛ بل المنفي عندهم هو ما نفته النصوص من الشفاعة في الكفار الذين ماتوا على الكفر ، وهذا هو ما تشهد به النصوص الثابتة من كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه ﷺ ، وهم قد استندوا في رأيهم هذا إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة

(١) أخرج هذه الرواية البخاري ١٣ / ٤٣٤ .

(٢) أخرجه البخاري ١٣ / ٤٢٢ .

(٣) انظر : التمهيد ص ٣٦٧ .

نبيه ﷺ، وفيما يلي نعرض بعض الأدلة في ذلك.

أدلة إثبات الشفاعة لأهل الكبائر من القرآن الكريم :

ذكر الله في كتابه الكريم كثيراً من الآيات التي تفيد إثبات الشفاعة لكل عاصٍ عموماً، غير من كان عصيانه هو الشرك بالله تعالى.

ومن تلك الآيات نذكر ما يلي (١) :

١ - قول الله تعالى - حكاية عن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - : ﴿إِنْ تُعذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

٢ - قوله تعالى - حكاية عن إبراهيم عليه السلام - : ﴿فَمَنْ تَبَعَّنِي فَإِنَّهُ مِنِي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

٣ - قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مرجم: ٨٧ - ٨٥].

٤ - قوله تعالى - في صفة الملائكة - : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنياء: ٢٨].

٥ - قوله تعالى - في حق الكفار - : ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

(١) هذه الآيات استدل بها الرازبي - كما في تفسيره في الجزء الثالث - وغيره من العلماء، على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر من القرآن الكريم.

٦- قوله تعالى لـ محمد ﷺ : « وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ » [محمد: ١٩].

٧- قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَابًا رَّحِيمًا » [النساء: ٦٤].

٨- قوله تعالى في صفة الملائكة : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » [غافر: ٧].

إلى غير ذلك من الآيات^(١).

ثم إن كل آية فيها نفي الشفاعة عن المشركين أو الكفار فإنها تفيد إثباتها للمؤمنين وللعصاة منهم ، وكذا الآيات التي فيها نفي الشفاعة إلا بعد إذن الله تعالى ، وسنبين ما ذكره العلماء من وجه الاستدلال بالأيات السابقة على ثبوت الشفاعة فيما يلي :

وجه الاستدلال بالأيات السابقة على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر :

أما الآية الأولى ، فإن وجه الاستدلال بها : أن هذه الشفاعة من عيسى عليه السلام ، إما أن يقال :

١- إنها كانت في حق الكفار.

٢- أو في حق المسلم المطبع.

٣- أو في حق المسلم صاحب الصغيرة.

٤- أو المسلم صاحب الكبيرة بعد التوبة.

(١) انظر : حجج القرآن ص ٧٧.

٥ - أو المسلم صاحب الكبيرة قبل التوبة .

والقسم الأول باطل؛ لأن قوله تعالى : ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] لا يليق بالكافر؛ لأنه لا شفاعة لهم .

والقسم الثاني ، والثالث ، والرابع باطل؛ لأن المسلم المطيع ، والمسلم صاحب الصغيرة ، والمسلم صاحب الكبيرة ، لا يجوز بعد التوبة تعذيبه عقلاً عند الخصم ، وإذا كان كذلك ، لم يكن قوله : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ لائقاً بهم .

وإذا بطل ذلك؛ لم يبق إلا أن يقال : إن هذه الشفاعة إنما وردت في حق المسلم صاحب الكبيرة قبل التوبة ، وإذا صح القول بهذه الشفاعة في حق عيسى عليه السلام؛ صح القول بها في حق محمد ﷺ ضرورة؛ فإنه لا قائل بالفرق»^(١) .

ومثل ما سبق في الآية الأولى يقال في الآية الثانية؛ فإن وجه الاستدلال بها هو أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال : ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ما كان يريد عصيانه في توحيد الله والانقياد له سبحانه ، فهو لا يطلب الشفاعة إلى ربه في الكفار ويتوسل إليه بأنه غفور رحيم ، فهو يعلم جزاء الكفار عند الله أنهم مخلدون في النار .

وقد قيل في معنى الآية ثلاثة أوجه وهي :

١ - أن إبراهيم ﷺ قال هذا القول قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به ، كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك ، ويعزى هذا القول إلى ابن الأنباري .

٢- وقيل: المراد هنا عصيانه فيما دون الشرك.

٣- وقيل: إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك^(١).

وخلصة تلك الأقوال أنها تفيد نفي الشفاعة عن المشرك فقط، لا نفيها عن عداه.

ويقول الرازى: إن قول إبراهيم: «وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» لا يجوز حمله على الكافر؛ لأنَّه ليس أهلاً للمغفرة بالإجماع، ولا حمله على صاحب الصغيرة، ولا على صاحب الكبيرة بعد التوبة؛ لأنَّ غفرانه لهم واجب عقلاً عند الخصم؛ فلا حاجة له إلى الشفاعة، فلم يبق إلا حمله على صاحب الكبيرة قبل التوبة^(٢).

ثم استدل لتأكيد دلالة قول الله تعالى عن إبراهيم: «وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، وقول عيسى: «إِنْ تُعذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ» على الشفاعة؛ بما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «أنَّ النبي ﷺ سلا قوله عز وجل في إبراهيم: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي» [إبراهيم: ٢٦]، وقال عيسى عليه السلام: «إِنْ تُعذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [المائدة: ١٨٨].

رفع يديه وقال: «اللهم أنت أنتي، وبكى؛ فقال الله عز وجل: «يا جبريل، اذهب إلى محمد. وربك أعلم. فسله ما يبكيك؟» فأناه جبريل عليه الصلاة والسلام

(١) فتح القدير ٣ / ١١٢.

(٢) التفسير الكبير ٣ / ٥٩.

فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ . وَهُوَ أَعْلَمُ . فَقَالَ اللَّهُ : « يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ : إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أَمْتَكَ وَلَا نَسُوكَ »^(١) .

ووجه الاستدلال في الآية الثالثة: أن الله تعالى قد أخبر أن الشفاعة لا يملكونها ولا يستحقها، إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً بطاعته وتوحيده.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في معناها: « إن المجرمين ليس لهم من يشفع لهم - كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض - كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعٍ﴾ [الشعراء: ١٠١] ، ﴿وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٧] وقوله : ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ١٠١] وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقها .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: «العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، وبرأ إلى الله من الحشو والقوة، ولا يرجو إلا الله عز وجل».

وذكر ابن كثير عن الأسود بن يزيد أنه قال: «قرأ عبد الله بن مسعود هذه الآية ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ثم قال: اتخاذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيمة: من كان له عند الله عهد فليقيم، قالوا: يا عبد الرحمن، فعلمنا، قال: قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ألا تتكلني إلى عمل يقربني من الشر ويساعدني من الخير، وإنني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إلى يوم القيمة، إنك لا تخلف الميعاد»^(٢).

(١) صحيح مسلم : ١ / ١٩١ .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣ / ١٣٨ .

وقال الإمام الرazi - رحمه الله :

«الآية تدل على حصول الشفاعة لأهل الكبائر؛ لأنَّه قال عقيبه : ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ، والتقدير : أنَّ المجرمين لا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم إلَّا إذا كانوا اتخذوا عند الرحمن عهداً، فكل من اتخاذ عند الرحمن عهداً وجب دخوله فيه، وصاحب الكبيرة اتخاذ عند الرحمن عهداً؛ وهو التوحيد والإسلام؛ فوجب أن يكون داخلاً تحته»^(١).

ووجه الاستدلال من الآية الرابعة : هو أنَّ الله تعالى قد أخبر أنَّ الملائكة لا يشفعون إلَّا من ارضى الله تعالى من عباده، وصاحب الكبيرة ليس خارجاً عن رضى الله خروجاً كاملاً؛ لأنَّه ليس بكافر، ورضى الله تعالى عنه يكون بحسب إيمانه وتوحidته، «فثبتت أنَّ صاحب الكبيرة مرتضى عند الله، وإذا ثبت هذا؛ وجب أن يكون من أهل الشفاعة».

«وإذا ثبت أنَّ صاحب الكبيرة داخل في شفاعة الملائكة؛ وجب دخوله في شفاعة الأنبياء وشفاعة محمد ﷺ ضرورة؛ لأنَّه لا قائل بالفرق»^(٢).

ووجه الاستدلال بالآية الخامسة : أنَّ الله تعالى أخبر أنَّ الكفار لا تنفعهم شفاعة أحد؛ لأنَّهم ليس معهم أي مرجع لرحمتهم، بخلاف غيرهم من عصابة الموحدين؛ فإنَّ الشفاعة تنفعهم، وإلا لتساووا مع الكفار في عدم انتفاعهم بالشفاعة^(٣).

وقال شيخ الإسلام . بعد أن ذكر بعض الآيات التي احتاج بها منكرو

(١)، (٢)، (٣) التفسير الكبير ٣ / ٦٠ .

الشفاعة ، ومنها هذه الآية . قال :

« جواب أهل السنة : أن هذا العله يراد به شیئان :

أحدهما : أنها لا تنفع المشركين ، كما قال تعالى في نعتهم : ﴿مَا سَلَكُكُمْ فِي سَقَرَ﴾ ^(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلَّينَ ^(٤٣) وَلَمْ نَكُنْ نُطْعَمُ الْمُسْكِنَ ^(٤٤) وَكُنَّا نَحُوْضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ^(٤٥) وَكُنَّا نُكَذَّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ^(٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ^(٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٢ - ٤٨] ، فهو لاء نفي عنهم نفع شفاعة الشافعيين لأنهم كانوا كفاراً .

والثاني : أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي أثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب وال المسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه ، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض ، فيقبل المشفوع إليه شفاعة الشافع لحاجته إليه رغبة ورهبة ، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة ^(١) .

وأما وجه الاستدلال بالأية السادسة : فهو أن الله تعالى قد أمر نبيه محمدًا ﷺ بأن يستغفر لكل المؤمنين والمؤمنات ، وصاحب الكبيرة يدخل في هذا الأمر لأنه من جملة المؤمنين ، ويكون قد استغفر له الرسول ﷺ كما أمره الله تعالى ، إذ لو لم ينفعه دعاء الرسول ﷺ واستغفاره له ؛ لما كان للأمر له بالدعاء والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات معنى ، وهو شبيه بالسخرية ؛ إذ كيف يأمره بأمر لا فائدة من ورائه ، وهذا لا يليق بالله تعالى ورسوله ﷺ .

(١) التوسل والوسيلة : ص ١٠-١١ .

وفي هذا يقول الرازي حول هذه الآية:

«وقد بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أن صاحب الكبيرة مؤمن، وإذا كان كذلك؛ ثبت أن محمداً ﷺ استغفر لهم، وإذا كان كذلك؛ ثبت أن الله تعالى قد غفر لهم، وإلا لكان الله تعالى قد أمره بالدعاء ليرد دعاءه؛ فيصير ذلك محض التحقيق والإيماء، وهو غير لائق بالله تعالى ولا بمحمد ﷺ، فدل على أن الله تعالى لما أمر محمداً بالاستغفار لكل العصاة، فقد استجاب دعاءه، وذلك إنما يتم لو غفر لهم، ولا معنى للشفاعة إلا هذا»^(١).

أما وجه الاستدلال بالأية السابعة: فهو أن الله تعالى قد أخبر أن استغفار الرسول ﷺ للعصاة والمذنبين من أمته ودعاه لهم ينفعهم عند الله، وقد علق الله قبول التوبة وحصول الرحمة للمذنب باستغفاره لنفسه وباستغفار الرسول ﷺ له، وهذا في الدنيا^(٢)، فإذا كان دعاؤه واستغفاره للمذنبين ينفعهم في الدنيا فكذلك شفاعته.

قال الإمام الرازي بعد ذكر هذه الآية: «وليس في الآية ذكر التوبة، والآية تدل على أن الرسول متى استغفر للعصاة والظالمين فإن الله يغفر لهم، وهذا يدل على أن شفاعة الرسول في حق أهل الكبائر مقبولة في الدنيا؛ فوجب أن تكون مقبولة في الآخرة؛ لأنها لا قائل بالفرق»^(٣).

وأما وجه الاستدلال بقول الله تعالى في صفة الملائكة ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ

(١) التفسير الكبير ٦١ / ٣.

(٢) انظر: التوسل والوسيلة ص ٥٠، ٧٧، ١٣٧.

(٣) التفسير الكبير ٦١ / ٣.

العرش》 إلخ... الآية: « فهو أن صاحب الكبيرة يشمله هذا الدعاء بما معه من الإيمان لأنه ليس بكافر ، وأما تقديره بالتنويه **﴿فاغفِرْ لِّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾** فإن هذا دعاء آخر ومزيد دعاء لهم بزيادة الغفران ، وهو - الاستثناء . لا يقتضي تخصيص ذلك العام ؛ لما ثبت في أصول الفقه أن اللفظ العام إذا ذكر بعده بعض أقسامه فإن ذلك لا يوجب تخصيص ذلك العام بذلك الخاص »^(١) .

وفي الختام يجمل الرازبي الجواب عن أدلة المعتزلة في نفيهم الشفاعة عن أهل الكبار ومتىً أدلة حصول الشفاعة فيهم بقوله :

« والجواب على جميع أدلة المعتزلة بحرف واحد وهو : أن أدتهم على نفي الشفاعة تفيد نفي جميع أقسام الشفاعات ، وأدلتنا على إثبات الشفاعة تفيد إثبات شفاعة خاصة ، والعام والخاص إذا تعارضا قدم الخاص على العام ؛ فكانت دلائنا مقدمة على دلائلهم »^(٢) .

وبعد عرض ما سبق من الأدلة على إثبات الشفاعة للمذنبين من القرآن الكريم نعرض لذكر إثبات الشفاعة لهم من السنة في الفصل الآتي .

أدلة إثبات الشفاعة لأهل الكبار من السنة :

رأينا ما سبق عرضه كيف أثبت القرآن الكريم في أكثر من آية حصول الشفاعة للمذنبين واستحقاقهم لها ، وأنهم ليسوا بمنزلة الكفار والمرتكبين في ذلك ، وأنه لم يوحد الحكم عليهم أحد من السلف ؛ بل المعتزلة ومن قال بقولهم من الفرق المبتدةعة هم الذين ساواوا بينهم .

(١) تفسير الرازبي ٣ / ٦٢ .

(٢) التفسير الكبير ٣ / ٦٥ .

واستكمالاً للأدلة نذكر هنا بعض ما جاء في السنة النبوية من التصریح بحصول الشفاعة للمذنبين، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، الذين سعدوا بتضافر النصوص الكثيرة عن المصطفى ﷺ لما ذهبا إليه من ثبوت تلك الشفاعة في المذنبين، الذين هم أحوج ما يكونون إليها في وقت لا يملكون فيه أي شيء من وسائل الطاعة والثواب، وحين لم يبق لهم منأمل في النجاة من النار إلا ما قدموا، وإلا ما تفضل الله به عليهم من قبول شفاعة أوليائه وأحبابه فيهم، من ارتضاه من الأنبياء أو من غيرهم من خلقه، فرحمه الله واسعة ولا يبأس منها إلا القوم الكافرون.

وإن تيسيس المذنبين من الشفاعة بعد ثبوتها؛ فهو من أكبر الخطأ وأعظم الغلط ، فمن ذا الذي قد كتبت له العصمة من الذنوب أو ارتكاب الآلام - غير الأنبياء - ، وهل أولئك الذين نفواها عن أهل الكبائر قد ثبتت عصمتهم من الذنوب ؟ إن القول بهذا يشير إلى ادعاء صاحبه أنه مبرأ من الذنوب والآلام^(١).

وسنورد فيما يلي ما نستدل به على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر، شفاعة نبينا محمد ﷺ وغيره من يرضيهم الله تعالى .

ولا يفوّت التنبيه إلى أن الأحاديث التي وردت في ثبوت الشفاعة كثيرة في الصحيحين وفي السنن وفي المسانيد، وسنقتصر على بعض ما يتضح به ثبوت أمر هذه الشفاعة، ومن ذلك ما يلي :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «شفاعتي لأهل

(١) انظر : آراء الخوارج ص ١٣٩ .

الكبانر من أمتى^(١).

ومثله ما جاء عن جابر بن عبد الله، وزاد فيه: قال الراوي محمد بن علي: فقال لي جابر: «يا محمد، من لم يكن من أهل الكبار فما له وللشفاعة»^(٢).

وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شفاعتي يوم القيمة لأهل الكبار من أمتى»^(٣).

وعن كعب بن عجرة قال: قلت: يا رسول الله، الشفاعة؟ قال: «الشفاعة لأهل الكبار من أمتى»^(٤).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «خيرت بين الشفاعة أو يدخل نصف أمتى الجنة؛ فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفي، أترونها للمنتقين؟ لا، ولكنها للمتأثرين الخطأون»^(٥).

وعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «ليخرجن قوم من أمتى من

(١) أخرجه الترمذى ٤/٦٢٥، وأبو داود ٢/٥٣٧، وابن ماجه ٢/١٤٤١.

(٢) أخرجه الترمذى ٤/٤٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢/١٤٤١، وأبو داود ٢/٥٣٧، والترمذى ٤/٦٢٥.

(٤) الآجري في الشريعة ص ٣٣٨، وأخرج تلك الأحاديث عن أنس وجابر بن عبد الله، وكعب بن عجرة، وحذيفة بن اليمان. انظر: ص ٣٣٩-٣٣٨.

(٥) أخرجه أحمد ٢/٧٥.

وقال زياد: «أما إنها لحن الخطأون.. ولكن هكذا حدثنا الذي حدثنا. وأخرج الحديث ابن ماجه ٢/١٤٤١ من حديث أبي موسى الأشعري بنحروه، وقال المعلق: «إسناده صحيح ورجله ثقات».

النار بشفاعتي يسمون جهنميون^(١).

أخبر عليه الصلاة والسلام أن أهل النار - الذين هم أهلهما - يخلدون فيها ولا يخرجون أبداً، وأن الذين ينجون منها هم قوم من أهل الكبائر يعذبون فيها مدة ثم يخرجهم الله بعد أن يأذن بالشفاعة فيهم.

فقد جاء عن أبي سعيد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلهما فبانهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنبهم». أو قال: بخطبائهم. فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً؛ أذن بالشفاعة؛ فجيء بهم ضبائر ضبائر، فيبتوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم؛ فينبتون بنيات العبة تكون في حميم السيل، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية»^(٢).

وهذه الأحاديث صريحة في دلالتها على حصول الشفاعة لأهل الكبائر وإذا كان للرسول ﷺ المقام الأرفع والمزيد العظمى في الشفاعة لأهل الكبائر؛ فإن هذه الشفاعة لم يختص بها وحده؛ بل يشركه فيها المؤمنون والملائكة، كما جاء من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام: «حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد يأشد مناشدة له في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيمة لأخوانهم الذين في النار؛ يقولون: ربنا، كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوها من عرفت؛ فتحرم صورهم على النار؛ فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى

(١) أخرجه الترمذى ٤ / ٧١٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه ٢ / ١٤٤٣، وأبو داود ٢ / ٥٣٧.

(٢) أخرجه مسلم ١ / ٤٤٥، وابن ماجه ٢ / ١٤٤١.

ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فآخر جوه؛ فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا؛ فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فآخر جوه؛ فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً، ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فآخر جوه؛ فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها خيراً.

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث؛ فاقرءوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةٌ يُضَاعِفُهَا وَإِنْ تَكُ ظَرْبَةٌ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

فيبقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين؛ فيقبض قبضة من النار؛ فيخرج منها قوماً لم يحصلوا خيراً قط قد عادوا حمماً؛ فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة؛ فيخرجون كما تخرج العبة في حميل السيل، الحديث^(١).

وقال الأجرى: «فيشفع الأنبياء والملائكة والشهداء والعلماء والمؤمنون فيمن دخل النار من المسلمين، فأخرجوها منها. على حسب ما أخبرنا رسول الله ﷺ. على طبقات شتى فدخلوا الجنة»^(٢).

وأخبر ﷺ أن لكلنبي دعوة مستجابة دعا بها، إلا هو عليه الصلاة والسلام فقد ادخلها شفاعة لأمته يوم القيمة، فلم يت Urgel حصولها؛ بل جعلها لما هو أفعى لأمته.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١ / ٤٣٨.

(٢) الشريعة ص ٢٣٥.

كما جاء عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبر دعوتي شفاعة لأمتى في الآخرة»^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلنبي دعوة، فأريد، إن شاء الله، أن أختبر دعوتي شفاعة لأمتى يوم القيمة»^(٢).

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلنبي دعوة مستجابة، فتعجل كلنبي دعوته، وإنني اختبرت دعوتي شفاعة لأمتى يوم القيمة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»^(٣).

وقد استشكل معرفة وجه التنصيص على هذه الدعوة المستجابة، مع أن الأنبياء يستجيب لهم في دعوات كثيرة؟

والجواب كما ذكر النووي: «أن معناه أن كلنبي له دعوة متيقنة الإجابة، وهو على يقين من إجابتها، وأما باقي دعواتهم فهم على طمع من إجابتها، وبعضها يجاب وبعضها لا يجاب»^(٤).

ونقل عن القاضي عياض أنه قال: «يحتمل أن يكون المراد لكلنبي دعوة لأمته»^(٥).

وذكر العلامة ابن حجر عدة أجوبة حول هذا الإشكال هي:

١- أن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها، وما عدا ذلك من

(١) البخاري ٩٦ / ١١.

(٢) البخاري ١٣ / ٤٤٧، ومسلم ١ / ١٨٨ - ١٩٠، عن أبي هريرة وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله.

(٣) مسلم ١ / ١٨٨.

(٤)، (٥) شرح النووي لسلم ١ / ٤٧٨.

دعواتهم فهم على رجاء الإجابة. وقد سبق هذا الجواب للنwoي رحمه الله.

٢- أن معنى قوله: «لكل نبي دعوة، أي أفضل دعواته، ولهم دعوات أخرى».

٣- لكل منهم دعوة عامة مستجابة في أمتة، إما بإهلاكهم، وإما بنجاتهم، وأما الدعوات الخاصة فمنها ما يستجاب ومنها ما لا يستجاب.

٤- لكل منهم دعوة تخصه لدنياه أو لنفسه، كقول نوح: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقول زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [يرثى] [مريم: ٦، ٥]، وقول سليمان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] ^(١).

وخلالصة تلك الأحاديث أن فيها دلالة على فضل نبينا ﷺ، ومحبته لأمتة، وحرصه على ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وإيشاره لمصلحتهم على مصلحة نفسه، ومدى صبره على أذاهم؛ فلم يدع عليهم بالهلاك؛ بل على العكس من ذلك كان دائمًا يقول: «الله أهد قومي فإنهم لا يعلمون».

صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

* * *

آراء الفرق الأخرى

وبعد عرض رأي السلف وأدلةهم، فإننا نتابع عرض بقية الآراء الأخرى، فهناك فرق تنتسب إلى الإسلام تزعم أن الشفاعة منافية عن دخل النار من أهل الكبائر، وتزعم أن من دخل النار منهم لا يمكن أن يخرج منها؛ لأن الله قد توعدهم بالعذاب، وتلمسوها هذا القول المبتدع أدلة حملوها مالم تدل عليه من نفي الشفاعة، ولم ينظروا بالقبول إلى ما ورد من الأحاديث الكثيرة المتعددة التي ثبتت الشفاعة، ولا إلى ما قاله علماء السلف من تفسير تلك الأحاديث، لم ينظروا لهذا كله؛ بل ذهبوا إلى تأويل ما ورد من تلك النصوص، كما هو حال أهل البدع حينما لا يستطيعون دفع النصوص وردها. ومن تلك الفرق ما يلي :

١. المعتزلة :

تنكر المعتزلة. كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق. أن يخرج أحد من النار بعد أن دخلها؛ لا بشفاعة ولا بغيرها، وكذلك لا يجوز عندهم الشفاعة في أهل الكبائر الذين أمر بهم إلى النار، وما ورد من أحاديث الشفاعة فإما هي في أهل الجنة، وبإعطائهم فوق ما يستحقون من الفضل، وأن ثبوتها إنما هو خاص بالثائبين لا بالذنبين من الناس، كما زعموا، وهذا ما تواتر به النقل عنهم.

ومن الأدلة على ذلك ما يلي :

قال القاضي عبد الجبار مقرراً أن الشفاعة لا تكون إلا للثائبين من المؤمنين فقط دون غيرهم وأن الفساق أهل الكبائر مخلدون في النار، قال: «فعندي أن

الشفاعة للتائبين من المؤمنين، وعند المرجنة أنها للفساق من أهل الصلاة».

ثم استمر في التدليل على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر إلى أن يقول: «وأيضاً فقد دلت الدلالة على أن العقوبة تستحق على طريق الدوام، فكيف يخرج الفاسق من النار بشفاعة النبي عليه السلام»^(١).

وقال أيضاً: «وقد دل السمع من جهة الاستدلال على أن الفاسق مالم يتوب؛ يستحق النار مع أهله مخلداً فيها»^(٢).

وقال. بعد أن ذكر آيات في الوعيد: «والذي يدل على أن الفاسق يخلد في النار ويعذب فيها أبداً؛ ما ذكرناه من عمومات الوعيد، فإنها كما تدل على أن الفاسق يفعل به ما يستحقه من العقوبة، تدل على أنه يخلد، إذ ما من آية من هذه الآيات التي مرت إلا وفيها ذكر الخلود والتأييد أو ما يجري مجراهما»^(٣).

ومن أقوال علماء الإسلام في تقرير مذهب المعتزلة، ما قاله ابن القيم في معرض أمثلته لمن يرد النصوص المحكمة بالتشابه قال: «المثال الخامس: رد الخوارج والمعزلة النصوص الصريرة غاية الإحکام في ثبوت الشفاعة للعصاة وخروجهم من النار»^(٤).

وقال الأشعري عنهم: «واختلفوا في شفاعة رسول الله ﷺ: هل هي لأهل الكبائر؟ فأنكرت المعتزلة ذلك وقالت بإبطاله، وقال بعضهم: الشفاعة من النبي ﷺ للمؤمنين أن يزادوا في منازلهم من باب التفضل»^(٥).

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٦ إلى ص ٦٩٣.

(٢) رسائل العدل والتوكيد ١ / ٢٤٤.

(٣) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٦.

(٤) أعلام الموقعين ٢ / ٢٩٥.

(٥) المقالات ٢ / ١٦٦.

ويقول الآجري: «قال محمد بن الحسين رحمه الله: اعلموا -رحمكم الله- أن المنكر للشفاعة يزعم أن من دخل النار فليس بخارج منها، وهذا مذهب المعتزلة، إلى أن يقول فيهم: «إنهم لا يلتفتون إلى سنن الرسول ﷺ، ولا إلى سنن الصحابة رضي الله عنهم، وإنما يعارضون بتشابه القرآن، وبما أراهم العقل عندهم»^(١).

وقال السفاريني: «الشفاعة التي تنكرها المعتزلة وتجحدها هي فيما استحق النار من المؤمنين أن لا يدخلها، وفيما دخلها منهم أن يخرج منها، فكذبت بها المبتدعة ونفتها، مع ثبوت أدلةها وتضليل حججها مما يتسرر إحصاؤه ويتعدى استقصاؤه»^(٢).

وبعد أن تبين رأي المعتزلة بالنسبة لإخراج العصاة من النار، فإننا -وبعد عرض آراء بقية الفرق- سنذكر ما استندوا إليه من نصوص في نفيهم الشفاعة، سواء أكانت تلك النصوص آيات من القرآن الكريم أو أحاديث أخذوها على ظاهرها، وقصروا معناها على ما يريدون من حكم، غير ملتفتين إلى غيرها من الآيات والأحاديث التي تثبت الشفاعة.

٢- الخوارج :

ومثل المعتزلة في إنكار الشفاعة لأهل الكبائر الخوارج؛ فقد قال هؤلاء بأن من يدخل النار لا يخرج منها أبداً، ومعلوم أن الخوارج والمعزلة قد اتفقوا على الحكم الآخروي بالنسبة لأهل الكبائر، وهو القول بتخليلهم في النار أبداً، وإن كانوا قد اختلفوا في التسمية في الدنيا، فالخوارج يسمونه كافراً،

(١) الغنية /١ ٩٢.

(٢) لوامع الأنوار /٢ ٢١٢. وشرح ثلاثيات المستد /٢ ٥٣٧.

والمعتزلة يسمونه فاسقاً أو في منزلة بين المترددين، «فالخلاف بينهم لفظي فقط»^(١).

وقد استفاض النقل عن الخوارج في قولهم بتأخليد العصاة في النار وعدم شفاعة أحد فيهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة: فزعموا أن شفاعته إنما هي للمؤمنين خاصة في رفع الدرجات، ومنهم من أنكر الشفاعة مطلقاً»^(٢).

وقال أيضاً: «وعند الخوارج والمعتزلة أنه لا يشفع لأهل الكبائر؛ لأن الكبائر عندهم لا تغفر، ولا يخرجون من النار بعد أن يدخلوها، لا بشفاعة ولا بغيرها»^(٣).

ويقول العلامة علي بن أبي العز في شرح الطحاوية: «والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر»^(٤).

وقال ابن حزم: «اختلف الناس في الشفاعة، فإنكرها قوم وهم المعذلة والخوارج وكل من تبع أن لا يخرج أحد من النار بعد دخوله فيها»^(٥).

ويقول المرداوي: «شفاعة النبي ﷺ نوع من السمعيات قد وردت بها

(١) شرح الطحاوية ص ٣٦٢.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ١ / ١٠.

(٣) المصدر السابق ١ / ١١، وانظر: التوسل والوسيلة ص ١٣١.

(٤) شرح الطحاوية ص ١٨١.

(٥) الفصل ٤ / ٦٣.

الآثار حتى بلغت مبلغ التواتر المعنوي^(١) ، وانعقد عليها إجماع أهل الحق قبل ظهور الخوارج الذين ينكرون الشفاعة»^(٢) .

ومثل إنكار الخوارج للشفاعة في العصاة؛ إنكار فرقة الإباضية لها. وهم في الواقع فرقة من الخوارج كما قرره علماء الفرق، وإن كانوا ينكرون أشد إنكار أن يكونوا من الخوارج^(٣) . وأيًّا ما كان، فقد ذهبت هذه الفرقة إلى أن الشفاعة لا تكون للعصاة، وإنما هي للمنتقين، كما هو الحال عند المعتزلة.

ومن الأدلة على ذلك ما قاله صاحب كتاب الأديان. وهو إباضي:-
«والشفاعة حق للمنتقين وليس للعاصين»^(٤) .

ويقول السالمي كذلك:

وما الشفاعة إلا للتقي كما قد قال رب العلا فيها وقد فصل^(٥)
وقد استشهد الريبع بن حبيب لهذا الرأي في مسنده بما رواه عن جابر بن زيد. إمام الإباضية. عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليست الشفاعة لأهل الكبائر

(١) التواتر ينقسم إلى قسمين:

١- تواتر لفظي: وهو ما تواتر لفظه ومعناه، مثل حديث: «من كذب على متهمنا فليتبأ معده من النار».

٢- تواتر معنوي: وهو ما تواتر معناه دون لفظه، مثل أحاديث المسح على الخفين ورفع الأيدي في الدعاء... .

(٢) الآلئ البهية ص ٩٤.

(٣) الإباضية تنكر أشد إنكار أن تكون فرقة من الخوارج، وفي كتابات علي يحيى معمراً. وهو إباضي- ما بين ذلك، كما في كتابه «الإباضية بين الفرق الإسلامية» وغيره من كتب الإباضية.

(٤) كتاب الأديان ص ٥٣. (مخطوط).

(٥) غاية المراد ص ٩.

من أمتى»، يحلف جابر بن زيد عند ذلك: ما لأهل الكبائر شفاعة؛ لأن الله قد أوعده أهل الكبائر النار في كتابه، وإن جاء الحديث عن أنس بن مالك أن الشفاعة لأهل الكبائر، فوالله ما عنى القتل والزنى والسحر وما أوعده الله عليه النار».

ويقول الربع أيضًا: «حتى بلغنا أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته إذا كانوا مؤمنين متقيين».

واستشهد الربع بن حبيب لهذا الرأي أيضًا بما رواه من قوله ﷺ: «يا بني عبد المطلب إن الله أمرني أن أذركم، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً، إلا إن أولئك منكم المتقوون، إلا لا أعرفن ما جاء الناس غداً بالدين فجتنم بالدنيا تحملونها على رقابكم، يا فاطمة بنت محمد، ويا صفيحة عممة محمد، اشتريا أنفسكم من الله؛ فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً».^(١)

وهذا ما قرره الحارثي الإباضي أيضًا في نفي الشفاعة في كتابه العقود الفضية^(٢).

ويقول د. عمار الطالبي: «وتنكر الإباضية أيضًا الشفاعة؛ لأنها لا تزال عندهم أصحاب الكبائر».^(٣)

٣. الزيديّة :

ومن أنكر الشفاعة في أهل الكبائر وقال بعدم خروجهم من النار: فرقة

(١) الجامع الصحيح / ٤ / ٣٤ - ٣١.

(٢) العقود الفضية ص ٢٨٦.

(٣) آراء الخوارج ص ١٨٠.

الزيدية أيضاً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعه وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج، والمعتزلة، والزيدية، وقال هؤلاء: من يدخل النار لا يخرج منها، لا بشفاعة ولا غيرها»^(١).

٤- الجهمية :

تنكر الجهمية الشفاعة مطلقاً، سواء أكانت لرفع الدرجات في الجنة أم لإخراج العصاة من النار، وهم بذلك يخالفون أهل السنة والمعتزلة والزيدية والخوارج. ويعرضون إعراضًا كاملاً عما ورد في إثباتها من نصوص، وفي هذا يقول الملطي: « وأنكر جهنم الشفاعة وأن قوماً يخرجون من النار »^(٢).

وقال أيضاً عن الجهمية: « وأنكروا الشفاعة؛ أن يشفع رسول الله ﷺ لأحد من أمته، وأن يخرج الناس من النار بعد ما دخلوها»^(٣).

وهذا أغلوا في التفسي، ورد للنصوص الصريحة بذلك.

٥- المرجئة :

أما مذهب المرجئة. وهم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، ولا تنفع مع الكفر طاعة، ثم فتحوا للناس أبواباً من الأماني الفارغة، وكسلوا الناس عن الطاعات، وأطمعوهم فيما لم يوصل إليه إلا بالعمل والجد. فإن

(١) التوسل والوسيلة ص ١٠.

(٢) النفي والرد على أهل الأهواء والبدع ص ١٢٨.

(٣) المصدر السابق ص ٩٦.

من مذهبهم في باب الشفاعة: أنه لا حاجة إليها، كما نقل ذلك البرديسي عن الفاكهاني^(١).

ويطلان هذا القول ظاهر كبطلان هذا المذهب في مسألة الإيمان والكفر.

٦ - الشيعة :

وإذا كنا قد عرضنا آراء الفرق في الشفاعة. مذهب السلف وبقية المذاهب الأخرى. ورأينا أن الفرق السابقة تبني ثبوت الشفاعة؛ فإننا الآن بصدق بيان مذهب يعتبر نقىض تلك المذاهب، وهو مذهب الشيعة.

فإن هؤلاء قد تجاوزوا في إثباتها إلى الخروج عن الحق، ذلك أنهم قد رکنوا إلى وهم خاطئ؛ وهو التعلق بالبيت. وخصوصاً على رضي الله عنه وأولاده من فاطمة رضي الله عنهم أجمعين، فقد ذهبوا إلى أن هؤلاء لهم مطلق الحق في الشفاعة لشيعتهم، فلا ترد لهم شفاعة.

واختلفوا لهذا القول أحاديث كثيرة، وروايات عديدة، وقصصاً مكذوبة، يستدلون بها على أن الشيعة كلهم داخلون في ضمان شفاعة آل البيت مهما بلغ جرم التشيع، فهو لا خوف عليه ولا ينبغي أن يحزن؛ فإن أمله وعمله إمامه، وهو من يتشيع لهم^(٢).

ومن النصوص التي تثبت ذلك عنهم ما ذكره الخوني الشيعي عن معاوية ابن وهب أنه قال: «سألت أبا عبد الله -ع- عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يتكلّمون إلّا من أذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَّابًا﴾ [النَّبَأٌ: ٣٨]. قال: نحن والله

(١) انظر: تكميلة شرح الصدور ص ٣٦.

(٢) انظر: عقيدة الشيعة ص ٣٣٦.

المأذون لهم في ذلك والقائلون صواباً، قلت: جعلت فداك، وما تقولون إذا كلمتم؟ قال: نجد ربنا، ونصلّى على نبينا، ونشفع لشيعتنا، فلا يردا نينا»^(١).

وقال أيضاً: «وروى محمد بن يعقوب في الكافي بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام مثله»^(٢).

وتحت عنوان: «أحاديث الشفاعة عند العامة» يذكر الخوناني المفسر - وهو من أئمة الشيعة - رواية عن أبي هريرة في كتابه «البيان في تفسير القرآن» في معرض عده للشفاعات يقول: «وروى أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: الشفاعاء خمسة: القرآن، والرحم، والأمانة، ونبيكم، وأهل بيته... إلى أن يقول: «ومن هذه الروايات يستكشف أن الاستشفاع بالنبي ﷺ وبأهل بيته الكرام -ع- أمر ندب إليه الشعـعـ ، فكيف يعد ذلك من الشرك؟»^(٣).

بل يروي الشيعة عن أئمتهم الجزم القوي بحصول الشفاعة منهم لأتباعهم من الشيعة، حتى إن الناس يحسدونهم على هذا الفضل الذي امتازوا به عن غيرهم من الناس، كما تتبينه في الرواية الآتية عن محمد الباقر وجعفر الصادق أنهما قالا -وبكل تأكيد- : «والله لنشفعن والله لنشفعن في المذنبين من شيعتنا، حتى يقول أعداؤنا -إذا رأوا ذلك- **﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِينَ﴾**^(٤) [الشعراء: ١٠٠]».

ويقول الملطي عن فرقـةـ المغـيرـيـةـ الشـيـعـيـةـ :

(١) ، (٢) البيان في تفسير القرآن ص ٥١٥.

(٣) البيان في تفسير القرآن ص ٥١٦.

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٩٩، نقاً عن تفسير علي بن إبراهيم.

«ومنهم صنف . يقال لهم المغيرة . زعموا أنه من ظلم نفسه من عترة علي ؛ فلا حساب عليه ولا عذاب ولا وقوف عليه ولا سؤال ، وإن ترك الفرائض وركب العظام وأشرك بالله»^(١) .

ومعلوم أن هذا غلوّ فاحش وجهل بحقيقة الإسلام ؛ بل وصل الحال بالشيعة الإمامية إلى أن ما يزروا بين شفاعة الرسول ﷺ وبين شفاعة علي بن أبي طالب والأئمة من آل محمد ، الذين يستمدون عصمتهم وسموهم الروحي من النبي ﷺ ، وجعلوا الإمام علي رضي الله عنه خصوصية له وحده في شفاعته لأهل شيعته ، وفي هذا يذكر الشيخ المفيد أن الإمامية على اتفاق أن رسول الله ﷺ يشفع يوم القيمة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته ، وأن أمير المؤمنين - يعني علي بن أبي طالب - يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته ، وأن آل محمد ﷺ يشفعون كذلك ، وينجي الله بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين^(٢) .

وللحسين بن علي رضي الله عنهمما كذلك متزلة في الشفاعة عند الشيعة لا تقل عن متزلة أبيه ، وقد نسجوا حوله مزايا عديدة ، وسبب ذلك هياج العواطف نحوه ؛ لما كان لوفاته من وقع شديد على القلوب ، وفاجعة عظيمة في النفوس ، فهو يقول فيما يزعمون : «الزموا مودتنا أهل البيت ؛ فإن من لقى الله وهو يودنا دخل في شفاعتنا»^(٣) .

وقد بلغ الغلو بالشيعة في إثبات شفاعة آل البيت إلى حد أنهم في زيارة لهم لقبور الأولياء من آل البيت لا يذكرون ما جاء به الشرع من السلام عليهم

(١) التبي والرد ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٩٩ ، وهو ينقل عن أوائل المقالات للشيخ التبدي ص ٤٧ .

(٣) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٩٩ ، وهو ينقل عن المناوي في الكواكب الدرية ١ / ٥٧ .

وطلب المغفرة لهم؛ بل يعكسون الأمر فيطلبون المغفرة منهم، ويتوسلون إليهم بشتى التضرع؛ ليكونوا في حماهم ومن حزبهم الذين يشفعون له.

فمن تعليماتهم أن يقول الشيعي إذا زار تلك القبور: «أبابي أنتم وأمي ونفسي وأهلي، اجعلوني في حماكم، وصيروني من حزبكم، وأدخلوني في شفاعتكم، واذكروني عند ربكم»^(١).

وقد ذكر الأجرى بعض الروايات في إثبات الشفاعة لآل البيت، بعضها يوردها دون سند، وعلى صيغة التضعيف أيضاً، كقوله: «قال محمد بن الحسين رحمة الله: وقد روي أنه «ما من أهل بيت نبي إلا له شفاعة».

وعن عطية العوفي: «أن كعباً أخذ بيد العباس رضي الله عنه فقال: إني أدخل هذا للشفاعة، فقال: وهل شفاعة إلا للأنبياء؟ - أو قال: هل لي شفاعة؟ - قال: نعم، ليس من أهل بيت نبي إلا كانت له شفاعة».

وذكر رواية أخرى عن عطية بن سعد بمثل ما تقدم، ورواية ثالثة عن عطية دون ذكر الاسم كاملاً. ثبتت شفاعة أهل بيت الأنبياء^(٢).

وهذه الروايات - سواء صحت أم لم تصح - فإنها تدل فقط على أن المؤمنين الصالحين من آل البيت يشفعون إن أذن الله لهم، كما يشفع من لم يكن من آل البيت من أتباع الأنبياء، فلا متمسك للشيعة في اختصاص آل البيت بمثل هذه الروايات.

وآل البيت عند الله مثلهم كمثل غيرهم من الناس؛ من كان صالحًا منهم ثبتت شفاعته بما ثبتت به شفاعة صاحبي المؤمنين، ومن كان غير ذلك فلا وزن

(١) الصلة بين التصرف والتشيع ص ٣٩٩ نقلأً عن تحفة الزائرين للمحلى ص ٣٦٣.

(٢) الشريعة ص ٣٥١-٣٥٢.

له عند الله.

وقد صرخ الرسول ﷺ نفسه بذلك حين دعا أهل بيته وناداهم بأسمائهم وأخبرهم أنه لا يعني عنهم من الله شيئاً، بل عليهم أن يتقووا الله إذا أرادوا الرحمة والمغفرة، أي إن شأنهم شأن غيرهم من الناس. فقال ﷺ: «يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمّة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله، سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»^(١).

ذلك أن الله تعالى هو الواحد الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، فالشفاعة لا يملكونها أحد إلا بعد إذن الله تعالى له، كما هو معلوم، «قُل لِّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [الزمر: ٤٤].

إذ ليست الشفاعة عند الله كالشفاعة في الدنيا؛ يأتي الشافع إلى من تطلب الشفاعة منه دون إذنه ورضاه، ثم يأخذ في التوصل إليه لتلبية ما يريد، فالشفاعة عند الله ليست كهذه؛ بل هي لا تقع إلا كما أخبرنا الله تعالى:

«مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفُعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» [البقرة: ٢٥٥].

«وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيتِهِ مُشْفَقُونَ» [الأنياء: ٢٨].

«مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» [يونس: ٣].

ولعل هناك سبباً آخر جعل الشيعة يعتقدون هذا الاعتقاد الخطأ في هذه القضية؛ فبالإضافة إلى غلوهم في حب آل البيت غلواً شديداً، كما يدعون بزعمهم. يعتقدون كذلك أنهم معصومون عن الخطأ الذي يقع فيه الناس،

(١) صحيح مسلم / ٤٨٣.

وأن الله قد اختارهم وأفاض عليهم من أنواع المعارف وظهور المعجزات، إلى آخر ما وصفوهم به، فهم إذاً يعتبرون عصمتهم استمراً لعصمة النبي ﷺ الذي ثبتت له الشفاعة، وبالتالي فإنها تثبت لهم تلقائياً، وهذا ما حدا بهم إلى ذلك الغلو الشديد.

ونحن - مع احترامنا الشديد لآل البيت - نقول: إنهم لا يختلفون بأي مزية من المزايا التي تجعلهم أهلاً للشفاعة دون غيرهم من خلق الله، سواء كانوا هم أو من يشفعون لهم، فكما أنه لا مزية لآل البيت في الشفاعة؛ كذلك لا خصوصية للشيعة في وصول الشفاعة إليهم أكثر من غيرهم من الناس، وإنما هم كأي أمّة أخرى أمام الله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولعل السبب في فتور الشيعة عن العبادة والجد فيها - بمقارنتهم بفرقة الخوارج - هو اتكالهم القوي - على حصول الشفاعة فيهم - على ما كانوا عليه من العمل، لاعتمادهم على شفاعة من يتبعون له من آل البيت.

وأما بالنسبة لاستدلالهم بالأية ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ على أنها في مخالفٍ للشيعة فهو استدلال ساقط، بل الصحيح - كما يذكر أهل العلم - : «أن أهل الكفر لما دخلوا النار، ورأوا العذاب الأليم، وأصابهم الهوان الشديد؛ نظروا إلى قومٍ هم من الموحدين معهم في النار، فغير وهم بذلك وقالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم في الدنيا وأنتم معنا في النار، فزاد أهل التوحيد من المسلمين حزناً وغمّاً، فاطلع الله عز وجل على مانالهم من الغم بتغيير أهل الكفر لهم، فأذن في الشفاعة.

فيشفع الأنبياء والملائكة، والشهداء والعلماء والمؤمنون فيمن دخل النار

من المسلمين، فأنخرجو منها - على حسب ما أخبرنا رسول الله ﷺ - على طبقات شتى، فدخلوا الجنة، فلما فقدتهم أهل الكفر؛ ودوا أن لو كانوا مسلمين، وأيقنوا أن ليس لهم شافع يشفع لهم، ولا صديق حميم يغنى عنهم من عذاب الله شيئاً، قال الله عز وجل في أهل الكفر - لما نصجوه بالعذاب وعلموا أن الشفاعة لغيرهم - قالوا: «فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَاعَةٍ فَيَشْفَعُونَا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَعَمَلَ غَيْرَ الَّذِي كَانَ نَعْمَلُ» [الأعراف: ٥٣].

وقال عز وجل: «فَكَبَرُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ» [٩٤] وَجَنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ [٩٥] قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ [٩٦] تَالَّهُ إِنْ كَانَ لَنِي ضَلَالٌ مُّبِينٌ [٩٧] إِذْ نُسَوِّيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٩٨] وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ [٩٩] فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ [١٠٠] وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ» [الشعراء: ٩٤ - ١٠١] [١١].

وقال عز وجل في سورة المدثر - وقد أخبرنا أن الملائكة قالت لأهل الكفر -: «هُمَا سَلَكْتُمْ فِي سَقَرَ» [٤٢] قَالُوا لَمْ نَكُنْ مِّنَ الْمُصْلِحِينَ [٤٣] وَلَمْ نَكُنْ نُطْعَمُ الْمُسْكِنِينَ [٤٤] وَكَنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ [٤٥] وَكَنَّا نُكَذَّبُ بِيَوْمِ السَّدِيسِ [٤٦] حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ [٤٧] فَمَا تَفَعَّهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» [المدثر: ٤٢ - ٤٨].

وقال الآجري في معنى قول الله تعالى: «هُرَبُّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ» [الحجر: ٢]: «وإغا ود الكفار أن لو كانوا مسلمين عندما رأوا معهم في النار قوماً موحدين، فغيروهم، وقالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار، فحزنوا من ذلك، فأمر الله عز وجل الملائكة والأنبياء ومن سائر المؤمنين أن يشفعوا فيهم، فشفعوا، فأنخرج من النار أهل التوحيد، ففقدتهم أهل الكفر، فسألوا عنهم، فقيل: شفع فيهم الشافعون لأنهم كانوا مسلمين،

فعندها ودوا لو كانوا مسلمين حتى تلتحقهم الشفاعة»^(١).

أدلة نفأة الشفاعة في أهل الكبائر من القرآن الكريم والجواب عنها :

وفيما يلي نعرض بعض أدلة أولئك النفأة للشفاعة من معتزلة وخوارج وغيرهم، من ينكر ثبوت الشفاعة في أهل الكبائر وإخراجهم من النار.

«فَمَا احْتَجَتْ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ لِمَذْهِبِهِمْ فِي نَفَأَةِ الشَّفَاعَةِ :

قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ» [البقرة: ٤٨]، وقوله: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» [غافر: ١٨].

وزعموا أن من دخل جهنم يخلد فيها؛ لأن إما كافر أو صاحب كبيرة مات بلا توبية، هذا رأيهم ومن وافقهم؛ وهو رأي فاسد ومذهب باطل^(٢).

ويلخص شيخ الإسلام ابن تيمية الآيات التي استدل بها نفأة الشفاعة، فيقول: «واحتاج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ» [البقرة: ٤٨].

ويقوله: «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَفْعَلُهَا شَفَاعَةٌ» [البقرة: ١٢٣].

ويقوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعَثُ فِيهِ وَلَا خَلْقٌ وَلَا شَفَاعَةٌ» [البقرة: ٢٥٤].

(١) الشريعة ص ٣٣٦ - ٣٣٥.

(٢) لوامع الأنوار ص ٢١٧ ج ٢.

ويقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعٌ﴾ [غافر: ١٨].

ويقوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] (١).

ونضيف إلى ما سبق - من استدلال المعتزلة على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر وإخراجهم من النار - ما ذكر الرازي من الآيات التي استدلوا بها - إضافة إلى ما تقدم - وهي قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقوله: ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلُوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَافِلِينَ﴾ [الأنفطار: ١٤ - ١٦].

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يوحنا: ٣].

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مِنْ أَذْنِ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَّابًا﴾ [النَّبِيَّ: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَرْمَوْنَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعَلِمَمَا فَاعْغَرُ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

ومن أدلةهم كذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَعْتَيِ﴾ [طه: ٧٤].

(١) التوسل والوسيلة ص ١٠ - ١١.

﴿بَلِّيْ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

إلى غير ذلك من الآيات التي فيها دلالة في الظاهر على تخليد العصاة الفساق في النار بزعمهم، بحججة أن الله قد حكم عليهم بالخلود في النار وعدم الشفاعة فيهم^(١).

ونكتفي بما أوردناه من شبههم من القرآن الكريم، وإن كان لهم شبة أخرى أيضاً من القرآن الكريم - قد نسبها إليهم أهل العلم - قد تمسكوا بها كذلك لإبطال الشفاعة في أهل الكبائر، وعدم خروجهم من النار^(٢)، تركناها لخوف الإطالة واكتفاءً بالمهم من أدلةهم.

ونبين فيما يلي وجه استدلالهم بتلك الآيات على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر، والجواب عن كل دليل استدلوا به.

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة ص ٦٨٩.

(٢) حجج القرآن ص ٧٧.

لوامع الأنوار ص ٢١٧ ج ٢.

تذكرة القرطبي ص ٣٤٤.

الفصل لابن حزم ٤ / ٦٥.

التوسل والوسيلة ص ١٠-١١.

مجمع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١ / ١١٦.

شرح الأصول الخمسة ص ٦٧٨ - ٦٨٩.

رسائل العدل والتوحيد ١ / ٢٤٤.

الشريعة للأجري ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

وجه استدلالهم بالآيات السابقة والجواب عنه :

أما وجه استدلالهم بتلك الآيات، وما في معناها مما يدل بظاهره على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر وخلودهم في النار، والرد عليهم، فهو كما يلي :

قالوا: إن قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] يدل على نفي الشفاعة؛ وذلك أن الله أخبر أنه لا تحمل نفس عن نفس شيئاً من الآثم، ولا تؤثر في إسقاط العقاب عنها، «ولو أثربت الشفاعة في إسقاط العقاب؛ لكان قد أجزت نفس عن نفس شيئاً»^(١)، وهو بخلاف ما دلت عليه الآية في زعمهم، قالوا: وقد أخبرنا الله أنه لا يقبل منها شفاعة، «وهذه نكارة في سياق النفي، فتعم جميع أنواع الشفاعة»^(٢).

وقالوا كذلك: إن الله تعالى أخبر أنهم لا ينصرون، لا بشفاعة ولا بغيرها، «ولو كان محمد شفيعاً لأحد من العصاة لكان ناصراً له، وذلك على خلاف الآية»^(٣).

والجواب عن هذا الدليل: أن المعتزلة أخطأوا في فهم المراد من الآية؛ وذلك أن نفيهم الشفاعة عن العصاة - وجعلها للمتقيين المستحقين للثواب، لزيادة المنافع على قدر ما استحقوا^(٤). هذا أمر غير مسلم به؛ إذ لا يجوز أن يكون المراد من الآية نفي الشفاعة في زيادة المنافع؛ لأنه تعالى حذر من ذلك اليوم بأنه لا تنفع فيه شفاعة، وليس يحصل التحذير إذا رجع نفي الشفاعة إلى

(١)-(٤) التفسير الكبير للرازي ٣/٥٦.

تحصيل زيادة النفع؛ لأن عدم حصول زيادة النفع ليس فيه خطر ولا ضرر. يبين ذلك أنه تعالى لو قال: اتقوا يوماً لا أزيد فيه منافع المستحق للثواب بشفاعة أحد؛ لم يحصل بذلك زجر عن المعاصي، ولو قال: اتقوا يوماً لا أسقط فيه عقاب المستحق للعقاب بشفاعة شفيع؛ كان ذلك زجراً عن المعاصي؛ فثبتت أن المقصود من الآية نفي تأثير الشفاعة في إسقاط العقاب، لا نفي تأثيرها في زيادة المنافع^(١).

ثم إن إخبار الله تعالى بأنه لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ظاهر في أن المراد: لا تحمل نفس عن نفس من ذنبها، ولا تزيد في درجاتها، ولا يعني فيه أحد عن أحد، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يُوْمَلَدُ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، إلا إذا أذن الله بالشفاعة، وهذا لا تفيه الآية؛ بل تغنى الشفاعة في الكفار، وأنه لا ناصر لهم من الله، لا قريب ولا بعيد، ولا نبي ولا غيره، بأي وجه من وجوه النصرة، سواء أكانت تلك النصرة هي الشفاعة أم غيرها، فهذا منفي عن الكفار لا عن أهل الكبائر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]، قال: لا تغنى نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئاً^(٢).

فنفي الشفاعة إنما هو عن الكفار وليس عن أهل الكبائر؛ لثبت ما يخصص هذا العموم في الآية بما ورد في السنة المطهرة، من نصوص صحيحة في ثبوت الشفاعة في أهل الكبائر.

(١) تفسير الرازى ٣ / ٥٦.

(٢) فتح القدير ١ / ٨٤.

وقال السفاريني - في رده لاستدلال المعتزلة بهذه الآية -: «أوجابوا عن الآية الكريمة: أن المراد بقوله تعالى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾: الكفار؛ للآيات الواردة والأخبار الثابتة في الشفاعة. قال القاضي البيضاوي: تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها مخصوصة بالكفار، ويريد هذا أن مساق الخطاب معهم، والآية نزلت ردًا لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم»^(١).

ووجه استدلالهم بقوله تعالى: ﴿مَا لِظَالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]: أن الله تعالى نفى عن الظالمين وجود صديق أو شفيع ينفعهم، وهذا الوصف - وهو الظلم - يتناول الكافر وغيره، فأثبتت الله انتفاء الشفاعة عن الظالم، وهذا يدل - بزعمهم - على أنه لا فرق بينهما من ناحية انتفاء الشفاعة.

ويرجاب عن هذا: بأن الآية واردة على المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وغيره من الذنوب، وليس واردة على المؤمن الذي يتصف أحياناً بالظلم، والاتصاف بالظلم يختلف أهله فيه اختلافاً كبيراً، لكن الظالم على الإطلاق هو الكافر، ومعنى هذا: أن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافر.

قال ابن كثير عن معنى الآية: «أي ليس للذين ظلموا أنفسهم - بالشرك بالله - من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع لهم؛ بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير»^(٢).

(١) لوامع الأنوار ص ٢١٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٧٥.

وقال السفاريني - بعد أن ذكر استدلال المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة : «**المراد بالظالمين الكفار؛ فإن الظالم على الإطلاق هو الكافر**»^(١).

وذهب الرازي - في الجواب عن شبهة المعتزلة في الآية - إلى أن الله تعالى «نفي أن يكون للظالمين شفيع يطاع، ولم ينف شفيعاً يجاب، ونحن نقول بوجبه، فإنه لا يكون في الآخرة شفيع يطاع؛ لأن المطاع يكون فوق المطيع، وليس فوقه تعالى أحد يطيعه الله تعالى؛ لأننا نقول : لا يجوز حمل الآية على ما قلتم من وجهين :

الأول : أن العلم بأنه ليس فوقه تعالى أحد يطيعه متفق عليه بين العقلاة، أما من أثبته سبحانه فقد اعترف أنه لا يطيع أحداً، وأما من نفاه؛ فمع القول بالنفي استحال أن يعتقد فيه كونه مطيناً لغيره، فإذا ثبت هذا كان حمل الآية على ما ذكرتم حملاً لها على معنى لا يفيد.

الثاني : أنه تعالى نفي شفيعاً يطاع، والشفيع لا يكون إلا دون المشفوع إليه؛ لأن من فوقه يكون أمراً له وحاكمًا عليه، ومثله لا يسمى شفيعاً، فأفاد قوله «شفيع» كونه دون الله تعالى، فلم يمكن حمل قوله «يطاع» على من فوقه، فوجب حمله على أن المراد به أنه لا يكون لهم شفيع يجاب^(٢).

ومن هذه الأجبوبة يتضح أنه لا دليل للمعتزلة في الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبار.

ووجه استدلالهم بقوله تعالى : «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّفُقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنْ**

(١) لوعي الأنوار / ٢١٧.

(٢) التفسير الكبير / ٣٥٦.

قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمًا لَا يَبْعِثُ فِيهِ وَلَا خَلْةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ...») [البقرة: ٢٥٤] إلخ الآية، ما قاله الرازى من أن «ظاهر الآية يقتضى نفي الشفاعات بأسرها»^(١).

وهم لا يقولون بذلك؛ بل يثبتون بعض الشفاعات كما هو معلوم من مذهبهم، كإثبات الشفاعة العظمى، والشفاعة في رفع الدرجات، واستدلالهم بهذه الآية على نفي أي نوع من الشفاعة لا يتفق مع إثباتهم لبعضها.

ويجاح عن هذا أيضاً، بأن الآية واردة على الكفار المتصفين بالظلم على الإطلاق، لا على الطالمين من أهل الإيمان؛ فإنها لا تشملهم لشمولها ما يخصصهم، وقد تقدم أنه ليس كل ظالم كافر، بخلاف الكافر فإنه ظالم ولابد، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: «الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون»^(٢).

ويقول الطبرى: «وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عام والمراد بها خاص، وإنما معناه: من قبل أن يأتي يوم، لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة، لأهل الكفر بالله؛ لأن أهل ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض»^(٣)، فهم ليسوا بمنزلة الكفار الذين يقولون: «فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعٍ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ» [الشعراء: ١٠١، ١٠٠]، أي فيشفع لنا إلى ربنا للخروج من النار؛ لأنهم ليس لهم من يؤملونه للشفاعة، لا من الملائكة ولا من الأقارب، وإن

(١) التفسير الكبير / ٣ / ٥٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم / ١ / ٣٠٤، فتح القدير / ١ / ٢٧١.

(٣) تفسير الطبرى / ٣ / ٣.

كانوا يعلمون والله، أن الصديق إذا كان صالحًا دفع، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع، كما قال قتادة^(١).

ولكن هؤلاء كفار يائسون من رحمة الله لانقطاع رجائهم، أما أهل المعاصي من المؤمنين فلا يزال أملهم قوياً في الخروج منها، لما يرون من رحمة الله وإخراجه من النار لمن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وإلا لتساوي في النار من كان معه أصل الإيمان وجزء منه، ومن كان بعيداً عن الإيمان وليس في قلبه مثقال ذرة منه، ويأبى الله هذا الحكم، وقد نفاه تعالى عن نفسه.

ووجه استدلالهم بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ...﴾ [آل عمران: ١٩٢] إلخ الآية، إن الله قد بين أنه ليس للظالم في يوم القيمة أي ناصر ينصره من الله؛ لا من قربة، ولا من الرسل «ولو كان الرسول يشفع للفاسق من أمهته لوصفوا بأنهم منصوروه؛ لأنه إذا تخلص بسبب شفاعة الرسول عن العذاب فقد بلغ الرسول النهاية في نصرته»^(٢).

ويحتجب عن هذا، بأن الآية ليست في مجرد الدخول؛ بل إنها في حق من هو أهل للخلود في النار على التأييد؛ وهم الكفار، قال القرطبي: «ولا نقول كما قال أهل حروراء فيكون قوله على هذا ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ على بابه من الهلاك؛ أي: أهلكته وأبعدته ومقته، وللهذا قال سعيد بن المسيب: الآية جاءت خاصة في قوم لا يخرجون من النار، دليلاً قوله في آخر الآية: ﴿مَا لِظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾؛ أي الكفار»^(٣).

ومعلوم أن هذه الآية وإن كان ظاهرها العموم، لكنها خصصت بأدلة

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٤٠ / ٣.

(٢) تفسير الرازى ٣ / ٥٧.

(٣) التذكرة ص ٣٤٤.

أخرى ، ولا تفيد أن الظالم كافر لا يستحق الشفاعة فيه أبداً .

ويقول السفاريني :

«وقالت المعتزلة في قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتُهُ﴾ ، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، ﴿وَكَمْ مَنْ مَلِكٌ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتَهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيرْضَى﴾ [النجم : ٢٦] ، ومن أخزاه الله لا يرضيه ومن ارتضاه لا يخزيه ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ أَبْيَهِي وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورٌ هُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم : ٨] .

والجواب عن الآية الأولى : قال سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ : معنى ﴿مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ﴾ : من تخلد ، وقال قتادة : تدخل مقلوب تخلد ، ولا نقول كما قالت أهل حرواء (يعني الخوارج) ؛ فعلى هذا قوله : ﴿فَقَدْ أَخْرَيْتُهُ﴾ على بابه من الهلاك ؛ أي أهلكته وأبعدته ومقته ، ولهذا قال سعيد بن المسيب : الآية جاءت خاصة في قوم لا يخرجون من النار ، دليله قوله في آخر الآية ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي الكفار .

وإن سلم أن الآية في عصاة الموحدين فالمراد بالخزي : الحياة ، يقال : خَزَى يَخْزَى خَزَى إذا استحيى ، فهو خزيانا ، وامرأة خزيا ، فخزي المؤمنين يومئذ : استحياءهم من دخول النار ودار البوار ، مع أهل الشرك والكفار ، ثم يخرجون بشفاعة النبي ﷺ ، ورحمة الرؤوف الرحيم .

ونفي النصرة لا يستلزم نفي الشفاعة ؛ لأنها طلب مع خضع ، والنصرة ربما تبني على المدافعة والممانعة والاستعلاء ، على أنا نقول : لا يسلم لهم زعمهم أن الفاسق غير مرضي مطلقا ، بل هو مرضي من جهة الإيان والعمل

الصالح، وإن كان مبغوضاً من جهة الذنوب والعصيان وارتكاب القبائح؛ بخلاف الكافر؛ فإنه ليس بمرضي مطلقاً، لعدم الأساس الذي تبني عليه الحسنات والاعتداد بالكمالات؛ وهو: الإيمان^(١).

ووجه استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنياء: ٢٨] على نفي الشفاعة للعصاة بأنه: «أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ لَا يَشْفَعُونَ لَأَحَدٍ إِلَّا أَنْ يَرْتَضِيهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْفَاسِقُ لَا يَرْتَضِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا لَمْ تَشْفُعْ الْمَلَائِكَةُ لَهُ، فَكَذَّا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ لَأَنَّهُ لَا قَاتِلٌ بِالْفَرْقِ»^(٢).

وإذا كان الفساق عندهم من لم يرض الله عنهم؛ فإنهم يكونون من غضب عليهم، وإذا كان قد غضب الله عليهم فإنهم من أهل النار.

ويجاب عن هذا، بأنه لا يصح القول بأن العاصي قد خرج عن رضى الله تعالى، كما خرج عنه المشرك، الذي مات على غير التوحيد، ويتبين هذا الخطأ الذي ارتكبوه، بمساواتهم أهل الكبائر بالكافار والمشركين، في الخلود في النار، حينما نقارن بين موحد الله تعالى معترف بوحدانيته، وبين آخر مشرك جعل مع الله آلهة أخرى؛ ليس له أي عمل صالح يتقرب به إلى الله، هل يستوي عقلاً وشرعاً أن يتساوی جزاء هذا بهذا؟

لابد أن يكون الجواب بالنفي، فهذا معه من الإيمان بالله، والأعمال الصالحة الأخرى، ما يطمعه في رضى الله تعالى عنه، فهو تحت المشيئة؛ إن شاء الله عذبه بذنبه وأخرجه إلى الجنة، وإن شاء عفا عنه ودخل الجنة مباشرة فإن الله تعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنِ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

(١) انظر: لوازم الأنوار ص ٢١٧.

(٢) التفسير الكبير ٣ / ٥٧.

ومن الواضح أن المؤمن العاصي قد جمع بين الإساءة والإحسان؛ فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبائره، يحب على ما عنده من إيمان، ويبغض على ما عنده من فسوق وعصيان، وأمره في الآخرة إلى الله؛ إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه على معصيته، ثم أخرجه من النار وأدخله الجنة. كما دلت النصوص الكثيرة على ذلك من الكتاب والسنة.

وأما وجه استدلالهم بقوله تعالى: «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» [المدثر: ٤٨]، فهو أن الله قد أخبر عن العصاة الفساق بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تغني عنهم شيئاً، ولو أثرت الشفاعة في إسقاط العقاب لكان الشفاعة قد تنفعهم؛ وذلك ضد الآية^(١)، وهو إثبات لافتته الآية بزعمهم.

ويحاجب عن هذا بأن استدلالهم بها يصح فيمن كانت هذه صفتة؛ لأن عدم نفع الشفاعة لا يصح إلا على الكفار، أما شمول النفي لغيرهم من عصاة أهل القبلة، فإنه غير داخل في النفي الوارد في الآية.

قال ابن كثير في تفسيره للآية: أنها واردة على «من كان متصفًا بمثل هذه الصفات - يعني الكفر بالله». فإنه لا تنفعه يوم القيمة شفاعة شافع؛ لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان محل قابلًا، فأما من وافى الله كافرًا يوم القيمة، فإنه له النار لا محالة خالدًا فيها^(٢).

والمؤمن العاصي قابل للشفاعة، بل هو أحق ما يكون بها من غيره؛ لأن من عداه، إنما كافر لا تنفعه الشفاعة، وإنما فائز لا يحتاج إليها. إلا لرفع درجاته.

وأما وجه استدلالهم بقوله تعالى: «وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيلٍ...» [الأنفال: ١٤ - ١٦]

(١) التفسير الكبير ٣ / ٥٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٤٧.

إلخ على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر، وذلك أن الله قد حكم على الفجار بأنهم في جحيم لا يغيبون عنه مخلدين فيه، وأن معنى الآية -في زعمهم- «يدل على أن كل الفجار يدخلون النار وأنهم لا يغيبون عنها، وإذا ثبت أنهم لا يغيبون عنها ثبت أنهم لا يخرجون منها، وإذا كان كذلك، لم يكن للشفاعة أثر؛ لافي العفو عن العقاب، ولا في الإخراج من النار بعد الإدخال فيها»^(١)، فالقول بعد ذلك بأنهم يخرجون من النار بالشفاعة أو لا يدخلونها لا يتفق مع معنى الآية حسب ما ذهبوا إليه.

وهذه الشبهة كغيرها من الشبه التي أوردوها؛ فهي لا تدل على نفي الشفاعة مطلقاً، وإنما تدل على أن قسماً من الناس يدخلون النار ويعذبون فيها؛ فإما أن تشملهم رحمة الله بالشفاعة -خصوصاً وإنه لم يذكر تأييد خلودهم- أو لا ؟ فإن كانوا من أهل الشفاعة فلا بد أن تشملهم، وإلا فهم في النار لا يخرجون منها، إذا كان المراد بالفجار هنا الكفار؛ وعلى هذا فالآية لا تدل على نفي الشفاعة عن جميع الناس العصاة.

وقد فسر الطبرى الفجار هنا بأنهم الكفار^(٢)، وحيثند فلا خلاف في أنهم لا يغيبون عنها.

وأما وجه استدلالهم بالأيات، التي تدل على نفي الشفاعة لأحد إلا بإذن الله، مثل قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿مِنْ ذَا الَّذِي يَشْفُعُ عِنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ٢٥٥]، ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مِنْ أَذْنِ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾

(١) تفسير الرازى ٣ / ٥٧.

(٢) تفسير الطبرى ٣٠ / ٨٩.

وَقَالَ صَوَابًا ﴿البٰ: ٢٨﴾، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفَى الشَّفَاعَةَ عَمَّنْ لَمْ يَأْذِنْ فِي شَفَاعَتِهِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَأْذِنْ فِي الشَّفَاعَةِ فِي حَقِّ أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ.

ثُمَّ اسْتَدَلُوا عَلَى عَدْمِ وُجُودِ الإِذْنِ بِالشَّفَاعَةِ فِيهِمْ، بِأَنَّ هَذَا الإِذْنَ لَوْ عُرِفَ لَعِرْفٍ إِمَّا بِالْعُقْلِ أَوْ بِالنَّقلِ؛ «قَالُوا: أَمَا الْعُقْلُ فَلَا مَجَالٌ لَّهُ فِيهِ، وَأَمَا النَّقلُ فَإِمَّا بِالتَّوَاتِرِ أَوْ بِالْأَحَادِ»، وَالْأَحَادِ لَا مَجَالٌ لَّهُ فِيهِ؛ لِأَنَّ رِوَايَةَ الْأَحَادِ لَا تَفِيدُ إِلَّا الطَّنَ، وَالْمَسْأَلَةُ عِلْمِيَّةٌ وَالْتَّمْسِكُ فِي الْمَطَالِبِ الْعِلْمِيَّةِ بِالدَّلَائِلِ الظَّنِيَّةِ غَيْرُ جَائزٍ^(١)، وَأَمَّا بِالتَّوَاتِرِ فَبَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ حَصَلَ ذَلِكَ لِعِرْفٍ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ مَا أَنْكَرُوا هَذِهِ الشَّفَاعَةَ، فَحِيثُ أَطْبَقُ الْأَكْثَرُونَ عَلَى الْإِنْكَارِ عَلَمْنَا أَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ هَذَا الإِذْنُ^(٢).

وَقَالُوا كَذَلِكَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْذِنُ بِالشَّفَاعَةِ فِي الْعَصَمَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ رِضْوَانِهِ.

وَيَجَابُ عَنْ هَذَا بِأَنَّ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهِ خَطَا وَصَوَابٌ؛ أَمَا الصَّوَابُ الَّذِي فِيهِ فَهُوَ أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَشْفَعُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِيمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَجْتَرِئُ عَلَى طَلْبِ الشَّفَاعَةِ إِلَّا إِذَا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَشْفَعُ.

وَأَمَا الْخَطَا الَّذِي فِيهِ فَهُوَ: القُولُ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضِي وَلَا يَأْذِنُ أَنْ يَشْفَعَ أَحَدٌ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ؛ لِأَنَّهُمْ خَارِجُونَ عَنْ رِضَى اللَّهِ، وَقَدْ تَقْدِمُ أَهْلُ الْكَبَائِرِ لَيْسُوا خَارِجِينَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَرَضَاهُ كَخُرُوجِ الْكُفَّارِ، ثُمَّ إِنَّ القُولَ بِأَنَّ أَهْلَ

(١) سَيَّأَنِي الْكَلَامُ عَنْ ثَبَوتِ الاعْتِقَادِ بِغَيْرِ الْأَحَادِ فِي مَبْحَثِ الرَّوْيَةِ.

(٢) انْظُرْ: التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ ٣ / ٥٨.

الكبار لا يؤذن لأحد بالشفاعة فيهم ليس عليه دليل ، بل إن الأدلة كلها تفيد إثبات الشفاعة فيهم .

وأما وجه استدلالهم بقول الله تعالى - عن دعاء حملة العرش - : ﴿رَبَّنَا وَسَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِيمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر : ٧] إلخ الآية .

فالروا : «لو كانت الشفاعة حاصلة للفاسق لم يكن لتفقيدها بالتوبه ومتابعة السبيل معنى»^(١) ، فهذا يدل بزعمهم على أن الفاسق الذي مات دون توبه لا يستحق الثواب ولا الشفاعة فيه؛ لأن الملائكة قيدوا دعاءهم وشفاعتهم إلى ربهم بالتوبه ، فإذا لم يكن الشخص من أهل التوبه فإنه لا حق له في الشفاعة ؛ وإلا لما كان لتفقيده الملائكة بالتوبه معنى .

ويجاب عن هذا ، بأن دعاء الملائكة ليس فيه دليل على حرمان العصاة من الشفاعة والدعاء لهم ، وقد تقدم أن كل لفظ عام ورد في القرآن الكريم ، يدل على نفي الشفاعة عن الكفار ، أنه لا يدخل فيه أهل الذنب من المؤمنين ، وبخصوصه كذلك ما ثبت في السنة المطهرة من وقوع الشفاعة لأهل الذنب ؟ غاية الأمر أن الملائكة خصوا بدعوتهم - لمزيد العناية والاهتمام - قسمًا خاصًا من الناس وهم من اتصف بالتوبه والاستغفار ، وهذا الخصوص لا ينافي العموم السابق - وهو استغفارهم للذين آمنوا ؛ فلاشك أن مرتكب الكبيرة لا يسمى كافراً ، بل هو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبائره ، ودعاء الملائكة يشمله بما معه من الإيمان .

وذكر القاضي عبد الجبار المعذلي بعض الآيات التي يستدلون بها على

(١) التفسير الكبير ٣ / ٥٨ .

نفي الشفاعة عن أهل الكبائر، ونفي خروجهم أيضاً من النار بقوله: «فمن جملة ما يمكن الاستدلال به على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلُهُ نَارًا حَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤].

ثم قال عن وجه استدلالهم بالأية: «فالله تعالى أخبر أن العصاة يعذبون بالنار ويخلدون فيها، والعاصي اسم يتناول الفاسق والكافر جميعاً، فيجب حمله عليهما؛ لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه، فلما لم يبينه دل على ما ذكرناه»^(١).

وللإجابة عن استدلاله نقول: إن العاصي المذكور هنا هو الشخص الذي حادَ الله ورسوله، وشك في حكم الله في الميراث. لأنها واردة في حق المواريث - فلم يمثل أمر الله في الميراث، بل عصى الله فيه وعانده وجحد فرض الميراث، فبذلك يكون كافراً محادلاً لله ورسوله.

قال ابن حرير: «فإن قال قائل أويخلد في النار من عصى الله ورسوله في قسمة المواريث؟ قيل: نعم، إذا جمع إلى معصيتهما في ذلك شكاً في أن الله فرض عليه ما فرض على عباده في هاتين الآيتين، أو علم ذلك فحادَ الله ورسوله في أمرهما، على ما ذكر ابن عباس من قول من قال - حين نزل على رسول الله ﷺ قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أُولَادِكُمْ لِلذِّكْرِ مِثْلُ حَظِ الْأَنْشَيْنِ...﴾ [النساء: ١٢، ١١] إلى تمام الآيتين: أيورث من لا يركب الفرس، ولا يقاتل العدو، ولا يحوز الغنيمة، نصف المال أو جميع المال؟؛ استنكاراً منهم قسمة الله ما قسم لصغر ولد الميت ونسائه وإناث ولده... إلى آخر كلامه رحمة الله.

وهؤلاء هم المنافقون: «الذين فيهم نزلت وفي أشكالهم هذه الآية، فهو

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٥٧.

من أهل الخلود في النار؛ لأنَّه باستنكاره حكم الله في تلك، يصير بالله كافراً،
ومن ملة الإسلام خارجاً»^(١).

ومن أدتهم كذلك قوله تعالى: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ
خَالِدًا فِيهَا» [النساء: ٩٣].

قال القاضي عبد الجبار عن وجه الاستدلال به بالآية: «ووجه الاستدلال هو
أنَّه تعالى بين أنَّ من قتل مؤمناً عمداً، جازاه وعاقبه وغضب عليه ولعنه، وفي
ذلك ما قلنا»^(٢).

ويحاب عن معنى هذه الآية - التي استدل بها عبد الجبار - بأنَّ الخلاف قائم
بين أهل العلم في معنى هذا الجزء الذي ذكره الله تعالى.

ومن أقوال العلماء في ذلك:

١ - أنَّ هذا الجزء هو جزاؤه إن جازاه.

٢ - أنَّ من قتل مؤمناً متعمداً مستحلاً قتله فهذا هو جزاؤه.

٣ - أنَّ هذا الحكم هو فيمن لم يتتب.

ولعلَّ الأرجح من ذلك: هو القول الأول؛ كما رأجه ابن جرير - رحمه الله -
بقوله: «قال أبو جعفر: وأولى القول في ذلك بالصواب قول من قال: معناه:
ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه - إن جازاه - جهنم خالداً فيها، ولكنه يغفو أو
يتفضل على أهل الإثبات به وبرسوله، فلا يجازيهم بالخلود فيها ولكنه عز
ذكراه. إما أن يغفو بفضله فلا يدخله النار، وإما أن يدخله إليها ثم يخرجه منها

(١) انظر: جامع البيان / ٤ / ٢٩١.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٦٥٩.

بفضل رحمته لما سلف من وعده عباده المؤمنين بقوله: ﴿يَا عَبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾^(١) أي ما عدا الشرك بالله الذي هو أكبر الجرائم على الإطلاق.

ومن أدلةهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤].

قال القاضي عن وجه استدلالهم بهذا النص: «ووجه الاستدلال به هو أن المجرم اسم يتناول الكافر والفاشق جمیعاً: فيجب أن يكونوا مرادين بالأية معنین بالنار؛ لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبيته، فلما لم يبيته دل على أنه أرادهما جمیعاً»^(٢).

ويحتجب عن هذا بأن المجرمين المذكورين هنا ليسوا هم عصاة أهل التوحيد، وإنما هم الكفار، بدليل أن الله وصف عذابهم بالخلود، وليس من لازم إرادة الكفار أن يبين أن جرمهم كان الكفر بالله تعالى، وقد نص علماء السلف على أن هؤلاء المجرمين هم الكفار الذين اجترموا في الدنيا الكفر بالله^(٣).

وقال القاضي عبد الجبار- بعد ذكر الآيتين السابقتين-: «وما يمكن الاستدلال به من عمومات الوعيد في كتاب الله تعالى كثير؛ فإنه يمكن أن يستدل بقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ويمكن أن يستدل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَهَنَّمَ﴾، «وفي ذلك كثرة ما ذكرناه».

(١) جامع البيان / ٥ / ٢٢١.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٠.

(٣) انظر: جامع البيان / ٢٥ / ٩٨.

«طريقة الاستدلال بالكل والاعتراض عليها مانبهنا عليه، فلا تطول به الكلام»^(١).

ولم يذكر وجه استدلالهم بالأياتين الأخيرتين؛ لأنه - كما يذكر - لا يختلف الحكم والمراد منهما عما سبقهما من إعطاء حكم الفاسق والعاصي حكم الكافر، وسبعين ما قاله أهل الحق من التفريق بينهما، وأن حكم العاصي ليس كحكم الكافر إلا عند المعتزلة والخوارج.

وأما وجه استدلالهم بالأيات التي تفيد تخليد أهل الكبائر من الفساق في النار وعدم الشفاعة فيهم؛ فقد سبق الجواب عنه فيما مضى من الآيات.

وبهذا يتضح لنا مما سبق أن استدلال نفاة الشفاعة ببعض الآيات التي تقدم ذكرها أنه استدلال خاطئ، وأن تلك الآيات التي تقدمت إنما تدل على نفي الشفاعة عن أهل الشرك أو نفي الشفاعة التي يثبتها الكفار لشركائهم من الأصنام أو نفي الشفاعة التي تكون بغير إذن الله ورضاه كما تدل على ذلك ظواهر تلك الآيات^(٢)، لأن نفيها عن أهل العاصي من أهل القبلة.

وليس في القرآن الكريم، ولا في السنة المطهرة، ولا في أقوال علماء السلف، ما يفيد إبطال الشفاعة للعصاة، وأن ما ورد - سواء في الكتاب أو السنة - يفيد نفيها عنهم فإن له معنى غير ما تمسك به نفاة الشفاعة، وإلا لأدى ذلك إلى ضرب النصوص بعضها بعضاً، وليس هذا من طريقة السلف، بل طريقتهم البحث والتمحیص للوصول إلى ما تلتقي عنده الأدلة.

وقد رأينا فيما سبق عرضه كيف أن المعتزلة والخوارج أيضاً قد خلطوا بين

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٣.

(٢) انظر: شرح العقبة الواسطية ص ١٢٨.

حكم الفاسق وحكم الكافر، ثم تسميتهم كذلك للفاسق كافراً، فخلطوا في التسمية بين العاصي والكافر والفاسق؛ حيث جعلوا الكل لسمى واحد، وهذا بخلاف ما جاء في القرآن الكريم، فإن الله تعالى قد مايز بين الكفر والفسق والعصيان بقوله تعالى: ﴿وَكَرَهَ إِلَيْكُمُ الْكُفَّارُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ أُولَئِكَ هُمُ الرَّأْشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

فقد فصل الله تعالى بين الكفر والفسق، وجعل كل واحد مستقلًا بنفسه، والمعطوف غير المعطوف عليه، فصار الكفر نوعاً والفسق نوعاً آخر والعصيان كذلك، فكرها جميعاً إلى قلوب المؤمنين، وحبب إليهم الإيمان، وفي بيان هذه الأنواع يقول محمد بن نصر المروزي: «ما كانت العاصي بعضها كفر وبعضها ليس بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة أنواع:

منها كفر، ونوع منها فسوق وليس بكفر، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق، وأخبر أنه كرهها كلها إلى المؤمنين، ولما كانت الطاعات كلها داخلة في الإيمان وليس فيها شيء خارج عنه، لم يفرق بينها، فيقول: حبب إليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات، بل أجمل ذلك فقال: حبب إليكم الإيمان فدخل في ذلك جميع الطاعات»^(١) إلخ.

وقد أثبت الله - كما هو معلوم - الإيمان للعصاة الفسقة في أحکام كثيرة، نذكر منها - على سبيل المثال - ما ورد في آية اللعان بين الزوجين؛ فإن ما لا شك فيه أن أحد الزوجين كاذب فيما نفاه عن نفسه، وإذا كان كاذباً - والكذب كبيرة - فإنه فاسق كما نص القرآن الكريم على فسقه إن كان كاذباً، وقد شرع الله بينهما اللعان؛ لأن بقاء الزوجية قبل اللعان غير متنفس مع فسق أحد الزوجين، وفي

(١) نقاً عن كتاب الإيمان لأبن تيمية ص ٣٤.

هذا يقول صاحب كتاب إبانة المناهج؛ جعفر بن أحمد: فلو كان الفسق كفراً والكافر فاسقاً لكانـت الزوجية مرفعة بينهما، إذ لا مناكحة بين مؤمن وكافر سيما إذا كان كفره ردة بعد إسلام متقدم، فـكان يجب أن لا يصح وقوع الملاعنة بينهما؛ لأن الملاعنة إنما شرعت بين الزوجين لا بين الأجنبيـن، فـلما علمـنا صحة اللـعانـ بين القاذـف وزوجـته، عـلمـنا أنه لم يـكـفـرـ واحدـ منـهـمـاـ معـ أنـ أحـدـهـماـ فـاسـقـ بلاـ مـرـيـةـ، وـذـلـكـ يـوـضـعـ بـطـلـانـ مـذـهـبـ الـخـواـرـجـ فيـ أـنـ كـلـ فـاسـقـ كـافـرـ، وـفيـ ذـلـكـ غـنـىـ لـكـلـ مـنـصـفـ»^(١).

ثم إنه لم يـنـقلـ عنـ الصـحـابـةـ وـلـاـ عنـ التـابـعـينـ أـنـهـمـ حـكـمـواـ فـيـ الـفـسـاقـ بـحـكـمـ الـكـفـارـ فـيـ الـحـقـوقـ وـالـوـاجـبـاتـ، بلـ اـعـتـبـرـواـ الـفـاسـقـ مـسـلـمـاـ وـعـامـلـوهـ مـعـاـمـلـةـ الـمـسـلـمـينـ فـيـ جـمـيعـ الـحـقـوقـ، «وـمـاـ يـدـلـ عـلـىـ ذـلـكـ مـاـ ظـهـرـ مـنـ إـجـمـاعـ الـصـحـابـةـ وـالـتـابـعـينـ، فـإـنـهـ مـعـلـومـ مـنـ أـحـوـالـهـمـ أـنـهـمـ لـمـ يـحـكـمـواـ فـيـ الـفـاسـقـ بـأـحـكـامـ الـكـفـارـ؛ فـلـمـ يـحـرـمـواـ مـيرـاثـهـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ، وـلـاـ حـكـمـواـ بـحـرـمةـ زـوـجـتـهـ عـلـيـهـ لـأـجـلـ فـسـقـهـ، وـلـاـ مـنـعـواـ مـنـ دـفـنـهـ فـيـ مـقـابـرـ الـمـسـلـمـينـ، وـهـذـاـ أـظـهـرـ مـنـ أـنـ يـخـفـيـ عـلـىـ مـتـأـمـلـ لـوـلـاـ شـدـةـ الـمـيلـ عـنـ الصـوـابـ وـالـانـحرـافـ، وـقـوـةـ التـعـصـبـ لـلـلـآـبـاءـ وـالـأـسـلـافـ»^(٢).

نعم، كـيـفـ يـجـوزـ أـنـ يـسـوـىـ بـيـنـ حـكـمـ مـؤـمـنـ بـالـلـهـ تـعـالـىـ مـصـدـقـ بـوـعـدهـ وـوـعـيدـهـ اـقـتـرـفـ ذـنـبـاـ لـطـبـيـعـتـهـ الـبـشـرـيـةـ، وـبـيـنـ كـافـرـ مـلـحدـ مـكـذـبـ لـوـعـدـ اللـهـ وـوـعـيدـهـ، قـدـ استـعـذـبـ الـمـعـاصـيـ وـالـشـهـوـاتـ وـأـحـلـ مـاـ حـرـمـ اللـهـ.

(١) إـيـانـةـ الـمـنـاهـجـ صـ ١٦٤ـ.

(٢) إـيـانـةـ الـمـنـاهـجـ صـ ١٦٤ـ. وـانـظـرـ: الـخـواـرـجـ تـارـيـخـهـ وـآـرـاؤـهـ الـاعـقـادـيـةـ وـمـوـقـفـ الـإـسـلـامـ مـنـهـاـ صـ ٣٥١ـ. لـكـاتـبـ هـذـهـ الأـسـطـرـ.

لاشك أن الفرق بينهما بعيد جداً؛ «فالمؤمن». كما قال الشيخ محمد نمر الخطيب. ولو كان عاصياً فإنه لا يخلو عن مراقبة الله تبارك وتعالى، ولا يخلو عن ندامة، ولا يخلو عن وخز الضمير، وأما الكافر فلا يرهب إلا القانون، وربما احتال عليه، ولا يرهب إلا الناس، وسرعان ما يستطيع أن يختفي عنهم ويبتعد عن أنظارهم إذا أراد المعصية، والكافر بعد معصيته لا يجد حاجة إلى الندم، ولا يشعر بشيء من الألم، بل يتمتع بأحل الذكريات وأشدّها عصياناً للرب^(١).

وقال أيضاً: «وبعبارة أخرى: إذا اشترك مؤمن وكافر بمعصية واحدة أو تشابها في معصية واحدة فهل يكون جزاً هما سواء؟ لاشك أن الإجابة تكون بالنفي، صحيح أن الذنب واحد والمعصية واحدة ولكنهما اختلفا في المنشأ واختلفا في المبدأ؛ فالمؤمن وإن عمل المعصية أو اقترف الذنب فإنه مع ذلك مسلم، بأنه قد عصى ومحظى بأنه قد خالف إلهه وحاد عن طريق مولاه، أما الكافر أو المشرك فإنه ليس كذلك؛ فإنه عندما اقترف المعصية أو قارف الذنب لم يكن مقرراً بأنه قد خالف ولم يكن معترضاً بصاحب هذا النظام، لذلك تباينت رتبتهما لاختلاف المنشأ والمصدر»^(٢).

فكيف يصح أن يقال: إن حكم المؤمن والكافر سواء في حرماته من الشفاعة وفي خلوده في النار؟

وإذا كان الحكم بخلود العصاة في النار خاطئاً فلاشك أن هذا الخطأ كان سببه الخطأ في الحكم عليهم بالكفر أيضاً، ومعلوم أن تكفيرهم أمر عظيم؛ إذ

(١) مقدمات وأبعاث تمهيدية في العقيدة الإسلامية ص ٧٤.

(٢) المصدر السابق ص ٧٢.

كيف نكفر من لم يكفره الله؟ فقد قال تعالى - في المقاتلين من المؤمنين -: «وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أُقْتِلُوا فَأَصْلُحُوا بَيْنَهُمَا» [الحجرات: ٩]، وقال تعالى: «فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُ الْمَعْرُوفِ وَإِذَا إِلَيْهِ يَأْتِسَانِ» [البقرة: ١٧٨]، فلم يخرجهم الله عن الإيمان، وسمى القاتل والمقتول أخوين، والنصوص في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ على عدم كفر العاصي أشهر من أن تذكر.

على أن ما ورد في بعض النصوص مما يفيد تكفير العاصي وبالتالي تخليله في النار قد أجاب عنه العلماء بأجوبة كثيرة، منها: أنها تمر كما جاءت ونكل حقيقة المراد منها إلى الله عز وجل، أو نقول إنها من أحاديث الزجر والوعيد، أو تكون واردة في حق المستحل لتلك العاصي، وغير ذلك من أقوال أهل العلم^(١).

قال النووي عن معنى حديث أبي هريرة: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»، إلخ، قال: «إن هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه فالقول الصحيح الذي قاله المحققون: أن معناه لا يفعل هذه العاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله ومختاره؛ كما يقال: لا علم إلا مانفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة».

وإنما تأولناه على ما ذكرناه لحديث أبي ذر وغيره: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق»، وحديث عبادة بن الصامت الصحيح المشهور: أنهم

(١) انظر: شرح النووي لسلم ١ / ٣١٣.

«بَايُعُوهُ عَلَى أَن لَا يَسْرِقُوا وَلَا يَزْنُوا وَلَا يَعْصُو» إلى آخره، ثم قال لهم ﷺ: «فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوْقَبُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كُفَّارَتُهُ، وَمَنْ فَعَلَ وَلَمْ يُعَاقَبْ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ».

فهذهان الحديثان، مع نظائرهما في الصحيح، مع قول الله عز وجل: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ» [النساء: ٤٨]، مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر - غير الشرك - لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصو الإيمان؛ إن تابوا سقطت عقوبتهما، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة؛ فإن شاء الله تعالى عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولاً، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة، وكل هذه الأدلة تضطرنا إلى تأويل هذا الحديث وشبهه، ثم إن هذا التأويل ظاهر سائع في اللغة، مستعمل فيها كثيراً، وإذا ورد حديثان مختلفان ظاهراً وجبراً الجمع بينهما، وقد ورد هنا فيجب الجمع وقد جمعنا^(١).

ثم قال - عن أقاويل العلماء في معنى هذا الحديث وشبهه مما يدل على كفر أهل المعاصي -: «وتأنول بعض العلماء هذا الحديث على من فعل ذلك مستحلاً له مع علمه بورود الشرع بتحريمه»، وذكر أقوالاً أخرى؛ كالقول بأن معناه «يتزع منه نور الإيمان»، أو تزع منه بصيرته في طاعة الله تعالى، ثم قال: «وذهب الزهرى إلى أن هذا الحديث وما أشبهه يؤمن بها ويبر

أو القول بأنه يتزع منه نور الإيمان، أو تزع منه بصيرته في طاعة الله تعالى، ثم قال: «وذهب الزهرى إلى أن هذا الحديث وما أشبهه يؤمن بها ويبر

(١) شرح النووي ١ / ٢٤٢.

على ما جاءت، ولا يخاض في معناها، وأنا لا نعلم معناها، وقال: أمروها كما أمرها من قبلكم، وقيل في معنى الحديث - غير ما ذكرته - مما ليس بظاهر بل بعضها غلط فتركتها، وهذه الأقوال التي ذكرتها في تأويله كلها محتملة، والصحيح في معنى الحديث ما قدمناه أولاً^(١). ولا يمنع أن يقال أيضاً: إن معنى الأحاديث المانعة للشفاعة ترد في حق أناس دون أناس، أو في حصولها في بعض الأماكن دون بعض، وهكذا.

وبهذا يتبيّن لنا بوضوح أن الحكم على العصاة من المؤمنين بحكم الكفار وبالتالي تخليلهم في النار أنه قول خاطئ وبعيد عن الصواب غاية البعد، وأن السبب الذي حدا بالخوارج والمعتزلة ومن سار على طريقتهم إلى القول بتخليل أهل المعاصي في النار وعدم جواز الشفاعة فيهم هو هذا الحكم الخاطئ بإخراجهم من الإيمان، وعدم تقبل ما ورد من نصوص صحيحة تخصيص أهل الكبائر من عموم التخليل في النار وإخراجهم منها إلى الجنة.

ونختم الكلام بما قاله الباقلانى - رحمه الله - :

«ولولا العناد والميل إلى سبيل الضالين ووساؤس المردة والشياطين لم يعدلوا عن إثبات الشفاعة المذكورة في نص الكتاب والمأثور وفي الأخبار إلى الترهات، وطريق التأويلات، وتلقيق الجهل والضلالات»^(٢).

أدلة نفاة الشفاعة عن أهل الكبائر من السنة، والجواب عنها :

ظهر مما سبق عرضه أن استدلال نفاة الشفاعة - من المعتزلة والخوارج -

(١) ج ١ ص ٢٤٢.

(٢) التمهيد ص ٣٧٥.

بتلك الآيات التي استندوا عليها في نفيهم وقوع الشفاعة في أهل الكبائر وخروجهم من النار أنه استدلال غير سديد، وإذا كانوا قد استندوا إلى تلك الآيات التي أبطلنا احتجاجهم بها على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر؛ فإنهم قد استندوا كذلك إلى أحاديث جعلوها شاهدة لهم على ما يذهبون إليه في اعتقادهم ذلك.

وفيما يلي نذكر بعض ما استدلوا به من السنة ووجه احتجاجهم بها وإبطال ذلك الاحتجاج.

١ - جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «دخل المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنما إن شاء الله بكم لاحقون، وودت أني قد رأيت إخواننا قالوا: يا رسول الله، ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد»، قالوا: يا رسول الله، كيف تعرف من يأتي من أمتك؟ قال: أرأيت إن كان لرجل خيل غير محجلة في خيل دهم، فهل لا يعرف خيله؟ قالوا: بلـ يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون يوم القيمة غرّاً محجلين من الوضوء، وأنـا فرطـهم علىـ الحوض، لاـ فـلينـادـنـ رـجـالـ عنـ حـوـضـيـ كـمـاـ يـنـادـ البعـيرـ الضـالـ، أـنـادـيـهـمـ أـلـاـ هـلـمـ، فـيـقـالـ: إـنـهـمـ قـدـ بـدـلـواـ بـعـدـكـ، فـاقـولـ: فـسـحـقـاـ فـسـحـقـاـ^(١).

ووجه استدلالهم من هذا الحديث على نفي الشفاعة، هو أنـهمـ قالـواـ: «لوـ كانـ شـفـيعـاـ لـهـمـ لـمـ يـكـنـ يـقـولـ: فـسـحـقـاـ فـسـحـقـاـ»؛ لأنـ الشـفـيعـ لاـ يـقـولـ ذـلـكـ وكـيـفـ يـجـوزـ أـنـ يـكـونـ شـفـيعـاـ لـهـمـ فـيـ الـخـلـاـصـ مـنـ الـعـقـابـ الدـائـمـ وـهـوـ يـعـنـهـمـ شـرـبةـ مـاءـ؟^(٢).

(١) أخرجه مسلم ١/٥٣٦.

(٢) التفسير الكبير ٣/٥٨.

وهذا الحديث لا دلالة لهم فيه على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر؛ لأن هؤلاء الذين دعا عليهم ليسوا من المسلمين؛ وإنما هم أهل ردة وكفر، وفي هذا يقول القاضي عياض عن هذا الدعاء: «هذا دليل لصحة تأويل من تأول أنهم أهل الردة، ولهذا قال فيهم: سحقاً سحقاً، ولا يقول ذلك في مذنبى الأمة؛ بل يشفع لهم، ويهتم لأمرهم».

قال: «وقيل: هؤلاء صنفان: أحدهما: عصاة مرتدون عن الاستقامة لا عن الإسلام، وهؤلاء مبدلون للأعمال الصالحة بالسيئة، والثاني: مرتدون إلى الكفر حقيقة، ناكصون على أعقابهم، واسم التبديل يشمل الصنفين»^(١).

٢ - واستدلوا كذلك^(٢) بما جاء عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة: «يا كعب بن عجرة: أعيذك بالله من إمارة السفهاء»، قال: وما ذاك يا رسول الله؟، قال: «أمراء سيكونون من بعدي، من دخل عليهم فصدقهم بحديثهم وأعانتهم على ظلمهم، فليسوا مني ولست منهم، ولم يردوا على العوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بحديثهم ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم وأولئك يردون على العوض، يا كعب بن عجرة، الصلاة قربان، والصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، يا كعب بن عجرة، لا يدخل الجنة من نبت لحمه من سحت؛ النار أولى به...»^(٣) الحديث.

ووجه استدلالهم بهذا الحديث ما جاء فيه من ألفاظ تفيد نفي الشفاعة عن أهل الكبائر - بزعمهم - وهي:

(١) شرح النووي لسلم ٥ / ١٦٢.

(٢) التفسير الكبير ٣ / ٥٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣ / ٣٩٩.

* قوله ﷺ: «فليس مني ولست منه»، ومعنى هذا «أنه إذا لم يكن من النبي ولا النبي منه فكيف يشفع له؟»^(١) ، فتبرأ النبي ﷺ منه ينفي شفاعته له.

* قوله ﷺ: «لم يرد على الحوض»، قالوا: إنه «دليل على نفي الشفاعة؛ لأنَّه إذا منع من الوصول إلى الرسول حتى لا يرد عليه الحوض، فبأن يمتنع الرسول من خلاصه من العقاب أولى»^(٢).

* قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة لحم بنت من السحت»، قالوا: إن هذا «صريح في أنه لا أثر للشفاعة في حق صاحب الكبيرة»^(٣) ، لتفيه ﷺ دخولهم الجنة لارتكابهم الكبائر.

وهذا الحديث لا دلالة فيه، على نفي الشفاعة عن جميع أهل الكبائر، وفي جميع مواطن القيامة؛ فإنَّ الرسول ﷺ يشفع في بعض الناس، ويؤخر شفاعته عن بعضهم، ثم يشفع لهم، كذلك لا يشفع لبعضهم في مكان من أمكنة يوم القيمة، ثم يشفع لهم في مكان آخر، كما ورد عن أهل العلم.

وهو لاء الذين يعنون من الشرب من الحوض، قد تقدم في جواب النوري أنهم المرتدون، فما المانع من اتصاف هؤلاء بأنهم مرتدون؟ وأنهم تحت إمرة سفهاء لا يبالون بشرع الله، وكم وقع في التاريخ من أمراء سفهاء يأمرُون بمحاربة الله ودينه وشرعيه بكل ما يملكون من وسائل.

ثم على فرض أن هؤلاء ليسوا من المرتدين، فقد يجوز أن يمنعوا من الشرب من الحوض، لاتصافهم بتلك الصفة، ثم لا يحرمون الشفاعة في دخول الجنة.

(١) التفسير الكبير / ٣، ٥٨، وصحة الحديث: «فليس مني ولست منه».

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وأما تصريحه عليه الصلاة والسلام بعدم دخول من أكل السحت الجنة، فإن هذا الوصف ينطبق على شخص يستحل ذلك، ولا يبالي بأكل الحرام، فمطعمه كله من السحت، ومعلوم أن المسلم -مهما كان حاله- لا يصل إلى أن يأكل من السحت مستحلاً له طول حياته؛ لا يميز بين الحلال والحرام.

٣- ومن أدتهم كذلك ما جاء عن النبي ﷺ من نفيه عدم استطاعته حصول النفع لبعض أهل الكبائر، كالغال مثلاً، الوارد فيه الحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: قال عليه الصلاة والسلام: «لأنفينا أحدكم يوم القيمة على رقبته شاة لها شفاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد يلغفك»^(١).

ووجه استدلالهم بهذا الحديث - الذي سرهم كثيراً - لأن الرسول ﷺ صرّح بعدم استطاعته غوث أحد -أوهم قالوا: إن هذا الحديث «صريح في المطلوب (نفي الشفاعة) ، لأنه إذا لم يملك له من الله شيئاً فليس له في الشفاعة نصيب»^(٢).

وهذا الحديث لا دلالة لهم فيه كذلك، وإن كان قد أخبر عليه الصلاة والسلام، عن عدم استطاعته نفع من ارتكب كبيرة الغلوّ بالشفاعة فيه، فإن الحديث وارد للإخبار بعثت من ارتكب تلك الكبيرة، ثم بعد ذلك تشمله الشفاعة في عموم الموددين لصراحة النصوص في ذلك.

قال القاضي عياض في معنى قوله ﷺ: «لا أملك لك من الله شيئاً»، قال: «معناه من المغفرة والشفاعة إلا بإذن الله تعالى»، قال: ويكون ذلك أولاً غضباً

(١) أخرجه البخاري ٦ / ١٨٥، ومسلم ٤ / ٤٩٥.

(٢) التفسير الكبير ٣ / ٥٨.

عليه لخالفته، ثم يشفع في جميع الموحدين بعد ذلك»، قال التزوبي: «كما سبق في كتاب الإيمان في شفاعات النبي ﷺ»^(١)، وقال ابن حجر -في بيان معنى الحديث أيضاً: «وكانه ﷺ أبرز هذا الوعيد في مقام الزجر والتغليظ، وإن فهو في القيامة صاحب الشفاعة في مذنب الأمة»^(٢).

٤ - ومن أدلةهم أيضاً ما جاء في بعض الأحاديث من تصريحه ﷺ بأنه خصم لبعض أهل الكبار، كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيمة، ومن كنت خصمه خصمته؛ رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجراً»^(٣).

ووجه استدلالهم بالحديث هو أنهم قالوا: «إنه عليه الصلاة والسلام لما كان خصيمًا لهؤلاء، استحال أن يكون شفيعاً لهم»^(٤)؛ إذ لا يمكن أن يكون خصيمًا لهم وشفيعًا في آن واحد لامتناع هذا.

وهذا الحديث الذي استدلوا به هو ما جاء في لفظ ابن ماجه، حيث أنسد خصومتهم إلى الرسول ﷺ، بينما هو في الصحيح جاء بإسناد الخصومة إلى الله تعالى، حيث قال البخاري في روایته له: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيمة: رجل أعطى بي ثم غدر... إلخ الحديث»^(٥).

(١) شرح التزوبي لمسلم ٤٩٥.

(٢) فتح الباري ٦ / ١٨٦.

(٣) ابن ماجه في سنّة ٢ / ٨١٦.

(٤) التفسير الكبير ٣ / ٥٨.

(٥) أخرجه البخاري ٤ / ٤٤٧ - ٤١٧.

فعلى رواية البخاري لم يقل الرسول ﷺ أنه خصيم لهؤلاء، وعلى رواية ابن ماجه فإن الحديث يعتبر من باب الزجر والتشديد في التحذير، وليس فيه معارضة لما ثبت من حصول الشفاعة لأهل الكبائر، فربما أن هؤلاء يعذبهم الله تعالى، ثم يصدق عليهم ما ثبت من دخولهم في الشفاعة إذا كانوا من أهل التوحيد، وما المانع من أن يكون خصمًا لهم، ثم يغفرو عنهم وهو أرحم الراحمين؟.

ولا مانع كذلك أن تصدر هذه الكبائر من غير أهل التوحيد، فإذا كانوا على غير التوحيد وفعلوا هذه الكبائر، فلا مانع أن يقال: إن الله تعالى - وهو خصمهم - سيحل بهم مزيداً من نقمته وتعذيبه لهم، زيادة على تعذيبهم على الكفر.

قال الرازى - بعد أن ذكر تلك الأدلة للمعتزلة -: «فهذا مجموع وجوه المعتزلة في هذا الباب»^(١).

٥ - ومن أدلةهم كذلك ما روى من قوله ﷺ: «لا تناول شفاعتي أهل الكبائر من أمتي»^(٢).

ووجه استدلالهم بهذا الحديث على نفي الشفاعة ظاهر، ويحاجب عن هذا بأن الحديث لم يصح بهذا التحرير والله الحمد، وقد ورد الحديث بالإثبات فتحولوه إلى النفي؛ إذ الوارد هو قوله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(٣)، فأوردوا على ما أرادوا من تقوية مذهبهم.

وقد رد علماء الحديث هذه الرواية بهذا اللفظ وحكموا عليها بالوضع،

(١) التفسير الكبير ٣ / ٥٩.

(٢) أخرجه الريبع بن حبيب، في مسنده الجامع الصحيح ٤ / ٣١.

(٣) قد تقدم تخریجه.

ومن ذلك ما قاله البرديسي، فقد قال حين أورده: «وأما حديث: لا تزال شفاعتي أهل الكباش من أمتي»، فموضوع مطروح عند سائر النقلة، وإن سلمنا صحته فهو محمول على من ارتد منهم^(١).

وقد أشار القاضي عبد الجبار إلى بعض الأحاديث، الدالة على إخراج أقوام أدخلوا النار بسبب ذنبهم ثم أخرجوا منها، فذكر بأنها معارضة بأحاديث أخرى. وما يجدر ذكره أن تلك الأحاديث التي عارض بها بعضها بعضاً كلها ثابتة، وببعضها في الصحيح.

ونذكر هنا بعضاً مما أورده من تلك الأحاديث، والتي زعم أن المرجئة يتمسكون بها لإثبات إخراج أقوام من النار بعد أن دخلوها، قال: «ثم إننا نعارضهم بأخبار رويت عن النبي ﷺ في هذا الباب، من جملتها: قوله ﷺ: لا يدخل الجنة مدم من خمر ولا نمام ولا عاق»^(٢) قال: «وهذا يدفع ما احتجوا به في المسألة».

ثم قال: «ومن ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من تردى من جبل فهو يتردى من جبل في نار جهنم خالداً مخلداً»^(٣)، ومن ذلك قوله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدة في يده يجأ بطنه في نار جهنم خالداً أبداً»^(٤)، أو قوله أيضاً: «من يحتسى سماً يحتسى سماً في نار جهنم خالداً أبداً»^(٥)، إلى غير ذلك من الأخبار المروية في هذا الباب»^(٦).

(١) تكميلة شرح الصدور ص ٣٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١١٢٠ / ٢ في الأشربة، مستند أحمد ١ / ٢٧٢.

(٣)، (٤)، (٥) أخرجه مسلم ١ / ٣٠٧.

(٦) شرح الأصول الخمسة ص ٦٧٣ - ٦٧٤، والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٣ / ٢.

ثم استدل كذلك بما روي عن رسول الله ﷺ أنه مر بمؤذن يؤذن ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: «على الفطرة»، فقال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال ﷺ: «خرج من النار، أي من عمل أهل النار، كذلك الحال هاهنا، ولا يجوز غير ما ذكرناه».

والواقع أن هذا الحديث وما في معناه ليس فيه متمسك للمعتزلة في نفي الشفاعة عن أهل الكبائر.

وقد أجاب العلماء عن هذا الحديث وما جاء في معناه بأقوال أحدها : أنه محمول على من فعل ذلك مستحلاً له مع علمه بالتحريم، فهذا كافر وهذه عقوبته .

والثاني : أن المراد بالخلود : طول المدة والإقامة المطاولة ، لا حقيقة الدوام - كما يقال : خلد الله ملك السلطان.

والثالث : أن هذا جزاؤه ، ولكن تكرم سبحانه وتعالى فأخبر أنه لا يدخل في النار من مات مسلماً^(١) ، كذلك فإن في الحديث الأول : «لا يدخل الجنة مدمن خمر»، فيه راوٍ مختلف فيه؛ وهو سليمان بن عتبة^(٢) ، وقد قال النووي رحمة الله عن معنى الحديث : «لا يدخل الجنة نمام»^(٣) : «وأما قوله ﷺ : «لا يدخل الجنة نمام»، ففيه التأويلان المتقدمان في نظائره .

أحدهما: يحمل على المستحل بغير تأويل مع العلم بالتحريم .

(١) شرح النووي لسلم ١ / ٣١٣ .

(٢) سنن ابن ماجه ٢ / ١١٢٠ ، تعلق محمد فؤاد .

(٣) صحيح مسلم ١ / ٣٠٢ .

والثاني : لا يدخل دخول الفائزين^(١) .

وهذا هو المسلك الأسلم المأوفق للنصوص ، لا الاجتراء على رد النصوص أو تأويلها ، كما فعلت المعتزلة حينما ردوا بعض الأحاديث وقووا ببعضها الآخر بالتحريرات والتأويلات المخالفة للحق وللواجب نحو النصوص والتوفيق بينها ، كما في تأويل عبد الجبار المعتزلي للحديث السابق «خرج من النار» قال : «أي من عمل أهل النار» ، وكذا تأويله لقول الرسول ﷺ عَنْ دخل النار من أهل الكبائر ثم أخرج منها : «فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حمما»^(٢) الثابت في الصحيحين والمثبت لإخراج العصاة من النار بعدما امتحشوا وعادوا حمماً .

يجب عن هذا الحديث الصريح في إثبات ذلك بقوله :

«وجوابنا : أن هذا الخبر لم ثبت صحته ، ولو صح فإنه منقول بطريق الآحاد ، وخبر الواحد مما لا يوجب القطع ، ومسألتنا طريقها العلم ، فلا يمكن الاحتجاج به» ، وقال أيضاً : «إنا نتأول هذا الخبر الذي أوردوه على وجه يوافق الأدلة ، فنقول : إن المراد بـ«يخرج من النار» أي يخرج من عمل أهل النار قوم»^(٣) .

وقد جاء عن أنس كذلك أن رسول الله ﷺ قال : «يدخل ناس الجحيم حتى إذا كانوا حمماً آخر جوا ، فادخلوا الجنة ، فيقول أهل الجنـة : هؤلاء الجهنـمـيون»^(٤) ،

(١) شرح النووي لسلم ١ / ٣٠٣.

(٢) صحيح البخاري ٧ / ٢٠٢ ، وسلم ١ / ٤٤٤.

(٣) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ٦٧٢ - ٦٧٣.

(٤) شرح ثلاثيات المسند ١ / ٧٦٧.

فهل يلغى مدلول هذا الحديث في صراحته ووضوحيه في إخراج أهل الكبائر من النار بتأويلات المعتزلة؛ لأن معناه: يخرج من عمل أهل النار - كما أجاب القاضي عبد الجبار؟ لاشك أن هذا إبعاد للمعنى الحق أياًً إبعاداً وكيف يخرج العاصي - على هذا التأويل - بعدما امتحن وعاد حمماً؟ مع أن الحديث واضح بأن ذلك يحصل في الآخرة وليس في الدنيا؟

وتأنويلهم بأنه يخرج من عمل أهل النار لا يتصور إلا في الدنيا عندما يتوب العاصي من عمل أهل النار، ويعمل بعمل أهل الجنة، ويستمر على ذلك، وبين المراد من الحديث وتفسيرات المعتزلة ما لا يخفى من بعد.

ومثل تأويل القاضي عبد الجبار للحديث السابق ورده له، رده كذلك لقول الرسول ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(١). بأنه «خبر لم ثبت صحته أولاً، ولو صح؛ فإنه منقول بطريق الأحاداد عن النبي ﷺ».

قال: ومسألتنا طريقها العلم، فلا يصح الاحتجاج به»^(٢).

ثم زعم أنه على فرض صحته فإنه يؤول معناه ليصبح هكذا: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي إذا تابوا»، وهذا التأويل يزيد به موافقة مذهبهم في أن الشفاعة خاصة بالمؤمنين الذين تابوا عن الكبائر أو لم يقترفوها، ولا تزال غيرهم.

ومن اعتراضاتهم على هذا الحديث أيضاً أنهم قالوا عن الحديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»:

(١) أخرجه أبو داود ص ٥٣٧ ج ٢.

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة ص ٦٩٠ - ٦٩١.

١- «أنه خبر واحد ورد على مضادة القرآن؛ فإننا بینا أن كثیراً من الآيات يدل على نفي هذه الشفاعة، وخبر الواحد إذا ورد على خلاف القرآن وجب ردّه.

٢- أنه يدل على أن شفاعته ليست إلا لأهل الكبائر، وهذا غير جائز؛ لأنه لا أقل من التسوية.

٣- أن هذه المسألة ليست من المسائل العملية، فلا يجوز الاكتفاء فيها بالظن، وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن؛ فلا يجوز التمسك في هذه المسألة بهذا الخبر»^(١).

وهذه الاعتراضات كلها غير مسلمة.

فإن أخبار الآحاد غير مردودة، بل هي مقبولة عند أهل الحق، ومن الخطأ رد أخبار الآحاد مطلقاً؛ إذ هي حجة يحتاج بها في العقائد والأحكام، فالقدح فيها غير مقبول؛ بل هي حجة المبطلين حينما لا يجدون في الحديث مطعماً، يقولون: هو من رواية الآحاد تنفيراً للناس عنه، وسنذكر هذه المسألة بمزيد من التفصيل في مبحث الرؤية.

وأما كون هذا الخبر يضاد الآيات التي تنفي الشفاعة عن أهل الكبائر، فإن هذا التضاد ليس له وجود إلا في زعمهم؛ لما سبق من أن القرآن لا يدل على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر.

وأما اعتراضهم بأن الحديث على رواية الإثبات يدل فقط على حصر شفاعته في أهل الكبائر؛ فهذا غير مقبول؛ وذلك أن الحديث لم يدل على

(١) التفسير الكبير / ٣ - ٦٢ - ٦٣.

المحصر، وإنما هو خبر من الرسول ﷺ، ويشارة منه لأمته أنه يشفع في أهل الكبائر، ولغيرهم من باب أولى، وقد بينت أحاديث أخرى شفاعاته ﷺ، وهي ثابتة بطريق التواتر في أهل الكبائر وفي غيرهم.

وذكر الرازي أن الأحاديث، وإن كان بعضها مرويًا بطريق الأحاديث؛ إلا أنه يصل إلى مرتبة التواتر، وأن مطاعن المعتزلة لردها غير مسلمة؛ فقال:

«كل واحد من هذه الأخبار، وإن كان مرويًا بالأحاديث؛ إلا أنها كثيرة جداً، وبينها قدر مشترك واحد، وهو خروج أهل العقاب من النار بسبب الشفاعة؛ فيصير هذا المعنى مرويًا على سبيل التواتر فيكون حجة»^(١).

وقد أجاب الرازي عن شبهة المعتزلة في الأحاديث السابقة مجملًا للجواب عنها جميعًا بجواب واحد، فقال:

«وأما الأحاديث فهي دالة على أن محمداً ﷺ لا يشفع لبعض الناس ولا يشفع في بعض مواطن القيامة، وذلك لا يدل على أنه لا يشفع لأحد البتة من أصحاب الكبائر، ولا أنه يمتنع من الشفاعة في جميع المواطن.

والذي نحققه أنه تعالى بين أن أحدًا من الشافعين لا يشفع إلا بإذن الله؛ فلعل الرسول لم يكن مأذونًا في بعض المواضع وبعض الأوقات، فلا يشفع في ذلك المكان ولا في ذلك الزمان، ثم يصير مأذونًا في موضع آخر وفي وقت آخر في الشفاعة فيشفع هناك»^(٢).

وفي الختام، فإن استدلال المعتزلة على نفي الشفاعة في أهل الكبائر أو في

(١) التفسير الكبير ٣ / ٦٥.

(٢) التفسير الكبير ٣ / ٦٦.

إخراجهم من النار؛ سواء كان ذلك الاستدلال قد تلمسوه من ظواهر بعض الآيات، أو بعض الأحاديث؛ أنه استدلال خاطئ ومعارضة للنصوص، وقد رأينا من عرض ما سبق في الآيات والأحاديث قوة دلالة تلك النصوص على ثبوت هذه الشفاعة.

ورأينا كذلك كيف أن أحاديث الشفاعة جاءت على أشكال ووقائع مختلفة، وينبغي على من خفي عليه فهم نص من تلك النصوص التي تدل بظاهرها على نفي الشفاعة أن يتلمس فيه الحق وما سار عليه سلف الأمة؛ في الجمع بينها من أن الرسول ﷺ يمكن أن يشفع في مكان دون مكان وفي وقت دون وقت ولقوم دون آخرين.

وهكذا فإذا وجدنا نصاً عن رسول الله ﷺ ينفي ثبوت الشفاعة كقوله: «سحقاً سحقاً لأقوام غيروا وبدلوا بعده»؛ فليس من الحق أن تتخذ هذا الحديث حجة على نفي الشفاعة عن أهل الكبار دون البحث عن حقيقة المراد منه، ثم نعرض عن النصوص الأخرى الصريبة الواضحة في ثبوت شفاعته ﷺ لأهل الكبار وإخراجهم من النار، وإنما الواجب هو النظر والتوفيق بين النصوص لاستخراج الحق الذي تدل عليه.

٤ - شفاعة الرسول ﷺ لطائفة من المؤمنين بدخول الجنة بغير حساب:

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن طائفة من أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب بشفاعة الرسول ﷺ، لما امتازوا به عن عداهم من صفات جعلتهم أهلاً لهذا الإكرام.

ومصداق هذا ما جاء عن حصين قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: «حدثني ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليَّ الأمم، فأخذ النبي

يمر معه الأمة، والنبي يمر معه التفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل، هؤلاء أمتى؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب. قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتسون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتكلون، فقام إليه عكاشة بن محسن ، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال : اللهم اجعله منهم، ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال : سبقك بها عكاشة^(١).

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يدخل الجنة من أمتى ذمرة هم سبعون ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». وقال أبو هريرة: ققام عكاشة بن محسن الأ悉尼 يرفع ثمرة عليه ، فقال : يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال : اللهم اجعله منهم. ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال : سبقك بها عكاشة^(٢).

وعن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ : «يدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفاً. أو سبعمائة ألف؛ شك في أحدهما - متamasكين آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وأخرهم الجنة، ووجوههم على ضوء القمر ليلة البدر»^(٣).

وبالتأمل في أحاديث السبعين ألفاً المتقدمة الذين يدخلون الجنة من أمة محمد ﷺ بغير حساب؛ نجد أنه مجرد إخبار من الرسول ﷺ بأنهم يدخلون الجنة بغير حساب، وليس نصاً صريحاً في أنهم استحقوا ذلك الجزء بشفاعة

(١) أخرج هذا الحديث البخاري في صحيحه. انظر: فتح الباري ١١ / ٤٠٦.٤٠٥، ومسلم ٤٩٠.٤٩٦.

(٢)، (٣) صحيح البخاري، انظر: فتح الباري ١١ / ٤٠٥، ٤٠٦.٤٠٥، ومسلم ١ / ٤٩٠.٤٩٦.

الرسول ﷺ .

فكيف يتم الاستدلال بتلك الأحاديث على أنها شفاعة من الرسول ﷺ لهؤلاء الناس ، وهذا ما جعل بعض العلماء يتوقف في القول بها كالأمام ابن كثير .

والواقع أن محل الشاهد من هذا الاستدلال هو دعاء الرسول ﷺ لعكاشة بأن يكون منهم ؛ فإن هذا الدعاء هو شفاعة منه ﷺ لعكاشة .

وأما توقف ابن كثير فيها فهو يذكر أنه قد استبان له بعد رجوعه إلى حديث عكاشة بأنه يصلح دليلاً لهذا النوع من الشفاعة .

وقد نقل عن القاضي عياض إثباته لهذا النوع من الشفاعات الثابتة لنبينا ﷺ ، ثم علق على ذلك بقوله :

« وقد ذكر القاضي عياض وغيره نوعاً آخر من الشفاعة ، وهو خامس وهي في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب ، ولم أر لهذا شاهداً فيما علمت ، ولم يذكر القاضي عياض - فيما رأيت - مستند ذلك ، ثم تذكرت حديث عكاشة بن محسن حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب . والحديث مخرج في الصحيحين ، كما تقدم ، وهو يناسب هذا المقام »^(١) .

ونقل القرطبي^(٢) والسفاريني^(٣) قول القاضي عياض في عد هذه الشفاعة

(١) النهاية / ٢٧٥ .

(٢) التذكرة ص ٣٠١ .

(٣) نوامع الأنوار / ٢٠٨ .

نوعاً من الأنواع الخمسة من أقسام الشفاعات الثابتة .

وقال ابن أبي العز في معرض تعداده لأقسام الشفاعة :

«النوع الخامس : الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب ، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محسن حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب »^(١) .

وإضافة إلى ما سبق ؛ فإن ما يدل كذلك على أن هؤلاء يدخلون الجنة بشفاعة الرسول ﷺ ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «سألت ربي عز وجل فوعدني أن يدخل من أمتي سبعين ألفاً على صورة القمر ليلة القدر ، فاستزدت فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً»^(٢) .

وسند هذا الحديث جيد كما قال ابن حجر^(٣) .

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «سألت الله الشفاعة لأمتی ، فقال : لك سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، قلت : رب زدني ، فحثالي بيديه مرتين عن يمينه وعن شماله»^(٤) .

وقد ذكر في المسند أحاديث كثيرة تدل على استشفاع الرسول ﷺ إلى ربه

(١) شرح الطحاوية ص ٢٥٧.

(٢) المسند ٢ / ٣٥٩.

(٣) فتح الباري ١١ / ٤١٠.

(٤) الجامع الصغير ٤ / ٧٨ مع شرحه فيض القدير للمناوي ، وقد عزاه السيوطي إلى هناد ، ورمز لحسنه ، قال المناوي : «ضرب المثل بالحيثيات ؛ لأن من شأن المعطى إذا استزيد أن يحيى بكفيه بغير حساب ، وربما ناوله بلا كف ، وقال بعضهم : هذا كناية على المبالغة في الكثرة» . ط . أولى سنة ١٣٥٦ هـ .

في الزيادة فرق السبعين ألف الذين ذكروا، إلا أن تلك الأحاديث لا تخلو من ضعف.

٥ - شفاعة الرسول ﷺ ملئ سكن في المدينة المنورة ومات بها :

ثبت هذا النوع من أنواع الشفاعات التي أكرم الله بها نبينا محمدًا ﷺ.

وهذه الشفاعة فيها كذلك إكرام للمدينة المنورة ولمن سكن بها صابرًا على لأوانها مفضلًا لها على غيرها، وقد شرفها الله مميزات عديدة ليس هنا موضع ذكرها ومن ذلك أن جعلها مهاجر رسول الله ﷺ وعاصمة الإسلام الأولى، وأنه يأرز إليها الإيمان كما تأرز الحياة إلى جحرها^(١).

ثم ميزها الله تعالى عن سائر البقاع بثبوت شفاعة نبيه ﷺ لأهلها اعتماداً خاصاً بهم ومزيد تشريف لها.

ومن الأدلة على ذلك ما جاء عن عامر بن سعيد عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهما أو يقتل صيدهما». وقال : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوانها وجهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيمة»^(٢).

وعن أبي سعيد مولى المهدى أنه جاء أبا سعيد الخدري ليالي الحرفة فاستشاره في الجلاء عن المدينة، وشكى إليه أسعارها وكثرة عياله، وأخبره أن

(١) أخرجه البخاري ٤ / ٩٣.

(٢) صحيح مسلم ٢ / ٩٩٢، الابatan: الحرتان الشرقية والغربية، والعضاء: كل شجر فيه شوك.

لا صبر له على جهد المدينة وأوانها . فقال له : ويحك لا أمرك بذلك ؟ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يصبر أحد على لأوانها فيموت إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيمة إذا كان مسلماً »^(١) .

وعن يُحْسِن مولى الزبير أخْبَرَهُ أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فِي الْفَتْنَةِ فَأَتَتْهُ مَوْلَاتُهُ لِتَسْلِمَ عَلَيْهِ ، فَقَالَتْ : إِنِّي أَرَدْتُ الْخُرُوجَ يَا أَبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، اشتدَّ عَلَيْنَا الزَّمَانُ ، فَقَالَ لَهَا عَبْدُ اللَّهِ : اقْعُدِي لِكَاعَ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَا يَصْبِرُ عَلَى لأَوَانِهَا وَشَدَّتْهَا أَحَدٌ إِلَّا كَنْتَ لَهُ شَهِيداً أَوْ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٢) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعاً يوم القيمة أو شهيداً »^(٣) .

ومن تلك النصوص السابقة يتبيَّن ثبوت شفاعة الرسول ﷺ لأهل المدينة، وأنه يكون شهيداً وشفيعاً لهم.

وقد ورد الحديث بإثباتات «أو»، وفي هذا إشكال؛ هل «أو» هنا جاءت لشك من الرواية، أم إنها صحيحة ثابتة عن الرسول ﷺ، ويكون إيرادها هكذا للتقسيم؛ يعني أن الرسول ﷺ يكون شهيداً لبعض أهل المدينة وشفيعاً لبقيهم، أو يكون شفيعاً لل العاصين وشهيداً للمطهعين، أو شهيداً لمن مات في حياته وشفيعاً لمن مات بعده، أو تكون «أو» هنا يعني الواو، ويكون المعنى أنه يكون شفيعاً وشهيداً لهم.

(١) صحيح مسلم ص ١٠٠٣ ، الألواء: الشدة والجوع.

(٢) صحيح مسلم ٢ / ١٠٠٤ .

(٣) نفس المصدر السابق.

وقد أجب عن هذا الاستشكال بجواب امتدحه القاضي عياض كما نقله عنه التوسي بأنه جواب مقنع يعترف بصوابه كل من وقف عليه، فقال: «سألت قدّيماً عن معنى هذا الحديث، ولم خص ساكن المدينة بالشفاعة هنا، مع عموم شفاعته وادخاره إياها لأمته؟ قال: وأجب عنه بجواب شافٍ - مقنع في أوراق - اعترف بصوابه كل واقف عليه.

قال: وأذكر منه هنا معاً تليق بهذا الموضوع؛ قال بعض شيوخنا: «أو» هنا للشك، والأظهر عندنا أنها ليست للشك؛ لأن هذا الحديث رواه جابر بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأبو سعيد، وأبو هريرة، وأسماء بنت عميس، وصفية بنت أبي عبيد، عن النبي ﷺ بهذا اللفظ، ويبعد اتفاقهم جميعهم، أو رواتهم على الشك، وتطابقهم فيه على صيغة واحدة.

بل الأظهر أنه قاله ﷺ هكذا؛ فإنما أن يكون أعلم بهذه الجملة هكذا، وإنما أن يكون «أو» للتقييم، ويكون شهيداً لبعض أهل المدينة وشيفعاً لبقيهم: إنما شيفعاً للعاصين وشهيداً للمطاعين، وإنما شهيداً لمن مات في حياته وشيفعاً لمن مات بعده، أو غير ذلك.

قال القاضي: وهذه خصوصية زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعاملين في القيمة وعلى شهادته على جميع الأمة، وقد قال ﷺ في شهداء أحد: «أنا شهيد على هؤلاء»، فيكون لتخريصهم بهذا كله مزية أو زيادة منزلة وحظوظه.

قال: وقد يكون «أو» يعني الواو؛ فيكون لأهل المدينة شيفعاً وشهيداً. قال: وقد روی: «إلا كنت له شهيداً أو له شيفعاً».

قال: وإذا جعلنا «أو» للشك كما قاله المشايخ؛ فإن كانت اللفظة

الصحيحة «شهيداً» اندفع الاعتراض؛ لأنها زائدة على الشفاعة المدخرة المجردة لغيره، وإن كانت اللفظة الصحيحة «شفيعاً» فاختصاص أهل المدينة بهذا مع ما جاء من عمومها وادخارها لجميع الأمة أن هذه شفاعة أخرى غير العامة التي هي لإخراج أمته من النار، ومعافاة بعضهم منها بشفاعته عليه في القيامة، وتكون هذه الشفاعة لأهل المدينة بزيادة الدرجات، أو تخفيف الحساب، أو بما شاء الله من ذلك، أو يأكراهم يوم القيامة بأنواع من الكرامة كإيوائهم إلى ظل العرش، أو كونهم في روح وعلى منابر، أو الإسراع بهم إلى الجنة، أو غير ذلك من خصوص الكرامات الواردة لبعضهم دون بعض^(١).

وذكر هذه الشفاعة لساكني المدينة لاشك أنها مزية عظيمة لهم، ولكن ليس معنى هذا أن الشفاعة تعم كل من سكن المدينة على ما كان من العمل، كما قد يرken إليه بعض أهل الأمانة، بل هذه المزية خاصة من سكن المدينة مؤمناً بالله ورسوله، عاملأً بما أوجبه الله عليه، صابراً على ما يصيبه فيها من آلام ومشاق؛ حبّاً فيها وتقديماً لها على غيرها؛ فهذا هو الذي يستحق مزية الاعتناء به والاهتمام بالشفاعة فيه كما أشار إليه الحديث.

أما من سكن فيها، ولم يشكر تلك النعمة؛ فأفسد فيها بما يتنافي مع حرمتها؛ فقد توعده الرسول عليه باللعنة، كما في قوله عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة، قال: «المدينة حرم فمن أحدث فيها حدثاً أو أوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف^(٢).

(١) شرح الترمذ لسلم ٣/٥١٣.

(٢) أخرجه مسلم ٣/٥٢٠ بشرح الترمذ.

٦ - شفاعته عليه السلام للمؤمنين بدخول الجنة :

هذا النوع من أنواع الشفاعات الثابتة التي ورد بها النص، يتقدم لها نبينا محمد صلوات الله عليه حين يحبس المؤمنون على القنطرةـ التي سيأتي ذكرها في مبحث الصراطـ ليأذن الله لهم بدخول الجنة، وذلك بعد أن يستشفعوا بأدام ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صلوات الله عليه ، يقوم عليه الصلاة والسلام فيطلبها من ربه فيكرمه الله بالإجابةـ.

وقد ذكرنا فيما سبق أن بعضهم ذهب إلى أن هذه الشفاعة هي المقام المحمود الذي ذكره الله تعالىـ، وقد بينا الراجح في ذلكـ.

ومن الأدلة على حصول الشفاعة للمؤمنين بدخول الجنةـ:

١ـ ما تقدم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الشفاعةـ، وفيه أن رسول الله صلوات الله عليه قالـ: «فِيْقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخُلْ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سُوِيَّ ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَابِ»^(١)ـ.

٢ـ ما جاء في حديث أنس رضي الله عنهـ، وفيهـ: «فَأَحْمَدَ رَبِّي بِمُحَمَّدٍ

= العدلـ: النافلةـ. وقال الحسن البصريـ: الصرفـ: النافلةـ. والعدلـ: الفريضةـ؛ عكس قول الجمهورـ.

وقال الأصمميـ: الصرفـ: التوبةـ. والعدلـ: الفديةـ؛ روي ذلك عن النبي صلوات الله عليهـ. وقال يونسـ: الصرفـ: الاكتسابـ. والعدلـ: الفديةـ. وقال أبو عبيدةـ: العدلـ: الحيلةـ. وقيلـ: العدلـ: المثلـ. وقيلـ: الصرفـ: الديمةـ.

والعدلـ: الزيادةـ. قال القاضيـ: وقيلـ: المعنى لا تقبل فريضته ولا نافلته قبول رضاـ، وإن قبلت قبول جزء إلخـ. انظرـ: شرح الترمذ ٣/٥١٦ـ.

(١) البخاري ٨/٣٩٥ـ، ومسلم ١/٤٦٩ـ.

علمنيهما، ثم أشفع فيحد لي حداً، فادخلهم الجنة، ثم أرجع، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يسمع وسل تعطه واسفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً فادخلهم الجنة، ثم أرجع، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم قال: ارفع محمد، قل يسمع وسل تعطه واسفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع، فيحد لي حداً فادخلهم الجنة^(١) الحديث.

٣ - وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا آبانا، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخر جكم من الجنة إلا خطيبة أيسكم آدم، لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله. قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلاً من وراء وراء، اعمدوا إلى موسى عليه السلام الذي كلمه الله تكليماً، فيأتون موسى، فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمداً عليه السلام فيقوم، فيؤذن لهم^(٢) إلخ الحديث في وصف المرور على الصراط .

(١) البخاري / ١٣ ، ٣٩٢ ، ومسلم / ١ ، ٤٥٩ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه / ١ ، ٤٧٤ ، (النووي) .

ومعنى تزلف: أي تقرب، وقوله: «من وراء وراء»؛ قال النووي في معناها ناقلاً عن صاحب التحرير: هذه الكلمة تذكر على سبيل التواضع؛ أي لست بتلك الدرجة الرفيعة، قال: وقد يقع لي معنى مليح فيه، وهو أن معناه أن المكارم التي أعطيتها كانت بواسطة سفارة جبريل عليه السلام، ولكن اتوا موسى؛ فإنه حصل له سماع الكلام بغير واسطة. قال: وإنما كرر «وراء وراء»، لكون نبينا محمد عليه السلام حصل له السمع بغير واسطة، وحصل له الرؤية. قال إبراهيم: وراء موسى الذي هو وراء محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين».

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً»^(١).

وهو عليه السلام أول من يقرع باب الجنة، كما جاء عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيمة، وأنا أول من يقرع باب الجنة»^(٢).

وجاء عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيمة، فاستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فاقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»^(٣).

وعن أنس قال: قال النبي ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدقنبي من الأنبياء ما صدقـت، وإن من الأنبياء نبياً ما يصدقـه من أمتهـ رجل واحد»^(٤).

وقد جعلها ابن أبي العز نوعاً سابعاً من أنواع الشفاعات الثابتة لنبينا ﷺ^(٥).

٧ - شفاعة الرسول ﷺ في رفع درجات أهل الجنة :

هذه الشفاعة الثابتة هي إحدى أنواع الشفاعات التي أكرم الله بها نبينا محمدـ ﷺ، وهي ثابتة عند السلف وعند غيرهم من الفرق المعتزلة؛ لأنهم يقولون بها، وهي زيادة خير لأهل الجنة كغيرها من الشفاعات الأخرى التي يقصد بها إيصال الخير للغير.

(١) - (٤) آخر جها الإمام مسلم ١ / ٤٧٦ بشرح الترمذ.

(٥) شرح الطحاوية ص ٢٥٧.

وقد ذكرت هذه الشفاعات هنا وإن كانت خارجة عن موضوع البحث
بقصد استكمال بيان أنواع الشفاعات، ومن أدتها ما يأتي:

أخرج البخاري - رحمه الله - عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: «ما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبو عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دريد بن الصمة، فقتل دريد، وهزم الله أصحابه. قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرمي أبي عامر في ركبته؛ رماه جسمي بسهم فأثبته في ركبته.

فانتهيت إليه فقلت: يا عم، من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له فلحنته، فلما رأني ولّى، فأتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تبت؟ فكف، فاختلنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فائز هذا السهم، فترعنه، فترأ منه الماء. قال: يا ابن أخي أقر النبي ﷺ السلام وقل له: استغفر لي.

واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل^(١) وعليه فراش، قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال: قل له: استغفر لي، فدعا بياء فتوضاً، ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لعبدك أبي عامر، ورأيتك بياض إبطيه، ثم قال: اللهم اجعله يوم القيمة فوق كثير من خلقك من الناس. فقلت: ولّي، فاستغفر، فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيمة مدخلاً كريماً. قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى»^(٢).

(١) براء مهملة ثم ميم نقبيلة: أي معمول بالرمال، وهي حبال الحصر التي تضفر بها الأسرة.
فتح الباري ٨ / ٤٣.

(٢) صحيح البخاري ٨ / ٤٢-٤١، ومسلم ٥ / ٣٦٨.

وكذا حديث أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ دخل على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر، فضج الناس من أهله، فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمّنون على ما يقولون». ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهدىين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفتح له في قبره ونور له فيه»^(١).

وأخرج مسلم كذلك عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدقنبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبياً ما يصدقه من أمته رجل واحد»^(٢).

وبالتأمل في هذه الأحاديث يظهر - والله أعلم - أنها ليست نصاً صريحاً في زيادة رفع الدرجات في الجنة، وإنما هي احتمال لذلك، غير أن العلماء حينما يستدلّون لإثبات تلك الشفاعة يستدلّون بما تقدم من النصوص ولم يعترض أحد يعتد بقوله على ثبوت هذه الشفاعة.

وقد ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله - أن نوعين من الشفاعة لم يوجد فيها نصاً إلا ذكر الناس لها، وأنه لم يقف لها على دليل ثابت، وهما: الشفاعة فيمن استوجب النار أن لا يدخلها، والشفاعة لقوم في زيادة ثوابهم.

ثم قال عن النوع الثاني: «والنوع الثاني شفاعته ﷺ لقوم من المؤمنين في زيادة الشواب ورفعه الدرجات، وهذا قد يستدل عليه بداعي النبي ﷺ لأبي سلمة، وقوله: اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهدىين، وقوله في

(١) مسلم / ٢٥٨٤.

(٢) مسلم / ٤٧٦.

الحديث أبي موسى : « اللهم اغفر لعبد أبي عامر، واجعله يوم القيمة فوق كثير من خلقك »، وقوله عليه السلام في حديث أبي هريرة : « أسعد الناس بشفاعتي من قال : لا إله إلا الله »^(١).

ويقول النووي في إثبات هذه الشفاعة وإثبات المعتزلة لها : « الخامسة : في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها؛ وهذه لا ينكرها المعتزلة، ولا ينكرون أيضاً شفاعة الحشر الأول »^(٢).

ويقول ابن أبي العز عنها :

« النوع الرابع : شفاعته عليه السلام في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم ، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عدتها من المقامات مع تواتر الأحاديث »^(٣).

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على رفع الدرجات في الجنة كما في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانِ الْحَقِّ فَاذْرِيَّتُهُمْ وَمَا أَسْأَلُهُمْ مِنْ عَمَلٍ لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ » [الطور : ٢١].

وهذا إخبار من الله تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بأبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم؛ لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم

(١) ذكره عنه صاحب عون المعبود / ١٣ / ٧٨.

(٢) شرح النووي لسلم / ١ / ٤٤٣.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٧، وانظر : النهاية لابن كثير / ٢ / ٢٧٤، والتذكرة للقرطبي ص ٢٤٩، وكذا الوامع الأنوار ص ٢١١ ج ٢.

على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكمال العمل ولا ينقص ذلك من عمله ومتزنته للتساوي بينه وبين ذاك.

وقد ساق الحافظ الطبراني بسنده إلى ابن عباس - علىظن في رفعه - عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأله عن أبيه وزوجته وولده، فقال: إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: يا رب، قد عملت لي ولهم فيؤمر بالحاقيهم به. وقرأ ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوكَمْ دُرِّيَّتُمْ إِيمَانَهُ﴾.

وورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك». قال ابن كثير: وإننا نهى صحيحاً، ولم يخرجوا من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

وبسبب إثبات المعتزلة لهذه الشفاعة هو رأيهم في أن الشفاعة لا تكون إلا للمتقين التائبين في زيادة ثوابهم؛ لأن استحقاق المؤمنين لها إنما هو نتيجة لأعمالهم؛ لأن منع الثواب عنمن استحقه أو إعطاءه غير من يستحقه قبيح، والله لا يتصرف بذلك؛ إذاً فلا شفاعة إلا في زيادة الثواب والتفضل من الله عليهم في الجنة.

وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي :

«إن الرسول إذا شفع لصاحب الكبيرة؛ فلا يخلو إما أن يشفع أو لا؛ فإن

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٤١-٢٤٢. والحديث في صحيح مسلم ٤ / ١٦٧.

لم يشفع لم يجز لأنَّه يقدح بآكرامه، وإن شفَعَ فيه لم يجز أيضًا، لأنَّا قد دلَّنا على أن إثابة من لا يستحقُ الثواب قبيح، وأنَّ المكلف لا يدخل الجنة تفضلاً. وأيضاً فقد دلت الدلالات على أن العقوبة تستحق على طريق الدوام، فكيف يخرج الفاسق من النار بشفاعة النبي ﷺ والحال ما تقدم؟!»^(١). وقد سبق بيان مذهبهم في هذه القضية.

٨ - شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيض العذاب عنه :

وهذه الشفاعة وإن كانت غير مقصودة بالبحث أيضًا؛ إلا أننا نذكرها على سبيل استكمال ذكر الشفاعات، وهي تختلف عن غيرها من سائر الشفاعات؛ فهي خاصة في أبي طالب دون غيره، نظرًا لموافقه العظيمة مع الرسول ﷺ ومساندته له في دعوته ومناصرته والذب عنه، وهي أعمال فاضلة لو لا أنه قد كتبت عليه الشقاوة؛ إذ لم يؤمِّن بالنبي ﷺ.

وقد وردت أحاديث صحيحة في تخفيض العذاب عنه بشفاعة الرسول ﷺ؛ شفاعة تخفيض لا شفاعة إخراج من النار.

كما جاء عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: «ما أغنت عن عمك؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «هو في ضحاص من نار، ولو لا أنا لكان في الدرك الأسفلي من النار»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيمة، فيجعل في ضحاص من النار يبلغ كعبية».

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٨٩.

(٢) البخاري ٧/١٩٣، ومسلم ١/٤٨٦.

يغلي منه دماغه^(١).

ومع أنه في ضحضاح من النار يبلغ كعببيه يغلي منه دماغه؛ لكنه في الواقع أهون أهل النار عذاباً، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو متصل بتعليقين يغلي أحدهما دماغه^(٢).

وما ينبغي ملاحظته أن قول الرسول ﷺ في عمه: «عله تتفعه شفاعتي»؛ يشكل عليه قول الله تعالى في شأن الكفار: «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ»^(٣).

وأبو طالب كافر، فكيف تنفع الشفاعة فيه، وهي منفية عن الكفار؟

وقد أجيب عن هذا بأجوبة منها:

١ - أن هذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ في أبي طالب بخصوصه دون غيره.

٢ - أن معنى المنفعة في الآية يخالف معنى المنفعة في الحديث؛ فالمراد بها في الآية الإخراج من النار، وفي الحديث المنفعة بالتخفي.

قال القرطبي: «فإن قيل: فقد قال الله تعالى: «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» قيل له: تنفع في الخروج من النار كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة».

(١) البخاري ٧ / ١٩٣ ، ٤١٧ / ١١ ، ومسلم ١ / ٤٨٧.

(٢) مسلم ١ / ٤٨٧.

(٣) فتح الباري ١١ / ٤٣١.

وقال البيهقي فيما يعزوه إليه ابن حجر : «صحت الرواية في شأن أبي طالب ، فلا معنى للإنكار من حيث صحة الرواية ، ووجهه عندي أن الشفاعة في الكفار إنما امتنعت لوجود الخبر الصادق في أنه لا يشفع فيهم أحد ، وهو عام في حق كل كافر ، فيجوز أن يخص منه من ثبت الخبر بتخصيصه . قال : وحمله بعض أهل النظر على أن جزاء الكافر من العذاب يقع على كفره وعلى معاصيه ، فيجوز أن الله يضع عن بعض الكفار بعض جراء معاصيه تطبيباً لقلب الشافع لا ثواباً للكافر ؛ لأن حسناته صارت بموجته على الكفر هباء»^(١) .

ولعل هذا هو الراجح ؛ فإن الأحاديث ثابتة والآيات ممحكمة ، فينبغي المصير إلى القول بالتخصيص ؛ فتكون الأحاديث خاصة في إخراج أبي طالب عن معنى الآيات من قوله تعالى : «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» [المدثر: ٤٨] ، وقوله تعالى : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمُ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخْفَفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا» [فاطر: ٣٦] ، ويبقى عموم دلالتها على جميع الكفار .

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض أهل الرفض قد جمع جزءاً أكثر فيه من الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبي طالب ، وكلها لا يثبت منها شيء ، كما ذكر الحافظ ابن حجر^(٢) .

وقد زعمت المغيرة من الشيعة أن أبو طالب في الجنة^(٣) .

والنصوص تدل على خلافهم وأنه في النار ، ومات على شركه ، وما

(١) فتح الباري ١١ / ٤٣١ .

(٢) فتح الباري ٧ / ١٩٥ .

(٣) التنبيه والرد للملطفي ص ١٥٢ .

يؤيد عدم إسلامه ما جاء عن ابن المسيب عن أبيه «أن أبو طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنه أبو جهل - فقال: أهي عم، قل: لا إله إلا الله؛ كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبو طالب، ترحب عن ملة عبد المطلب، فلم يزلا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: لاستغفرن لك ما لم أنه عنه. فنزلت: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَئِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبه: ١١٣]، ونزلت: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مِنْ أَحْبَبَتْ} [القصص: ٥٦] ^(١).

فدل على أنه مات كافراً وأنه في النار، ويغفف عنه من عذابها بشفاعة المصطفى ﷺ؛ كما ثبت ذلك عنه عليه الصلاة والسلام.

وقد أخرج الطبرى - رحمه الله - في أسباب نزول الآية ١١٣ من سورة التوبه عدة أقوال، أولها: القول بأنها نزلت في نهى الرسول ﷺ أن يستغفر لعمه، وقد مات على شركه ^(٢).

وعن الآية الأخرى: ٥٦ من سورة القصص، يقول ابن حجر: «لم تختلف النقلة في أنها نزلت في أبي طالب» ^(٣).

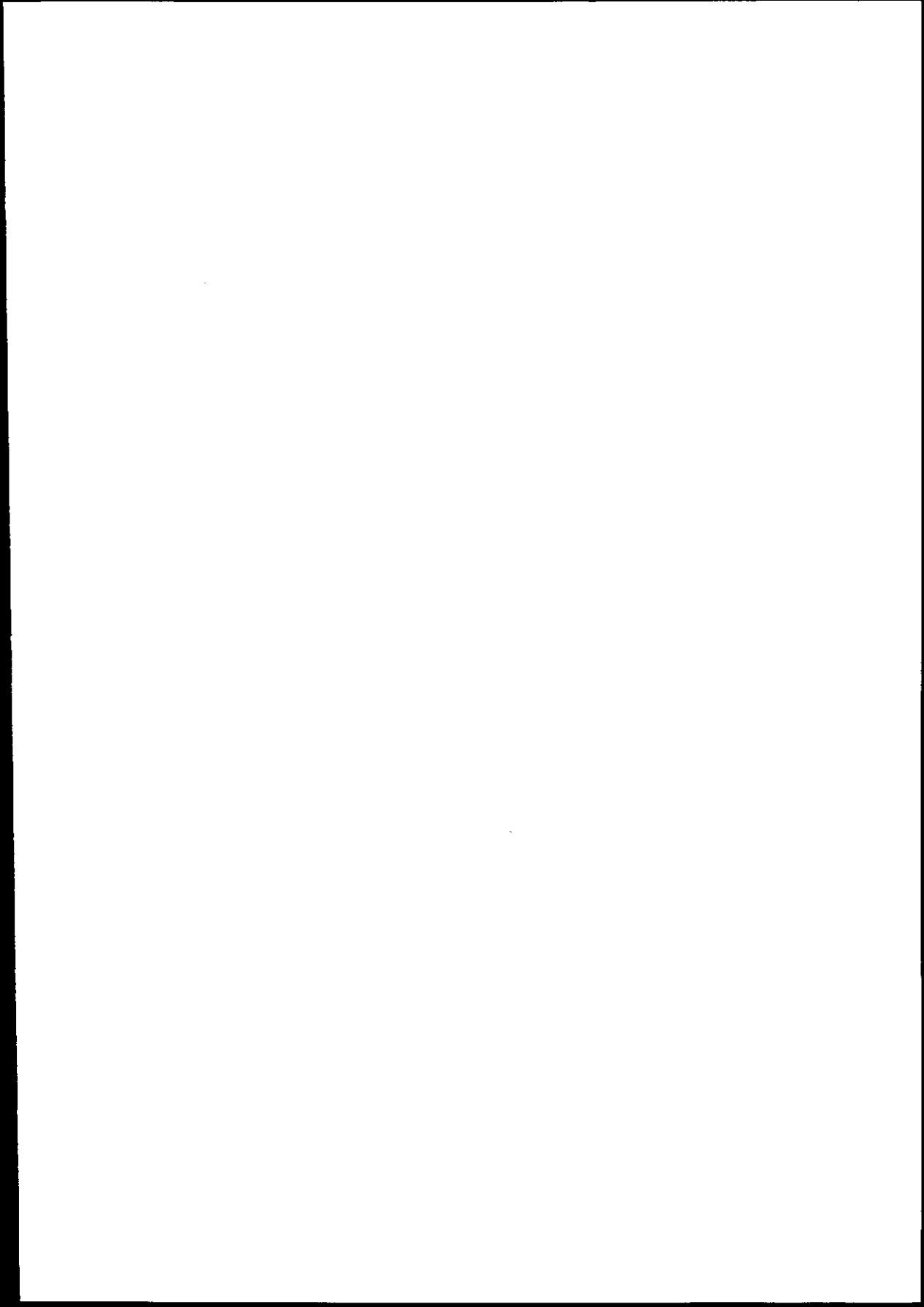
والحقيقة أن موته على غير التوحيد مع موافقه الطيبة مع الرسول ﷺ «الله حكمة في ذلك» كما قاله ابن كثير ^(٤).

(١) صحيح البخاري ٣ / ٢٢٢، ٣٤١ / ٨، ٤٠٦، ٥٠٦، ومسلم ١ / ٢١٤، ٢١٦.

(٢) جامع البيان ١١ / ٤١.

(٣) فتح الباري ٨ / ٥٠٦.

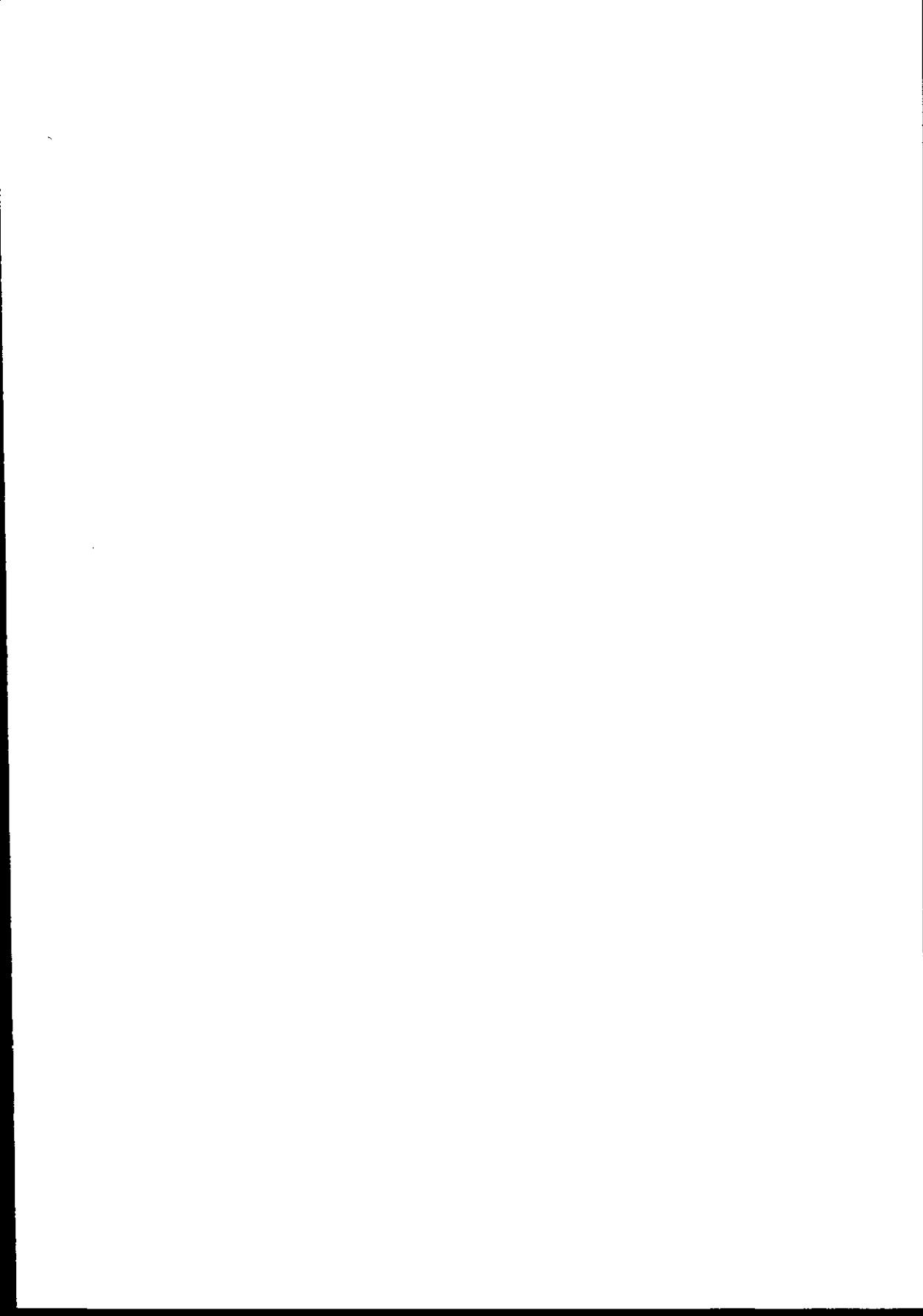
(٤) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٩٤.



الفصل الرابع

ثبوت الشفاعة في بعض الأعمال:

- ١- طلب الوسيلة للرسول ﷺ والإكثار من الصلاة عليه.**
- ٢- قول الشخص لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، وموته على ذلك.**
- ٣- الإكثار من السجود.**



الفصل الرابع

ثبوت الشفاعة في بعض الأعمال

وقد وردت أحاديث ثبت الشفاعة لمن يتصرف بأحد الأسباب الآتية:

١- طلب الوسيلة للرسول ﷺ، والإكثار من الصلاة عليه، فمن فعل ذلك فقد «وجبت له الشفاعة».

ومن الأدلة على ثبوت هذه الشفاعة ما أخرج الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاحة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته؛ حلّت له شفاعتي يوم القيمة»^(١).

وكذا ما أخرجه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىَّ، فإنَّه من صلَّى علىَّ صلاة صلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثم سلُّوا اللهَ لِي الوسيلة، فإنَّها مُنْزَلَةٌ فِي الجنة لا تُتَبَغَّى إِلَّا لِعَبْدٍ مِّنْ عَبْدَ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ؛ فَمَنْ سَأَلَ لِي الوسيلة حلَّتْ لَهُ الشفاعة»^(٢).

وأدلة إثبات هذه الشفاعة أحاديث كثيرة، غير أنَّ في بعضها ضعفاً، ونكتفي بما تقدم في الصحيحين.

(١) صحيح البخاري ٢/٩٤.

(٢) صحيح مسلم ٢/١٢.

ومعنى حلت له شفاعتي : قال النووي : «أي وجبت . وقيل : نالته»^(١) .

وقال ابن حجر : «أي استحقت ووجبت ، أو نزلت عليه»^(٢) . ولا يجوز أن يكون حلت من الحل ، لأنها لم تكن قبل ذلك محرمة»^(٣) .

وهنا إشكال لبعض الناس ؛ وهو أن شفاعة الرسول ﷺ عامة في جميع المذنبين ؟ فكيف جعل ثواب هذا الدعاء استحقاق قائله للشفاعة ؟

قال ابن حجر : «وأجيب بأن له ﷺ شفاعات أخرى ، كإدخال الجنة بغير حساب ، وكرفع الدرجات ؛ فيعطي كل أحد ما يناسبه».

ونقل عياض عن بعض شيوخه أنه كان يرى اختصاص ذلك بمن قاله مخلصاً مستحضرأ جلال النبي ﷺ ، لا من قصد بذلك مجرد الثواب ونحو ذلك .

ولكن هذا التفصيل لم يشر إليه الحديث ؟ بل ورد عاماً في كل من قال ذلك ، وحيث إنه لم يرد في الحديث ما يشير إلى التفصيل الذي ذكره القاضي عياض عن بعض شيوخه ؛ فقد تعقبه ابن حجر فوصفه بقوله : «وهو تحكم غير مرضي ، ولو كان أخرج الغافل اللاهي لكان أشبه»^(٤) .

يريد ابن حجر بذلك توسيع دائرة المشفوع لهم من يسألون الله الوسيلة للرسول ﷺ .

ونجدر الإشارة إلى أنه قد وردت بعض الروايات تفيد تحديد عدد

(١) شرح النووي لمسلم ١٤/٢ .

(٢) ، (٣) فتح الباري ٩٥/٢ .

(٤) فتح الباري ٩٦/٢ .

الصلاوة على النبي ﷺ بعد عدد مخصوص، مثل ما أخرج الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى علىَّ حين يصبح عشرًا وحين يمسِّي عشرًا، أدركته شفاعتي يوم القيمة»^(١).

٢- ومن أسباب الشفاعات الثابتة كذلك، قول الشخص: لا إله إلا الله وموته عليها موحداً، فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، من أسعَ الناس بشفاعتك يوم القيمة؟ قال: لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعَ الناس بشفاعتك يوم القيمة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه»^(٢).

وكلمة «أسعَ» الواردة في الحديث على بابها من المفاصلة، وهي تشير إلى تفاوت انتفاع أهل التوحيد بتلك الكلمة حين تحل الشفاعة فيهم، وهم في النار؛ حيث يخرج منها أولاً من كان إيمانه قوياً، ثم من دونه، وهكذا.

قال ابن حجر: «والمراد بهذه الشفاعة المسئول عنها هنا: بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول ﷺ: أعمتي أمتى. فيقال له: أخرج من النار من في قلبه وزن كذا من الإيمان. فأسعَ الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل من دونه».

وأما الشفاعة العظمى في الإراحة من كرب الموقف؛ فأسعَ الناس بها من يسبق إلى الجنة، وهم الذين يدخلونها بغير حساب، ثم الذين يلونهم؛ وهو من يدخلها بغير عذاب بعد أن يحاسب ويستحق العذاب، ثم من

(١) ذكره السفاريني في لوامع الأنوار /٢١٦، وعزاه إلى الطبراني، وقال: «إن سنته جيدة».

(٢) صحيح البخاري /١١٤٨.

يصيبه لفح من النار ولا يسقط .

والحاصل أن في قوله : «أسعد» إشارة إلى اختلاف مراتبهم في السبق إلى الدخول باختلاف مراتبهم في الإخلاص ؛ ولذلك أكدده بقوله : «من قلبه، مع أن الإخلاص محله القلب ؛ لكن إسناد الفعل إلى الجارحة أبلغ في التأكيد»^(١) .

وهذا هو القول الذي ارتضاه في معنى «أسعد» من أنها على بابها من التفضيل ، ورد على من قال : إنها هنا بمعنى السعيد .

وأيضاً يشفع عليه الصلاة والسلام لمن قال : لا إله إلا الله ، وإن دخل النار بذنبه ؛ فقد ورد من حديث أنس بن مالك في صفة الشفاعة : «ثم أعود الرابعة فاحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً . فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واسفع تشفع . فأقول: يارب اذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبرياتي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله»^(٢) .

وفي حديث آخر عن أنس رضي الله عنه أخبر عليهما السلام عن خروج أهل لا إله إلا الله مهما كانت قلة عملهم ، وإن كان شيئاً حقيراً لا قيمة له ؛ فإن الله يجعل فيه البركة ؛ فيحل به رضي الله تعالى فلا يستهن أحد بعمل الخير مهما كان قليلاً ؛ فقد قال عليهما السلام : «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير

(١) فتح الباري ١١ / ٤٤٣ .

(٢) صحيح البخاري ١٢ / ٤٧٣ ، ومسلم ١ / ١٨٤ .

ما يزن ذرة^(١).

٣ - وورد كذلك أن الشفاعة تستحق بالإكثار من السجود، كما ورد عن زياد بن أبي زياد مولىبني مخزوم عن خادم النبي ﷺ قال: «كان النبي ﷺ ما يقول للخادم: ألم حاجة؟ حتى كان ذات يوم قال: يا رسول الله ، حاجتي أن تشفع لي يوم القيمة، قال: فأعني بكثرة السجود»^(٢).

* * *

(١) صحيح البخاري ٣٩٢/١٣، والترمذى ٧١٢/٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٥٠٠/٣، وقال السفاريني في لوامع الأنوار ٢١٦/٢: «إن سنته صحيح».



الفصل الخامس

الشفاعات التي لم يثبت بها نص صحيحة

قهيد:

١- الشفاعة لمن زار قبر الرسول ﷺ.

٢- الشفاعة للأقرب فالأقرب منه عليه السلام.

٣- الشفاعة لأهل مدن بعضها غير المدينة المنورة.

٤- الشفاعة لأكثر مما على وجه الأرض من شجر ومدر.

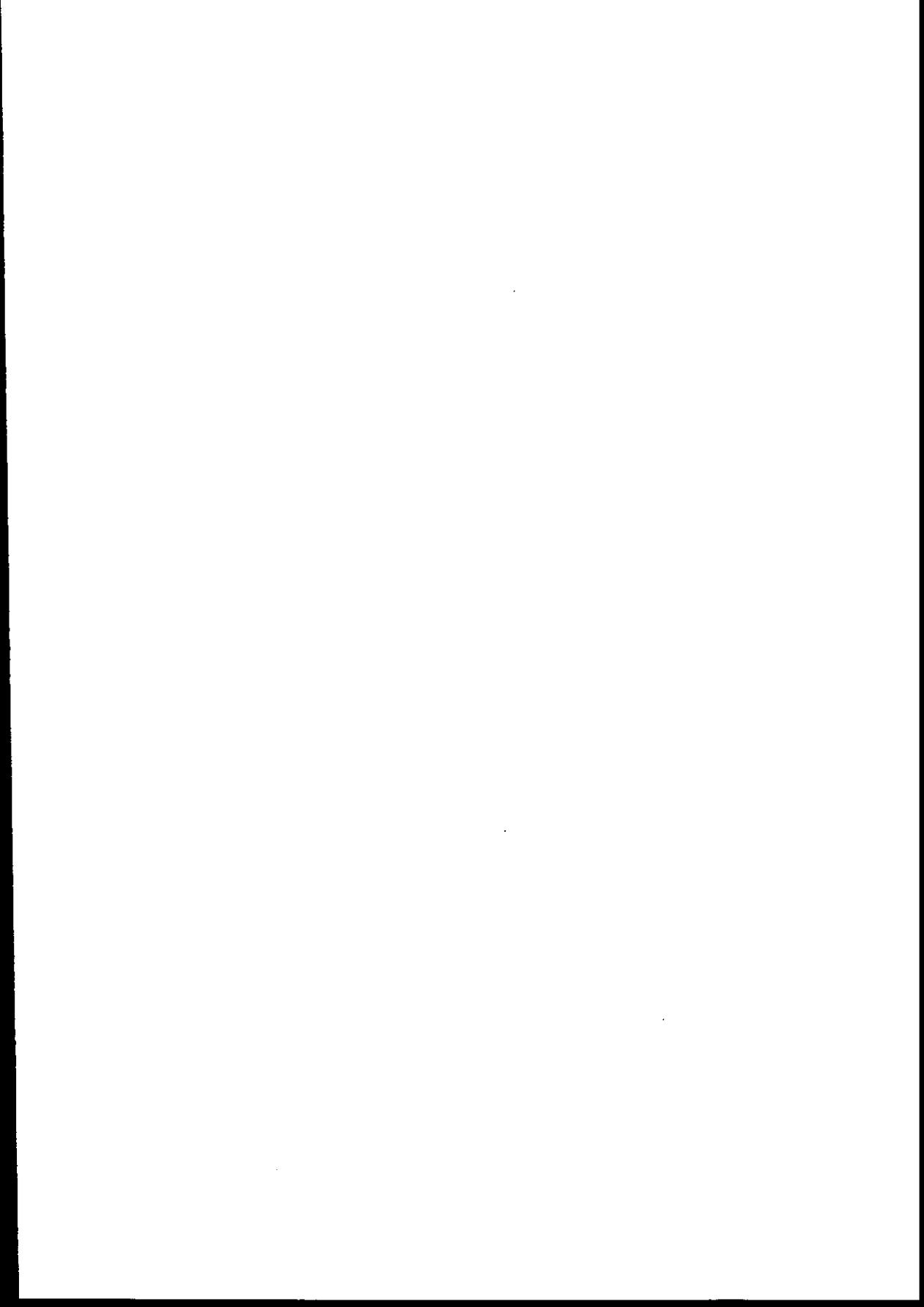
٥- الشفاعة لمن مات في أحد الحرمتين.

٦- الشفاعة لمن تأخيا في الله.

٧- الشفاعة لمن قضى حوائج آل البيت.

٨- الشفاعة لمن حفظ أربعين حديثاً.

٩- الشفاعة لمن قضى حوائج الناس.



الفصل الخامس

الشفاعات التي لم يثبت بها نص صحيح

نَهْيٌ:

عرفنا فيما مضى أنواع الشفاعات الثابتة؛ سواء منها ما كان خاصاً ببنينا محمد ﷺ ، أو له مع غيره من الشفاعة.

ونذكر في هذا الفصل ما اعتقده بعض الناس من التعلق بأسباب يطلبون بها الشفاعة إلى الله تعالى؛ هي في الواقع غير ثابتة، وسبب تعلقهم وأغترارهم بها ورود مرويات بإثباتها؛ فظنوا أنها أحاديث صحيحة ثابتة عن المصطفى ﷺ ، بينما الواقع هو خلاف ذلك؛ فهي إما أحاديث ضعيفة، وإما موضوعة رويت في غير الصاحح والسنن.

وسنعرض فيما يلي بعض تلك الشفاعات وهي :

١ - اعتقاد شفاعة الرسول ﷺ لمن زار قبره من الناس بعد موته .

ومن الآثار التي يستدل بها من يثبت تلك الشفاعة؛ الأحاديث الآتية:

١ - عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ ، يقول: «من زار قبري». أو قال : من زارني. كنت له شفيعاً أو شهيداً، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيمة».

٢ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «من زارني

بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً، أو شفيعاً يوم القيمة، .

٣- «من زارني حتى ينتهي إلى قبري؛ كنت له يوم القيمة شهيداً، أو قال :
شفيعاً، .

٤- «من زار قبري وجبت له شفاعتي، .

٥- «من جاءني زائراً، لا تعمله حاجة إلا زيارتي؛ كان حقاً علي أن أكون له
شفيعاً يوم القيمة، .

٦- «من زار قبري حللت له شفاعتي، .

٧- «من زارني متعمداً كان في جواري يوم القيمة، .

٨- «من أتى المدينة زائراً لي وجبت له شفاعتي يوم القيمة، ومن مات في
أحد العرمين بعث آمناً، .

وذلك الأحاديث كلها لم يثبت منها شيء عن الرسول ﷺ بسند
صحيح، وأفتتها في رواتها؛ فهم ما بين ضعيف أو كذاب أو مجھول أو
وضاء، لا يعتمد على روایتهم، ولا يرکن إليها، ولم يروها كذلك إلا من
لم يشترط الصحة في نقل الحديث.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في ردہ على القائلين
بمشروعية زiyارة القبر الشريف :

«فإِنْ أَحَادِيثُ زِيَارَةِ قَبْرِهِ كُلُّهَا ضَعِيفَةٌ، لَا يُعْتَدُ عَلَى شَيْءٍ فِيهَا فِي
الدِّينِ؛ وَلَهُذَا لَمْ يَرُو أَهْلُ الصَّحَاحِ وَالسُّنْنِ شَيْئاً مِنْهَا، إِنَّمَا يَرُوِيهَا مِنْ
يَرُوِيُ الْضَّعَافَ؛ كَالْدَارْقَطْنِيِّ وَالْبَزَارِ وَغَيْرِهِمَا»^(١).

(١) القاعدة الجليلة في التوسل والوسيلة ص ٧٢.

أما الحديث الأول: فإن إسناده فيه جهالة، وفيه اضطراب، وقد أخرجه البيهقي في سنته وحكم عليه بجهالة إسناده^(١).

ويقول ابن عبد الهادي: «هذا الحديث ليس ب صحيح؛ لانقطاعه وجهالة إسناده واضطرابه»^(٢).

أما الحديث الثاني: «من زارني بالصينية محتسباً، فقد أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، وأورده السيوطي^(٣) في «الجامع الصغير» ورمز لحسن، لكن المناوي رد عليه هذا التحسين، وقال بأنه «ليس بحسن؛ ففيه ضعفاء؛ منهم أبو المثنى سليمان بن يزيد الكعبي. قال الذهبي: ترك. وقال أبو حاتم: منكر الحديث»^(٤).

ويقول ابن عبد الهادي في الحكم على هذا الحديث: «هذا الحديث ليس بصحيح ولا ثابت، بل هو حديث ضعيف الإسناد منقطع، ولو كان ثابتاً لم يكن فيه دليل على محل النزاع، ومداره على أبي المثنى سليمان بن يزيد الكعبي الخزاعي المدني، وهو شيخ غير محتاج بحديثه، وهو بكليته أشهر منه باسمه، ولم يدرك أنس بن مالك؛ فروايته عنه منقطعة غير متصلة، وإنما يروي عن التابعين وأتباعهم، وقد ذكره ابن حبان في كتاب «الثقات في أتباع التابعين»، وذكره أيضاً في كتاب «المجرودين»^(٥).

ثم ذكر ما قاله ابن حبان فيه في كتاب الثقات، وما قاله فيه في كتاب

(١) السنن الكبرى ٢٤٥/٥.

(٢) الصارم المنكي في الرد على السبكي ص ٨٦.

(٣) الجامع الصغير ٢/١٧٢.

(٤) فيض القدير ٦/١٤٠ - ١٤١.

(٥) الصارم المنكي في الرد على السبكي ص ١٦٢.

المجرورين من تضعيف.

ويقول فيه ابن حجر : «أبو المتن الخزاعي اسمه سليمان بن يزيد : ضعيف»^(١).

وأما الحديث الثالث ، وهو : «من زارني حتى ينتهي إلى قبري»، إلخ ؛ فقد ذكره السبكي في كتابه «شفاء السقام»، وقال : «ذكره الحافظ أبو جعفر العقيلي في كتاب «الضعفاء» في ترجمة فضالة بن سعيد بن زميل المازني . . . إلى أن يقول : وذكره الحافظ ابن عساكر من جهةه أيضاً . . . وفضالة بن سعيد قال العقيلي في ترجمته : حديثه غير محفوظ ، ولا يعرف إلا به . هكذا رأيته في كتاب العقيلي .

وذكر الحافظ ابن عساكر عنه أنه قال : لا يتابع على حديثه من جهة ثبت ولا يعرف إلا به»^(٢).

وقد بين العلامة ابن عبد الهادي أن هذا الحديث «حديث منكر جداً، ليس ب صحيح ولا ثابت؛ بل هو حديث موضوع على ابن جريج».

ويذكر كذلك أنه وقع تصحيف في متنه وفي إسناده أيضاً «أما التصحيف في متنه؛ فقوله : «من زارني» من الزيارة ، وإنما هو «من رأني في المنام» كان كمن زارني في حياتي».

هكذا روايته في كتاب العقيلي . وفي نسخة ابن عساكر : «من رأني ، من الرؤية»؛ وعلى هذا يكون معناه معنى الحديث الصحيح : «من رأني في المنام فقد رأني ، لأن الشيطان لا يتمثل بـ...».

(١) تقريب التهذيب ٤٦٩/٢.

(٢) شفاء السقام ص ٣٨.

أما التصحيف في إسناده فقوله: سعيد بن محمد الحضرمي، والصواب: شعيب بن محمد، كما في رواية ابن عساكر، والحديث ليس ثابت على كل حال سواء كان بلفظ الزيارة أو الرؤية، وراويه فضالة بن سعيد بن زميل المازني شيخ مجهول، لا يعرف له ذكر إلا في هذا الخبر الذي تفرد به، ولم يتابع عليه^(١).

وأما الحديث الرابع: وهو: «من زار قبرى وجبت له شفاعتي»؛ فقد أورده السيوطي^(٢) ورواه البزار^(٣) والدارقطنی^(٤).

وقد رمز السيوطي لضعف الحديث، وفي إسناده كذلك راو ضعيف، وهو عبد الله بن إبراهيم الغفاري؛ قال الهيثمي: «وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري، وهو ضعيف»^(٥).

ويقول ابن حجر عن هذا الراوي: «عبد الله بن إبراهيم بن أبي عمرو الغفاري، أبو محمد المدنی: متزوج، نسبة ابن حبان إلى الوضع»^(٦).

وقال ابن عبد الهادي عن الحديث: «وهو حديث منكر ضعيف الإسناد واهي الطريق لا يصلح للاحتجاج بهائه، ولم يصححه أحد من الحفاظ المشهورين، ولا اعتمد عليه أحد من الأئمة المحققين»^(٧).

(١) الصارم المنكي ص: ١٦٧.

(٢) الجامع الصغير ٢/١٧٢ ورمز لضعفه.

(٣) كشف الأستار في زوائد البزار ٢/٥٧، ثم قال: «قال البزار: عبد الله بن إبراهيم لم يتابع على هذا؛ وإنما يكتب ما يتفرد به».

(٤) الدارقطنی ٢/٢٧٨.

(٥) مجمع الزوائد ٤/٢.

(٦) تقریب التهذیب ١/٤٠٠.

(٧) الصارم المنكي ص: ١٣٠.

وفيه كذلك من جهة الإسناد راوٍ تكلم فيه العلماء وضعفوه؛ وهو عبد الله بن عمر العمري؛ يقول ابن عبد الهادي: «وقد تكلم في عبد الله العمري جماعة من أئمة الجرح والتعديل، ونسبوه إلى سوء الحفظ والمخالفة للثقات في الروايات».

ثم نقل كلام العلماء في تجربته^(١) وأن هذا الحديث لا يثبت به شيء، ولا يعتمد عليه محقق.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الحديث: «وأما قوله: «من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي» وأمثال هذا الحديث - مما روي في زيارة قبره عليهما السلام - فليس منها شيئاً صحيحاً، ولم يرو أحد من أهل الكتب المعتمدة منها شيء؛ لأن أصحاب الصحيح كالبخاري ومسلم، ولا أصحاب السنن كأبي داود والنسائي، ولا الأئمة من أهل المسانيد كالإمام أحمد وأمثاله، ولا اعتمد على ذلك أحد من أئمة الفقه كمالك والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وأبي حنيفة والثوري والأوزاعي واللith بن سعد، وأمثالهم؛ بل عامة هذه الأحاديث مما يعلم أنها كذب موضوعة».

إلى أن يقول عن سند الحديث: «ومداره على عبد الله بن عمر العمري وهو ضعيف»^(٢) إلخ.

أما الحديث الخامس: وهو: «من جاءني زائراً لا تعمله حاجة إلا زيارتي...» إلخ. وفي رواية ذكرها الذهبي: «لا تنزعه حاجة إلا زيارتي»، فقد

(١) انظر: الصارم المنكير ص ٢٨٠-١١.

(٢) كتاب الزيارة ضمن الماجموع الفريد ص ٣٨٢. وانظر: مجموع الفتاوى ٢٢١ / ٢٧.

أخرج هذا الحديث الطبراني^(١) والدارقطني^(٢)، وهو من الأحاديث التي أوردها السبكي في كتابه «شفاء السقام»^(٣) وانصر لها.

وهذا الحديث غير ثابت بسند صحيح؛ قال فيه ابن عبد الهادي: «ليس فيه ذكر الزيارة للقبر، ولا ذكر الزيارة بعد الموت، مع أنه حديث ضعيف الإسناد، منكر المتن، لا يصلح الاحتجاج به، ولا يجوز الاعتماد على مثله، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ولا رواه الإمام أحمد في مسنده، ولا أحد من الأئمة المعتمد على ما أطلقوا في رواياتهم، ولا صاححة إمام يعتمد على تصحيحه.

ثم ذكر ابن عبد الهادي علة أخرى لضعف الحديث؛ وهو أنه ضعيف الإسناد، لأنَّه قد تفرد به شيخ لم يعرف بنقل العلم، ولم يشتهر بحمله، ولم يُعرف من حاله ما يوجب قبول خبره، وهو مسلمٌ بن سالم الجهي الذي لم يشتهر إلا برواية هذا الحديث المذكر^(٤).

ويقول فيه ابن حجر^(٥): «مسلم بن سالم الجهي بصري، كان يكون يكْثِرَ، ضعيف، ويقال فيه: مسلم، بزيادة هاء».

وأما الحديث السادس: وهو: «من زار قبرى حلت له شفاعتي»؛ فقد أخرجَه البزار في مسنده^(٦)، وقد عزاه عبد الحق إلى الدارقطني أيضاً فيما

(١) انظر: مجمع الروايات ٤/٢. وقد عزاه للطبراني، ثم قال: «وفي مسلم بن سالم وهو ضعيف».

(٢) سنن الدارقطني ٢/٢٧٨.

(٣) شفاء السقام ص ١٦.

(٤) الصارم المنكي ص ٣٨.

(٥) تقريب التهذيب ٢/٢٤٥.

(٦) كشف الأستار ٢/٥٧.

يذكر السبكي^(١)، وفيه راويان ضعيفان؛ تكلم فيما العلماء بالتجريح، وهما عبد الله بن إبراهيم الغفاري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

ويقول ابن عبد الهادي في رده على السبكي: «واعلم أن هذا الحديث الذي ذكره من روایة البزار، حديث ضعيف منكر ساقط الإسناد، لا يجوز الاحتجاج به مثله عند أحد من أئمة الحديث وحفظ الأثر... وأما عبد الله بن إبراهيم؛ فهو ابن أبي عمرو الغفاري، أبو محمد المدنی يقال: إنه من ولد أبي ذر الغفاري، وهو شيخ ضعيف الحديث جداً منكر الحديث، وقد نسبه بعض الأئمة إلى الكذب ووضع الحديث».

ثم ذكر ما قاله العلماء في تجريحه إلى أن قال: «وأما عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ فضعيف غير محتاج به عند أهل الحديث».

ثم ذكر كذلك ما قاله العلماء في تجريحه من أوصاف^(٢) ترد روایته. وأما الحديث السابع، وهو: «من زارني متعمداً، إلخ الحديث». فقد أخرجه أبو جعفر العقيلي كما ذكر السبكي^(٣).

يقول ابن عبد الهادي: «إن هذا الحديث ضعيف مضطرب مجھول الإسناد، من أوهى المراسيل وأضعفها»^(٤).

وأما الحديث الأخير وهو الثامن: «من أتى المدينة زائراً...، إلخ الحديث»،

(١) شفاء السقام ص: ١٤.

(٢) الصارم المنكى ص: ٣٠.

(٣) شفاء السقام ص: ٣١.

(٤) الصارم المنكى ص: ٩٢.

فإن السبكي^(١) عزاه إلى يحيى الحسيني في أخبار المدينة، ثم ساق الحديث دون أن يبين السبكي درجة الحديث عنده ولا الرجل المبهم في السند.

قال ابن عبد الهادي عن هذا الحديث: «حديث باطل لا أصل له، وخبر معضل لا يعتمد على مثله، وهو من أضعف المراسيل وأوهي المنقطعات، ولو فرض أنه من الأحاديث الثابتة؛ لم يكن فيه دليل على محل التزاع»^(٢).

ويعرض ما تقدم: يتضح أنه لم يثبت شيءٌ عن النبي ﷺ في استحقاق الشفاعة لزائر قبره الشريف ﷺ.

٢- الشفاعة للأقرب فالأقرب منه ﷺ :

ورد في ذلك حديث ضعيف يدل على ترتيب شفاعة الرسول ﷺ ، وأنه ينتدئ بالأقرب فالذي يليه، إلى أن ينتهي بالعجم، وهذا ما يفيده حديث ابن عمر الذي أخرجه الطبراني والدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: «أول من أشفع له من أمتى أهل بيتي، ثم الأقرب فالأقرب، ثم الأنصار، ثم من آمن بي من أهل اليمن، ثم سائر العرب، ثم سائر الأعاجم، ومن أشفع له أولاً أفضل»^(٣).

وقد قال الدارقطني بعد أن أخرجه: «تفرد به حفص عن ليث، وقد ضعف الحديث بسبب هذين الروايين؛ لأن ليثاً ضعيف، وحفص كذاب وهو المتهم به كما يذكر السيوطي»^(٤)، فالحديث من رواية كذاب عن ضعيف.

(١) شفاء السقام ص ٤٠.

(٢) الصارم المنكري ص ١٧١.

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٣٨١، وقال: «رواه الطبراني، وفيه من لم أعرفهم».

(٤) انظر: الآلاني المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٢/٤٥٠.

ويقول ابن الجوزي في كتابه «الموضوعات» في باب ذكر الشفاعة بعد أن أخرج الحديث قوله:

«قال المصنف: قلت: أما ليث فغاية في الضعف عندهم، إلا أن المتهم بهذا حفص. قال أحمد ومسلم والنسائي: هو متزوك»^(١).

ويقول ابن حجر: «ليث بن أبي سليم بن زنيم - بالزاي والنون مصغرأ - واسم أبيه أيمن. وقيل غير ذلك، صدوق اختلط أخيراً، ولم يتميز حديثه فترك»^(٢).

ويقول عن حفص: «حفص بن أبي داود القارئ، صاحب عاصم، ويقال له: حفيص، متزوك الحديث مع إمامته في القراءة»^(٣).

وبهذا نعلم أن تلك الرواية ضعيفة وغير مقبولة، وأن الوارد والثابت من أحاديث الشفاعة أنه يشفع لكل مؤمن عندما يأذن له الله بالشفاعة فيه دون نظر إلى جنسه أو نسبة.

٣ - ومن الشفاعات غير الثابتة أيضاً: القول بأن الرسول ﷺ خص بشفاعته أهل مدن بعضها؛ كمكة والمدينة والطائف وغيرها من المدن:

فإن هذا لم يثبت عنه ﷺ أنه حدد الشفاعة لأهل مدن معينة، أو ذكر أهل بلدان يخصهم بالشفاعة، غير ما ورد عن أهل المدينة فيما فضّلها على غيرها وسكن بها صابراً على لأوانها وشدتها، ومات بها.

(١) الموضوعات لابن الجوزي ٣/٢٥٠.

(٢) تقريب التهذيب ٢/١٣٨.

(٣) تقريب التهذيب ١/١٨٦.

أما الحديث الذي يروى هنا في شفاعة الرسول ﷺ لأهل مدن بعينها؛ فهو عن عبد الملك بن عباد بن جعفر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أول من أشفع له من أمتي أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل الطائف»^(١)؛ وهذا الحديث في إسناده مجاهيل، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد..

٤- ومن الشفاعات التي لم تثبت كذلك عن رسول الله ﷺ :

ما ذكر من شفاعته عليه الصلاة والسلام لأكثر مما على وجه الأرض من شجر ومدر:

كما جاء عن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني أشفع يوم القيمة لأكثر مما على وجه الأرض من شجر ومدر».

قال السفاريني: «وآخر جه الطبراني في الأوسط عن أنس الأنصاري، ولفظه: «أكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر»^(٢).

وروى الإمام أحمد عن بريدة قال: «دخلت على معاوية، فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يا معاوية، أتأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم، وهو بريء أنه سيتكلّم بثل ما قال الآخر، فقال بريدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني لأرجو أن أشفع يوم القيمة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرة، قال: أفترجواها أنت يا معاوية ولا يرجوها علي بن أبي طالب رضي الله عنه»^(٣).

ولكن في سند الحديث أبو إسرائيل الملطي، وهو ضعيف، قال الهيثمي

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٣٨١: «آخر جه البزار والطبراني، وفيه جماعة لم أعرفهم».

(٢) لوعظ الأنوار ص ٢٠٥، والمدر: «القرى والأمسار». (النهاية لابن الأثير ٤/٣٠٩).

(٣) المستد ٥/٣٤٧.

بعد أن أورد الحديث عن أحمد . قال : « ورجاله ونقوا على ضعف كثير في أبي إسرائيل الملائقي »^(١) .

وأورد الهيثمي حديثاً عن بريدة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كثير الحجر والشجر ، ثلث مرات . قلنا : نعم . قال : والذي نفسي بيده ، لشفاعتي أكثر من الحجر والشجر » ، قال الهيثمي : وفيه سهل بن عبد الله بن بريدة وهو ضعيف^(٢) .

٥- الشفاعة لمن مات في أحد الحرمين :

وهذه الشفاعة لم أجد فيها حديثاً صحيحاً ، ويستدل من يقول بها بما روي عن سلمان عن النبي ﷺ أنه قال : « من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي ، وكان يوم القيمة من الآمنين »^(٣) .

وهذا الحديث لا يتم الاستدلال به كذلك على ثبوت هذه الشفاعة ؛ لأن في سنته عبد الغفور بن سعيد ، وهو متزوك كما يذكر الهيثمي^(٤) .
أما من مات بالمدينة فقد تقدم الكلام فيه .

٦- ومن الأسباب الأخرى في الشفاعات غير الثابتة :

ما جاء عن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا شفيع لكل رجلين تآخيا في الله من مبعشي إلى يوم القيمة »^(٥) .

(١) ، (٢) مجمع الزوائد ١٠/٣٧٨-٣٧٩ .

(٣) الطبراني ٦/٢٩٤ في الكبير .

(٤) مجمع الزوائد ٢/٣١٩ .

(٥) أبو نعيم في الحلية ١/٣٦٨ .

والحديث ضعيف؛ لأن في سنته عمرو بن خالد الكوفي، وهو أبو خالد الواسطي، وهو كذاب كما قال عنه وكيع، وقال ابن حجر: «إنه متزوك»^(١). والتأخي في الله أمر مطلوب، وقد حدث عليه الشرع ورغم فيه، والمؤمنون يشفع بعضهم في بعض، كما صرحت بذلك النصوص النبوية، لكن القول بأن التأخي مما يوجب الشفاعة؛ هو الذي يتوقف القول به على ثبوت صحته.

٧- ومنها كذلك ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة أنا شفيع لهم يوم القيمة: الضارب بسيفه أمام ذريته، والقاضي لهم حوانجهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه»^(٢). ومن تأمل القصد من وراء هذا الحديث؛ يرى أن وضع الشيعة ظاهر عليه.

والحديث غير ثابت؛ لأن في سنته داود بن سليمان الجرجاني، وهو مجهول.

قال فيه ابن أبي حاتم: «داود بن سليمان الجرجاني... سمعت أبي يقول: هو مجهول»^(٣).

وقال الذهبي: «داود بن سليمان الجرجاني الغازى عن علي بن موسى الرضا وغيره، كذبه يحيى بن معين، ولم يعرفه أبو حاتم، وبكل حال

(١) تقرير التهذيب ٦٩/٢.

(٢) عزاه في الشفاعة ص ٢٥٣ إلى أبي طالب في الأمالي.

(٣) البرج والتعديل ٤١٣/٣.

فهو شيخ كذاب، له نسخة موضوعة على الرضا^(١).

وقال الشوكاني عن الحديث: إنه موضوع، وقد أورده بلفظ: «أربعة أنا شفيع لهم يوم القيمة: الضرير لذريتي، والقاضي لهم حوانجهم، والسايع لهم في أمورهم ما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه»^(٢).

ومثل الحديث السابق ما روى الطبراني عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة فيبني إسرائيل؛ من دخله غفر له»^(٣).

وفي سنته مجاهيل.

قال الهيثمي عن سنته: «وفيه جماعة لم أعرفهم»^(٤).

ومثله الحديث الآخر: «من أحبني فليحب علياً، ومن أحب علياً فليحب فاطمة، ومن أحب فاطمة فليحب الحسن والحسين، وإن أهل الجنة ليتبashرون ويصارعون إلى رؤيتهم ينظرون إليهم، محبتهم إيمان، وبغضهم ثقاق، ومن أبغض أحداً من أهل بيتي فقد حرم شفاعتي؛ فإنني نبئكم بعندي الله بالصدق؛ فأحبوا أهلي وأحبوا علياً»^(٥).

وهذا الحديث موضوع وباطل والذي وضعه عبد الله بن حفص^(٦).

(١) ميزان الاعتدال ٨/٢.

(٢) الفوائد المجموعة ص ٣٩٧.

(٣) المعجم الصغير ٢٢/٢.

(٤) مجمع الزوائد ٩/١٦٨.

(٥) الفوائد المجموعة ص ٣٩٥.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ص: ٥٢.

٨- منها كذلك :

ما يروى من الأحاديث التي تدل على استحقاق الشفاعة بحفظ أربعين حديثاً من السنة؛ مثل ما يروى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يحفظ على أمتي أربعين حديثاً يعلمهم بها أمر دينهم إلا جيء به يوم القيمة، فقيل له: اشفع لمن شئت»^(١).

وفي سند هذا الحديث يزيد بن أبان الرقاشي، وهو راوٍ متزوك، كما ذكر النسائي وغيره^(٢).

وفيه كذلك عمرو بن الأزهر، وكان يضع الحديث، كما ذكر الإمام أحمد، وقال البخاري: «يرمى بالكذب»، وقال النسائي وغيره: «متزوك»^(٣).

وهذا الحديث هو أحد الأحاديث التي ذكرها ابن عبد البر في إثبات الشفاعة لمن حفظ أربعين حديثاً، وقد ذكر ابن الجوزي عدة أحاديث في ثبوت الشفاعة لمن حفظ أربعين حديثاً، ثم عقب عليها بالتضعيف^(٤).

٩- منها كذلك :

ما يروى عن استحقاق الشفاعة لمن قضى حاجات الناس؛ مثل ما يروى عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «من قضى لأخيه حاجة كنت واقفاً عند ميزانه؛ فإن رجع ولا شفعت له»^(٥).

(١) ميزان الاعدال ٤/٤١٨.

(٢)، (٣) المصدر السابق ٣/٤٤٥.

(٤) انظر: العلل المتأخرة ١/١١١ - ١٢١.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/٣٥٣.

وهذا الحديث لا يتم به الاستدلال على ثبوت تلك الشفاعة؛ لأن في سنته راوياً وضاعاً، وهو عبد الله بن إبراهيم الغفاري، يقول عنه الذهبي: «نسبة ابن حبان إلى أنه يضع الحديث، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه، وقال الدارقطني: حديثه منكر»^(١).

ومثله كذلك ما عزاه الإمام ابن كثير إلى ابن مردوه عن عبد الله بن مسعود، قال: «قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿لِيُوفِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٠] قال: ﴿أَجُورُهُمْ﴾: يدخلهم الجنة ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: الشفاعة لمن صنع إليهم المعروف في الدنيا^(٢).

وهذا الحديث لا يتم به الاستدلال؛ لأن في سنته إسماعيل بن عبد الله الكندي، ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد أنه ضعفه الذهبي من عند نفسه، فقال: «أتى بخبر منكر، وبقية رجاله وثقوا»^(٣).

وقال ابن كثير: «هذا إسناد لا يثبت»^(٤).

وأورده السيوطي من حديث طويل عن أبي هريرة وابن عباس عن النبي ﷺ جاء فيه: «ومن بنى على ظهر طريق يهوي إليه عابرها السبيل؛ بعثه الله يوم القيمة على نجيبة من درّ وجهه يضيء لأهل الجمع حتى يقول أهل الجمع: هذا ملك من العلانكة لم ير مثله، حتى يزاحم إبراهيم في قبته، ويدخل الجنة بشفاعته أربعون ألف رجل».

(١) ميزان الاعدال ٢/٢٨٨.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ١/٥٩١ - ٥٩٢، وعزاه إلى ابن مردوه.

(٣) مجمع الزوائد ٧/١٣.

(٤) ابن كثير ١/٥٩٢ من تفسيره.

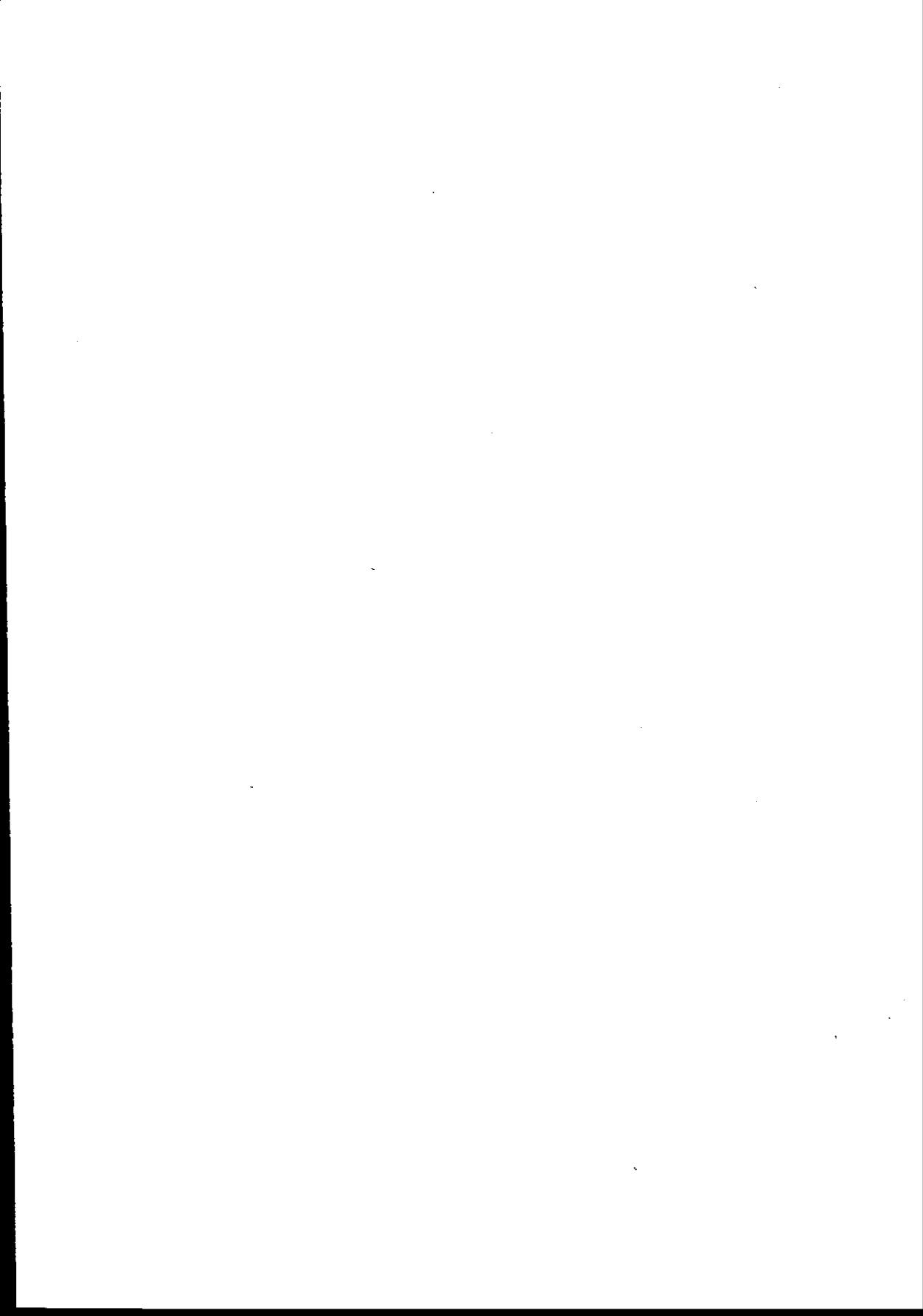
وفيه كذلك : «ومن احتضر بثراً حتى يبسط ماؤه فيذلها للمسلمين، كان له كأجر من توضأ منها وصلى، وله بعد شعر من شرب منها حسنتان: إنس أو جن أو بهيمة أو سبع أو طائر وغير ذلك، وله بكل شعرة من ذلك عتق رقبة، ويرد في شفاعته يوم القيمة حوضي عدد نجوم السماء. قيل: يا رسول الله ، وما حوض القدس؟ قال: حوضي حوضي حوضي»^(١).

قال ابن حجر: «هذا الحديث بطوله موضوع على رسول الله ﷺ ، والمتهم به ميسرة بن عبد ربه، لا بورك فيه»^(٢).

* * *

(١) الآلى المصنوعة في الأحاديث الموضعية / ٣٧٠ - ٣٧١.

(٢) المطالب العالية / ٣٦٤.



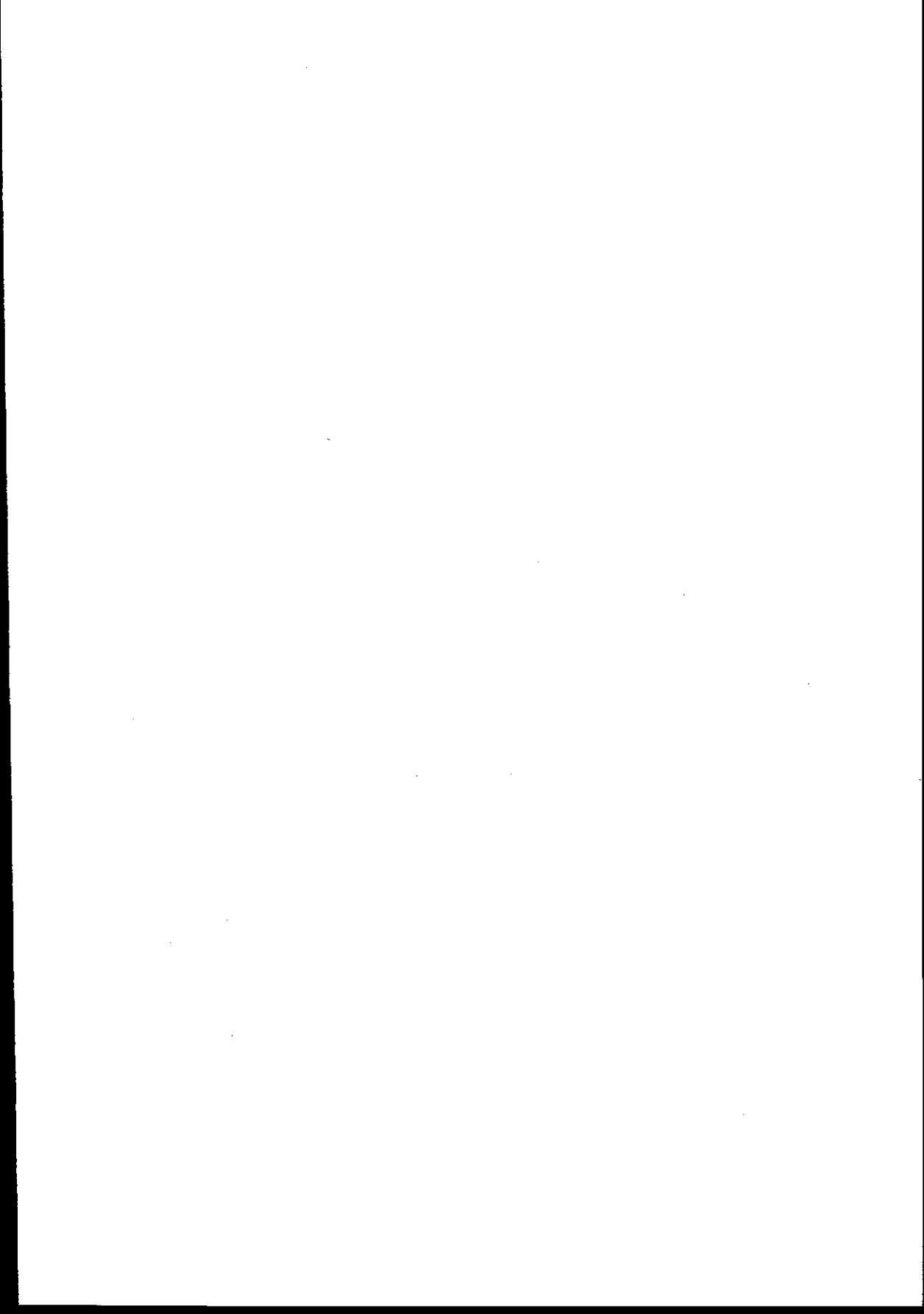
الفصل السادس

الأصوات التي تمنع الشفاعة

١- الإشراك بالله تعالى.

٢- كثرة تعمد العن.

٣- التكذيب بوقوع الشفاعة.



الفصل السادس

الأمور التي تمنع الشفاعة

١- فأول الأشياء التي تمنع من الشفاعة وأعظمها هو الإشراك بالله تعالى، كما نص عليه كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ؛ فالمشرك لا شفاعة فيه، ولم يخالف في هذا أحد من يتمنى إلى الإسلام.

ويكفي أن نذكر قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنِ يَشَاءُ» [النساء : ٤٨].

فإذا حرم الكافر من الغفران؛ فمن باب أولى أن يحرم من الشفاعات.

٢ - كثرة تعمد اللعن؛ فإن اللعن لا يستحق أن يكون شافعاً؛ لأنه في الدنيا كان يدعو على الخلق بالطرد والإبعاد عن رحمة الله؛ فيجازى يوم القيمة بعدم إكرامه بالشفاعة فيهم.

كما أخرج الإمام مسلم رحمه الله عن أبي الدرداء أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْلَّاعِنَيْنِ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

قال النووي في معنى : «لَا يَكُونُونَ شُفَعَاءَ»: «أي لَا يشفعون يوم القيمة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار».

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٠٠٦.

وأما قوله : «ولا يكونون شهداء»، فقال النووي : «إن فيه ثلاثة أقوال :
أصحها وأشهرها : لا يكونون شهداء يوم القيمة على الأم بتبلغ رسالهم
إليهم الرسالات .

والثاني : لا يكونون شهداء في الدنيا ، أي لا تقبل شهادتهم ، لفسقهم .
والثالث : لا يرزقون الشهادة ، وهي القتل في سبيل الله^(١) .
ولعل الأرجح هو القول الأول ؛ وذلك لظاهر الحديث ؛ حيث قرن عدم
الشهادة وعدم الشفاعة بيوم القيمة جزاء له .

وقد ورد الحديث بصيغة التكثير ، أي «لعنون» ، ولم يقل : لاعنا ؛ لأن
هذا الذم في الحديث إنما هو لمن أكثر من اللعن ، لمرة ونحوها ؛ ولأنه يخرج
منه أيضاً اللعن المباح ، وهو الذي ورد الشرع به ، وهو لعنة الله على الظالمين :
لعن الله اليهود والنصارى ، ولعن الله الواصلة والواشمة ، وشارب الخمر ،
وأكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ، والمصورين ، ومن انتهى إلى غير أبيه
وتولى غير مواليه ، وغير منار الأرض ، وغيرهم من هو مشهور في
الأحاديث الصحيحة^(٢) .

٣- التكذيب بالشفاعة ، كما نص عليه السلف :

ذكر الآجري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : «من كذب
بالشفاعة فليس له فيها نصيب»^(٣) .

(١) ، (٢) شرح النووي لسلم ٤٥٦ / ٥ .

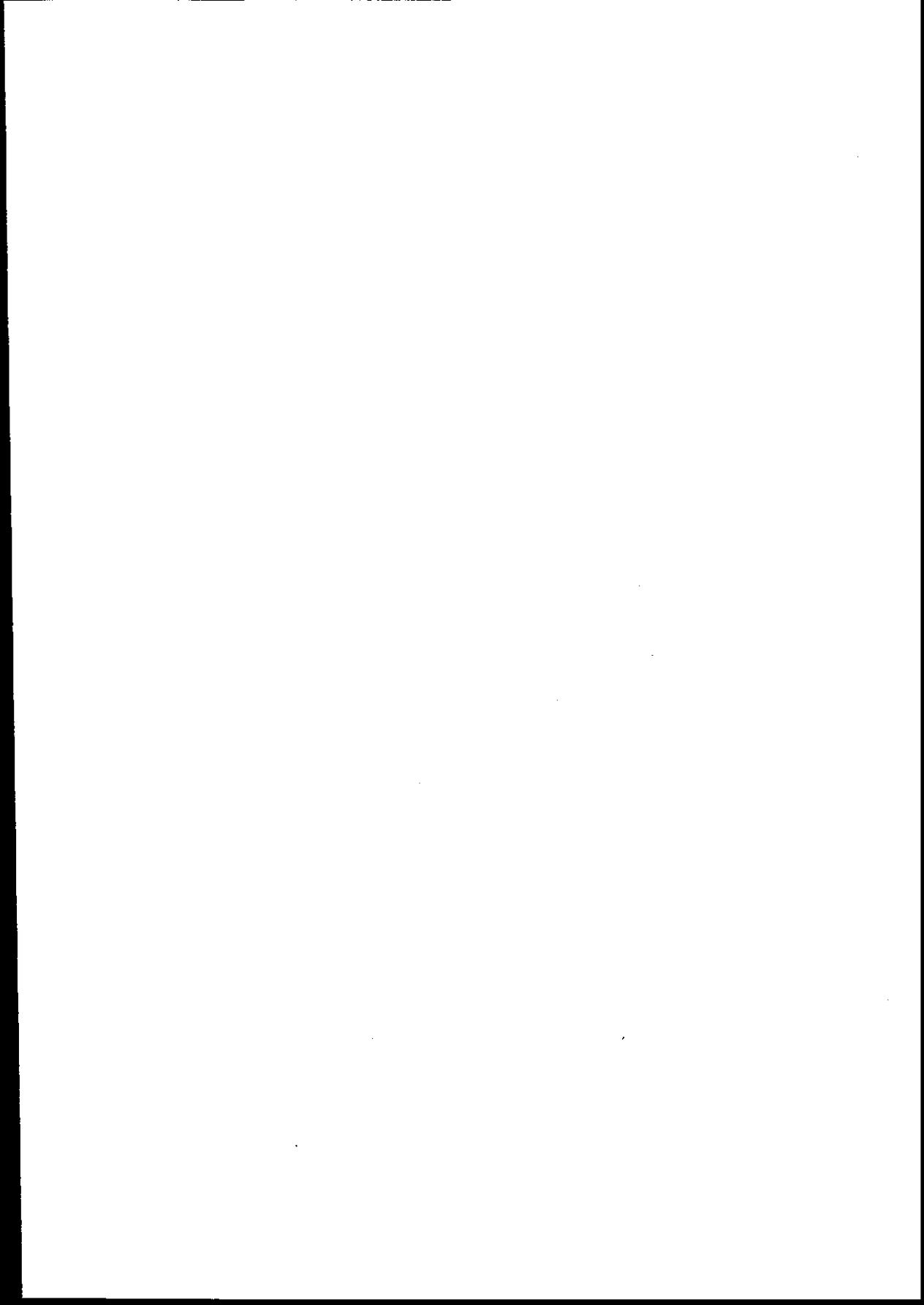
(٣) الشريعة للأجري ص : ٣٣٧ .

قال ابن حجر : « وأخرج سعيد بن منصور بسنده صحيح عن أنس قال : « من كذب بالشفاعة فلا نصيب له فيها » ^(١) .

والجزاء من جنس العمل ، فكما أنه نفى حصول الشفاعة ؛ فإنه يحرم منها .

* * *

(١) فتح الباري ٤٢٦/١١.



الفصل السابع

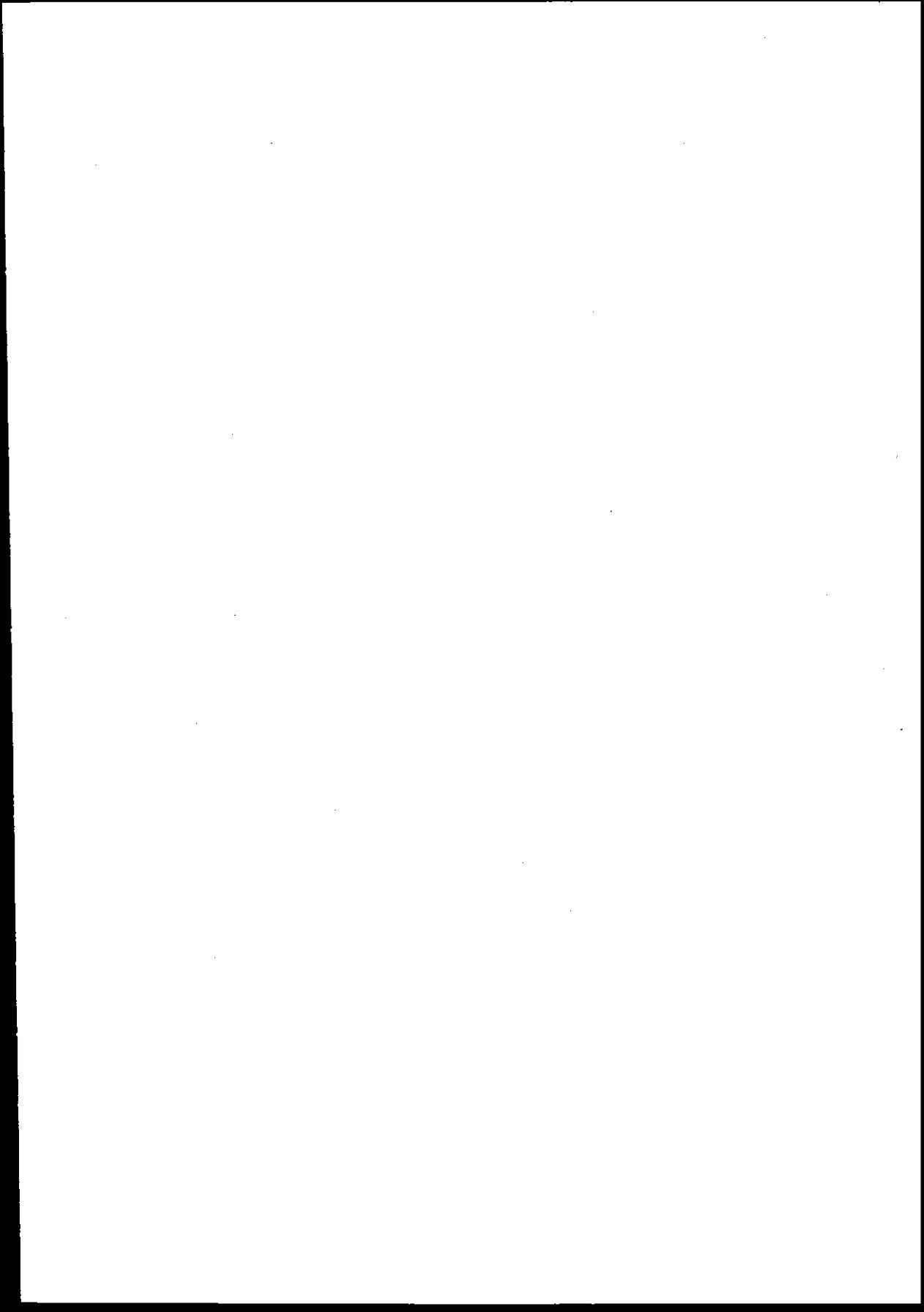
ذنوب لم يثبت نفي الشفاعة فيها

١- القول بمنع الشفاعة عن صاحب البدعة.

٢- المرجئة والقدرية.

٣- من غش العرب.

٤- من سارتحت رايات العباسين.



الفصل السابع

ذنوب لم يثبت نفي الشفاعة فيها

يتبيّن مما قدمنا في مبحث الكبائر أن السلف لا يختلفون في أن الشفاعة تعم كل من اقترف ذنباً من الذنوب، بعد أن يأذن الله من يشاء ويرضى «مهما كان ذلك الذنب، إلا ما ورد به النص، إلا ذنباً واحداً، فإنه لا شفاعة لصاحب مطلقاً؛ وهو الشرك بالله تعالى، فإنه لا أحد من السلف يقول بالشفاعة في صاحبة بالاتفاق.

ومن الجدير بالذكر أن هناك أحاديث ضعيفة، تعارض ما تقدم من دلالة النصوص الصحيحة في ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر، قد رویت وتقبلها بعض الناس، وهي تقضي بحرمان من اتصف بارتكاب ذنب من الذنوب التي سندكرها فيما يلي لأجل التنبية عليها وبيان منزلتها، وهي القول بمنع الشفاعة عن صاحب البدعة؛ والمرجنة والقدرية، ومن غش العرب، ومن سار تحت رايات العباسين.

١- أما القول بمنع الشفاعة عن المبتدع؛ فيستدل من يقول بها بما يروى عن ابن عبد السلام (واسمه صالح بن رستم الهاشمي)^(١) عن بكر ابن عبد المزني أن النبي ﷺ قال: «حلت شفاعتي لأمتى إلا صاحب بدعة»^(٢).

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٢٤٦/١.

(٢) أخرجه ابن وضاح القرطبي في كتابه «البدع والنهي عنها» ص ٣٦.

والاستدلال بهذا الحديث على حرمان المبتدع من الشفاعة لا يتم؛ لأن الحديث منكر، وفي سنته إرسال؛ لأن بكرًا تابعي، ولم يدرك النبي ﷺ^(١)، ومع إرساله فالسند إليه ضعيف؛ لأن أبو عبد السلام مجهول.

يقول الحافظ ابن حجر: «صالح بن رستم الهاشمي، مولاهم، أبو عبد السلام الدمشقي: مجهول»^(٢).

٢- نفي الشفاعة عن المرجنة والقدرية:

ويستدل النافون لها بما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي لا تناههما شفاعتي يوم القيمة: المرجنة والقدرية».

وهذا الحديث ذكره السيوطي في «الجامع الصغير»^(٣)، وعزاه إلى أبي نعيم، وذكره السفاريني في «لوامع الأنوار»^(٤).

وفي سند الحديث عبد الحكم بن ميسرة، وهو ضعيف، قال الدارقطني: «إنه يحدث بما لا يتبع عليه»^(٥).

وفيه كذلك سعيد بن بشير، قال ابن الجوزي عن هذا الحديث: «هذا لا يصح عن رسول الله ﷺ». قال يحيى: سعيد بن بشير ليس بشيء»^(٦).

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ١٦/١.

(٢) تهذيب التهذيب ١/٣٥٩.

(٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ٢/٤٦، وعزاه إلى أبي نعيم.

(٤) لوامع الأنوار ٢/٢١٦.

(٥) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٢/١١٦.

(٦) العلل المتنامية ١/١٥٦.

و بما روي عن واثلة بن الأسعق قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من هذه الأمة لا تناههما شفاعتي: المرجنة والقدرية»^(١).

وفي هذا الحديث محمد بن محسن، وهو متزوك، كما قال الهيثمي^(٢).

وقال ابن حجر في التقريب: «كذبوا»^(٣).

ومثل الحديث السابق ما روي عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «صنفان من أمتي لا تناههما شفاعتي: المرجنة والقدرية»^(٤).

وهذا الحديث فيه كذلك بحر بن كنizer السقاء، وهو متزوك^(٥) كما يذكر الهيثمي. ويقول فيه ابن حجر: «بحر بن كنizer السقاء، أبو الفضل البصري: ضعيف»^(٦).

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القدرية يقولون: الخير والشر بأيدينا؛ ليس لهم في شفاعتي نصيب، ولا أنا منهم ولا هم مني».

قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح. وقال ابن حبان: سعيد بن ميسرة يروي الموضوعات»^(٧).

(١) مجمع الزوائد ٢٠٦/٧، ويعزوهما الهيثمي، والسيوطى في الجامع الصغير ٤٦/٢ إلى الطبراني في الأوسط.

(٢) مجمع الزوائد ٢٠٧/٧.

(٣) تقريب التهذيب ٢٠٥/٢.

(٤) مجمع الزوائد ٢٠٦/٧، وعزاه إلى الطبراني في الأوسط.

(٥) مجمع الزوائد ٢٠٦/٧.

(٦) التقريب ٩٣/١.

(٧) العلل المتأدية ١٥٦/١.

وعن أنس مرفوعاً: «صنفان من أمتي لا تناههما شفاعتي: القدرية والمرجنة. قلت: يا رسول الله ، ما المرجنة؟ قال : قوم يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل. قلت : فما القدرية؟ قال : الذين يقولون: المشينة إلينا»^(١).

وفي سند هذا الحديث أبو عمران سعيد بن ميسرة.

قال البخاري : «عنه مناكير». وقال أيضاً: «منكر الحديث». وقال ابن حبان: «يروي الموضوعات»، وقال الحاكم: «روى عن أنس موضوعات، وكذبه يحيى القطان»^(٢).

وقد ذكر الرازمي في ترجمته أنه «منكر الحديث ، ضعيف الحديث ، يروي عن أنس المناكير»^(٣).

٣- حرمان من غش العرب من الشفاعة ، ومن مودة الرسول ﷺ :

ويستدل القائل بهذا بما يروى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من غش العرب لم يدخل في شفاعتي، ولم تزله مودتي»^(٤).
والاستدلال بهذا الحديث على نفي الشفاعة عن غاش العرب لا يتم كذلك؛ لأن في سنته حصين بن عمر الأحمسى ، وقد قال الترمذى عن هذا الحديث : إنه «حديث غريب ، لا نعرف إلا من حديث حصين بن عمر الأحمسى عن مخارق ، وليس حصين عند أهل الحديث بذلك القوى»^(٥).

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة ١١٥ / ٢ ، ١١٦ ، وعزاه إلى الخطيب ، وقد ذكر النهبي الحديث بلفظ: «القدرية يقولون: الخير والشر بلينينا، ليس لهم في شفاعتي نصيب».

(٢) ميزان الاعتدال ٢ / ١٦٠ .

(٣) كتاب الجرح والتعديل ٤ / ٦٣ .

(٤) رواه الترمذى ٥ / ٧٢٤ ، والإمام أحمد في المستد ١ / ٧٢ .

(٥) سنن الترمذى ٥ / ٧٢٤ .

ويقول ابن حجر عن هذا الرواية: «حسين بن عمر الأحمر الكوفي متوفى»^(١).

وهذا الحديث يعارض ما ثبت من النصوص الصحيحة في استحقاق أهل الكبار للشفاعة، ومعلوم أن الغش وإن كان كبيرة من الكبائر؛ لكنه لا يخرج صاحبه عن نطاق الإيمان، فهو مؤمن وهو من أهل الكبار.

على أنه قد ورد في الصحيح قوله ﷺ: «من غشنا فليس منا»^(٢).

ولكن هذا النص لا يدل على أن الغاش كافر، وطريقه طريق النصوص التي تدل في ظاهرها على تكبير مرتكبي بعض الذنوب من أحاديث الرجز: تمر كما جاءت، أو أنها واردة في شأن المستحل لذلك كما أجاب به علماء السلف^(٣).

٤- ومن الموضع الذي لم تثبت كذلك: القول بنفي الشفاعة عنمن سار في رأيات العباسين حين يقبلون من خراسان.

أخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن المسيب قال: «لما فتحت أدنى خراسان بكى عمر، فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، وقد فتح الله مثل هذا الفتح؟ فقال: مالي لا أبكي، والله لو ددت أن يبني وبينهم بحراً من نار؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أقبلت رأيات ولد العباس من عقاب خراسان جاءوا بنعي الإسلام، فمن سار تحت لوائهم لم تنه شفاعتي يوم القيمة»^(٤).

(١) تقريب التهذيب ١/١٨٣.

(٢) آخر جه مسلم ١/٢٩٩.

(٣) انظر: شرح النووي لسلم ١/٢٩٨.

(٤) الحلية ٥/١٩٢.

وهذا الحديث في سنته عمرو بن واقد، وهو متزوك.

قال ابن حجر: «عمرو بن واقد الدمشقي، أبو حفص مولى فريش: متزوك»^(١).

وقال ابن الجوزي في «الموضوعات» عن هذا الحديث: «هذا حديث موضوع بلا شك، وواضعه من لا يرى لدولة بنى العباس»^(٢).

ثم نقل تضعيف العلماء لعمرو بن واقد، فقال: «قال أبو مسهر: عمرو بن واقد ليس بشيء، وقال الدارقطني: متزوك، وقال ابن حبان: يقلب الأسانيد، ويروي المناكير عن المشاهير؛ فاستحق الترك»^(٣).

وبما تقدم يتضح أن تلك الذنوب التي قيل ببنفي الشفاعة فيها أنها موافع لم ثبت صحتها.

* * *

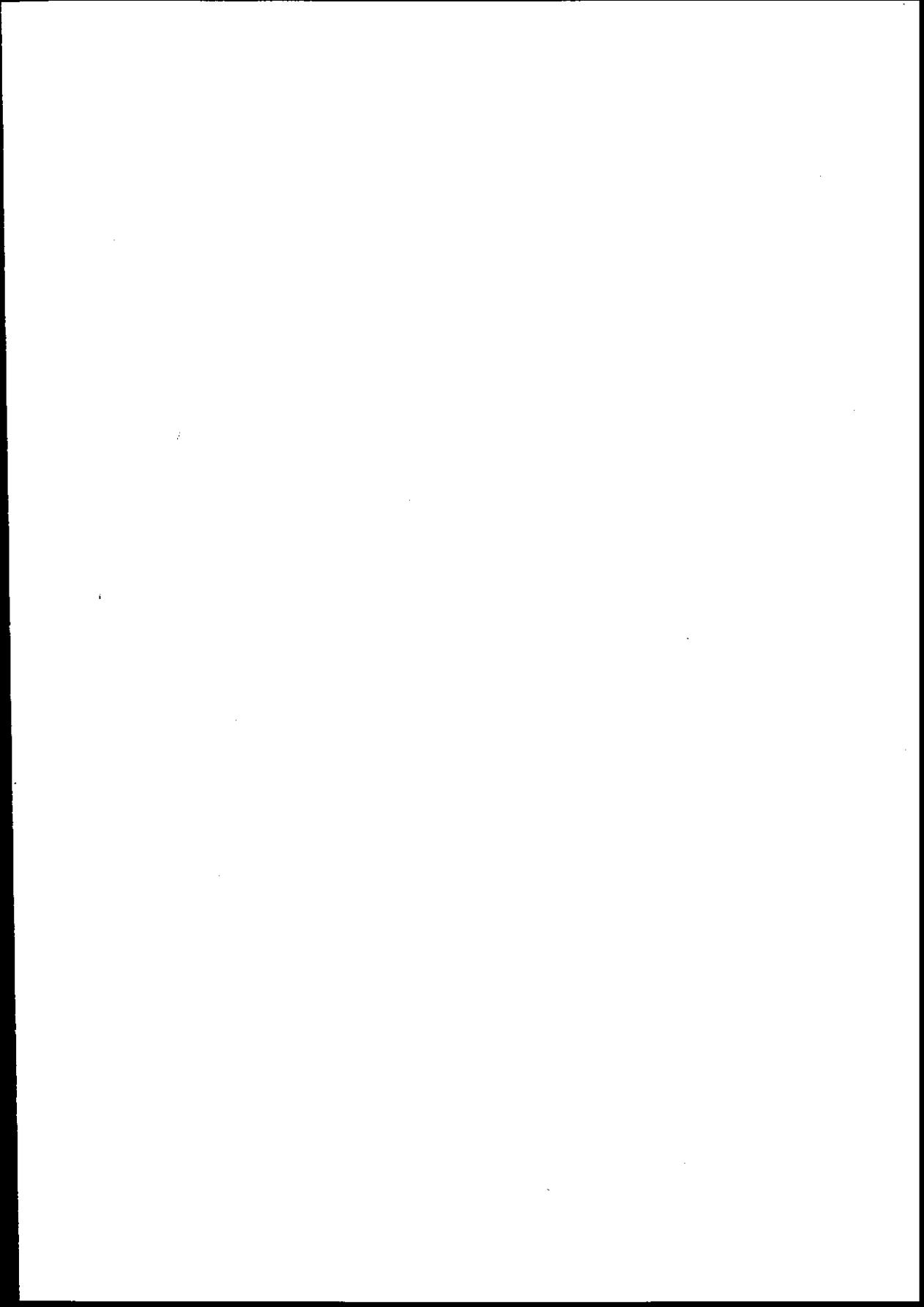
(١) تقريب التهذيب ٢/٨١.

(٢)، (٣) الموضوعات ٢/٣٨.

الفصل الثامن

أقسام الشعاء

١. قسم ثبتت شفاعتهم.
٢. قسم لم تثبت صحة شفاعتهم.



١- أقسام الشفاعة الذين ثبتت صحة شفاعتهم ويشمل ذلك ما يلي:

تمهيد:

١- شفاعة نبينا محمد ﷺ.

٢- شفاعة الأنبياء الآخرين غير نبينا ﷺ.

٣- شفاعة الملائكة.

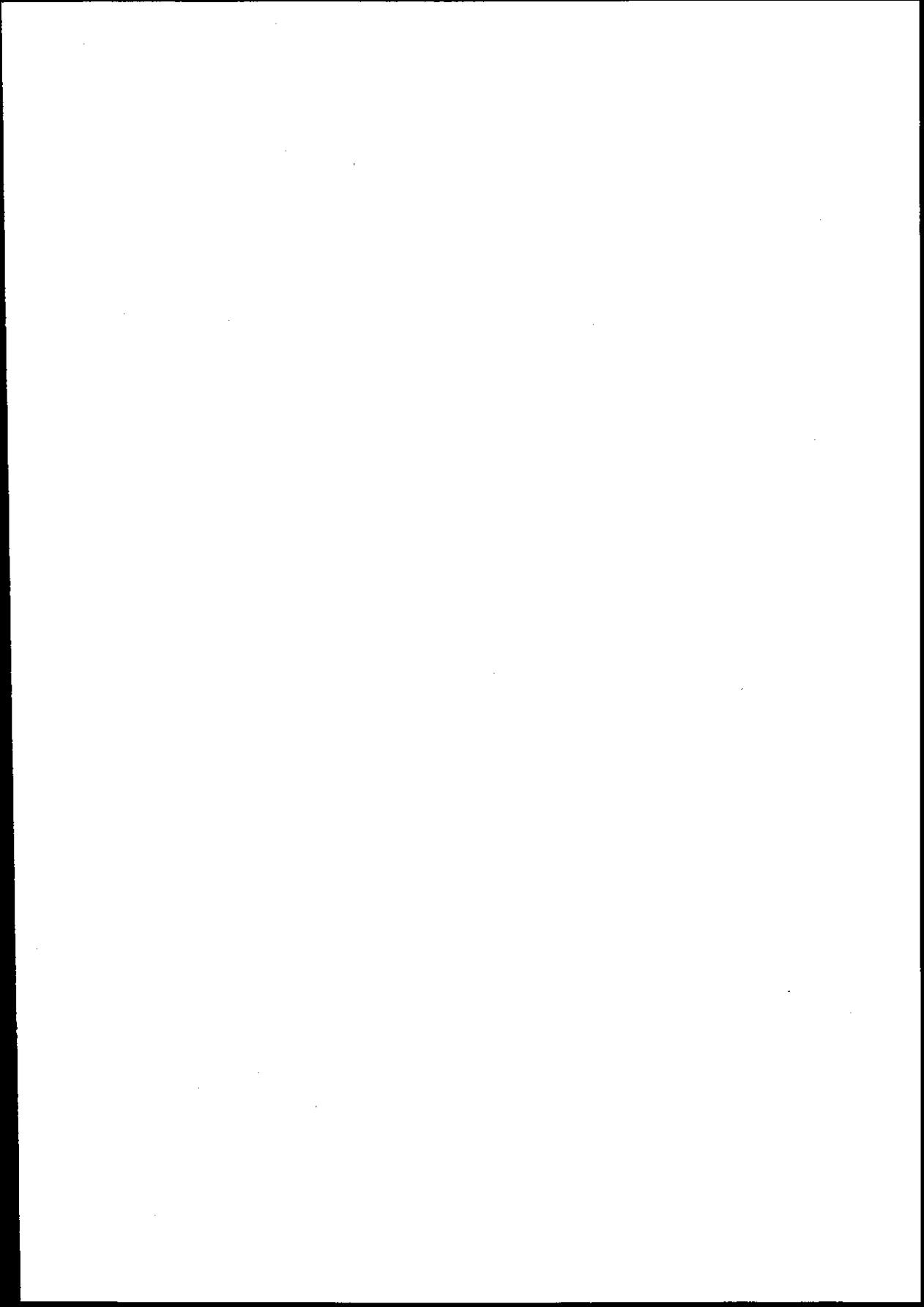
٤- شفاعة الشهداء.

٥- شفاعة الولدان.

٦- شفاعة المؤمنين بعضهم في بعض.

٧- شفاعة القرآن الكريم.

* * *



الفصل الثامن

أقسام الشفاعة

تمهيد:

لقد تكرم الله تعالى فجعل أمر الشفاعة واسعاً؛ فبالإضافة إلى ثبوتها لنبينا محمد ﷺ وإعطائه فيها المقام الأعلى ثبتت كذلك لغيره من الخلق كالأنبياء الآخرين على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، وكذا الملائكة والشهداء والصالحين ، والأولاد لأبائهم ، وثبتت كذلك للقرآن الكريم .

قال البرديسي : «أجمع أهل السنة على ثبوت الشفاعة له ﷺ ولسائر الرسل والملائكة والعلماء والشهداء ، يشفع كل واحد بقدر جاهه عند الله تعالى»^(١) .

وذكر البيجوري أن الله تعالى يقبل شفاعة الآخيار كالأنبياء والمرسلين والملائكة والصحابة والشهداء والعلماء العاملين^(٢) .

ونفصل فيما يلي أقسام الشفاعة المقبولة شفاعتهم :

١ - أما ثبوت شفاعة نبينا محمد ﷺ ، فقد قدمنا في ذكر أقسام الشفاعات الثابتة له ﷺ ، ما يدل على منزلته العظمى ، بإكرام الله له بكثرة شفاعاته ، كما اتضح ذلك في عرضنا السابق للشفاعات الثابتة مدعمة بأدلة إثباتها .

(١) تكملة شرح الصدور ص ٣٦.

(٢) شرح جواهرة التوحيد ص ١٨٧.

٢ - شفاعة الأنبياء الآخرين غير نبينا محمد ﷺ :

ومن إكرام الله تعالى لأنبيائه وأصفيائه قبول شفاعتهم فيمن يشفعون له من سبقت لهم الرحمة، فيتقدمون بطلب شفاعتهم إلى ربهم في إخراج أقوام من النار دخلوها بذنبهم ليخرجوا منها.

وقد ثبتت هذه الشفاعة بما جاء في الصحيحين من حديث طويل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه قوله ﷺ : «فيقول الله عز وجل: شفت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين؛ فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملا خيراً قط قد عادوا حمماً»^(١).

وليس معنى هذا أن الله يخرجهم من النار وهم كفار؛ بل المعنى أنهم «لم يعملا خيراً سوى الشهادتين»^(٢) ولو لاهما لما خرجوا؛ شأنهم شأن غيرهم من الكفار.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يحمل الناس على الصراط يوم القيمة فتقادع بهم جنبة الصراط تقادع الفراش في النار، قال: فينجي الله تبارك وتعالى برحمته من يشاء. قال: ثم يؤذن للملائكة والتبنيين والشهداء أن يشفعوا فيشفعون ويخرجون، ويشفعون ويخرجون، ويشفعون ويخرجون، وزاد عفان مرة: فقال أيضاً: «ويشفعون ويخرجون من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان»^(٣).

(١) أي صاروا فحاماً. والحديث أخرجه البخاري ٤٢١/١٣، ومسلم ٤٤٠/١.

(٢) فتح الباري ٤٢٩/١٣، ومعنى شفاعة الله سبحانه وتعالى: عفوه. انظر: شرح جوهرة التوحيد ص ١٨٦.

(٣) مستند الإمام أحمد ٤٣/٥.

وقد بوب الهيثمي في كتابه «موارد الظمان»، لإثبات شفاعة الأنبياء والملائكة بقوله: «باب في شفاعة الملائكة والنبيين» ثم أورد الحديث الآتي: عن صالح بن أبي طريف قال: «قلت لأبي سعيد الخدري: أسمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿رَبِّمَا يُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]؟^(١)

قال: نعم، سمعته يقول: «يخرج الله أناساً من المؤمنين من النار بعد ما يأخذ ثقته منهم». قال: «ما أدخلهم الله النار مع المشركين؛ قال المشركون: أليس كنتم تزعمون في الدنيا أنكم أولياؤه، فمالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن في الشفاعة فتشفع لهم الملائكة والنبيون، حتى يخرجوا بإذن الله، فلما أخرجوها قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة، فتخرج من النار. فذلك قول الله: ﴿رَبِّمَا يُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: فيسمون العجنهين من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: ربنا أذهب عنا هنا هذا الاسم فيغسلون في نهر في الجنة فيذهب ذلك منهم».^(٢)

وقد أورده أيضاً الأجري^(٣)، ويدرك الرازي أن أكثر المفسرين على هذا القول.^(٤)

وروى مجاهد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «ما يزال الله يرحم

(١) انظر: موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ٦٤٦.

(٢) انظر: الشريعة ص ٣٣٧.

(٣) الأجري هو الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الأجري، المتوفى سنة ٣٦٠ هـ.

(٤) التفسير الكبير ١٩/١٥٤.

المؤمنين، ويخرجون من النار، ويدخلون الجنة، بشفاعة الأنبياء والملائكة، حتى إنه تعالى في آخر الأمر يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة. قال: فهناك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين^(١).

وهذا المعنى هو الذي يوافق مذهب السلف لا المعتزلة؛ ولهذا فإن القاضي فيما ذكره عنه الرازي يقول: «إن هذه الروايات مبنية على أنه تعالى يخرج أصحاب الكبائر من النار ، وعلى أن شفاعة الرسول ﷺ مقبولة في إسقاط العقاب، وهذا الأصلان عنده مردودان».

قال الرازي: فعند هذا حمل هذا الخبر^(٢) على وجه يطابق قوله ويتوافق مذهبـه؛ وهو أنه تعالى يؤخر إدخال طائفة من المؤمنين الجنة بحيث يغلب على ظن الكفارة أنه تعالى لا يدخلهم الجنة، ثم إنه تعالى يدخلهم الجنة فيزداد غم الكفارة وحسرتهم، وهناك يودون لو كانوا مسلمين^(٣).

وهذا تكلف من القاضي ظاهر سببه عدم الإيمان بوقوع الشفاعة في أهل النار.

ومن أين له الدليل على أن الله يؤخرهم وقتاً لأجل غم الكفارة ثم يسمح لهم بدخول الجنة؟!

وقد ذكر الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين عند شرح هذه الآية: «رَبِّمَا يُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ» كثيراً من النصوص التي تدل على

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) أي القاضي عبد الجبار. فيما يظهر..

(٣) التفسير الكبير ١٩/١٥٤.

أن الله يُخرج من النار أقواماً بفضل رحمته وشفاعة الشافعين لهم^(١) ، من الأنبياء وغيرهم.

٣ - شفاعة الملائكة :

ومن الشفعاء كذلك الملائكة عليهم السلام، ولا خلاف في ذلك بين الفرق الإسلامية فقد ثبتت شفاعتهم بالأدلة الصحيحة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ؛ ثبت أنهم يشفعون إذا أذن الله لهم ورضي .

و قبل أن نذكر الأدلة على ثبوت شفاعتهم؛ نذكر أولاً أن الملائكة جنس من خلق الله تبارك وتعالى ، خلقهم من نور ، وأسكنهم السموات ؛ خلقهم لعبادته ، وللقيام بصالح البشر ، وغير ذلك مما يريد الله تعالى .

والقول بأنهم خلقوا من نور هو ما بينه الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق العجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم »^(٢) .

وهذا الحديث الصحيح يبين لنا أصل نشأة الملائكة وأن مصدر ذلك هو النور ، وقد خلقهم الله تعالى قبل أن يخلق آدم بوقت لا يعلمه إلا الله عزوجل ؛ لعدم ورود نص بتحديد ذلك ، وأما أسبقية خلقهم على آدم فهو ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم من أمر الملائكة بالسجدة له بعد أن يتم خلقه ، ومن إخبارهم أولاً بأنه سيخلقه ، والكلام الذي حصل منهم وجواب الله تعالى لهم .

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٤٦/٢ .

(٢) أخرجه مسلم ٨٤٢/٥ .

وقد خلقهم الله تعالى على صور مختلفة كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطَّرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَئِي أَجْحِجَةٍ مُّثْنَى وَثُلَاثَ وَرَبَاعَ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١].

وأعظمهم جبريل عليه السلام وحملة العرش، فبعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، وورد أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح.

ولهم مقامات مختلفة؛ فبعضهم أرفع من بعض، كما قال تعالى في وصف مراتبهم وقولهم عن أنفسهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصفات: ١٦٤].

ومن رؤسائهم جبريل عليه السلام، وقد ذكر الله تعالى منزلته فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

وأفضل الملائكة على العموم، من أخبر الرسول ﷺ عنهم بما جاء عن رفاعة بن رافع، أن جبريل جاء للنبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين»، أو كلمة نحوها. قال: «و كذلك من شهد بدرًا من الملائكة»^(١).

ولهم قوة عظيمة، وعددهم لا يحصيه إلا الله تعالى لكثرتهم، ولهم أسماء؛ بعضها أخبرنا الله ورسوله به، وبعضها لا نعلم، وقد جعل الله لهم قوة عظيمة على طاعته وعبادته؛ فمنهم الساجد ومنهم القائم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنياء: ٢٠].

(١) البخاري ٣١٢/٧

وسيأتي ياذن الله مزيد بيان لهذا في مبحث الحساب.

أما الأدلة على إثبات شفاعتهم من القرآن الكريم فهي:

١ - قوله عز وجل مبيناً درجتهم في الشفاعة: ﴿وَكُمْ مِنْ مُلْكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُنْهَى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وفي هذه الآيات يثبت الله سبحانه وتعالى أن الملائكة يشفعون في المذنبين، وأن شفاعتهم تقبل بعد إذنه ورضاه في يوم القيمة.

وقد حصل خلاف في ثبوت شفاعة الملائكة لأهل الكبائر؛ أيشفعون لهم أم لا؟ - بعد اتفاق الجميع على ثبوت شفاعتهم في الجملة:

١ - فذهب الكعبي من المعتزلة إلى عدم ثبوت شفاعة الملائكة في أهل الكبائر.

٢ - وذهب أهل القول الحق إلى أنها تقع.

وخلافهم يدور حول معنى قول الله تعالى، مخبراً عن دعاء الملائكة للمؤمنين بالجنة: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يَسْبِحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبِّنَا وَسَعْتَ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعَلَمْتَ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقَهْمَ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبِّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتَ عَدْنَ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ أَبْنَاهُمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذَرِيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧، ٨].

حيث أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن دعائهم واستشفاعهم

للمؤمنين والأولاد المؤمنين وزوجاتهم بأن يدخلهم الله جنات عدن، وهذا الدعاء لهم بظاهر الغيب، استشفاع منهم إلى الله تعالى، في أن يرحم المؤمنين ويغفر لهم ما صدر منهم من الذنوب.

قال ابن كثير عن معنى قول الله تعالى عن وصف الملائكة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آتَيْنَا﴾ : «أي من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، ففيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظاهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام، كانوا يؤمّنون على دعاء المؤمن لأنّيه بظاهر الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «من دعا لأخيه بظاهر الغيب، قال الملك الموكّل به: آمين، ولد بمثل»^(١) ، وهذا من تمام محبتهم الخير للبشر وعطفهم عليهم ورغبتهم في ثوابهم.

أما اعتراض الكعبي الذي استتبّطه من هذه الآية بزعمه؛ ليرد به على من يقول من أهل السنة بحصول الشفاعة في المذنبين بحجّة أن الشفاعة - كما هو رأي المعزلة - لا تكون إلا في وقوع زيادة الثواب للمؤمنين لا في إسقاط العقاب عن المذنبين. قال: «وذلك لأنّ الملائكة قالوا: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾». قال: «وليس المراد: فاغفر للذين تابوا من الكفر»^(٢). سواءً كان مصراً على الفسق أم لم يكن كذلك؛ لأنّ من هذا حاله لا يوصف بكونه متابعاً سبيلاً ربه ولا يطلق ذلك فيه».

(١) أخرجه مسلم ٥٧٧، وأبو داود ٣٥٢.

(٢) أي إن التوبة إنما كانت في حق المؤمنين دون من سواهم، وأن الآية كذلك. حسب ما ظهر للækkeي - لم تفرق بين الفاسق المصر ولا غير المصر؛ بل ذكرت الذين تابوا دون غيرهم من الكفار والفساق.

ثم ذكر اعترافاً آخر فقال: «وأيضاً إن الملائكة يقولون: ﴿وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنَ إِنَّمَا الْجَنَّةَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا لا يليق بالفاسقين؛ لأن خصوصنا -يعني القائلين بالشفاعة في المذنبين- لا يقطعون على أن الله تعالى وعدهم الجنة وإنما يجوزون ذلك، فثبتت -كما يقول- «إن شفاعة الملائكة لا تتناول إلا أهل الطاعة»^(١).

هذا ما يتعلق باعترافه واحتجاجه بهذه الآية على نفي شفاعة الملائكة للمذنبين.

وقد أجاب الرازبي عن تلك الشبهة فقال: «إن هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين»، ثم ذكر الوجوه التي تدل على هذا بقوله:

الأول: قوله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، والاستغفار: طلب المغفرة، والمغفرة لا تذكر إلا في إسقاط العقاب، أما طلب النفع الزائد^(٢) فإنه لا يسمى استغفاراً.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا يدل على أنهم يستغفرون لكل أهل الإيمان؛ فإذا دللت على أن صاحب الكبيرة مؤمن؛ وجوب دخوله تحت هذه الشفاعة.

الثالث: قوله تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾؛ طلب المغفرة للذين تابوا، ولا يجوز أن يكون المراد إسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة؛ لأن ذلك واجب

(١) التفسير الكبير ٢٧/٢٤.

(٢) كالشفاعة في رفع الدرجات.

على الله عند الخصم^(١)، وما كان فعله واجباً كان طلبه بالدعاء قبيحاً، ولا يجوز أيضاً أن يكون المراد إسقاط عقوبة الصغائر؛ لأن ذلك واجب فلا يحسن طلبه بالدعاء، ولا يجوز أن المراد طلب زيادة منفعة على الثواب؛ لأن ذلك لا يسمى مغفرة، فثبتت أنه لا يمكن حمل قوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلّذِينَ تَابُوا﴾^(٢) إلا على إسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة^(٣)، وإذا ثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الأنبياء لأنعقاد الإجماع على أنه لا فرق.

ثم قال الرازى متابعاً رده على الكعبي: «أما الذي يتمسك به الكعبي وهو أنهم طلبو المغفرة للذين تابوا، فنقول: يجب أن يكون المراد منه، الذين تابوا عن الكفر واتبعوا سبيل الإيمان.

وقوله: إن التائب عن الكفر المصر على الفسق لا يسمى تائباً، ولا متبعاً سبيل الله.

قلنا: لا نسلم قوله؛ بل يقال: إنه تائب عن الكفر، وتتابع سبيل الله في الدين والشريعة، وإذا ثبت أنه تائب عن الكفر ثبت أنه تائب؛ ألا ترى أنه يكفي في صدق وصفه بكونه ضارباً وضاحكاً، صدور الضرب والضحك عنه مرة واحدة، ولا يتوقف ذلك على صدور كل أنواع الضرب والضحك عنه؟، فكذا هاهنا^(٤).

إذا ثبتت شفاعة الملائكة للذين آمنوا وثبت كذلك اهتمامهم بالدعاء

(١) كالكعبي.

(٢) لأنها بعد التوبة تكون مستقطة.

(٣) التفسير الكبير ٢٧/٣٤.

لهم، فيحسن أن يعرف السر في هذا الاهتمام والاستشفاع إلى الله في طلب العفو والمغفرة للبشر.

وقد أجاب الرازبي عن السر في هذا الاهتمام فيما ينقله عن أهل التحقيق بقوله: «إن هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة في حق البشر تجري مجرى اعتذار عن ذلة سبقت؛ وذلك لأنهم قالوا في أول تخليق البشر: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] ، فلما سبق منهم هذا الكلام تداركوا في آخر الأمر بأن قالوا: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]. وهذا كالتنبيه على أن من آذى غيره، فال الأولى أن يجبر ذلك الإيذاء بإصال نفع عليه»^(١).

هذا ما يتعلق بالاستدلال من القرآن الكريم على ثبوت شفاعة الملائكة.

أما فيما يتعلق بورود ذلك في السنة، فقد قدمنا في بحث شفاعة الأنبياء بعض الأحاديث التي تثبت شفاعة الأنبياء والملائكة في مساق واحد، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الثابت في الصحيحين^(٢)، وكذا حديث أبي بكرة الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده^(٣)، وكذا حديث صالح بن أبي طريف عن أبي سعيد الخدري^(٤).

وما جاء عن ابن عباس كما ذكره الرازبي^(٥)، مما لا نود الإطالة بإعادة

(١) التفسير الكبير ٣٤ / ٢٧.

(٢) البخاري ٤٢١ / ١٣، ومسلم ٤٤٠ / ١.

(٣) المسند ٥ / ٣.

(٤) موارد الظمان ص ٦٤٦، والشريعة ص ٣٣٧.

(٥) التفسير الكبير ١٩ / ١٥٤.

ذكره هنا.

٤ - شفاعة الشهداء:

ومن الشفعاء الذين أكرمهم الله تعالى بقبول شفاعتهم: الشهداء. وقبل أن نذكر الأدلة المثبتة لذلك، نحب أن نعرف أولاً:

١ - معنى الشهيد في اللغة؟

٢ - معناه في الاصطلاح؟

٣ - لم سموا شهداء؟

٤ - من هم الشهداء الذين حصل لهم هذا الشرف العظيم في قبول شفاعتهم؟

١ - معنى الشهيد في اللغة:

الشهيد له معان في اللغة كثيرة منها:

١ - الحبي:

قال الأزهري فيما ينقله عن ابن شمیل، في تفسیر الشهید الذي يستشهد، أنه قال: «الشهید: الحبی».

قال الأزهري: «قلت: أراه تأول قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ اللَّهُ عِنْدَ رِبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، كان أرواحهم احضرت دار السلام أحيا، وأرواح غيرهم أخرت إلى يومبعث. وهذا قول حسن».

«والشهيد في أسماء الله وصفاته؛ قال أبو إسحاق: هو الأمين في

شهادته. قال: وقيل: الشهيد: الذي لا يغيب عن علمه شيء...».

وشهد فلان بحق فهو شاهد، وشهيد إذا مات شهيداً.

ويقال للشاهد: شهيد، ويجمع شهداء ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. أي أشهدوا شاهدين^(١).

ويأتي بمعنى الحضور؛ يقال: شهد فلان مكان كذا وكذا؛ إذا حضره^(٢).

٢- معنى الشهيد في الاصطلاح:

الواقع أن عبارات العلماء في تعريف الشهيد، كلها تتفق حول معنى أنه القتيل في سبيل الله تعالى في حرب الكفار.

قال ابن حجر في تعريف الشهيد: «وهو من يقتل في حرب الكفار مقبلاً غير مدبر مخلصاً»^(٣).

وقال الجرجاني: «وهو كل مسلم ظاهر بالغ قتل ظلماً، ولم يجب بقتله مال، ولم يرث»^(٤).

وأما سبب تسميته شهيداً، فقد ذكر العلماء عدة أسباب، وكلها تدور حول إثبات صفة مدح ومزية تعظيم لمن قتل في سبيل الله تعالى، ومن ذلك:

قال النووي: «قال النضر بن شميل: سمي بذلك لأنه حي؛ لأن

(١) انظر: تهذيب اللغة ٦/٧٢، ٧٧.

(٢) النهاية لابن الأثير ٢/٥١٣.

(٣) فتح الباري ٦/٤٤.

(٤) التعريفات ص ١٢٩.

أرواحهم شهدت دار السلام، وأرواح غيرهم لا تشهد لها إلا يوم القيمة.

وقال ابن الأنباري: لأن الله تعالى وملائكته عليهم السلام، يشهدون له بالجنة؛ فمعنى شهيد مشهود له.

وقيل: سمي شهيداً؛ لأنه يشهد عند خروج روحه ما له من الثواب والكرامة.

وقيل: لأن ملائكة الرحمة يشهدونه فإذاخذذون روحه.

وقيل: لأنه شهد له بالإيمان وخاتمة الخير بظاهر حاله.

وقيل: لأن عليه شاهداً يشهد بكونه شهيداً، وهو دمه؛ فإنه يبعث وجرحه يشعب دماً^(١).

وزاد ابن حجر فذكر أسباباً أخرى، منها قوله:

«وقيل: لأنه يشهد له بالأمان من النار.

وقيل: لأن الأنبياء تشهد له بحسن الاتباع.

وقيل: لأن الله يشهد له بحسن نيته وإخلاصه.

وقيل: لأنه يشاهد الملائكة من دار الدنيا ودار الآخرة».

قال ابن حجر: «وبعض هذه يختص بمن قتل في سبيل الله ، وبعضها يعم غيره ، وبعضها قد ينافع فيه»^(٢).

وقال الراغب: «الشهيد: هو المحتضر ، فتسميته بذلك لحضور الملائكة

(١) شرح النووي لسلم ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) فتح الباري ٤٢-٤٣.

إيه، إشارة إلى ما قال: ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا﴾ [فصلت: ٢٠]،
قال: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرٌ﴾ [الحديد: ١٩].

أو لأنهم يشهدون في تلك الحالة ما أعد لهم من النعيم. أو لأنهم
تشهد أوراهم عند الله كما قال: ﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] وعلى هذا دل قوله: «والشهداء عند ربهم»^(١).

وقال الفيروزآبادي: «والشهيد . . . القتيل في سبيل الله؛ لأن ملائكة
الرحمة تشهده، أو لأن الله تعالى وملائكته شهود له بالجنة، أو لأنه من
يستشهد يوم القيمة على الأم الخالية، أو لسقوطه على الشاهدة أي الأرض،
أو لأنه حي عند ربه حاضر، أو لأنه يشهد ملائكة الله وملائكة»^(٢).

وهناك أقوال للعلماء كلها معنى ما سبق.

أما الأدلة على ثبوت شفاعة الشهداء:

فمنها ما جاء في حديث الوليد بن رياح الدماري عن غران بن عتبة
الدماري قال: «دخلنا على أم الدرداء ونحن أيتام، فقالت: أبشروا؛ فإني
سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: يشفع الشهيد في سبعين من
أهل بيته»^(٣).

وقد بوب الإمام أبو داود على هذا الحديث بقوله: «باب في
الشهيد يشفع»، ثم أشار إلى السندي الصواب في اسم الوليد بن رياح أنه
«رياح بن الوليد».

(١) المفردات ص: ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) القاموس المحيط ١/٣١٦، وانظر: شرح جوهرة التوحيد ص: ١٩٠.

(٣) آخرجه أبو داود ٢/١٥.

وعن المقدام بن معدى كرب، قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويختار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، وزوج اثنين وسبعين زوجة من العور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»^(١).

وعن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفع يوم القيمة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»^(٢).

وذكر الأجرى حديثاً عن المقدام بن معدى كرب أن رسول الله ﷺ قال: «للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، وزوج من العور العين، ويختار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، وزوج اثنين وسبعين زوجة من العور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»^(٣). ومثله ما جاء عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ^(٤).

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «ثم يقال: ادعوا الصديقين؛ فيشفعون، ثم يقال: ادعوا الأنبياء». قال: «فيجيء النبي ومعه العصابة»^(٥)، والنبي ومعه الخمسة والستة، والنبي ليس معه أحد. ثم يقال: ادعوا الشهداء؛ فيشفعون لمن أرادوا، وقال: «فإذا فعلت الشهاده ذلك»؛ قال:

(١) أخرجه الترمذى ١٨٨/٤، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٤٤٣/٢، وذكر محمد فؤاد عبد الباقى أن الحديث ضعيف، ثم قال: «ففي الرواية في إسناده علاق بن أبي مسلم».

(٣) الشريعة ص: ٣٤٩.

(٤) الشريعة ص: ٣٤٩.

(٥) المصابة: هم الجماعة من الناس إلى الأربعين . النهاية لابن الأثير ٣/٢٤٣.

«يقول الله عز وجل: أنا أرحم أرحمين؛ أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئاً...»^(١)
ال الحديث.

و عن أبي بكرة عن النبي ﷺ ، قال: «يحمل الناس على الصراط يوم القيمة فتقادع بهم^(٢) جنبta الصراط تقىاد العرش في النار، قال: «فينجي الله تبارك وتعالى برحمته من يشاء». قال: «ثم يؤذن للملائكة والنبىين والشهداء أن يشفعوا، فيشفعون ويخرجون، ويشفعون ويخرجون، ويشفعون ويخرجون». وزاد عفان مرة فقال أيضاً: «ويشفعون ويخرجون». من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان^(٣) .

وإذا كنا قد قدمنا أن الشهيد هو من قُتل في سبيل الله تعالى؛ فإن هذا هو الأكثر في استعمال لفظة الشهيد، وهو أول ما يتadar إلى الذهن.
على أنه قد ورد صحة إطلاق الشهيد على من لم يكن بذلك الوصف،
ومن أدلة ذلك:

ما أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «من قُتل دون ماله فهو شهيد»^(٤) .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
«الشهداء خمسة: المطعون، والمقطعون، والفرق، وصاحب الهدى، والشهيد في

(١) مسند الإمام أحمد ١/٥.

(٢) قال ابن الأثير عن معنى العبارة: «أي تسقطهم فيها بعضهم فوق بعض، وتقادع القوم؛ إذا مات بعضهم إثر بعض، وأصل القدر: الكف والمنع».

(٣) المسند ١/٥.

(٤) البخاري ٥/١٢٢، ومسلم ١/٣٤٨.

سبيل الله^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الطاعون شهادة لكل مسلم»^(٢).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما تدعون الشهيد فيكم؟ قالوا: يا رسول الله ، من قتل في سبيل الله فهو شهيد. قال: «إن شهداء أمتي إذاً لقليل». قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغريق شهيد»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، أرأيت إن جاء رجل ي يريدأخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك. قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتلته». قال: أرأيت إن قتلتني؟ قال: «فانت شهيد». قال: أرأيت إن قتلتة؟ قال: «هو في النار»^(٤).

وعن أبي الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفیل - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة رضي الله عنهم - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»^(٥).

وأخرج النسائي عن جابر بن عتیک «أن النبي ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب عليه، فصاح به فلم يعجبه، فاسترجع رسول الله ﷺ ،

(١) ، (٢) البخاري ٤٢/٦ ، ومسلم ٤/٥٨٠.

(٣) رواه مسلم ٤/٥٧٩.

(٤) مسلم ١/٣٤٧.

(٥) رواه أبو داود ٢/٥٤٦ ، والترمذى ٤/٣٠ ، وقال: حديث حسن صحيح.

وقال: قد غلبنا عليك أبا الربيع، فصحن النساء وب يكن، فجعل ابن عتيد يسكتهن. فقال رسول الله ﷺ : «دعهن، فإذا وجب فلا تبكيهن باكية». قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال: «الموت». قالت ابنته: إن كنت لأرجو أن تكون شهيداً، قد كنت قضيت جهازك. قال رسول الله ﷺ : «فإن الله عز وجل قد لوقع أجره عليه على قدر نيته، وما تعددن الشهادة»، قالوا: القتل في سبيل الله عز وجل. قال رسول الله ﷺ : «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله عز وجل؛ المطعون شهيد، والمقطون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب الهمم شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، وصاحب الحرق شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة»^(١).

ونشير هنا إلى إيضاح مسألة وردت في هذا الحديث، يقع فيها الناس وهي مسألة البكاء على الميت والنهاية عليه، هل ذلك جائز أم لا؟
والجواب بإيجاز: أن البكاء على الميت من غير نساحة لا بأس به، أما النساحة وتعداد محسنات الميت؛ فهذا هو المنزع، وقد عده رسول الله ﷺ من أمر الجاهلية، وأخبر عن عذاب النائحة وأنها تبعث في أقبح صورة.
ومن ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : «ليس منا من ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية».

وعن أبي بردة بن أبي موسى قال: وجع أبو موسى وجعاً فغشى عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً، فلما أفاق قال: «أنا بريء مما بريء منه رسول الله ﷺ ؛ فإن رسول الله ﷺ بريء من الصالقة»^(٢)،

(١) سنن النسائي ١٤/٤.

(٢) الصالقة: هي التي ترفع صورتها عند المصيبة.

والحالقة^(١) ، والشاقة^(٢) .

وفي رواية : «أغمي على أبي موسى ، وأقبلت امرأته أم عبد الله تصيح برنة . قالا : ثم أفاق ، قال : ألم تعلمي - وكان يحدثها - أن رسول الله ﷺ قال : أنا بريء من حلق ، وصلق ، وخرق ؟ .

أما البكاء بغير نياحة ولا تعداد لمحاسن الميت فهذا ما حدث لرسول الله ﷺ ؛ فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : «دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف العين . وكان ظنراً لإبراهيم عليه السلام . فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمته . ثم دخلنا عليه بعد ذلك . وإبراهيم يوجد بنفسه . فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : وأنت يا رسول الله ؟ ! فقال : «يا بن عوف إنها رحمة» . ثم أتبعها بأخرى . فقال ﷺ : «إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا تقول إلا ما يرضي ربنا ، وإن بفرأك يا إبراهيم لمحزونون»^(٣) .

قال ابن بطال وغيره : «هذا الحديث يفسر البكاء المباح والحزن الجائز ؛ وهو ما كان بدموع العين ورقة القلب من غير سخط لأمر الله ، وهو أبين شيء وقع في هذا المعنى»^(٤) .

(١) الحالقة : هي التي تخلق شعرها عند المصيبة .

(٢) الشاقة : هي التي تشق ثوبها عند المصيبة .

وقيل : الصلق ضرب الوجه .

ودعوى الجاهلية ؛ قال القاضي : «هي النياحة ونوبة الميت والدعاء والويل وشبيهه» . انظر : شرح النووي لسلم ١ / ٣٠٠ .

والأحاديث مخرجة في البخاري ٣ / ١٦٣ - ١٦٥ ، ١٦٦ ، وسلم ١ / ٣٠١ - ٣٠٠ .

(٣) أخرجه البخاري ٣ / ١٧٢ .

ومعنى يوجد بنفسه : أي يخرجها ويدفعها كما يدفع الإنسان ماله . وتذرفان : أي يجري دمعهما .

(٤) فتح الباري ٣ / ١٧٤ .

والذي يتلخص مما قدمنا ذكره بالنسبة للشهداء، أنه يلحق في التسمية بهم أصناف، وهم- إضافة إلى المقتول في سبيل الله-:

١ - من قتل دون ماله.

٢ - المطعون والمبطون والفرق وصاحب الهدم.

٣ - الذي يموت في سبيل الله.

٤ - من قتل دون ماله أو دمه، أو دينه، أو أهله.

٥ - صاحب ذات الجنب^(١).

٦ - المرأة التي تموت بجُمْع^(٢).

وقد ذكر ابن حجر رحمة الله روایات في إثبات الشهادة لغير من سبق ذكرهم وهم:

١ - من مات بالسل^{*}، وهو بكسر المهملة وتشديد اللام، وهو من حديث راشد بن حبيش عند الإمام أحمد.

٢ - من وقصه فرسه أو بعيره، أولدغته هامة، أو مات على أي حتف شاء الله تعالى، من حديث أبي مالك الأشعري مرفوعاً^(٣).

٣ - موت الغريب، من حديث ابن عمر وصححه الدارقطني.

٤ - من مات مرابطأ، من حديث أبي هريرة عند ابن حبان.

(١) مرض معروف ويقال له: الشوحة. فتح الباري ٦/٤٣.

(٢) هو بضم الجيم وسكون الميم، وقد نفتح الجيم وتكسر أيضاً، وهي النساء، وقيل: التي يبرت ولدها في بطنهما، ثم تموت بسبب ذلك. وقيل: التي تموت بمزدلفة، وهو خطأ ظاهر. وقيل: التي تموت عندها ، والأول أشهر. فتح الباري.

(٣) انظر: «باب من ينكب في سبيل الله». (من صحيح البخاري) ٦/١٩.

٥- اللديغ ، والشريق ، والذي يفترسه السبع ، والخار عن دابته ،
لورودها في حديث ابن عباس مرفوعاً عند الطبراني .

٦- المائد^(١) في البحر الذي يصبه القيء ، من حديث أم حرام عند أبي داود .

٧- من طلب الشهادة بنية صادقة^(٢) ، ويستدل لهذا بما أخرجه النسائي
عن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، حدثه عن أبيه عن جده ، أن
رسول الله ﷺ قال : «من سأله عز وجل الشهادة بصدق؛ بلغه الله منازل
الشهداء وإن مات على فراشه»^(٣) .

٨- من تردى من رءوس الجبال ، من حديث ابن مسعود عند الطبراني .
ثم قال : «ووردت أحاديث أخرى في أمور أخرى ، لم أعرج عليها
لضعفها» .

ونقل عن ابن التين قوله : «هذه كلها ميتات فيها شدة ، تفضل الله على
أمة محمد ﷺ بأن جعلها تحيصاً لذنبهم وزيادة في أجورهم ، يبلغهم بها
مراتب الشهداء» .

وعن التفاوت بين درجات هؤلاء في الأجر يقول ابن حجر : «والذي
يظهر أن المذكورين ليسوا في المرتبة سواء»^(٤) .

وأما إخبار الرسول ﷺ بأن الشهداء خمسة ، كما في بعض الروايات ،

(١) أي «الذى يدار برأسه من ربع البحر واضطراب السفينة بالأمواج». النهاية لابن الأثير . ٣٧٩/٤

(٢) انظر : باب ثقني الشهادة (من صحيح البخاري) ١٦/٦

(٣) سنن النسائي ٣٧/٦

(٤) فتح الباري ٤٤ - ٤٣/٦

وفي بعضها الآخر سبعة، وفي بعضها أكثر من ذلك، فليس فيه تناقض؛ لأنَّه ليس من باب إرادة الحصر؛ لأنَّ الله تعالى لم يخبره بهم جملة بل أخبره بشيءٍ بعد شيءٍ.

وفي هذا يقول ابن حجر: «والذِي يُظْهِرُ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِالْأَقْلَمِ» أعلم بال أقل، ثم أعلم زيادة على ذلك فذكرها في وقت آخر، ولم يقصد الحصر في شيءٍ من ذلك». قال: «وقد اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة».

ولما كانت لفظة الشهيد إنما تطلق حقيقة على المقتول في سبيل الله؛ فقد تنازع الناس في تسمية من عدائه؛ فبعضهم يسميه شهيداً على المجاز، وبعضهم يسميه شهيداً على الحقيقة.

وقد قسم ابن حجر الشهداء إلى قسمين حسب ما جاء في النصوص فقال: «ويتحصل مما ذكر في هذه الأحاديث أن الشهداء قسمان:

١ - شهيد الدنيا، وشهيد الآخرة؛ وهو من يقتل في حرب الكفار مقبلًا غير مدبر مخلصاً.

٢ - شهيد الآخرة، وهو من ذكر بمعنى أنهم يعطون من جنس أجرا الشهداء ولا تجري عليهم أحكامهم في الدنيا».

ثم استدل لهذا بحديث العرباض بن سارية عند النسائي، وأحمد، ولأحمد من حديث عتبة بن عبد نحوه، مرفوعاً: «يختص الشهداء والمتوفون على الفرش في الذين يتوفون من الطاعون، فيقول: انظروا إلى جراحهم فإن أشبهت جراح المقتولين فإنهم معهم ومنهم، فإذا جراهم قد أشبهت جراهم»^(١).

وقسامهم النووي إلى ثلاثة أقسام فقال: «اعلم أن الشهيد ثلاثة أقسام:

(١) انظر: فتح الباري ٦/٤٣ - ٤٤.

أحداها: المقتول في حرب بسبب من أسباب القتال، فهذا له حكم الشهداء في ثواب الآخرة وفي أحكام الدنيا، وهو أنه لا يغسل ولا يصلى عليه.

والثاني: شهيد في الثواب دون أحكام الدنيا، وهو المبطون، والمطعون، وصاحب الهم، ومن قتل دون ماله، وغيرهم من جاءت الأحاديث الصحيحة بتسميته شهيداً، فهذا يغسل ويصلى عليه، وله في الآخرة ثواب الشهداء ولا يلزم أن يكون مثل ثواب الأول.

والثالث: من غل في الغنيمة وشبّهه، من وردت الآثار بنفي تسميته شهيداً إذا قتل في حرب الكفار، فهذا له حكم الشهداء في الدنيا فلا يغسل ولا يصلى عليه وليس له ثوابهم الكامل في الآخرة^(١).

وهم عند البيجوري ثلاثة:

١ - شهيد الدنيا والآخرة.

٢ - شهيد الدنيا.

٣ - شهيد الآخرة فقط.

أما الشهيد الأول: فهو شهيد الحرب، وهو الذي قاتل لإعلاء كلمة الله تعالى.

وأما الشهيد الثاني: وهو شهيد الدنيا، فهو الذي قاتل لأجل الغنيمة، فإنه ليس له الثواب الكامل وإن جرت عليه أحكام الشهداء في الدنيا.

وأما الشهيد الثالث: وهو شهيد الآخرة فقط، فهو كالمطعون والمبطون ونحوهما، وهو كال الأول في الثواب، لكنه دونه في الحياة والرزق، ولا تجري

(١) شرح مسلم ٣٤٨/١

عليه أحكام الشهداء في الدنيا فإنه يصل ويغسل و يصلى عليه»^(١).
وإذا كان وصف الشهيد قد اشترك فيه أولئك الأصناف الذين قدمنا
ذكرهم، فهل هم يشاركون شهداء المعركة في سبيل الله، في حصول تلك
المزایا العظيمة بالنسبة للشفاعة أم لا؟

لم أجده في ذلك نصاً صريحاً، والذي يظهر لي أنهم، وإن اشتركوا
معهم في التسمية، فإنما هو لتشابههم في حصول الثواب، ولا يلزم من ذلك
إثبات شفاعتهم.

وفي الختام فإن ما ينبغي الإشارة إليه، ما حصل عند الناس من التساهل
والتوسيع في إطلاق لفظة الشهيد على من لا يستحقها، وربما يعود سبب
ذلك إلى أن لفظة الشهيد، حيث كانت محبوبة عند جميع الناس؛ فقد
صارت تطلق كرمز شرف لكل من يرون أنه قتل بغير حق، سواء كان ذلك
صحيحاً في الواقع أو في نظرهم.

ولهذا تعجب حين تسمع بعض أناس لا يؤمنون بالله تعالى يطلقون على
قتلاهم أنهم شهداء، بل توسعوا في هذا؛ فنسبوا الاستشهاد إلى بعض
الأفكار، مثل: شهداء الحرية، وشهداء الثورة، وشهداء الوطن، وما إلى
ذلك من أقوال مبتذلة، فماذا يقصدون من إطلاق لفظة الشهيد أو
الاستشهاد؟ هل هو إثبات الشهادة لهم في سبيل الله؟ الواقع غير ذلك؛
لأن بعض هؤلاء غير مؤمنين، أم يريدون من ذلك إثبات صفة مدح
فحسب؟!، فلعل هذا هو الذي يريدونه.

(١) شرح جوهرة التوحيد ص ١٩٠.

٥ - شفاعة الولدان:

ومن الشفاعات الثابتة ما جاء في شفاعة الولدان في آبائهم وأمهاتهم إذا احتسبوهم عند الله تعالى بنية صادقة؛ رحمة من الله تعالى وكرماً منه؛ ليجبر قلوب الآباء والأمهات بما لحقهم من فقد أولادهم.

ومن الأدلة على ذلك ما قاله ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «لا يموت لمسلم ثلات من الولد في لج النار إلا تحملة القسم»^(١).

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: «لا يموت لإحدائهن ثلاثة من الولد فتحتسبه إلا دخلت الجنة. فقالت امرأة منها: أو اثنين يا رسول الله؟ قال: لو اثنين»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النساء قلن للنبي ﷺ: أجعل لنا يوماً، فوعظهن، وقال: «أيمماً^(٣) امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا له حجاباً من النار. قالت امرأة: واثنان؟ قال: واثنان»^(٤) وفي رواية: «لم يبلغوا العنت».

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلات لم يبلغوا العنت إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»^(٥).

وعن أبي هريرة قال: «جاءت امرأة إلى النبي ﷺ بابن لها فقالت: يا رسول الله، إنه يشتكي، وإنني أخاف عليه؛ قد دفت ثلاثة. قال: «لقد

(١) أخرجه البخاري ١١٨/٣، ومسلم ٥/٤٨٦.

(٢) مسلم ٥/٤٨٧.

(٣) لأن الخطاب حيث كان للنساء فخصهن بالذكر.

(٤) البخاري ١١٨/٣، ومسلم ٥/٤٨٧.

(٥) صحيح البخاري ١١٨ (الفتح).

احتظرت بعطار^(١) شديد من النار،

وأورد مسلم أيضاً رواية أخرى عن أبي هريرة بمعنى ما تقدم^(٢).

وعن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتنا؟ قال: قال: «نعم صغارهم دعاميص^(٣) الجنّة يتلقى أحدهم أباه». أو قال أبويه. فيأخذ بشوبه. أو قال: يده. كما آخذ أنا بصنفة^(٤) توبك هنا فلا يتناهى». أو قال: فلا ينتهي. حتى يدخله الله وأباه الجنّة^(٥).

وعن شرحبيل بن شفعة عن بعض أصحاب النبي ﷺ يقول: «يقال للولدان يوم القيمة: ادخلوا الجنّة قال: فيقولون: ياربنا حتى يدخل آباونا وأمهاتنا. قال: فيأبون. قال: فيقول الله عز وجل: مالي أراهم محبنطين^(٦)؛ ادخلو الجنّة. قال: فيقولون: يارب آباونا وأمهاتنا. قال: فيقول: ادخلوا الجنّة أنت وآباوك»^(٧).

وقد أخرج هذا الحديث الإمام أحمد، ورجاله رجال الصحيح سوى شرحبيل وهو ثقة^(٨).

(١) معنى احتظرت أي امتنعت بمانع وثيق «شرح التوسي» ٤٨٩/٥.

(٢) صحيح مسلم ٤٨٦/٥ (التوسي).

(٣) أي صغار أهلها، وأصل الدعموص دويبة تكون في الماء لا تفارقها أي أن هذا الصغير في الجنّة لا يفارقها.

(٤) بصنفة توبك: أي طرف.

(٥) أخرجه مسلم ٤٨٨/٥.

(٦) المحبنط المتغصب المستبطئ للشيء. وقيل: هو الممتنع امتناع طلبه لا امتناع إيماء.

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٠٥.

(٨) انظر: ٨/٣ من مجمع الزوائد، وانظر: تقرير التهذيب ج ٢ ص: ٣٤٩.

وهو شرحبيل بن شفعة. بضم المعجمة وسكون القاء. الشامي أبو يزيد.

وهذا الموقف من الأبناء لوالديهم هو كرد الجميل إليهم حيث كانوا في الدنيا يولونهم العطف والشفقة.

ولهذا جاء في الحديث أن امرأة أعتقت من النار وأدخلت الجنة بمجرد حصول عطف منها على ابنتين لها؛ حيث أطعمنتهما وصبرت هي على الجوع، كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: « جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمنتها ثلاث مرات ، فأعطيت كل واحدة منها ثمرة ، ورفعت إلى فيها ثمرة لتأكلها ، فاستطعمنتها ابنتها فشققت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها ، فذكرت الذي صنعته رسول الله ﷺ فقال : « إن الله قد أوجب لها بها العجنة أو أعتقها بها من النار » .^(١)

وقد بوب الهيثمي لإثبات شفاعة الولدان هذه بقوله: «باب شفاعة الولدان».^(٢)

وقد جعل الله قبله لهذه الشفاعة من الأبناء لأبائهم تفضلاً منه؛ لزيادة أسباب ثوابهم ورفع درجاتهم؛ حيث عوضهم الله من فقد ثمرة أكبادهم صغراً بأقبول شفاعتهم فيهم.

فمن مات له ثلاثة من الأولاد، أو اثنان فليبشر بإشارة رسول الله ﷺ له بأنه لا تمسه النار إلا تحلة القسم، وأنهم يكونون له حجاباً من النار، وأن الله يدخله الجنة بفضل رحمته إليهم.

وقوله ﷺ: « إلا تحلة القسم» هذه إشارة إلى القسم المقدر في قوله تعالى:

(١) صحيح مسلم ٤٨٦/٥.

(٢) مجمع الزوائد ٣٨٣/١٠.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَأَرْدُهَا﴾ أي النار، بحيث لا يدخل المسلم الذي مات له ثلاثة من الولد النار إلا تحلاة لقسم الله تعالى بأن كل شخص يردها^(١). وقد ذكر الله في كتابه الكريم أنه يجمع بين الآباء وأبنائهم إذا اختلفت درجاتهم في الجنة إكراماً للأباء لتقر أعينهم بذلك.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ يَا يَمَانَ الْحَقَّنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَتَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ أَمْرٍ يِبْمَأَ كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وهذه البشارة للمؤمنين تشير إلى سعة فضل الله وكرمه وامتنانه ولطفه وكمال إحسانه إليهم.

قال ابن كثير: «فإذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بأبائهم في المزلة، وإن لم يلغوا عملهم؛ لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم؛ فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومزنته للتساوي بينه وبين ذاك»^(٢).

وبنفي مراعاة أن هذا الجزاء العظيم الذي ذكره رسول الله ﷺ في الأحاديث السابقة لمن فقد أولاده إنما هو لمن صبر واحتسب الأجر عند الله، ولم يتسرّط بل قال ما يرضي ربّه عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]؛ لأن الشّواب إنما يقع على النية، فلا يحصل ذلك الفضل لمن قدم من صلبه ثلاثة أو اثنين أو واحداً، كما في بعض الروايات. لا يحصل ذلك الفضل إلا إذا كان هناك احتساب وطلب للثواب من الله على

(١) سألني تفصيل القول في الورود في بابه الخاص «بحث الورود».

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٤٢٤، وهناك معانٌ أخرى ذكرها الطبرى في كتابه جامع البيان

تلك المصيبة، فهؤلاء هم الذين أمر الله نبيه أن يبشرهم بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْ
الصَّابِرِينَ﴾.

ومن هم الصابرون؟ هم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ
مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فلا قلق ولا جزع، بل
يسلمون له الأمر ويرضون بقضائه؛ إيماناً منهم بأن الله تعالى سينثيهم
ويجزيهم خيراً مما أصابهم به من المصائب، والتي منها فقد الولد.

واشتراط الاحتساب هو ما تضمنته بعض الروايات المرفوعة، على أن
في بعضها الآخر إطلاق ثبوت الأجر من دون تقييد الاحتساب، ويجمع
بينها بعمل الأحاديث المطلقة على المقيدة.

يقول ابن حجر العسقلاني -رحمه الله تعالى- في هذا: «وقد عرف من
القواعد الشرعية أن الشواب لا يترتب إلا على النية، فلابد من قيد
الاحتساب، والأحاديث المطلقة محمولة على المقيدة»^(١).

وإذا كانت النصوص تثبت ذلك الشواب العظيم وحصول الشفاعة بفقد
ثلاثة من الأولاد أو اثنين -فهل مفهوم العدد مقصود للرسول ﷺ أم لا؟

والجواب: إن هذه المسألة محل نظر بين العلماء:

قال ابن التين تبعاً لعياض: «هذا يدل على أن مفهوم العدد ليس بحجة؛
لأن الصحافية من أهل اللسان ولم تعتبره؛ إذ لو اعتبرته لانتفى الحكم
عندما عدا الثلاثة، لكنها جوزت ذلك فسألته».

قال ابن حجر: «كذا قال، والظاهر أنها اعتبرت مفهوم العدد إذ لو لم

(١) فتح الباري ١١٩/٣.

تعتبره لم تسأل، والتحقيق أن دلالة مفهوم العدد ليست يقينية وإنما هي محتملة؛ ومن ثم وقع السؤال عن ذلك^(١).

وعلى كل حال؛ فسواء كان مفهوم العدد معتبراً أم غير معتبر، فإنه قد ثبت أن من فقد اثنين من الأولاد فإنه يلحق في الأجر من فقد ثلاثة؛ لورود روايات تدل على ذلك، منها ما تقدم في حديث أبي هريرة، ومنها ما جاء عن أم سليم الأنصارية والدة أنس بن مالك حيث قالت: «قال رسول الله ﷺ ذات يوم وأنا عنده: ما من مسلمين يموت لهم ثلاثة لم يبلغوا العلم إلا أدخلهم الجنة بفضل رحمته إياهم. فقلت: وأثنان؟ قال: وأثنان»^(٢).

وكذلك ورود بعض الروايات تفيد أن جماعة من الصحابة أيضاً سألا رسول الله ﷺ عن ذلك، منهم أم أيمن وعائشة وأم هانئ.

وفي بعض الروايات أيضاً أن جابر بن عبد الله سأله عن ذلك، وكذلك عمر رضي الله عنه، لما أخرج الحاكم عن بريدة أن عمر سأله رسول الله ﷺ حينما قال الرسول ﷺ: «ما من امرئ ولا امرأة يموت له ثلاثة أولاد إلا أدخله الله الجنة. فقال عمر: يا رسول الله ، وأثنان؟ قال: وأثنان». وهذا الحديث صحيح الإسناد كما قاله الحاكم^(٣).

ولا ينبغي أن يظن بأن ورود تلك الروايات في حكم مسألة واحدة فيها تعارض، فهي وإن كانت عن مسألة واحدة لكن ليس بينها تعارض؛ إذ

(١) أخرجه الطبراني بإسناد جيد كما في الفتح ١٢١/٣.

(٢) فتح الباري ١٢١/٣ ، وعزاه إلى الطبراني عن جابر.

(٣) المستدرك ٤٨٣/١.

يتحملــ كما ذكر ابن حجرــ أن كل واحد من هؤلاء سألهــ سألهــ عنــ هذا^(١).

فثبتــ أن الأجر يحصل بفقد ولدينــ كما يحصل بفقد ثلاثةــ.

وكذلك وردت روایات تفيدــ أن الواحد أيضاًــ يحصلــ بهــ ذلكــ الشوابــ العظيمــ لوالديهــ،ــ كماــ فيــ حديثــ جابرــ بنــ سمرةــ مرفوعــاًــ:ــ «ــمنــ دفنــ ثلاثةــ فصبرــ عليهمــ واحتســبــ وجــبتــ لهــ الجنةــ.ــ فــقالــ أــمــ أــمــينــ؟ــ أوــ اــثــيــنــ؟ــ فــقالــ أــوــ اــثــيــنــ؟ــ فــقالــ وــوــاــحــدــ؟ــ فــســكــتــ،ــ ثــمــ قــالــ وــوــاــحــدــ»^(٢).

وكذلكــ حديثــ ابنــ مسعودــ مرفوعــاًــ:ــ «ــمنــ قــلــمــ ثــلــاثــةــ مــنــ الــوــلــدــ لــمــ يــبــلــغــواــ الــجــنــةــ كــانــوــاــ لــهــ حــصــنــاــ حــصــيــنــاــ مــنــ النــارــ،ــ قــالــ أــبــوــ ذــرــ:ــ قــدــمــتــ اــثــيــنــ.ــ قــالــ وــاــثــيــنــ.ــ فــقــالــ أــبــيــ بــنــ كــعــبــ ســيــدــ الــقــرــاءــ:ــ قــدــمــتــ وــاــحــدــاــ.ــ قــالــ وــوــاــحــدــ،ــ وــلــكــ إــنــاــ ذــلــكــ عــنــ الصــدــمــةــ الــأــوــلــىــ»^(٣).

وــعنــ ابنــ عباســ مــرــفــوــعــاًــ:ــ «ــمــنــ كــانــ لــهــ فــرــطــانــ مــنــ أــمــتــيــ أــدــخــلــهــ اللــهــ الــجــنــةــ.ــ فــقــالــ عــائــشــةــ:ــ فــمــنــ كــانــ لــهــ فــرــطــ مــنــ أــمــتــكــ.ــ قــالــ وــمــنــ كــانــ لــهــ فــرــطــ يــاــ مــوــفــقــةــ.ــ قــالــتــ:ــ فــمــنــ لــمــ يــكــنــ لــهــ فــرــطــ مــنــ أــمــتــكــ.ــ قــالــ:ــ فــأــنــاــ فــرــطــ أــمــتــيــ،ــ لــنــ يــصــابــوــاــ بــمــثــلــيــ»^(٤).

وهــذــهــ الرــوــاــيــاتــ صــرــيــحةــ فــيــ حــصــولــ الشــوــابــ بــفــقــدــ ولــدــ وــاــحــدــ أــيــضاــ.

(١) فتح الباري / ١ ٣٨٤.

(٢) فتح الباري / ٣ ١١٩، وعزاه إلى الطبراني.

(٣) أخرجه الترمذى / ٣ ٣٧٥، وقال إنه غريب، وذكر أن أبا عبيدة بن عبد الله بن مسعود لم يسمع من أبيه.

(٤) أخرجه الترمذى / ٣ ٣٧٦، وقال: حسن غريب.

ولكن ابن حجر بعد أن نقل هذه الأحاديث عقب عليها بأنه «ليس في شيء من هذه الطرق ما يصلح للاحتجاج».

والسبب في هذا عنده أن تلك الروايات معارضة بروايات أصح منها، أي تفيد عدم ذكر الواحد فقال:

١ - «بل وقع في رواية شريك التي علق المصنف إسنادها. كما سيأتي :-
«ولم يسأله عن الواحد»^(١).

٢ - وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة. فقامت امرأة فقالت: أو اثنان. فقال: أو اثنان. قالت المرأة: ياليتنى قلت: واحداً»^(٢).

٣ - وعن جابر مرفوعاً: «من مات له ثلاثة من الولد فاحتسبهم دخل الجنة، قلنا: يا رسول الله ، واثنان؟ قال محمد: قلت لجابر: أراكم لو قلتم: واحد؛ لقال: واحد. قال: وأنا أظن ذلك»^(٣).

وقد عقب ابن حجر على هذه الأحاديث الثلاثة الأخيرة التي ليس فيها الجزم بالحقائق الواحد بالثلاثة، بأنها أصح من الثلاثة الأحاديث السابقة التي تخبر بحصول الثواب بالواحد كالثلاثة، وذكر^(٤) أن أصح ما ورد في إثبات ثواب الواحد بالثلاثة هو ما رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: «يقول الله

(١) فتح الباري ١٢٢/٣.

(٢) سنن النسائي ٢٤/٤.

(٣) أخرجه أحمد ، وانظر: فتح الباري ١١٩/٣.

(٤) فتح الباري ١١٩/٣.

عز وجل: ما لعبي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه؛
إلا الجنّة،^(١)

قال ابن حجر : «وهذا يدخل فيه الواحد فما فوقه».

وأما ما ورد من أن السائلة لم تسأله عمن فقد واحداً؛ فهذا لا يمنع من حصول الفضل لمن مات له واحد، فلعله عليه سئل بعد ذلك عن الواحد فأخبر بذلك، أو أنه أعلم بأن حكم الواحد حكم ما زاد عليه فأخبر به^(٢).

فظهر أن فقد الأولاد من واحد فصاعداً - مما ثبت به الأجر لوالديه.

فمن قصر الحكم على الثلاثة أو الاثنين فقط ، فإن قوله يعد مما لا دليل له عليه ، وقد وقع في هذا الإمام القرطبي - رحمه الله - فإنه يرى أن هذا الحكم يختص بموت الثلاثة ، وأما ما عداهم من الأربعه والخمسة فصاعداً فلا يشمله حصول ذلك الثواب والشفاعة فيه ، وهذا في قوله : « وإن أخصت الثلاثة بالذكر لأنها أول مراتب الكثرة ، وبعظام المصيبة يكثر الأجر ، فاما إذا زاد عليها فقد يخف أمر المصيبة ، لأنها تصير كالعادة كما قيل : روعت بالبين حتى ما أراع له».

وقد علق ابن حجر على هذا الرأي للقرطبي بأنه : «جمود شديد فإن من مات له أربعة فقد مات له ثلاثة ضرورة لأنهم إن ماتوا دفعة واحدة فقد مات له ثلاثة وزيادة ، ولا خفاء بأن المصيبة بذلك أشد ، وإن ماتوا واحداً بعد واحد؛ فإن الأجر يحصل له عند موت الثالث بمقتضى وعد الصادق ، فيلزم على قول القرطبي أنه إن مات له الرابع أن يرتفع عنه ذلك الأجر مع تجدد

(١) البخاري ، كتاب الرقاق ١١ / ٤٤٢ .

(٢) فتح الباري ١١ / ٤٣ .

المصيبة، وكفى بهذا فساداً»^(١).

إضافة إلى ما تقدم، نذكر بعض المسائل التي اشتملت عليها النصوص السابقة وهي:

١ - هل تقييد حصول ذلك الثواب بموت الأولاد بما إذا ماتوا قبل أن يبلغوا الحنث^(٢)، بحيث إن من بلغ الحنث ثم مات لا يحصل ذلك الثواب لوالديه بسبب موته في هذا السن؟ أم أن ذلك غير مراد؟

٢ - وهل ذلك الجزاء خاص بفقد أولاد المرء من صلبه؟ أم يدخل في الأولاد أولاد الأولاد؟

٣ - وهل لفظ الحديث: «لا يموت لمسلم...»، خاص بمن مات له أولاد في حال إسلامه؟ أم يشمل هذا الثواب أيضاً من مات له أولاد في حال كفره ثم أسلم؟

الواقع أن هذه المسائل كلها محل بحث ونظر بين العلماء.

(١) فتح الباري / ٣ / ١٢٢.

(٢) قال ابن حجر: «لم يبلغوا الحنث كذا للجميع بكسر المهملة وسكون النون بعدها مثلثة»، وحكي ابن قرقول عن الداودي أنه ضبطه بفتح المعجمة والموحدة، وفسره بأن المراد لم يبلغوا أن يعملوا المعاصي. قال: ولم يذكر كذلك غيره، والمحفوظ الأول، والممعن لم يبلغوا الحلم فتكتب عليهم الآثام.

قال الخليل: بلغ الغلام الحنث إذا جرى عليه القلم، والحنث الذتب؛ قال الله تعالى: «وَكَانُوا يُصرُّونَ عَلَى الْعِنْتِ الْعَظِيمِ». وقيل: المراد بلغ إلى زمان يؤخذ بيسميه إذا حنث. وقال الراغب: عبر بالحنث عن البلوغ لما كان الإنسان يؤخذ بما يرتكبه فيه بخلاف ما قبله، وخص الإثم بالذكر؛ لأنه الذي يحصل بالبلوغ».

أما حصول ذلك الثواب بفقد الولد الكبير الذي بلغ الحنث ثم مات فقد اختلفت وجهات العلماء فيه:

١- فبعضهم - وهم كثير من العلماء.^(١) ذهبوا إلى عدم ثبوت ذلك الثواب بفقد الولد الكبير، وعللوا لهذا بأن الشفقة على الصغير أعظم، والحب له أشد، والرحمة له أوفر، وكذلك فإن الصغير لا يتصور منه صدور العقوق المقتضي لعدم الرحمة.

٢- وذهب الزين بن المنير إلى أن فقد الولد الكبير يحصل به ذلك الثواب من طريق الفحوى «لأنه إذا ثبت ذلك في الطفل الذي هو كله على أبيه، فكيف لا يثبت في الكبير الذي بلغ معه السعي، ووصل له منه النفع، وتوجه إليه الخطاب بالحقوق؟»^(٢).

ويرجع ابن حجر - فيما يظهر - القول بأنه لا يلحق حكم الصغار بالكبار، فهو يقول: «ويقوى الأول قوله في بقية الحديث: «بفضل رحمته إياهم، لأن الرحمة للصغار أكثر لعدم حصول الإثم منهم»^(٣).

وهذا التعليل يصدق فيما إذا كان التعليل لوصول الثواب يحصل بالنظر إلى محبة الولد أو عدم محبته، لكن الرسول ﷺ لم يبن وصول الثواب على المحبة وعدمها؛ بل ذكر وصول الثواب استناداً إلى الأغلب في طبائع الناس من محبة الأولاد الصغار والتعلق بهم.

قال ابن حجر: «ولم يقع التقييد في طرق الحديث بشدة الحب ولا

(١) فتح الباري ١٢٠ / ٣.

(٢) فتح الباري ١٢٠ / ٣.

(٣) المرجع السابق.

عدمه، وكان القياس يقتضي ذلك لما يوجد من كراهة بعض الناس لولده وتبصره منه، ولا سيما من كان ضيق الحال، لكن لما كان الولد مظنة المحبة والشفقة؛ نيط به الحكم وإن تختلف في بعض الأفراد^(١).

وأما الضمير في قوله: «بفضل رحمته إياهم، فهو يعود^(٢) إلى الله تعالى، أي بفضل رحمة الله للأولاد».

وقال ابن التين: «قيل إن الضمير في رحمته للأب؛ لكونه كان يرحمهم في الدنيا فيجاري بالرحمة في الآخرة».

ولكن ابن حجر، يرجح أن الضمير عائد إلى الأول أي بفضل رحمة الله للأولاد، واستدل على هذا بما ورد من روایات تفيد عود الضمير إلى رحمة الله للأولاد، ومنها:

١ - ما أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلمين يتوفى لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله الجنة بفضل رحمة الله إياهم»^(٣).

٢ - وما أخرج النسائي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلمين يموت بينهم ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا غفر الله لهم بفضل رحمة إياهم»^(٤).

(١) فتح الباري ١٢٠ / ٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سنن ابن ماجه ٥١٢ / ١.

(٤) سنن النسائي ٢٤ / ٤.

٣ - وللطبراني وابن حبان من حديث الحارث بن أبيش مرفوعاً^(١) : «ما من مسلمين يموت لهما أربعة أولاد إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته».

٤ - حديث عمرو بن عبسة عند الطبراني : «إلا أدخله الله برحمته هو وإياهم الجنة»^(٢).

وأما الضمير في «إياهم» فهو يعود إلى الأولاد لا الآباء^(٣).

وأما ما جاء في التقييد بحصول الثواب لمن مات له الأولاد وهو في حال إسلامه فهو ما أفاده ظاهر حديث أنس المتقدم ذكره.

وهل يشمله ثواب أولاده الذين ماتوا قبل أن يسلم؟ فإن هذه المسألة فيها احتمال^(٤) ، وقد وردت روایات تفيد عدم ذلك ، كما عند الإمام أحمد من حديث أبي ثعلبة الأشجعي قال : «قلت : مات لي يا رسول الله ولدان في الإسلام . فقال : من مات له ولدان في الإسلام أدخله الله عز وجل الجنة بفضل رحمته إياهما» . الحديث^(٥).

وأخرج الإمام أحمد كذلك من حديث عمرو بن عبسة أنه قال لمن سأله أن يحدثه عن رسول الله ﷺ حديثاً ليس فيه وهم ولا انفاس قال : «سمعته يقول : من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا العنف أدخله الله الجنة برحمته إياهم»^(٦).

«وأخرج كذلك حديثاً عن امرأة يقال لها رجاء قالت : كنت عند

(١) انظر : فتح الباري ٣ / ١٢٠ - ١٢١ . والحارث هو ابن أبيش : بقاف معجمة مصغر .

(٢) انظر : فتح الباري ٣ / ١٢٠ - ١٢١ .

(٣) مستند أحمد ٦ / ٣٩٦ .

(٤) المسند ٤ / ٤٨٦ .

رسول الله ﷺ ، إذ جاءته امرأة بابن لها ، فقالت : يا رسول الله ، ادع لي فيه بالبركة ؛ فإنه قد ثُوفى لي ثلاثة . فقال لها رسول الله ﷺ : أمنذ أسلمت ؟ قالت : نعم . فقال رسول الله ﷺ : جنة حصينة . فقال لي رجل : اسمع يا رجاء ما يقول رسول الله ﷺ .

وأورد حديثاً آخر عن امرأة يقال لها ماوية بمعنى ماتقدم^(١) .

وهل ثبوت ذلك الثواب بما إذا كان الم توفون من الأولاد من الصلب ، كما تفيده ظواهر النصوص ، أم لا ؟ .

قال ابن حجر : «الظاهر أن المراد من ولد الرجل حقيقة»^(٢) .

ويستدل لهذا بما أخرج النسائي عن أنس عن النبي ﷺ قال : «من احتسب من صلبه ثلاثة دخل الجنة»^(٣) . . . الحديث .

وما أخرج الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال : «من أكل ثلاثة من صلبه فاحتسبهم على الله وجبت له الجنة»^(٤) .

وأما دخول أولاد الأولاد . عدا أولاد البنات . في ثواب الأولاد ، فقد ذكر ابن حجر أن هذا محل بحث ونظر ، ثم قال :

«والذي يظهر أن أولاد الصلب يدخلون ، ولا سيما عند فقد الوسائل بينهم وبين الأب ، وفي التقييد بكونهم من صلبه ما يدل على إخراج أولاد البنات»^(٥) ، ولعل هذا فيما يتعلق بالثواب .

(١) المسند ٥/٨٣ .

(٢) فتح الباري ٣/١٢٠ .

(٣) سنن النسائي ٤/٢٤ ، وقد تقدم تخرجه .

(٤) المسند ٤/١٤٤ .

(٥) فتح الباري ٣/١٢١ .

أما من ناحية إطلاق التسمية؛ فإن الصحيح هو صحة إطلاق البنوة على بنى البت، وإن كان بعض العرب قد خالف هذا كما في قول الشاعر:

بنونا بنو أبناءنا، بنوهن أبناء الرجال

ولكن يرد هذا ما جاء في مناسبات كثيرة من إطلاق قول الرسول ﷺ لأولاد ابنته فاطمة الحسن والحسين أنهم أبناءه، فقد قال ﷺ حينما كان الحسن إلى جانبه: «إن أبني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فنتين عظيمتين من المسلمين»^(١).

وقد قال ابن حجر في شرح هذا الحديث: «وفيه إطلاق الابن على ابن البنّت»^(٢).

٦- شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض:

وثبت كذلك أن الصالحين من المؤمنين يشفعون في إخوانهم الذين في النار وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وأخر سيئاً؛ فدخلوا النار تطهيراً لهم.

ومن الأدلة على ذلك:

ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيمة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوأ؟ قلنا: لا ، قال: فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهم».

ثم قال: ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون؛ فيذهب أصحاب الصليب مع صليبيهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم،

(١) أخرجه البخاري ٥/٣٠٧.

(٢) فتح الباري ١٣/٦٧.

حتى يبقى من كان يعبد الله من برأ فاجز وغبرات^(١) من أهل الكتاب.
 ثم يؤتى بهم تعرض كأنها سراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيزاً أين الله. فيقال: كذبتم؛ لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا. فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم.
 ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله. فيقال: كذبتم؛ لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون.

حتى يبقى من كان يعبد الله من برأ أو فاجر، فيقال: لهم: ما يحبكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منها إليهم اليوم، وإنما سمعنا مناديأً ينادي: ليتحقق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما انتظرنا ربنا، قال: فيأتיהם الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: الساق، فيكشف عن ساق؛ فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رباء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً.

ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم. قلنا: يا رسول الله ، وما الجسر؟
 قال: مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلايلب وحكة مفلطحة لها شوكة
 عقيفاء تكون بنجد يقال لها: السعدان؛ المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح
 وكاجاويد الخيل والراكب؛ فناج مسلم، وناج مخدوش، ومكدوش في نار جهنم،
 حتى يمر آخرهم يسحب سحبأً، فما انت باشد لي مناشدة في الحق. قد تبين لكم.
 من المؤمنين يومئذ للجبار - إذا رأوا نفhem قد نجوا - في إخوانهم، يقولون: ربنا إخواننا

(١) قال الترمي: وأما غبر: فبضم الغين المجمعة وفتح الباء الموحدة المشددة، ومعناه: بقايا،
 جمع غابر (شرح الترمي) ٤٣٥ / ١.

الذين كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا؟ فيقول الله تعالى: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فآخر جوه، ويحرم الله صورهم على النار فيأتونهم، وبعضاً منهم قد غاب في النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقه، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فآخر جوه؛ فيخرجون من عرفوا ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فآخر جوه، فيخرجون من عرفوا.

قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرءوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةٌ يُضَاعِفُهَا﴾ .

فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار: بقيت شفاعتي^(١)، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحنوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماء الحياة فيبتون في حافته كما تبنت العبة في حميل السيل قد رأيتواها إلى جانب الصخرة وإلى جانب الشجرة؛ فما كان إلى الشمس منها كان أحضر، وما كان منها إلى الظل كان أليض، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ في رقابهم الخواتيم، فيدخلون الجنة؛ فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملاً، ولا خير قدمواه. فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه^(٢).

وقد اشتمل هذا الحديث على مسائل منها: إثبات رؤية الله تعالى، وإثبات الصراط وصفته وكيفية مرور الناس عليه، وكذلك إثبات شفاعة الملائكة والأنبياء.

وي بعض تلك المسائل قد سبق ذكرها وبعضها سيأتي ، والقصد من إيراد

(١) بمعنى أنه سبحانه يتفضل بإخراجهم من النار بلا واسطة أحد، انظر: تكملة شرح الصدور ص: ٣٦.

(٢) صحيح البخاري ١٣ / ٤٢٠ - ٤٢٢ - ٤٣٤ ، ومسلم ١ / ٤٤٢ - ٤٤٣ .

هذا الحديث هنا هو إثبات شفاعة الصالحين من المؤمنين، وإلحادهم في طلب الشفاعة إلى الله تعالى لإخراج إخوانهم من أهل الكبائر من النار.

وقوله عليه السلام في رواية البخاري للحديث: «فما أنت بأشد له مناشدة في الحق - قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار».

وقد وقعت هذه الجملة في صحيح مسلم من رواية أبي سعيد هكذا: «حتى إذا خلس المؤمنون من النار فهو الذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيمة لإخوانهم الذين في النار».

وقد اختلف العلماء في ضبط كلمة «استقصاء»، ذكر النووي أن بعضهم يرويها «استضاء»، وبعضهم «استضاء»، وبعضهم «استيفاء»، وبعضهم «استقصاء».

والمعنى ما أنت بأشد مناشدة في استقصاء الحق في الدنيا من المؤمنين لله يوم القيمة لإخوانهم.

وهذا جواب القاضي عياض فيما ينقله عنه النووي، وخطأ القاضي عياض الروايات الأخرى، وقال بأن معنى تلك الرواية «استقصاء» بها يتم الكلام ويتجه.

ورد عليه النووي بأنه: «ليس الأمر على ما قاله بل جميع الروايات التي ذكرناها صحيحة لكل منها معنى حسن».

ثم قال: «وقد جاء في رواية يحيى بن بکير عن الليث: «فما أنت بأشد مناشدة في الحق - قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار - تعالى وتقديس - إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم»، وهذه الرواية التي ذكرها الليث تتوضع

المعنى.

فمعنى الرواية الأولى ، والثانية: أنكم إذا عرض لكم في الدنيا أمر
مهم ، والتيس الحال فيه ، وسألتم الله تعالى بيانه وناشدتموه في استيضائه
وبالغتهم فيها؛ لا تكون مناشدة أحدكم بأشد من مناشدة المؤمنين الله
تعالى في الشفاعة لإخوانهم .

وأما الرواية الثالثة والرابعة فمعناهما أيضاً: ما منكم من أحد يนาشد الله
تعالى في الدنيا في استيفاء حقه أو استقصائه وتحصيله من خصمه والمتعدي
عليه؛ بأشد من مناشدة المؤمنين الله تعالى في الشفاعة لإخوانهم يوم
القيمة»^(١) .

وقوله ﷺ عن الله تعالى: «اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان
فاخرجوه».

هذا الخطاب للمؤمنين الذين طلبوا الشفاعة إلى الله تعالى .

وفي رواية أبي هريرة عند البخاري أن الخطاب للملائكة لقوله: «أمر
الملائكة أن يخرجوهم»^(٢) .

وفي حديث أنس عنده: أن الذي يخرجهم هو الرسول ﷺ لقوله: «ثم
أشفع، فيعد لي حداً، ثم أخر جهم من النار وأدخلهم الجنة»^(٣) .

ولا منافاة بين تلك الروايات؛ بل يجمع بينها بأن الله حينما شفع
المؤمنين والرسل ، يأمر تعالى الملائكة بباشرة إخراج أولئك من النار من

(١) شرح الترمذى لسلم ٤٣٨-٤٣٩.

(٢) صحيح البخاري ١١/٤٤٥ «الفتح».

(٣) صحيح البخاري ١١/٤١٧ «الفتح».

أمرتهم الرسل بإخراجها منها^(١).

وعن الصنابحي عن عبادة بن الصامت أنه قال: دخلت عليه وهو في الموت فبكى، فقال: مهلاً، لم تبكي؟ فوالله لئن شهدت لأشهدن لك، ولئن شفعت لأشفعن لك، ولئن استطعت لأنفعنك. ثم قال: والله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حديثكموه إلا حديثاً واحداً وسوف أحديثكموه اليوم وقد أحبط بنفسي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار»^(٢).

وأخرج الإمام أحمد من مسنده أبي بكر الصديق في إثبات شفاعة الصالحين من المؤمنين قوله ﷺ: «ثم يقال: ادعوا الأنبياء؛ فيشفعون، ثم يقال: ادعوا الصديقين؛ فيشفعون، ثم يقال: ادعوا الشهداء؛ فيشفعون»^(٣).

وكذا حديث أبي بكرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يحمل الناس على الصراط، فينجي الله من شاء برحمته، ثم يؤذن في الشفاعة للملائكة والنبين والشهداء والصديقين؛ فيشفعون»^(٤). الحديث.

كما ثبت أيضاً حصول شفاعة المؤمنين لإخوانهم قبل يوم القيمة، وذلك في الدنيا، وهي استشفاعهم إلى الله تعالى في الصلاة على من مات منهم بالرحمة والغفران والتجاوز، فقد أخرج الإمام مسلم رحمة الله عن عائشة عن النبي ﷺ: «ما من ميت تصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة

(١) انظر: فتح الباري ١١/٤٥٦.

(٢) صحيح مسلم ١/١٩٢.

(٣) مسنـدـ أـحمدـ ٥/١.

(٤) مسنـدـ أـحمدـ ٥/٤٣.

كلهم يشفعون له؛ إلا شفعوا فيه^(١).

وأخرج كذلك عن عبد الله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان فقال: يا كريب، انظر ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت، فإذا ناس قد اجتمعوا له، فأخبرته، فقال: تقول: هم أربعون؟ قال: نعم، قال: فأخر جوه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم فيه»^(٢).

وتمام الحديث عند ابن ماجه: «ما من أربعين من مؤمن يشفعون لمؤمن إلا شفعهم الله فيه»^(٣).

وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى عليه مائة من المسلمين غفر له»^(٤).

وقد وردت الأحاديث بروايات مختلفة في تحديد العدد المطلوب لصحة وقوع الشفاعة في الميت؛ ففي بعضها تحديد العدد بمائة مصل، وفي بعضها أربعين، وفي بعضها بثلاثة صفوف، قلت أو كثرت، وفي بعضها «أمة» دون ذكر العدد.

وهذا الخلاف ليس هو من باب التعارض والاضطراب فلا تنافي بينها لتيسر الجمع فيجمع بينها بما نقله النووي عن القاضي قوله: هذه الأحاديث خرجت أجوبة للسائلين، سألوا عن ذلك فأجاب كل واحد منهم عن سؤاله.

(١) صحيح مسلم ٦١٣/٢.

(٢) مسلم ٦١٣/٢.

(٣)، (٤) سنن ابن ماجه ٤٧٧/١.

ثم قال النووي: «ويحتمل أن يكون النبي ﷺ أخبر بقبول شفاعة مائة فأخبار به، ثم بقبول شفاعةأربعين، ثم ثلاثة صفوف وإن قل عددهم فأخبار به، ويحتمل أيضاً أن يقال هذا مفهوم عدد لا يحتاج به جماهير الأصوليين، فلا يلزم من الإخبار عن قبول شفاعة مائة منع قبول ما دون ذلك، وكذا في الأربعين مع ثلاثة صفوف وحينئذ كل الأحاديث معمول بها، ويحصل الشفاعة بأقل الأمرين من ثلاثة صفوف وأربعين»^(١).

وكذا الرواية التي فيها ذكر الأمة فإنها لا تنافي رواية الأربعين ولا المائة لدخول ذلك العدد في لفظ الأمة.

وإنما ذكرنا هذه الشفاعة - أي شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض في الدنيا - كالدليل على شفاعة بعضهم البعض في الآخرة؛ لأنه إذا ثبت أن المؤمنين يشفعون لبعضهم في الدنيا بطلب المغفرة، فإنه يدل على أن شفاعتهم لبعضهم البعض مقبولة في الآخرة، إذ لا فرق بين ما هنا في الدنيا وهناك في هذا الموضوع، كيف وقد جاءت السنة مبينة لذلك وموضحة له؟

وقد سبق في بحث أقسام الشفاعات الثابتة أن سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب.

ويذكر البغدادي هنا أن كل واحد من أولئك السبعين يشفع أيضاً في سبعين ألفاً وذلك في قوله عن رأي السلف: «وقالوا بما ورد به الخبر بأن سبعين ألفاً من أمة الإسلام يدخلون الجنة بلا حساب منهم عكاشه بن ممحصن، وأن كل واحد منهم يشفع في سبعين ألفاً»^(٢).

(١) شرح النووي ٦١٣/٢.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٣٥٩.

وإذا ثبتت شفاعة المؤمنين لإخوانهم من أهل الكبائر ، فإن مما ينبغي معرفته أن شفاعتهم تختلف في القلة والكثرة بحسب مراتبهم؛ فمنهم من يشفع للعدد الكبير من الناس ، ومنهم من يشفع للعدد القليل حتى إن بعضهم يشفع في الرجل الواحد ، فقد روى الإمام أحمد عن أبي بربعة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أمتي لمن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر، وإن من أمتي لمن يعظم للنار حتى يكون ركناً من أركانها»^(١) ، وفي حديث أنس: «إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة»^(٢) .

وورد عن أبي سعيد ما يفيد أن من الناس من يشفع للقبيلة بأكملها ، ومنهم من يشفع لجماعة من الناس ، ومنهم من يشفع لأقل من ذلك ، ومنهم من يشفع للرجل ، لما رواه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن من أمتي من يشفع للفنان»^(٣) ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخل الجنة»^(٤) .

ولابن ماجه عن عبد الله بن قيس قال: كنت عند أبي بربعة ذات ليلة فدخل علينا الحارث بن أقيش ، فحدثنا الحارث ليلى تذ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من مضر، وإن من أمتي من يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها»^(٥) .

(١) رواه أحمد ٢١٢/٤ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٨١/١٠: «رواه أحمد ورجاله ثقات».

(٢) رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح كما قال المنذري ٤٤٥/٤ .

(٣) الفنان: الجماعة من الناس .

(٤) أخرجه الترمذى ٦٢٧/٤ ثم قال: «قال أبو عيسى هذا حديث حسن».

(٥) سنن ابن ماجه ٢/١٤٤٦ .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله عليه يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل، ليس بنبي، مثل الحسين، أو مثل أحد الحسينين: ربيعة ومضر»^(١).

وأخرج ابن ماجه عن عبد الله بن شقيق قال: جلست إلى قوم أنا رابعهم، فقال أحدهم: سمعت رسول الله عليه يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر منبني تميم، قلنا: سواك يا رسول الله؟ قال: سواي. قلت: أنت سمعت هذا من رسول الله عليه ، قال: نعم، فلما قام قلت: من هذا قالوا: ابن الجدعاء أو ابن أبي الجدعاء»^(٢).

وقد جاء التصريح باسم هذا الرجل في رواية الترمذى عن الحسن البصري أن رسول الله عليه قال: «يشفع عثمان بن عفان يوم القيمة في مثل ربيعة ومضر»^(٣).

وهذا الحديث من رواية الحسن البصري عن رسول الله عليه وفيه راو ضعيف وهو جسر ويكتنى أبا جعفر - كما ذكر الأجري -^(٤).

وإذا كان هذا الرجل المبهم هو عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد أورد صاحب «منتخب كنز العمال» روايات كثيرة في فضائل عثمان رضي الله عنه

(١) المسند ٢٥٧/٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٤٤٤/٢، إلا أنه قال عن شقيق عن عبد الله بن أبي الجدعاء، ورواه الترمذى ٤/٦٢٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه أحمد ٤/٤٦٩.

(٣) الترمذى ٤/٦٢٧.

(٤) الشريعة ص ٣٥١.

ومزيته في الشفاعة، وفي بعضها - كما في رواية ابن عساكر عن ابن عباس وأبي هريرة - أن عثمان يشفع في سبعين ألفاً كلهم قد استوجبوا النار ونصله: **اليدخلن بشفاعة عثمان سبعون ألفاً كلهم استوجبوا النار الجنة بغير حساب**^(١).

وفي رواية أخرى: **اليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي عدد ربعة ومضر قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: عثمان بن عفان**^(٢).

ويرويه ابن عساكر عن الحسن مرسلاً وهذه الروايات ذكرها صاحب كنز العمال وعزتها إلى ابن عساكر ولم أجده من ذكرها بالصحة.

ولا شك أن شفاعة عثمان رضي الله عنه داخلة في شفاعة المؤمنين، وعثمان من أوائل الصالحين من المؤمنين؛ فشفاعته تقع في مجموع أولئك غير أن تحديد من يشفع لهم في عدد معين مثل: سبعون ألفاً أو غير ذلك يحتاج إلى إثبات.

وما ينبغي الالتفات إليه أن الأجر بال المسلم أن يستكثر من الأصدقاء الصالحين لما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه «في شفاعة الأصدقاء من المؤمنين لأصدقائهم الذين في النار أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل بصديق فلان؟ وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بي: **فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعٍ (١) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (٢)**»، [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

(١) متتبّع كنز العمال مع المسند ٥/٣.

(٢) المصدر السابق ٥/٧.

قال الحسن رحمة الله تعالى: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيمة^(١).

فينبغي الحرص على مواد المؤمنين والتقرب إلى الله تعالى بمحبتهم رجاء نفعهم من شفاعة أو دعاء، وأن لا يوجه الشخص همه إلى مواد أهل الجاه أو يحرص على ذلك، فرب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره، يكون يوم القيمة أنسع من ملء الأرض من أهل الجاه والكلمة في الدنيا البعيد عن الله تعالى، ولقد أحسن البصري في قوله السابق «استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيمة».

وعن يحيى بن سعيد المسمعي قال: «كان قتادة إذا قرأ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعٍ إِنَّا وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ قال: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحًا نفع وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع»^(٢)، وهناك أحاديث في هذا المعنى غير أنها لم تخل من ضعف، مثل حديث: «أكثروا من الأصدقاء، فإنكم شفاء بعضكم في بعض».

إلا أنه في إسناده محمد بن النضر وليس بثقة^(٣).

وكذا حديث: «أكثروا من المعارف من المؤمنين فإن لكل مؤمن شفاعة عند الله يوم القيمة، في إسناده أصرم وهو كذاب»^(٤).

(١) معاجل القبول ٢٥١/٢.

(٢) جامع البيان ١٩/٨٩.

(٣) الفوائد المجموعة ص ٥١١.

(٤) المصدر السابق.

٧- شفاعة القرآن الكريم:

وكذلك فإن من مظاهر رحمة الله تعالى وكرمه على عباده أن جعل القرآن الكريم أيضاً من الشفعاء المقبول شفاعتهم، وليس ذلك فقط بل أيضاً يطلب المزيد من الإكرام لصاحبه.

وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله - تعالى وتقديس - وهو حبله المتين وصراطه المستقيم، أنزله على أفضل خلقه نبينا محمد ﷺ وجعل تلاوته ثواباً في الدنيا؛ لكل حرف حسنة وشفاعة في يوم القيمة، ولما كان القرآن الكريم كذلك فلابد لنا من إيضاح بعض النقاط الآتية :

- ١- بيان الفضل العظيم الذي ورد في القرآن عموماً.
- ٢- وبيان ما جاء في أفضلية بعض سور القرآن وكلها فاضلة.
- ٣- وبيان ما ورد من نصوص كذلك تحت على قراءة القرآن والمواظبة على ذلك.

فقد قال ﷺ . محرضاً على قراءة القرآن : «مثلك المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح فيها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل العنزة طعمها مر ولا ريح لها»^(١).

وقال ﷺ : «لا حسد إلا على اثنين: رجل آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يصدق به آناء الليل وآناء النهار»^(٢).

(١) صحيح البخاري ٦٦/٩

(٢) المصدر السابق ص ٧٣

وقد أخبر ﷺ في أحاديث كثيرة عن فضل بعض الآيات والسور، مثل سورة البقرة والكهف والفتح وقل هو الله أحد والمعوذتين، وأية الكرسي^(١)، وغير ذلك مما لا نطيل بالاستدلال عليه.

فينبغي على كل مسلم أن يكثر من قراءة القرآن بتدبر وعناء، وأن يحتسب ذلك عند الله تعالى، ليأخذ جزاءه في يوم القيمة، وأن يحذر أن يتصرف بأنه من الذين اتخذوا مهجوراً، وفيما يلي نعرض بعض النصوص التي يتعلق بها غرض البحث.

فمما ورد في شفاعة القرآن عموماً ما جاء عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اعملوا بالقرآن؛ أحلوا حلاله، وحرموا حرامه، واقتدوا به، ولا تكفروا بشيء منه، وما تشابه عليكم منه فردوه إلى الله وإلى أولي الأمر من بعدي كيما يخبروك، وأمنتوا للتوراة والإنجيل والزبور وما أوتي النبيون من ربهم، وليس عكم القرآن فإنه شافع مشفع وما حل مصدق، إلا وكل آية نور يوم القيمة، وإنني أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه وطواحين حواميم من الواح موسى، وأعطيت فاتحة الكتاب من تحت العرش»^(٢).

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن شافع مشفع

(١) انظر: صحيح البخاري ٩/٥٥-٦٦.

(٢) أخرجه الحاكم ١/٥٦٨، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ومعنى كلمة مصدق - بفتح الدال - أي خصم مجادل مصدق وقيل: ساق مصدق من قولهم محل بفلان إذا سعى به إلى السلطان يعني أن من اتبعه وعمل بما فيه فإنه شافع له مقبول الشفاعة، ومصدق عليه فيما يرفع من مساويه إذا ترك العمل به» انظر: النهاية لابن الأثير

وما حل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار^(١).

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيمة، يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم الليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان»^(٢).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يجيء القرآن يوم القيمة فيقول: يا رب حله، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده، فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب أرض عنه، فيفرض عنده، فيقال له: اقرأ وارق وتزاد بكل آية حسنة»^(٣).

وأخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: « وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيمة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفي؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول له: هل تعرفي؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك، القرآن، الذي أظمتك في الهواجر وأسهرت ليك، وإن كل تاجر من وراء تجارتة، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطي الملك يمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوفار ويكسى والده حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: به كسينا هذه؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له: اقرأ واصعد في درجة الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو قرأتيلًا»^(٤).

(١) المسند ٢/١٧٤، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، المستدرك ١/٥٥٤.

(٢) الخلية ٧/٢٠٦.

(٣) أخرجه الترمذى ٥/١٧٨، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) المسند ٥/٣٤٨.

وما ورد في شفاعة بعض سور القرآن الكريم خصوصاً مثل سورة البقرة وأآل عمران ، ما أخرج مسلم وغيره عن جبير بن نفير قال : سمعت النواس ابن سمعان الكلابي يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : «يُؤْتَى بالقرآن يوم القيمة وأهلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدِيمَهُ سُورَةُ الْبَقْرَةِ وَآلِ عُمَرَ» . وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد - قال : كأنهما غمامتان^(١) ، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق^(٢) ، أو كأنهما حزقان^(٣) من طير صواف^(٤) ، تجاجان عن صاحبهما^(٥) .

قال الترمذى : «ومعنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجيء ثواب قراءته ، كما فسر بعض أهل العلم هذا الحديث وما يشبه هذا من الأحاديث : أنه يجيء ثواب قراءة القرآن ، وفي حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ ما يدل على ما فسروا إذ قال النبي ﷺ : «وأهلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا» ، ففي هذا دلالة أنه يجيء ثواب العمل^(٦) .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(١) وفي رواية ستأتي : غياياتان . «قال أهل اللغة : الغمامنة والغيابة : كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرة وغيرها . قال العلماء : المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين » شرح النووي لمسلم / ٤٥٧ .

(٢) أي ضياء ونور .

(٣) حزقان وفي رواية «فرقان» ، معناهما واحد : وهو قطيعان وجماعتان يقال في الواحد : فرق وفرق وحقيقة أي : جماعة .

(٤) ومعنى صواف : أي باسطات أجنحتها في الطيران ، والصواف جمع صافة . النهاية لابن الأثير / ٣٨ .

(٥) أخرجه مسلم / ٤٥٧ ، والترمذى ٤ / ٢٣٥ .

(٦) سنن الترمذى ٤ / ٢٣٥ .

«اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيمة شفيعاً لاصحابه، اقرءوا الزهراوين^(١) : البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيمة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا تستطعها البطلة»^(٢) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهي تبارك الذي بيده الملك»^(٣) .
وبهذا تكون شفاعة القرآن ثابتة لأهله إكراماً من الله تعالى لكلامه وللمشفوع له كذلك ، كما ثبت من أقوال المصطفى ﷺ .

٢ - الشفاء الذين وردت بهم روایات لم تبلغ درجة الصحة فلم تثبت صحة شفاعتهم :

ما سبق عرضه اتضح أن هناك شفاء في يوم القيمة قد ثبتت شفاعتهم بالنصوص الصحيحة ، وهم من قدمنا ذكرهم .

وبعد هذا نود التنبيه بإيجاز إلى بعض ما قيل من ثبوت الشفاعة لشفاء لم يرد بذكرهم نص صحيح وهم :

١ - ما قيل من شفاعة بعض الجمادات كالحجر الأسود .

٢ - أو بعض الأعمال كقراءة قل هو الله أحد ألف مرة .

٣ - أو بعض الأشخاص كالمؤذنين والحجاج .

(١) سميت بالزهراوين «النورهما وهدايتهما وعظيم أمرهما» شرح النموي لسلم ٤٥٧/٢ .

(٢) البطلة : قال معاوية : بلغني أن البطلة السحرة ، المصدر السابق . (شرح النموي لسلم) ،

والحادي أخرجه مسلم ٤٥٧/٢ .

(٣) أخرجه الترمذى ٤/٢٣٨ .

وقد ذهب بعض الذين وقفوا على الروايات المثبتة للشفاعة في أولئك إلى القول بشفاعة من ذكرناهم ظانين أن الروايات التي وردت فيهم صحيحة، ولكن بعد البحث عنها، فيما تيسر لي الاطلاع عليه، تبين أنها لم تبلغ درجة الصحة، فبعضها ضعيف وبعضها موضوع كما يتبيّن ذلك فيما يلي:

١- أما ما يقال عن شفاعة الحجر الأسود؛ فقد ذكر الهيثمي فيما يعزّوه إلى الطبراني وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «أشهدوا هذا الحجر خيراً، فإنه يوم القيمة شافع مشفع له لسان وشافتان يشهدان له استلنه»^(١).

وهذا الحديث ضعيف لأن في إسناده راوياً مجهولاً وهو الوليد بن عباد؛ ولأنه كذلك لم يوجد حديث صحيح يثبت شفاعة الحجر الأسود من استلمه.

وتقبيل الحجر الأسود قربة واتباع للرسول ﷺ كسائر القربات المشروعة، كما يفيده قول عمر رضي الله عنه الثابت في الصحيحين: «والله إنني لأقبلك وإنني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولو لا أنني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك»^(٢).

فعمّر رضي الله عنه يقول للحجر - ويقصد بالخطاب إسماع الحاضرين -: والله إنني لأقبلك، وإنني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، أي فلا مضره ولا نفع فيك؛ بل الضرر والنفع إنما هو من الله عز وجل.

(١) مجمع الزوائد ٢٤٢/٣ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه الوليد بن عباد وهو مجهول وبقية رجاله ثقات».

(٢) البخاري ١٦٢/٢، ومسلم ٤٠٦/٣.

وقد قال عمر رضي الله عنه هذا القول لأن الناس يومئذ كانوا كما يقول الطبرى: «حدبى عهد بعبادة الأصنام، فخشى عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر هو مثل ما كانت العرب تفعله، فأراد عمر أن يعلم أن استلامه لا يقصد به إلا تعظيم الله عز وجل، والوقوف عند أمر نبيه ﷺ، وأن ذلك من شعائر الحج التي أمر الله بتعظيمها وأن استلامه مخالف لفعل الجاهلية في عبادتهم للأصنام؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله عز وجل زلفى، فنبه عمر على مخالفته هذا الاعتقاد، وأنه لا ينبغي أن يبعد إلا من يملأ الضرر والنفع وهو الله جل وعلا»^(١)، فإذا لم يكن له مزية غير ما تقدم فإن القول بشفاعة يحتاج إلى نص يثبته.

٢- بطلان القول بشفاعة من قرأ «قل هو الله أحد» ألف مرة :

وفي هذا يروى عن يزيد الرقاشي قال: قال رسول الله ﷺ: «جائني جبريل في أحسن صورة ضاحكاً مستبشرًا فقال: يا محمد، العلي الأعلى يقرئك السلام، ويقول إن لكل شيء نسباً، ونسبتي قل هو الله أحد، فمن أتاني من أمتك قارناً بقل هو الله أحد ألف مرة من دهره لزمه داري، وإقامته^(٢) عرضي، وشفعته في سبعين ممن وجبت عقوبته، ولو لا أني آليت على نفسي: كل نفس ذاتفة الموت، لما قبضت روحه»^(٣).

ولكن هذا الحديث ذكر السيوطي أن في إسناده مجاشع بن عمرو وهو أحد الكذابين، وقد سبق بحث شفاعة القرآن، وقد نبهت على بطلان هذه الشفاعة لاعتقاد كثير من الناس صحتها.

(١) القرى لفاصد أم القرى ص ٢٨١.

(٢) هكذا النص وهو غير واضح.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنشور ٤١٢/٦، وعزاه إلى ابن النجار في تاريخ بغداد.

بطلان القول بشفاعة الأشخاص مثل المؤذنين والحجاج:

١ - المؤذنين.

٢ - الحجاج.

شفاعة المؤذنين: هذه الشفاعة غير الثابتة يستدل القائل بها بما يروى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أول من يشفع يوم القيمة الأنبياء ثم الشهداء ثم المؤذنون»^(١).

قال الهيثمي: «قلت: رواه ابن ماجه باختصار المؤذنين، وهذا الحديث فيه عنبرة بن عبد الرحمن الأموي قال عنه ابن حجر: إنه متروك ومتهم بالوضع؛ فقد ترجم له بقوله: «عنبرة بن عبد الرحمن بن عنبرة... وهذا متروك رماه أبو حاتم بالوضع»، وبهذا لا يتم الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت شفاعة المؤذنين. والنفي هنا إنما هو تخصيصهم بالشفاعة وإلا فهم داخلون في عموم شفاعة المؤمنين بعضهم بعض».

أما الشهداء والأنبياء الذين ذكروا في هذا الحديث فإن شفاعتهم ثابتة كما سبق.

ومن أدلةهم كذلك ما جاء عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذن سنة لا يطلب عليه أجرًا دعي يوم القيمة، ووقف على باب الجنة فقيل له: اشفع لمن شئت»^(٢).

هذا الحديث ذكره السيوطي في الجامع الصغير وعزاه إلى ابن عساكر

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٨١/١٠ مسندًا له إلى البزار.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٤٤٣/٢.

(٣) الجامع الصغير ١٦١/٢، ورمز لضعفه.

وهو حديث غير صحيح لأن فيه موسى الطويل، ومحمد بن مسلمة والأول كذاب والثاني غاية في الضعف.

قال ابن الجوزي عن هذا الحديث: «هذا حديث لا يصح، موسى الطويل كذاب، قال ابن حبان: زعم أنه رأى أنساً وروى عنه أشياء موضوعة، ومحمد بن مسلمة غاية في الضعف»^(١). وقد ذكر الشوكاني الحديث ثم قال: «في إسناده وضاع»^(٢).

وقد أورد السيوطي حديثاً طويلاً عن أبي هريرة وابن عباس جاء فيه: «ومن تولى أذان مسجد من مساجد الله يريده بذلك وجه الله أعطاه الله ثواب أربعين ألف نبي، وأربعين ألف ألف صديق، وأربعين ألف ألف شهيد، ويدخل في شفاعته أربعين ألف ألف أمة، كل أمة أربعون ألف ألف رجل، وله في كل جنة من الجنان أربعون ألف ألف مدينة، في كل مدينة أربعون ألف ألف قصر»^(٣) إلخ الحديث.

وهو حديث طويل. قال ابن حجر: «هذا موضوع اختلقه ميسرة بن عبد ربه فقبحه الله فيما افترى»^(٤).

شفاعة الحجاج لأهاليهم:

هذه الشفاعة يستدل من يثبتها بما أخرج البزار عن أبي موسى رفعه إلى

(١) العلل المتنائية في الأحاديث الواهية ٣٩٧ / ١.

(٢) الزوائد المجموعة ص ٢١.

(٣) الآلائق المصنوعة ٣٧٠ / ٢.

(٤) المطالب العالمية ٦٩ / ١.

النبي ﷺ أنه قال: «الحاج يشفع في أربعينات أهل بيته». أو قال: من أهل بيته، ويخرج من ذوبه كيوم ولدته أمه^(١).

وهذا الحديث ذكره الهيثمي وعزاه إلى البزار، وقال بعد أن ذكره: «رواه البزار وفيه من لم يسم»^(٢)، فالحديث فيه رواة مجهولون.

ويستدللون كذلك بما يروى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان عشيّة يوم عرفة أشرف الرّب عز وجل من عرشه إلى عباده فيقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبادي شعثاً غيراً قد أقبلوا يضربون إلى من كل فج عميق، أشهدكم أنني قد شفعت محسنهم في مسيئهم، وأنني قد غفرت لهم جميع ذنوبهم، إلا التبعات التي بينهم وبين خلقي»، قال: فإذا أتوا المزدلفة وشهدوا جماعات أتوا من فرموا الجمار، وذبحوا وحلقوا ثم زاروا البيت، يا ملائكتي أشهدكم أنني قد شفعت محسنهم في مسيئهم، وأنني قد غفرت لهم جميع ذنوبهم، وأنني قد خلفتهم في عيالاتهم، وأنني قد استجبت لهم جميع ما دعوا به، وأنني قد غفرت لهم التبعات التي بينهم وبين خلقي وعلى رضاء عبادي^(٣).

وهذا الحديث في سنته إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب قال فيه أبو زرعة: «كان يكذب، يحدث عن مالك وأبي معاشر بأحاديث موضوعة، رأيته بالكوفة، قال: وسئل أبي عنه فقال: كان يكذب، كان يقعد في طريق قبيصة فإذا مررنا به قال: من أين جئتكم؟ قلنا: من عند قبيصة، قال: إن شئتم حدثكم بما كتب عنني أحمد بن حنبل: ولم يكتب عنه

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار / ٤٠ .

(٢) مجمع الزوائد / ٣ / ٢١١ .

(٣) أخبار أصفهان لأبي نعيم / ١٤٨ ، ٢ / ٣٤١ .

شيئاً»^(١).

وأورد السيوطي من حديث طويل عن أبي هريرة وابن عباس مرفوعاً: «ومن خرج حاجاً أو معتمراً فله بكل خطوة حتى يرجع ألف ألف حسنة، ومن حمل ألف ألف سينية، ورفع له ألف ألف درجة، وله عند ربه بكل درهم ينفقه ألف ألف درهم، وبكل دينار ألف ألف دينار، وبكل حسنة يعملها ألف ألف حسنة حتى يرجع، وهو في ضمان الله فإن توفاه أدخله الجنة، وإن رجعه رجعه مغفوراً له مستجاباً له، فاغتنموا دعوته إذا قدم قبل أن يصيب الذنب فإنه يشفع في مائة ألف رجل يوم القيمة»^(٢).

والحديث طويل، قال الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث : إنه للحارث، وهو موضوع^(٣).

وهناك أحاديث أيضاً في إثبات هذه الشفاعة لا نرى التطويل بذكرها لعدم صحتها؛ وبالتالي عدم صحة ما ورد في إثبات شفاعة الحاج في أهل بيته أو في سبعين من أهل بيته، أو في مائة ألف رجل، أو فيمن شفع فيهم. ومعلوم أن الحاج إذا كان صالحًا فإن شفاعته تثبت بعموم ما ورد في الصحيح من شفاعة المؤمنين بعضهم في بعض دون تخصيصه بجزء من الشفاعة.

* * *

(١) الجرح والتعديل للرازي ٢/٢١٤.

(٢) الألائل المصنوعة ٢/٣٧٢.

(٣) المطالب العالية ١/٣١٤.